الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الإخوة منتوري

قسنطينة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

الطفل في الرواية المغاربية

- مقاربة موضوعاتية -

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب الحديث والمعاصر

إعداد الطالب

يوسف عطية

إشراف الأستاذ الدكتور:

رشيد قريبع

لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور. محمد بن زاوي	جامعة الإخوة منتوري – قسنطينة	رئيسا
الأستاذ الدكتور. رشيد قريبع	جامعة الإخوة منتوري – قسنطينة	مشرفا ومقررا
الأستاذة الدكتورة. آمال لواتي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة	عضوا مناقشا
الأستاذة الدكتورة. شادية شقروش	جامعة العربي التبسي – تبسة	عضوا مناقشا
الدكتورة. زهيرة بولفوس	جامعة الإخوة منتوري – قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2015-2016

بسم الله الرحمن الرحیم

إهداء

إلى الوالدين الكريمين

إلى الزوجة الغالية

إلى أبنائي: حسام عبد الكريم – بلقيس – سلامة

إلى إخوتي وأخواتي

إلى كل الأصدقاء

مقدمة

مُقَدِّمَة

لقد اخترت الطفل لما تحظى به الطفولة من أهمية على مستوى الحياة البشرية، ولما تحظى به من اهتمام على مستوى كثير من الحقول المعرفية، والأهم من ذلك أنها محور بعض الاهتمامات الإبداعية، فموضوع الطفولة يكون أكثر إغراء حين يسترعي اهتمام المبدعين بشتى أصنافهم، لاسيما أولئك الروائيين الذين يتبنّون رؤية قصدية مميزة، تحيل إلى الطفولة بمواضيعها وعلاقاتها ومواقعها وأفكارها الباذخة. وقد اخترت السرد الروائي لاعتقادي بأنه من أكبر الأشكال الأدبية استحضارا للطفولة، ومن أقدرها على استيعاب خصوبة موضوع الطفولة، ولاعتقادي بما يزخر به السرد من إمكانيات فنية ودلالية باذخة، تؤهّل لدراسة الطفل في الرواية دراسة نقدية تيماتية.

لكي يكون طفل الرواية موضوعا لدراسة نقدية كاملة يجب أن يكون الطفل المستهدف بالدراسة هو ذاك الطفل الذي يحظى بحضور ملح على مستوى الوعي المبدع، كما أن الطفل خارج السرد الروائي هو موضوع، ويتحول الطفل إلى ظاهرة بمعناها الفينومينولوجي داخل السرد، حين يتواصل معه الوعي المبدع ويقصده ويحيل إليه، وذلك يحيلنا إلى محور اهتمامي في هذه الدراسة، حيث إن الطفل كموضوع لا يهم، بقدر ما يهم حقولا معرفية أخرى، أما الطفل الذي يستحوذ على اهتمامي البحثي هو الطفل كظاهرة وكعلاقات قصدية وأفكار ملحة، ولذلك لا يكون الطفل المستهدف بالدراسة أي طفل، وإنما هو الطفل كظاهرة وكفكرة ملحة على مستوى الوعي المبدع.

ولعل المنهج النقدي الذي يؤهّل لدراسة محتويات الوعي، ولدراسة الظواهر والأفكار الملحة هو المنهج التيماتي، الذي يهتم برصد أنظمة إنتاج الظواهر والأفكار الملحة على مستوى الوعي، ومن هنا تكمن قيمة المقاربة التيماتية، ويكمن سبب اختياري لهذه المقاربة حيث تبنّيت المقاربة التيماتية بخلفياتها الفلسفية الفينومينولوجية، متوخيا رصد الطفل في الرواية المغاربية – لا كصورة سطحية أو مجرد شخصية سردية، أو فكرة تحيل إلى الأسيقة البيوغرافية، أو مجرد تردد إحصائي جاف – انطلاقا من رصد محتويات وعي الطفل، بكل ما يحيل إليه هذا الوعي من علاقات ومواقع وأفكار وأحلام وهواجس وغيرها، منطلقا من تحديد أهم التيمات المرتبطة بالطفولة، باعتبار أن التيمة هي "نظام إنتاج الأفكار الملحة

على مستوى الوعي"؛ أي أن الدراسة النقدية تتوخى رصد "تيمة الطفولة" باعتبارها نظاما لإنتاج الأفكار الملحة على مستوى وعي الطفل.

لقد توخيت رصد محتويات وعي الطفل بالطفولة، لأن وعي الطفل يحيل مباشرة إلى الوعي المبدع، ولأن وعي الطفل بالطفولة هو وعي مركزي يحيل إلى كل التفاصيل والمواقع والعلاقات والرؤى الغيرية، وإلى كل الأسيقة المرتبطة بالطفولة، ولأن رصد أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى وعي الطفل يتطلب استقصاء كل ما يحيط بالطفولة، ويتطلب رصد كيفيات استبطان الطفولة على مستوى وعي الطفل، وعلى مستوى وعي الغير.

لذلك أنطلق في دراستي من وعي الطفل بالطفولة، باعتباره محور البحث النقدي وباعتباره إحالة كافية لأنظمة إنتاج الطفولة فكرة ملحة على مستوى الوعي، سواء أكان هذا الوعي هو الوعي المبدع، أم وعي الغير، أم وعي الطفل.

لعل أفضل ما يترجم الوعي بالطفولة هو الأفكار الملحة، باعتبارها التجلي الذي يحيل إلى أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، لذلك تكون هذه الأفكار الملحة هي مفتاح الولوج إلى الوعي في علاقته بالطفولة، ومفتاح رصد أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، وتكون الدراسة التيماتية للطفل مرتبطة بحدود هذه الأفكار الملحة، وبحدود النص اللغوية.

وبما أن الوعي في علاقته بالطفولة ليس مستقرا، وعلاقاته القصدية متحولة ومتغيرة حسب المعطيات التي تطرأ عليه، فقد كان لزاما رصد تحولات الوعي بالطفولة في إطار رصد أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، بكل ما تحيل إليه هذه الأنظمة من تحولات وتغيرات.

وبما أن الوعي بالطفولة ليس معطى جاهزا، فإن الدراسة التيماتية تتجاوز الوصف السطحي إلى تولّج أعماق النص، وفك الشفرات، وملأ الفراغات والفجوات، وإعادة إنتاج النص، وبذلك يكون التأويل بمختلف مستوياته حاضرا، لكنه تأويل مرتبط بقوانين التيمة ومرتبط بالحدود النصية، وبالمؤشرات السردية، وبنوع من التبرير الممكن.

اخترت مدونتي من الروايات المغاربية التي يتميز فيها الطفل بحضور ملح وبطاقات انتشارية واضحة، تؤهّل للدراسة التيماتية، وتؤهّل لرصد محتويات الوعي بتحولاته وبتشعب أفكاره وعلاقاته، وبما أن إحاطة الطفل بدراسة تيماتية شاملة في عدد كبير من الروايات المغاربية تبدو غير ممكنة من خلال بحث واحد، فقد كان من الضروري رصد الطفل رصدا تيماتيا من خلال دراسة عدد محدد من الراويات المغاربية، باعتبارها نموذجا يحيل إلى بعض تجليات الطفل في الرواية المغاربية، ولذلك انتقيت سبع روايات مغاربية، هي تلك الروايات التي يحضر فيها الطفل حضورا مكثفا.

انتقيت من كل دولة مغاربية روايتين، فوقع اختياري على روايتين تونسيتين هما: رواية "حنة" لمحمد الباردي، ورواية "أطفال بورقيبة" لحسن بن عثمان، وعلى روايتين مغربيتين هما رواية "حب وبرتقال"، ورواية "رجال وكلاب" لمصطفى لغتيري، وعلى روايتين جزائريتين هما: رواية "البزاة" لمرزاق بقطاش، ورواية "هموم الزمن الفلاقي" لمحمد مفلاح، أما موريتانيا فلم يسعفني الحظ – بعد الاتصال بالسفارة الموريتانية في الجزائر – إلا بالحصول على رواية واحدة هي رواية "الأسماء المتغيرة" لأحمد ولد عبد القادر، في حين أني لم أستطع الحصول على أية رواية ليبية لسببين أساسيين؛ أولهما أنه يندر وجود رواية ليبية يحضر فيها الطفل حضورا كافيا يؤهّل للدراسة التيماتية، ولرصد محتويات الوعي بإمكانياته الهائلة، لأن مجرد الإشارة للطفل في الرواية ليس كافيا لرصد تيمة الطفل رصدا تيماتيا يستلزم حضورا مكثفا للطفولة بعلاقاتها وإحالاتها ومواقعها وأفكارها المتشعبة، وثانيهما أن الأوضاع الأمنية في ليبيا صعّبت مهمة السفر إلى ليبيا والبحث في مكتباتها.

اعتمدت في دراستي على مجموعة من المراجع المتنوعة، وفق ما تقتضيه الضرورة فقط، حتى لا يتحوّل البحث إلى ترسانة من المراجع، وحتى لا تكون الدراسة مجرد تواكل على جهود الغير، ومجرد إحالات كثيرة تجرّد البحث من خصوصيته وتميّزه، ولعل أهم المراجع التي اعتمدتها هي تلك المرتبطة بالفلسفة الفينومينولوجية مثل "فكرة الفينومينولوجيا" و"تأملات ديكارتية" لـ "إدموند هوسرل"، وتلك المرتبطة بالنقد الموضوعاتي مثل: "النقد الموضوعاتي" لسعيد علوش، و"سحر الموضوع" لحميد لحميداني، وتلك المرتبطة بالطفل

مثل: "علم نفس النمو للطفل" لسوسن شاكر مجيد و"تعديل وبناء سلوك الأطفال" لحافظ بطرس حافظ، وتلك المرتبطة بالتأويل والأدبية والسرد مثل: "القاريء النموذجي" لأمبرتو إيكو،. و"جماليات النص الأدبي" لمسلم حسب حسين. و"إشكاليات القراءة وآليات التأويل" لنصر حامد أبي زيد.

يتكون بحثي من مدخل وثلاثة فصول؛ خصّصت المدخل لتقديم المنهج التيماتي بمفهوميه الفلسفي والنقدي، ثم قدّمت المدونة؛ أما المفهوم الفلسفي فقد ارتبط بالجوانب الفلسفية الفينومينولوجية الأكثر حضورا في النقد التيماتي والأكثر تأثيرا فيه، وأما مفهوم النقد التيماتي فيرتبط برصد المفاهيم النقدية التي من شأنها تحديد أهم أسس النقد التيماتي، بغية استيعاب جوهر الممارسة النقدية التيماتية، أما تقديم المدونة فكان عبارة عن تلخيص لأهم تجليات الطفل على مستوى المدونة.

الفصل الأول موسوم بـ "تيمة الطفولة السلبية"، حيث توخيت في هذا الفصل رصد كيفيات إنتاج الطفولة كظاهرة داخل الوعي، في تجلياتها على شكل أفكار ملحة تحيل إلى الرؤية السلبية للطفولة، انطلاقا من رصد "تيمة الطفولة السلبية" باعتبارها نظاما لإنتاج الطفولة فكرة ملحة سلبية على مستوى الوعي، و"تيمة الطفولة السلبية" تتكون من تيمات فرعية (أنظمة فرعية لإنتاج الأفكار الملحة) هي "تيمة الطفل العبد" – "تيمة الطفل اللقيط" – "تيمة الطفل الخجول".

الفصل الثاني موسوم بـ "تيمة الطفولة الإيجابية"، حيث توخيت في هذا الفصل رصد نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة إيجابية على مستوى الوعي، وهذا النظام يتكون من أنظمة فرعية لإنتاج أفكار ملحة إيجابية على مستوى الوعي، أي أن تيمة الطفولة الإيجابية تتكون من تيمات فرعية هي التيمات التالية: "تيمة الطفل الجميل" – "تيمة الطفل المسؤول" – "تيمة الطفل الخجول".

أما الفصل الثالث فوسمته بـ "بويطيقا التيمة وغواية التأويل"، وتوخيت في هذا الفصل رصد الإمكانيات الجمالية التي يمكن أن ينتجها نظام إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، باعتباره نظاما معقدا يتيح على مستوى التلقي كثيرا من إمكانيات التأويل والتنقيب

والقراءة، وقد استهدفت بالدراسة في هذا الفصل "الأدبية" التي تنتج عن العلاقة بين التيمة الأساسية "تيمة الطفولة" والتيمات التالية: "تيمة الصور الملحة" – "تيمة المكان" – "تيمة العنونة" – "تيمة الفوضى"، باعتبارها أهم التيمات التي ارتبطت بالتيمة الأساسية ارتباطا جماليا بارزا، وفي خاتمة البحث أومأت إلى أهم النتائج والملاحظات.

لعل أهم الصعوبات التي واجهتني تكمن في ضرورة الاطلاع على عدد كاف من الروايات المغاربية المرتبطة بالطفل، وما تحتّمه هذه الضرورة من سفر وعناء بحث لاختيار روايات يحضر فيها الطفل حضورا يؤهّل للدراسة، واختيار روايات لم يستهلك فيها الطفل بدراسات نقدية سابقة، كما أن المقاربة التيماتية فرضت نوعا من الصعوبة، باعتبارها مقاربة تحتاج لكثير من التمعن والتنقيب، ولعل عسر المقاربة التيماتية اتضح بجلاء على مستوى التطبيق، لاسيما أن الدراسة التطبيقية ارتبطت بالوعي، بكل ما يحيل إليه هذا الوعي من غموض وتعقيد، خاصة أن النقد التيماتي يستمد خلفيته الفلسفية من فينومينولوجيا "هوسرل" التي مازال يكتنفها كثير من الغموض، لأن "هوسرل" نفسه لم يحدّد وسائل إجرائية واضحة تبرّر توجهاته النظرية، وتسهّل تطبيقها، كما أن رواد النقد التيماتي أنفسهم تختلف ممارساتهم النقدية، ولا يتفقون على رؤية نقدية واحدة، ولذلك كان من الضروري أن أتبنّى رؤية محدّدة للنقد التيماتي بعد عسر البحث والتنقيب ومحاولة تحديد وسائل إجرائية تؤهّل لخوض غمار الدراسة التطبيقية.

في نهاية هذه المقدمة لا يسرّني إلا أن أتوجه بأسمى آيات الامتنان والعرفان والتقدير لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور "رشيد قريبع" الذي يسّر لي سبل البحث، ودعمني دعما كاملا، ووهبني كثيرا من آلاء التوجيه والإرشاد والتشجيع، ولولاه لما أنجزت هذا البحث.

أولا: تقديم المنـهج:

توخيا للموضوعية، ولتحقيق الأهداف يستلزم النظر في النقد التيماتي (الموضوعاتي) كثيرا من التثبت والتمحيص والحذر، حتى لا يكون الحديث عن النقد التيماتي متشعبا تشعبا يهدر قيمة البحث، ويولجنا في تحقيقات نظرية لا تتجاوز النقل الحرفي لما قيل عن النقد التيماتي، نقلا مغلوبا على أمره، مثقلا بالاجترار وتكديس الضروري وغير الضروري، وهذا لا يعني الاستغناء عن النقل، وعن محاولات الوفاء للمرجعيات النظرية، وعن توخي الدقة العلمية والموضوعية، ولكنه يعني تجنب الخوض المسهب في معطيات نظرية كثيرة، قد لا يحتاجها البحث، ولا تعير الدراسة التي نحن بصددها إلا نوعا من الحشو السلبي، وتذبذبا في الرؤية النقدية، فارتأينا أن يكون تقديم النقد التيماتي تقديما يقتصر على تلك المفاهيم الضرورية والمحورية التي تحتاج إليها الدراسة احتياجا ملحا، والتي لا يمكن الاستغناء عنها لتكون المرجعية النظرية مرتبطة بعض الارتباط بالممارسة النقدية، عن طريق تقديم ما نعتقده من صميم النقد التيماتي، من مفاهيم فلسفية ونقدية لها علاقة وطيدة بالممارسة النقدية التيماتية.

أما المفهوم الفلسفي فهو ضروري جدا، ذلك أنه لا وجود لنقد تيماتي دون فلسفة فينومينولوجية، حيث إن البعد الفلسفي الفينومينولوجي في النقد الموضوعاتي من أهم ما يميز رواد النقد التيماتي، الذين كانوا تيماتيين عندما استلهموا هذه الفلسفة وتأثروا بها، لذلك يكون تقديم المفهوم الفلسفي مرتبطا بالجوانب الفلسفية الأكثر حضورا في النقد التيماتي وتأثيرا فيه، وإن كنا نعتقد أن النقد التيماتي هو في حد ذاته فلسفة فينومينولوجية، لأننا في ممارساتنا النقدية لا نكاد نفرق بين الفلسفة الفينومينولوجية والنقد التيماتي إلا من حيث إن الفلسفة الفينومينولوجية نظرية عامة، أما النقد التيماتي فهو ممارسة نقدية تختص بالإبداع الأدبي، فكان الحديث عن المفهوم الفلسفي في النقد التيماتي هو نفسه المعتقدات الفينومينولوجية التي تبنّيناها في الممارسة النقدية التيماتية المرتبطة بالخصوصية الأدبية.

أما المفهوم النقدي: فيرتبط أساسا برصد أهم المفاهيم النقدية التي من شأنها تحديد هوية النقد التيماتي، من ناحية الجوانب المتعلقة بعلاقة التيماتية بالأدب، وبحدود الرؤية

التيماتية للآثار الأدبية، حتى يتسنّى استيعاب جوهر الممارسة النقدية التيماتية، وتحديد اهتماماتها المحورية، وهذا المفهوم النقدي سيراعي هو الآخر تلبية حاجات البحث وخصوصية الممارسة النقدية التطبيقية، حيث نستحضر في المفهوم النقدي أهم المفاهيم التي يحتاجها البحث، والتي ترتبط به ارتباطا وثيقا. ولسنا مضطرين للخوض في كل تفاصيل مفاهيم النقد التيماتي التي يكون رصدها من باب الحشو والتكديس فقط، وحتى لا يهيمن الجانب النظري بنمط يجعل من التيماتية موضوعا خاصا مستقلا، يحيد بالدراسة عن أهدافها ويوقعنا في شرك أزمة نظرية نحن بمنأى عنها، ذلك أن التيماتية تيماتيات، وأقطاب النقد التيماتي في حد ذاتهم تختلف ممارساتهم النقدية ومفاهيمهم التيماتية[1] لهذا يتوخى المفهوم النقدي – في هذا السياق – التحديد المرتبط بتيماتية واحدة، هي التيماتية المتبناة في هذا البحث، دون الخوض في سنّة الاختلاف التي تحتاج إلى دراسة أخرى قائمة بذاتها ومختصة في ذلك، فكانت المفاهيم التي سنرصدها هي نفسها التي نتبناها في ممارستنا النقدية التيماتية، وفي ذلك سعي لتحديد التيماتية، وسعي لتجاوز فكرة الغموض وتجاوز تلك المحاولات النقدية التيماتية الفاشلة التي توعز كل مظاهر الإخفاق لغموض التيماتية واختلاف الرواد، وأصبح من اليسير وصف بعض الدراسات بالدراسات التيماتية، حتى ولو كانت مجرد إحصاء جاف، وأصبحت كل المناهج النقدية حاضرة بحجة انفتاح النقد التيماتي على كثير من المناهج، ونخالها حجة واهية، لأن النقد التيماتي لا ينفتح على المناهج النقدية الأخرى انفتاحا يهدر هويته وخصوصيته وتميزه، ولا يمكن لأي دراسة أن تكون تيماتية، كما لا يمكن لكل المناهج أن تمتلك حق التطفل، إلا من باب ما يخدم الرؤية التيماتية، ولعل هذا الخلط ناجم عن عدم تحديد الرؤية التيماتية، وتركها دائما هائمة بمفهومات عامة تحيل إلى كل الإمكانيات، مع أن التحديد ضرورة علمية لامناص منها.

---

[1] ينظر: برجيز، دانييل. النقد الموضوعاتي. مجموعة من الكتاب. مدخل إلى مناهج النقد الأدبي. ترجمة: رضوان ظاظا. عالم المعرفة. العدد 221. مايو 1997(م). ص 131.

أ – المفهوم الفلسفي:

النقد التيماتي يدين بكثير من خلفياته الفلسفية والفكرية لتلك الجهود التي بذلها الألماني "إدموند هوسرل" (Edmund Husserl) في سياق فلسفته الفينومينولوجية (الظاهراتية)، فكان من الجدير في هذه الدراسة أن نميط اللثام عن بعض المفاهيم الفينومينولوجية التي استفاد منها النقد التيماتي وتبنّاها.

الفينومينولوجيا (La phénoménologie): «قام هوسرل بتعريف الفينومينولوجيا تعريفات متعددة، خلاصتها أن الفينومينولوجيا علم كلي شامل ومنهج فلسفي وصفي جديد وهي الفلسفة الأولى، هدفها إدراك الماهيات في الشعور»[2] حيث تهتم الفينومينولوجيا بدراسة الحقائق كما تبدو للمتلقي، وكما تظهر له، وتهتم بوصف الظواهر وصفا خالصا، بغية تحديد ماهيتها، معتبرة الوجود ظاهرة تتأسس في الوعي، ذلك أن الوجود خارج نطاق الوعي «يجب أن يوصم بأمارة العدم»[3]، ولذلك يعتبر ما هو خارج الوعي موضوعا، وهذا الموضوع عندما يعرفه الوعي ويرتبط به ويقصده عن طريق أفعال كثيرة كالتفكير والحدس والتخيل والإدراك يتحول إلى ظاهرة، وبالتالي تولي الفينومينولوجيا اهتماما كبيرا بالظواهر ورصد «خصائصها الجوهرية كما هي ماثلة في الشعور»[4] من أجل اكتناه ماهيتها ورصد صفاتها رصدا علميا هذه الماهية في النهاية هي موضوع الفينومينولوجيا الذي تعنى بدراسته، لذلك وصفت الفينومينولوجيا بعلم الماهية، لأنها تهتم بدراسة الماهيات على مستوى الوعي، وفي هذا السياق يقول "هوسرل": «يجب قبل كل شيء أن أنشيء فينومينولوجيا ماهوية»[5]

يعتبر مفهوم القصدية من أهم المفاهيم الفينومينولوجية، والذي يعني أن كل وعي لا يحقّق وجوده إلا بالإحالة إلى موضوع ما، والارتباط به عن طريق أفعال الوعي المختلفة

---

[2] رافع محمد، سامح. المذاهب الفلسفية المعاصرة. الطبعة الأولى. مصر: مكتبة مدبولي، 1973 (م). ص 107.

[3] هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. ترجمة: فتحي انقزو. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة، 2007 (م). ص 35.

[4] كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الحديثة. الطبعة الخامسة. القاهرة، مصر: دار المعارف، د ت. ص 460.

[5] هوسرل، إدموند. تأملات ديكارتية. ترجمة: تيسير شيخ الأرض. د ط. بيروت، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر، 1958 (م). ص ص 173، 174.

كالتخيل مثلا «أي أنها تقصد شيئا ما وتتعلق بهذا النحو أو ذاك بموضوع»[6] والموضوع تصدق عليه الملاحظة ذاتها، إذ لا يمكن أن يحقق الموضوع وجوده إلا عن طريق إحالته إلى وعي ما، والارتباط به ارتباطا قصديا، لتكون القصدية بذلك نمطا من الإحالة المتبادلة التي تؤسس علاقة الذات بالموضوع، وانطلاقا من مفهوم القصدية حاولت الفينومينولوجيا «حل مشكلة العلاقة بين فعل الإدراك من جهة، والموضوعات المدركة من جهة أخرى وبيان كيف يتم الالتقاء بينهما»[7] فاهتمت بتلك العلاقات القصدية والإحالات المتبادلة بين الذات والموضوع، وبين الشعور وموضوعاته؛ هذه الخاصية هي التي تخرج الشعور من سلبيته ومن حالات الخواء لتجعله شعورا بشيء ما، ووعيا بموضوع ما: «إن كلمة قصدية لا تعني شيئا آخر غير هذه الخاصية العميقة والعامة التي تجعل الشعور شعورا بشيء ما»[8].

للفلسفة الفينومينولوجية عدة أسس لعل أقمنها بالذكر ما يلي:

– **تعليق الحكم:** يقول "هوسرل": «يجب أن يوضع وجود العالم موضع التعليق»[9] ووضع العالم موضع التعليق ليس معناه إلغاء العالم الخارجي إلغاء نهائيا وعدميا، بل يعني وضع التاريخ بكل معتقداته وآرائه وأحكامه المسبقة بين قوسين، وغض النظر عنه من جهة ومن جهة أخرى وضع الوجود بين قوسين، واكتناه الماهيات داخل الوعي، بعيدا عن وجودها خارج الوعي[10] لذلك لا تهتم الفينومينولوجيا بالعالم الخارجي بعيدا عن الوعي، بل تهتم بالعالم متضايفا في الشعور، أما العالم الخارجي كوجود فهي لا تلغيه، بل لا تهتم به إلا عندما يقصده الوعي ويحوله إلى ظاهرة، «ولهذا فإن العالم كله المحيط بي ليس غير (ظاهرة وجود) وليس عالما موجود اليقين»[11] وبذلك يعني وضع العالم موضع التعليق عدم التقيّد بأي حكم سابق حول طبيعة العالم الخارجي من جهة، والبحث من جهة ثانية في الظواهر

---

[6] هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. ص 94.

[7] رافع محمد، سامح. المرجع السابق. ص 103.

[8] هوسرل، إدموند. تأملات ديكارتية. ص 103.

[9] المرجع نفسه. ص 45.

[10] ينظر: كامل، فؤاد. أعلام الفكر الفلسفي المعاصر. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الجيل، 1993 (م). ص 166.

[11] المرجع نفسه. ص 163.

والماهيات، بغض النظر عن الوجود البعيد عن الوعي، فـ «تكون الأشياء الوحيدة المعطاة لنا حقيقة هي (الظواهر)، وليس الوجود – أو الشيء في حد ذاته»[12].

– **الاختزال الصوري (الرد الماهوي):** يتبنّى فيه الفينومينولوجي كثيرا من التجريد وفيه «نرد الوقائع الجزئية أو الفردية إلى الماهية الكلية، فمثلا نرد أنواع الأحمر المتجلية في مختلف الأشياء الحمراء إلى ماهية (الأحمر) ونرد مختلف أفراد الإنسانية إلى ماهية الإنسان»[13] لذلك يتأسس الرد الماهوي على إهمال الأحداث الجزئية والمادية للأشياء ويكتفي باستخلاص ماهيتها الكلية، بعد تشذيبها من المتغيرات، وبعد محاولات رصد الثوابت والكليات، عن طريق الرد والتجريد، و«حدس الماهيات الكلية في الشعور»[14] ولا شك أن الفينومينولوجيا تهتم بهذا الشعور حين يكون شعورا بشيء ما، وتتوخى تحليله وتولّج أعماقه فحق أن توصف بـ «أنها علم الشعور»[15] ورغم أن الشعور فعل من أفعال الوعي مثله مثل التخيل والإدراك وغيرهما، إلا أنه من أقوى أفعال الوعي ترجمة للذات وإحالة على الماهية لذلك يعتقد البعض أن الشعور مرادف للوعي، وهذا الالتباس ناجم عن كون الشعور دائما يرتبط بموضوع ما، وهو بذلك يخرج الوعي من عدميته، عن طريق أنماط القصدية والإحالة فيكون الشعور تجليا واضحا للوعي في قصديته وفي استبطانه للظواهر والماهيات.

– **الحدس الفينومينولوجي:** «والحدس الفينومينولوجي هو الرؤية العقلية للماهيات للعلاقات والبنى الخالصة التي تنتظم الموضوعات من حيث هي أشكال وعي ذات بداهة عقلية مطلقة فالحدس هو الشكل العام لنشاط الوعي سواء تعلق بالمفرد أو بالكلي بالموضوعات أم بالدلالات، بالأفكار أم بالأحكام وهو مشروط بحدود المعطى الماثل للوعي»[16].

[12] المرجع نفسه. ص 164.

[13] المرجع نفسه. ص 166.

[14] رافع محمد، سامح. المرجع السابق. ص 109.

[15] كامل، فؤاد. المرجع السابق. ص 164.

[16] هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. ص 130.

مما سبق نجد أن الفينومينولوجيا تتوخى رصد الماهيات، وتهتم بتحليل المواضيع كظواهر تبنّاها الوعي وارتبط بها، وفق علاقات قصدية وإحالية متبادلة، بواسطة أفعال الوعي المتعددة مثل الإدراك والتخيل وغيرها، ولعل النقد التيماتي قد استعار الاهتمامات الفلسفية نفسها، مع بعض الاختلاف المنطقي بين المجال الفلسفي والمجال الأدبي، ولكن –عموما – يستمد النقد التيماتي أهم خلفياته الفلسفية من الفلسفة الفينومينولوجية التي لا يمكن أن نزعم أنه كان وفيا لها كل الوفاء على مستوى التطبيقات النقدية «وإن كان مثل هذا الاختلاف مما يتوقع حدوثه بين اتجاه فلسفي خالص وآخر نقدي جمالي»[17] كما أننا في ممارساتنا النقدية استعرنا بعض مفاهيم الفلسفة الفينومينولوجية مثل تلك التي ترتبط – خاصة – بالقصدية، وبالوعي الفينومينولوجي، وبالحدس الفينومينولوجي، وغيرها، وقد كان الوعي الفينومينولوجي محور الممارسة النقدية.

ب – المفهوم النقدي:

لاشك أن أهم ما يميز النقد التيماتي (الموضوعاتي) هو اهتمامه بالتيمة، ولذلك يستمد النقد التيماتي مشروعيته من محاولات البحث الجاد بغية رصد التيمات وتحديد محتوياتها ومواقعها، ويبدو جليا أن مفهوم النقد التيماتي يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم التيمة على مستوى العمل الأدبي، والتي يقول عنها "جون بيير ريشار" بأنها «إحدى وحداته الدلالية، أي أحد أصناف التواجد المعروفة بفعاليتها المتميزة داخله»[18] وهذا التعريف الريشاري يحيل إلى أن التيمة هي تلك الدلالة المتميزة التي تستمد تميزها من خلال فعالية حضورها، ولا يمكن أن تكون الفعالية الريشارية إلا مرادفا للهيمنة و«التردد المستمر لفكرة ما»[19] فتتحدد التيمة حسب موقعها وعلاقاتها وإحالاتها داخل النص، الذي لا يمكن أن يكون محتواه الظاهري كافيا لاكتشاف مستويات الهيمنة التيماتية «فالخطاب الحقيقي هو "ما لا

[17] الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. دليل الناقد الأدبي. الطبعة الثالثة. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2002 (م). ص 322.

[18] ريشار، جان بيير. من محاضرة ألقيت في البندقية عام 1974. نقلا عن: برجيز، دانييل. المرجع السابق. ص 113.

[19] علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م).
http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

يقال في الخطاب" لذلك فنحن ننخرط مثله في تقصي الهوامش الصامتة للغة»[20] وهذا يؤهّل للاعتقاد بأن التيمة لا يمكن أبدا أن تحضر حضورا مباشرا، وليست تفسيرا جاهزا، وليست إلا امتدادا طاغيا وانتشاريا بين الحضور والغياب، لذلك يكون التنقيب عن التيمة عن طريق رصد المواقع والعلاقات والإحالات معيارا أكثر نجاعة من معيار التنقيب عن التيمة بواسطة التكرار والإحصاء، بوصفه معيارا قد لا يصمد أمام إمكانيات التحايل والتغير والإيهام والمجاز، التي ترتبط بموهبة اللغة الإبداعية، التي تستعصي على الثبات[21]، ولذلك استبعد "ريشار" الدراسة الرياضية، واعتقد بعدم فاعليتها، ولعل المقصود بالدراسة الرياضية هو ضوابط عزل اللغة عن علاقاتها الكلية، عن طريق إقصاء الأسيقة الدلالية وإمكانيات التوالد الدلالي وعلاقات التأويل، لتصبح اللغة مجرّدة من وعيها الإبداعي، ومن طاقاتها الابتكارية ذلك أن الدراسة الرياضية تفرض تفسيرا سلطويا قد لا يحيل إلى المفهوم الحقيقي للتيمة ولهذا من الضروري أن تتحكم التيمة في معايير التكرار والإحصاء والدراسة الرياضية، وليس العكس، حينها يمكن للناقد التيماتي أن يستغني عن هذه المعايير الرياضية، لأنها ليست الوسيلة الأنجع لتحديد التيمة، لكنها يمكن أن تكون مبررا ودليلا يؤكد فعالية النتائج المرتبطة بالتيمة في النهاية.

لا يمكن أن توجد التيمة على مستوى كلمة أو صورة أو عبارة أو غيرها؛ بمعنى أن التيمة ليست وجودا حسيا، وإنما هي نظام يهندس العالم الإبداعي، ويضبط علاقاته المتباينة، ولذلك لا تكون معايير: الفعالية الريشارية، والهيمنة، والتردد المستمر، والانتشار – في الحقيقة – إلا إحالات لخصائص هذا النظام العام، وليست التيمة مجرّد فكرة ملحة بقدر ما هي النظام الذي يهندس هذه الفكرة وينتجها، ويؤهّلها للسيطرة والهيمنة؛ بمعنى أن إلحاح الفكرة على مستوى الإبداع ليس مهمّا في ذاته، بل إن النقد التيماتي يتوخى رصد النظام الذي رشّح هذه الفكرة وأتاح لها إمكانيات الإلحاح، ولذلك تكون التيمة هي «القانون

---

[20] ريشار، جان بيير. مقدمة كتاب: العالم التخييلي لمالارمي. نقلا عن: علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م). http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

[21] ينظر: برجيز، دانييل. المرجع السابق. ص 113.

الأساسي المنظم»[22] لعضوية النص، ومن هنا نشأ الغموض حول النقد التيماتي، لأن معنى التيمة بقي ملتبسا حين يرتبط فقط بالفكرة الملحة، وكأن هذه الفكرة الملحة هي نفسها التيمة يكفي إثباتها عن طريق إحصاء تجلياتها اللغوية وصورها، وتكراراتها، وقوة حضور مرادفاتها ومشتقاتها، وحقولها الدلالية، وهذا لا يعدو أن يكون قراءة للفكرة الملحة نفسها في مستويات تجليها، وما تتسم به هذه القراءة من سطحية، لأنها أغفلت الخلفيات النظامية، وتلك الأنظمة التي لا تكون الفكرة الملحة والمهيمنة إلا نتيجة للفعالية النظامية؛ هذه الفعالية النظامية هي التيمة نفسها التي تنتج الأفكار والصور الملحة على مستوى الوعي، ولذلك يستمد النقد التيماتي قيمة تميّزه من رصد النظام في حد ذاته، وليس من رصد الأفكار والصور الملحة معزولة عن النظام الذي أنتجها، لأن «الأهم، ربما هو القيمة الإستراتيجية الموضوعاتية»[23] وهذا لا يعني إهمال رصد الأفكار والصور الملحة، ولكنه يعني أن يتم رصد هذه الأفكار والصور الملحة بوصفها إحالات هامة للنظام العام الذي يهندسها وينتجها، ولا يمكن رصد هذه الإحالات إلا في سياق رصد العلاقات التي ينتجها النظام؛ تلك العلاقات التي تحدّد محتوى النظام، لذلك نعتقد أن التيمة ليست الفكرة الملحة المهيمنة في حد ذاتها، ولكنها النظام الذي أنتج هذه الفكرة الملحة على مستوى الوعي، ولهذا تفقد الدراسة الرياضية والتكرارية والإحصائية مفعولها، وتفقد أيضا الدراسة المضمونية مفعولها، لأنها لا تتجاوز مستوى الاهتمام بالفكرة المركزية الملحة ذاتها، إلى الاهتمام بالنظام الذي أنجب الفكرة ومكّن لمركزيتها وإلحاحها وهيمنتها.

إن الاهتمام التيماتي بالنظام هو نفسه الاهتمام بعلاقات إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، وهي علاقات دلالية وإحالية، وليست علاقات بنيوية؛ بمعنى أن التيمة هي عملية إنتاج التوالد الدلالي وفق نمط علائقي معين، هذا النمط العلائقي يرتبط بالنظام الذي تبنّاه الوعي لإنتاج الفكرة الملحة، باعتبار أن الفكرة الملحة تستمد دلالاتها من الوعي، ومن

---

[22] علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م).
http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

[23] ريشار، جان بيير. مقدمة كتاب: العالم التخييلي لمالارمي. نقلا عن: علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م). http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

العلاقات الإحالية التي يؤسّسها الوعي ويتواصل بها مع الموضوعات، تلك الموضوعات التي بمجرّد أن يقصدها الوعي يحوّلها إلى ظواهر وماهيات، ولذلك تكون التيمة هي إحالة للموضوع وقد حوله الوعي إلى ظاهرة: «إذا تأملنا تطبيقات المنهج الموضوعاتي الظاهري فنجد طغيان الاهتمام بالأفكار باعتبارها مظاهر للوعي»[24] وهذا ما يؤكد أن التيمة ليست هي نفسها الفكرة الملحة والمهيمنة، إنما هي النظام الذي اضطلع بصياغة هذه الفكرة الملحة، باعتبارها تجليا لظاهرة لا وجود لها خارج الوعي، ولذلك لا وجود للفكرة الملحة ما لم يستقص الناقد التيماتي الأنظمة الإنتاجية العميقة، ويتجاوز تمويه النظام الظاهري «فالنظام الظاهر ليس هو النظام الحقيقي، كما أن الكشف عن الحقيقة يثير انقلابا في المظاهر»[25].

ما دامت الفكرة الملحة ليست معطى جاهزا، والنظام الظاهري ليس نظاما حقيقيا والدراسة الرياضية عبارة عن إسقاط مجحف، فإن الناقد مضطر لإعادة إنتاج النص، لكن هذا الإنتاج على مستوى القراءة لا يكون مطلقا هكذا، بل يتوخى الناقد – دائما – رصد العلاقات والتوالدات الدلالية، ومستويات الإنتاج التيماتي التي تحيل دائما إلى فكرة ملحة ما وإن لم تكن هناك فكرة ملحة في النهاية، فيعني ذلك إخفاق القراءة الإنتاجية التي يرتبط إخفاقها – عادة – بالأخطاء الحدسية، وما ينجم عنها من سوء اختيار للمداخل النقدية وللعلاقات المحورية، ولهذا تكمن صعوبة النقد التيماتي من كونه ينطلق من حرية الافتراض ولا شيء يقيني في البداية، لأنها بدايات حدسية لا تطمئن للإحصاء أو للفكرة الجاهزة أو للنظام الظاهري، وكل ما يجب أن يضفي مشروعية على النقد التيماتي هو البراعة التأويلية التي يجب أن يتحلى بها الناقد لإنتاج الفكرة الملحة إنتاجا مبررا بعلاقاته، وبتوالداته وبإحالاته الدلالية، وبمؤشراته، وبتجاوزه للفوضى الظاهرية «ونعتقد بدورنا أن في إمكان النقد أن يجعل من اهتمامه التغلب خطوة فخطوة على الفوضى الظاهرة للعمل»[26].

---

24 لحميداني، حميد. سحر الموضوع. د ط. الدار البيضاء، المغرب: منشورات دراسات سال، 1990 (م). ص 24.

25 ريشار، جان بيير. مقدمة كتاب: العالم التخييلي لمالارمي. نقلا عن: علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م). http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

26 ريشار، جان بيير. مقدمة كتاب: العالم التخييلي لمالارمي. نقلا عن: علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م). http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

بما أن التيمة ترتبط بمستويات إنتاج الدلالات الماهوية المركزية «المشاهدة في العمل الأدبي باعتبارها مظهرا من مظاهر الوعي»[27] حيث إن كل شيء يرتبط بالوعي ويرتبط بالظواهر داخل الوعي، فإن الدراسة السوسيو- تاريخية (السياقية) تفقد وجودها، فلا تستهدف الدراسة التيماتية إلا عالم النص، بوصفة إحالة جادة للوعي «لأنه لا وجود لمعنى خارج الحرف ومبادرته وتولده وانتظامه ولذته الخاصة»[28] لذلك يهتم النقد التيماتي بالدراسة الداخلية للنص، ويخصه بالتحليل والتشريح والقراءة، ولعل هذا ما جعل "ريشار" يراهن «على المقولة الداخلية للأثر الأدبي، وسبر أغواره عبر تداعيات اللغة التي تعد المدخل الرئيس إلى استكشاف التيمات»[29] لذلك نجد النقاد التيماتيين لا يحفلون بسيرة المؤلف الحقيقي، لأن الكاتب ينتج ذاته من جديد، والأنا المبدع يبتكر هذه الذات ويتحول[30]، ويبقى اهتمام الناقد التيماتي يرتبط بالنص الإبداعي: «ويعود إليه إنه يحل فيه من أجل أن يبنيه ويعيد بناءه حتى يستقر على النحو الذي يرتضيه»[31] ولعل هذا ما أومأ إليه "سعيد علوش" حين تحدث عن «استحالة الكشف الموضوعاتي خارج حقله الدلالي»[32]

مما سبق يتجلى أن النقد التيماتي هو النقد الذي يقصر اهتمامه على النص، ويعتبر اللغة الإبداعية المولج النقدي الوحيد، وهو نقد يتوخى إعادة إنتاج النص، ورصد علاقات وإحالات الأنظمة الإنتاجية التي أنتجت الأفكار الملحة، باعتبار أن هذه الأفكار الملحة ليست أفكارا جاهزة، بل هي أفكار تكتنفها الفوضى الظاهرية، ولا توجد إلا على مستوى الوجه الخفي للنص، ولا تنتج إلا عن طريق علاقات وإحالات وتوالدات دلالية تعكس النظام

[27] حمداوي، جميل. المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي. موقع:
http://www.arabicnadwah.com/articles/muqaraba-hamadaoui.htm

[28] ريشار، جان بيير. مقدمة كتاب: القراءات المصغرة. نقلا عن: علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م). http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

[29] يوسف، أحمد. القراءة النسقية. سلطة البنية ووهم المحايثة. الطبعة الأولى. الجزائر: الدار العربية للعلوم، 2007 (م). ص 357.

[30] ينظر: برجيز، دانييل. المرجع السابق. ص ص 99، 100.

[31] حسن، عبد الكريم. المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق. الطبعة الثالثة. بيروت، لبنان: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2006 (م). ص 112.

[32] علوش، سعيد. النقد الموضوعاتي. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م).
http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

العام الذي يهندس إنتاج الفكرة الملحة، والناقد يعتمد في كشف النظام العام على الحدس في البداية، لكنه يحاول دائما أن يبرر حدسه عن طريق الظفر بفكرة ملحة ينتجها النظام.

إن التيمة هي نظام إنتاج الفكرة الملحة على مستوى الوعي، وليست الفكرة الملحة في حد ذاتها، لأن هذه الأخيرة هي التجلي النهائي للأنظمة الإنتاجية، ولذلك يمكن الإشارة للتيمة على أنها الفكرة الملحة أو الخلية الرحمية أو الفعالية الدلالية والهيمنة وغيرها من باب المجاز، ولذلك فإن مصطلح "التيمة" في هذه الدراسة يراد به نظام إنتاج الفكرة الملحة على مستوى الوعي، فمثلا "تيمة الطفولة" لا تعني الطفولة كفكرة ملحة في حد ذاتها، بقدر ما تعني النظام الذي أنتج الطفولة فكرة ملحة على مستوى الوعي، ولهذا يتوخى النقد التيماتي رصد التيمات بوصفها أنظمة إنتاجية للصور وللأفكار الملحة كما يتبناها الوعي، وبذلك تكتسي التيمة دلالة أكثر وضوحا، وهي تلك التي ترتبط بالنظام الإنتاجي داخل الوعي، وما يحيل إليه هذا النظام من علاقات قصدية، وإحالات متبادلة، وتوالدات دلالية، وشبكات التواصل، وحقائق ماهوية، وكل ما يمكنه أن يكوّن نظاما له مميزاته ومبرراته، ولهذا يكون النقد التيماتي هو دراسة الأنظمة على مستوى الإبداع التي أنتجت الأفكار المهيمنة والملحة إنتاجا لا يخرج عن حدود الوعي.

وبما أن الناقد ينطلق من النص لاستكناه الأنظمة الإنتاجية، فإن الفكرة الملحة المهيمنة ليست حقيقة أولية جاهزة، بل هي نتيجة ختامية قد تتناقض مع المعطيات النصية الظاهرية، وقد تؤيّدها، لكنها في النهاية ترتبط بنظام جديد ليس مرتبطا بمستوى الوعي المبدع فقط أو بمستوى وعي القراءة فقط، وإنما هو مرتبط بمستوى التقاء وتواصل وعيين هما وعي المبدع ووعي الناقد، والمقصود بوعي المبدع هو الوعي داخل النص وليس خارجه، والأمر سيان بالنسبة لوعي الناقد، لأنه يتغير لمجرد تواصله مع النص، لذلك لا يمكن أن تكون الفكرة الملحة إلا متوارية في كل الأحوال، وضمنية لا تطفو على السطح، ولا تظهر إلا بعد رصد الأنظمة الإنتاجية التي تنتجها وتبتكرها، ولا ينطلق الناقد إلا من يقين مفاده أن لكل نص أنظمته الإنتاجية وأفكاره الملحة، ويمكن للناقد في البداية أن يحدس الفكرة الملحة، ثم يحاول أن يستكنه الأنظمة التي أنتجت هذه الفكرة الملحة، ليؤكد في النهاية مدى

نجاعة حدسه، لهذا يكمن عسر المقاربة التيماتية في هذه البدايات الحدسية المفتوحة، لكن حدس الناقد لفكرة ملحة معينة يجب أن يكون مؤسسا، لا يأتي هكذا من فراغ، بل ينشأ من قراءات جادة وكثيفة، ومن رصد لأهم المؤشرات والإحالات والعلاقات والدلالات التي يمكنها أن تحيل إلى فكرة ملحة معينة، وكلما زاد النص غموضا وتحايلا كلما اعتاصت الفرضيات الحدسية، وكلما أحال النص الإبداعي إلى الوضوح والإفصاح والحضور كلما يسرت الفرضيات الحدسية.

إن النقد التيماتي يتوخى في النهاية تحديد الأنظمة الدلالية الإنتاجية التي يستعملها الوعي ليترجم بها الأفكار التي تلح عليه ترجمة فنية إبداعية، وهذا لا يعني أن هناك أفكارا هامشية، بقدر ما يعني أن هناك توالدا على مستوى الأفكار، حيث إن الفكرة الملحة تتفرع إلى أفكار ملحة أخرى تمتّ إليها بقرابات تيماتية، ناهيك عن أن الوعي – عادة – يتواصل مع أكثر من فكرة ملحة، ولذلك يتوخى الناقد التيماتي – دائما – إعادة تنظيم فوضى حضور الأفكار الملحة، عن طريق محاولة ضبط كل فكرة ملحة بتوالداتها وبتفرعاتها، وبعلاقاتها الأساسية، ثم ضبط الأفكار الملحة الكبرى التي تكوّنها أفكار ملحة فرعية بعلاقاتها وإحالاتها فيما بينها، لاكتناه الفكرة الملحة العامة على مستوى الوعي، وكيف أنتجت هذه الفكرة الملحة العامة، وما هي محتويات الأنظمة التي أنتجها.

في سياق هذا البحث تتوخى المقاربة التيماتية رصد الأنظمة التي أنتجت الطفولة فكرة ملحة على مستوى الوعي المبدع، من خلال رصد الأنظمة التي أنتجت أهم الأفكار الملحة على مستوى وعي الطفل، على اعتبار أن وعي الطفل هو إحالة مباشرة للوعي المبدع، ثم توخّت المقاربة التيماتية رصد ما يمكن أن تنتجه التيمات من مستويات جمالية وأدبية؛ بمعنى رصد تيمة الطفولة في بعدها النظامي الدلالي، وفي بعدها النظامي الدلالي الجمالي، و"تيمة الطفولة" تسمية اصطلاحية اختصارية يقصد بها "نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة على مستوى الوعي".

من حيث التوظيف الاصطلاحي لا فرق بين "التيمة" و"الموضوعة"، وبين "النقد الموضوعاتي" و"النقد التيماتي"، أما الطفولة فهي تحيل إلى الفكرة المهيمنة والمتجلية على

مستوى الوعي، والنقد التيماتي هو النقد الذي يهتم برصد التيمات باعتبارها أنظمة لها مستوياتها الإنتاجية وتجليات أفكارها الملحة والمهيمنة، وباعتبارها إحالات هامة إلى الوعي في علاقاته مع المواضيع التي يقصدها ويحيل إليها، ومن هنا يستمد النقد التيماتي أهميته من كونه نقدا يحتفي بالتيمات، باعتبارها أنظمة إنتاجية تحيل إلى الوعي بمفهومه الفينومينولوجي، وبذلك يبدو جليا أن النقد التيماتي يمكنه أن يستفيد من حقول نقدية ومعرفية أخرى، وأن يتداخل مع بعضها، دون أن يفقد هويته وقيمته.

ثانيا: تقديم المدونة:

سنحاول في هذا السياق تقديم قراءة تلخيصية لأهم المعطيات المضمونية التي تتضمنها الروايات المستهدفة بالدراسة، من خلال رصد الصورة العامة لطفل كل رواية.

أ – رواية حب وبرتقال:

رواية "حب وبرتقال" هي عبارة عن سيرة روائية تحيل إلى كثير من المواثيق السير ذاتية التي توهم بالواقعية، وتعيد ابتكار عوالم الطفولة ببصمة فنية انزياحية تتوخى من خلالها تحقيق نوع من الفتنة السردية، وإثارة المتلقي، وإلهاب حماس المعايشة والمشاركة لاسيما حين يتعلق الأمر بشحن تيمة الطفولة بأحداث متواشجة، وبإحالات متشعبة، وأفضية ثرية من الذكريات والأحلام والعلاقات والمشاعر الباذخة، كما في رواية "حب وبرتقال" حين يحتفي الوعي المبدع بطفولته، ويعيد معايشة تفاصيل الذاكرة المتخمة، ورصد مظاهر الطفولة المتألقة، فكانت طفولة "حب وبرتقال" تحظى – فعلا – بكثير من البذخ العاطفي ومن الذكريات الدافقة، وسنحاول أن نرصد أهم تجليات الطفولة وأهم مظاهر الرخاء العاطفي وغواية العلاقات.

تعير ذاكرة الطفل احتفاء كاملا للأم التي هيمنت صورتها على الوعي بنمط مطلق لا يكاد يزيغ قيد أنملة عن تقديس الأمومة وتمجيد كل نعوتها وخوارقها العاطفية المبهجة، وفي ذلك تسهب الذاكرة في استحضار صورة الأم، وتتمادى في رصد تفاصيلها، منذ كانت هذه الأم تعمل في مصنع تلفيف البرتقال، وتغدق على الطفل هدايا برتقالية، جعلته يتلو جمال

البرتقال، ويتفنن في تأويل المذاق الباذخ وغواية الألوان والأنواع والفصول، فكان البرتقال لمسة أنثوية متّعت الطفولة بكثير من الذكريات، لاسيما حين يرتبط حضور الأم بسلّة البرتقال، وما تضفيه هذه الأم على البرتقال من معاني المودة والعبق، وهي حين تلج إلى البيت تفيض حيوية وأنسا، وتبتكر للطفولة عوالم مذهلة.

رغم أن الأم غير متعلمة، وتمتهن مهنة متواضعة إلا أنها كانت امرأة ذكية، هكذا وصفها الطفل، ومنها استمد معتقداته الجمالية، حيث كانت دائما تعلن بأنه أجمل طفل في العالم، مما زاده ثقة بنفسه، وقد راح يوغل في نرجسيته، ويحتفي بتفوقه الجمالي المطلق، لا لشيء إلا لأن الأم في حد ذاتها كانت في نظره أجمل امرأة في العالم؛ تغدق عليه بالحنان والهدايا، ورغم أنها غير متعلمة إلا أنها تبرع في تعليمه، وتغريه أساليبها التعليمية، وهو يعي أنها تحفظ سورة قرآنية واحدة، بفضلها أذكت فضوله المعرفي، وهيّأته للتفوق في الدراسة.

كما كانت العلاقة مع الأم طافحة بكثير من المناسبات السعيدة، لاسيما تلك التي ارتبطت بعيد العمال، وما صاحبه من ارتداء لأجمل الملابس، والتضمخ بأبهى العطور وتلك الأجواء النسوية المثيرة للنشوة، وما صاحبها من عناق وتقبيل وتبجيل للطفولة، ناهيك عن يوم السبت الذي ينتظره الطفل بفارغ الصبر، باعتباره اليوم الذي تتقاضى فيه الأم أجرتها بعد أسبوع كامل من العمل، وتعود للمنزل لتضع نقودها أمام الطفل، وتقاسمه أحلامها، مشركة إياه في التخطيط ليوم حافل بالنزهة واقتناء ما لذ وطاب، وذلك في الأحد يوم العطلة الذي يكون يوما أكثر غبطة وملازمة للأم في تجوالها وتسوقها، عكس الوالد الذي لم يسبق للطفل أن شاهد نقوده أو شاهد والده ليلة تقاضي أجرته، حيث ما إن يحصل الأب على أجرته حتى يسارع نحو الحانة ليطيل السهر والمنادمة، ولا يعود إلى المنزل إلا بعد وقت متأخر، يكون فيه الطفل قد استسلم للنعاس، وهكذا على طول المسافات السردية يغيب الأب، ولا يعيره الطفل إلا اهتماما نادرا، ولا يشير إليه إلا إشارات ضئيلة جدا، ولا يبادله إلا نوعا من العواطف الغامضة الباردة.

تمتلك الأم طاقات سردية هائلة استطاعت من خلالها أن تمنح للطفل فرصة لمعايشة الخيال، والتشبع بحكايات وذكريات، وما رافقها من لذة غامرة، والأم في كل مرة تبهر طفلها

بكثير من الحكايات المتنوعة والمتشعبة، لاسيما تلك الحكايات التي ارتبطت بنزقها الطفولي فكانت تحكي له عن تملصها من رباق أهلها وهي صغيرة، وتستحضر حكاياتها عن أسرتها وعن مغامراتها، وعن الأعمال التي امتهنتها، وهي دائما معين سردي لا ينضب، وطاقة حكائية لا تلغب.

لم يكن حضور الأم بالنسبة للطفل مرتبطا بالهدايا، وبالرخاء العاطفي، وبالمناسبات المجذلة، والحكاية المغرية فقط، بل يبوح الطفل في أكثر من سياق بأن الأم كانت سندا له في كثير من المحن النفسية، لاسيما حين وقع الطفل في شرك الخيبة الجمالية، وجابه صعوبة في التواصل مع الأنثى، فاجتهدت الأم في استدراج الفتيات لمنزلها، وأخرجت الطفل من وحدته ومن حيائه، مانحة إياه كثيرا من فرص اللعب والمؤانسة، وتبادل رفقات جميلة مع بنات في مثل سنه.

كما كانت الأم في مرحلة معينة تعامل ابنها كراشد، وتكلّفه ببعض المسؤوليات البسيطة، وتحرص على انضباطه في معاملاته، حتى تسنى له أن يحظى باحترام الغير ويزداد ثقة بنفسه، ولم تكن تتوانى في مشاركته بعض ألوان اللعب والحبور، بل إنها في عديد المرات تجشّمت الجري معه في الحي، واجتهدت في صنع ألعاب وطائرات ورقية، وهي تحرص على سعادته وظهوره بالمظهر اللائق وبالصورة المرغوبة، فكانت الأم سببا وجيها للتفاؤل والغبطة، والتوازن النفسي، والتفوق الدراسي.

لقد ارتبط الطفل في مرحلة من حياته بالمرآة، فكان يدمن النظر إليها، محاولا أن يحظى بصورة الجمال المطلق، لكنه في كل مرة يعود خائبا متحسرا، وذلك حين اكتشف أنه ليس أجمل طفل في العالم، وراح في كل مرة يقارن نفسه بخلانه وأترابه، ويعزي مستويات جماله المتواضعة، مما انعكس سلبا على علاقته مع الأنثى، لكنه بعد جولات من الانتكاس والتحقيق والخيبة، أفلحت الأم في انتشاله من هزيمته، لما ألهمته اعتقاد التفوق الجمالي فتجدّدت ثقته بنفسه، وتصالح مع الذات، وراح يحتفي بطفولته، وبما صاحبها من مشاعر باذخة، ورغم المحاولات المتوثّبة عاش الطفل تجربة عاطفية فاشلة مع فتيات من مدرسته وأدرك حينها أن مساعدات أمه بدأت تتراجع وتتجزر، لاسيما حين أدرك أنه يكبر ورغباته

تكبر معه، فحاول أن يعوّض فشله على مستوى الواقع مع الأنثى بالاهتمام بعالم الفن والكتابة، وما تتيحه هذه الأخيرة من فرص للخلاص واللذة، فكان يدمن مطالعة الروايات ويعيش كثيرا من أحلام اليقظة.

في غضون عوالم الأخيلة والفن والمتعة مازال الطفل مسكونا بجمال الأمومة، يعتقد بأفضليتها ويمتنّ لها، ويسعى جاهدا لملازمتها والارتحاق من وجودها الفاتن، والتواصل معها في الواقع والخيال، حتى إنه يتبنّى مشاعرها؛ فيفرح بما يفرحها، ويتألم لما يؤلمها، وفي كل فينة يتضخّم شعور الخوف من فقدانها، وتراوده كوابيس موتها، وينتابه شعور مقيت بالذعر والألم، لكنه في كل مرة يصحى على وجودها الباذخ، ومازال ينعم بدفئها وهو في كل الرواية كانت الأم ذروة مطامحه ومطامعه، وجل أحداث الطفولة ارتبطت بها، وألهمته الأم كل معاني الحب والخيال والحياة، فكانت طفولته في أوج تألقها، وكانت الدراسة التيماتية التي تستهدف طفل الرواية تركّز على العلاقة الباذخة بين الطفل وأمه، وما أنتجته هذه العلاقة من إحالات ثرية للوعي وتحولات الوعي بالطفولة.

ب – رواية الأسماء المتغيرة:

الطفل المتوخى بالدراسة في رواية "الأسماء المتغيرة" نلفيه منذ بدايات الرواية يرزح تحت وطأة الاستعباد، وهو طفل قد أنهى عقده الأول من العمر، أنهكه الضعف واستبدت به الحيرة، في تلك القافلة التي تخوض غمار رحلة مضنية، وقد كانت يده ليّنة، وعضلاته مرتخية، تبصمه كثير من القروح وأخاديد الدموع، يستفيق من غفوته فتكتسحه ذكريات الطفولة، وكيف أنه كان يسبح في بركة قريبة من قرية أبيه، حين فاجأه رجل من قرية معادية لقريته واختطفه، لتسلب بذلك حريته ويلج إلى عالم النخاسة، وقد كانت البداية عندما امتلكه شيخ تجاوز الستين من عمره؛ اسمه "أحمد سلوم" وأطلق عليه اسما جديدا هو "سلاك"، لذلك تذكّر الطفل اسمه المعهود عند والديه، وكيف كان والده يناديه "موسى" ويصفه بالحبيب والغالي، وقد دهش من هذا الاسم الجديد "سلاك" واحتار لمبررات هذه التسمية الجديدة وامتعض كثيرا لهذا النهب الذي طال انتماءه وهويته وجسده.

يستمر "سلاك" في القافلة تهجس في خلده ذكريات الأبوة، وقريته الأصلية، وكثير من تفاصيل الحرية والرخاء العاطفي، واحتفاء الأتراب، وفي موقعه الاستعبادي القميء، وتحول أوضاعه من النقيض إلى النقيض بات لزاما عليه في تلك القافلة أن يتذوّق طعم السياط وأن تنهبه الشتائم والنعوت المشينة، وأن يقتات على بقايا الطعام، وأن يقدّم ولاءه للمالك الشيخ "أحمد سلوم" في سياق من الألم القاهر والوجع.

تقع القافلة في لأواء السفر، وأزمة أضاة الأسد، وتعاني ارتباكا سافرا وأحداثا اضطرارية مأساوية؛ ينجم عنها موت المالك الأول "أحمد سلوم" ليغتنم شخص يدّعي البركات وخوارق الصالحين اسمه "الشريف عبد الصمد" الفرصة، ويستولي على ممتلكات "أحمد سلوم" بما فيها الطفل العبد "سلاك"، فتتحول ملكية الطفل العبد إلى "عبد الصمد" ويعايش الطفل مرحلة جديدة من التحول الاستعبادي، وفي هذه المرة يتغير اسمه من "سلاك" إلى "بلخير" بتوصية من مالكه الجديد، توخيا للتفاؤل والخير، وفي هذه المرحلة يتعرف الطفل العبد "بلخير" إلى فتاة اسمها "ريحانة" التي تكبره بسنتين، وهي الأخرى تفتقر للحرية وترعى الغنم، وتضربها سيدتها "مريم" زوجة "حمود بن المرابط" بين الحين والآخر، وقد نشأت علاقة بسيطة بين "بلخير" و"ريحانة" وجمعهما واقع العبودية والرعي، فدارت بينهما كثير من المناسبات والحوارات التي باح فيها الطفل ببعض ذكرياته عن أبيه شيخ القرية الذي كان رجلا وسيما ورعا، يصلّي بالناس، ويتفانى في تغنيج ابنه، وعن تلك الذكريات التي ارتبطت بحياة الحرية في كنف الأبوين والقرية الأصلية، وما تضمنته من أعياد ولباس جديد، ومناسبات طافحة بالحبور، ثم كيف يعيش الطفل اليوم واقعا مناقضا موبوءا بالإغماط والضرب والتسخير المدقع، حيث كان المالك الجديد "عبد الصمد" يدمن ضربه، وعندما سافر للسنغال لقضاء بعض المآرب والتأهب للزواج أوكل أمر "بلخير" لـ"عبداتي" الذي أسرف هو الآخر في إيذاء الطفل العبد، متّعمدا جلده بأبشع النعوت، وبطوفان من الشتم، لكن رغم واقع الاستعباد وتلك التحولات المزرية في حياة الطفل بدت العلاقة مع "ريحانة" فسحة للاعتراف ببعض الذكريات الجميلة.

استذأبت الأسيقة من جديد، وتكالبت الظروف لما جاء أبناء الشيخ "سلوم" يضمرون الانتقام من "عبد الصمد" الذي كان في السنغال، يشاع عنه أنه غرق ومات، فكانت الفرصة سانحة للتنكيل بقريته وبالموكل على أمواله "عبداتي" فنهبوا عشرة من الإبل، وبما أنهم لم يظفروا بالطفل العبد استعاضوا عنه بأخذ "ريحانة" وباعوها لمالك جديد، أما الطفل العبد فلم يحالفه الحظ كثيرا، حيث هو الآخر سبته "غارة من غارات فرق الشمال للفرنسيين" وانتهى به المطاف إلى مالك جديد، غيّر اسمه من "بلخير" إلى "مبروك"، وقد شاءت الصدف أن يلتقي بـ "ريحانة" من جديد، وهما يرعيان إبل السادة الجدد، وما ميّز هذه المرحلة من حياة "مبروك" هو أن السادة الجدد أرهقوه بالأعمال الشاقة، لاسيما حين أبدى كثيرا من الاستعداد للاستعباد والسخرة، وقد أظهر مهارة في الخنوع والخضوع.

في غضون أزمة فراق "مبروك" و"ريحانة" من جديد، وفي سياق تلك المشاق اليومية التي يتكبّدها "مبروك" ألمّ به الخمول والمرض، فبذل السادة جهودا مضنية لمعالجته وحرصوا كل الحرص على استعادته، وهو في هذا السياق اشرأبّت نفسه للحرية، وبات يفكر جادا في الهروب، لكن الفرصة لم تسعفه في البداية، حيث ألّب عليه أحد الضيوف الغامضين السادة، فاعتقدوا أنه آكل للحوم البشر، ونسبوا إليه كل النكبات والمآتم وحالات الشر التي أصابتهم، فأزمعوا قتله، وقيّدوه وفتكوا بجسمه، وانهالوا عليه بكل ألوان العذاب والجلد، لكن قبل أن يهدروا دمه تمكّن من الهرب، ولم يفلحوا في تقفّي أثره.

قضى "مبروك" عدة أسابيع من العدو المتواصل يقتات على بقايا الحيوانات النافقة وعلى بعض الأشجار، إلى أن وصل إلى قرية على الشاطيء، استقبله أهلها استقبالا سخيا وعاش بينهم صيادا ماهرا يحظى بالاحترام وبالمكانة اللائقة، رغم فقدانه ليده، إلا أنه كان جبارا يذهلهم بحكاياته ومغامراته، ويصرون على بقائه معهم.

تتشوّه الظروف من جديد، وتتدخل الصدف حين يسافر "مبروك" – الذي أصبح اسمه في قرية الصيادين "بوجناح" – ليبيع السمك، وفجأة توكل إليه مهمة إيصال الإبل من طرف الفرنسيين، ويتّهم في الطريق بالسرقة، فيزجّ به في السجن لمدة تسع سنوات في سجن مدينة "أطار" وبعد دنو موعد إطلاق سراحه يحتال عليه أحد الضباط الفرنسيين، ويوهمه

بالتخفيف من عقوبته، عن طريق تسخيره لخدمته الشخصية، فتتفاقم السنون العجاف ويستمر "بوجناح" المدعو (سيفيل بوجناح) يتخبّط في عبوديته المدقعة، ويسجن من جديد في حفرة موغلة في العمق، ينهشه الضرب والتوبيخ، وتفتك به الوحدة والظلام، وقد اكتشف الخدعة بعد فوات الأوان.

تحرّر "بوجناح" منهك الجسد والروح، وقد أذهله تغيّر الحياة من حوله، فعاش تشرّدا وضياعا؛ مارس التجارة المجدبة، وجرّب سقي الحدائق، وعمل حمّالا، وكل ذلك مقابل أجور زهيدة جدا، ومشقة في التنقل والإيواء، واستحالة إيجاد عمل فعلي، فكانت الحرية شيئا عسيرا بالنسبة إليه، تضارع عسر ظروف الاستعباد التي تداولت عليه، وكان من صعوبات الحرية أن واجه "بوجناح" أزمة بطاقة الهوية، وهو الذي لم يملك في حياته وثيقة تعريفية واحدة، إلا أنه في سياق حياته الجديدة تعرّف إلى بعض شباب الحركة الوطنية الذين تعاطفوا معه ولقبوه "بابا الكبير" وتألّموا كثيرا لقصته، فأعانوه على التمكن من بطاقة هوية حملت اسمه الجديد "سالم ولد سليمان" الذي نهشه المرض في النهاية، واختطفه الموت بعد عمر طويل جدا.

لقد تكثّف حضور "سالم ولد سليمان" في الرواية، ليؤرخ لتاريخ كامل من الاستعباد والنخاسة، ولكثير من تحولات الحياة في المجتمع الموريتاني، ولتلك الصراعات القبلية والاستعمارية، وأسيقة ما بعد الاستقلال، ولتاريخ الحركة الوطنية، فكانت الرواية تحيل إلى كثير من تواريخ المجتمع الموريتاني بعاداته وتحولاته، وكان المستهدف بالدراسة التيماتية هو "سالم ولد سليمان" في مراحل طفولته، وفي تغير أسمائه وسادته، وقد ارتبط الطفل بأسماء (موسى، سلاك، بلخير، مبروك) أما أسماء (بوجناح، سفيل بوجناح، بابا الكبير، سالم ولد سليمان) فقد تجاوز فيها طور الطفولة، لكن لا يمكن إغفال إحالاتها إلى تلك المرحلة الحساسة والمحورية في بلورة الوعي بالطفولة.

ت – رواية هموم الزمن الفلاقي:

في رواية "هموم الزمن الفلاقي" نلفي الطفل "محمد" يعيش زمنا موبوءا بالموت والألم في سياق استعماري مفعم بالكبوات والنكبات، لاسيما حين يتعلّق الأمر بطفل يسعى جاهدا للتملص من طفولته المضنية، تلك الطفولة التي تحوّلت إلى جحيم مستعر، وإلى شواظ من الكوابيس الفتاكة والهواجس اللاذعة.

يعيش الطفل "محمد" في أسرة أذوتها الرزايا، وأحاقت بها الظروف القاسية من كل صوب وحدب، حيث إن الأب "المهدي" شيخ بلغ من العمر عتيا، أنهكه العمل في حقول المعمر "فانسا" وفتك به الاستغلال، زوجته الأولى "مريم" لم تنجب فاستنكح "المهدي" "خديجة" في ريعان شبابها وجمالها، مما جعلها محلا لأطماع المتربصين من أمثال "القايد موسى" و"الحركي جلول الكبي" لاسيما هذا الأخير الذي كان يسعى حثيثا ليتزوجها، وهو يتقنّص كل الفرص السانحة لذلك.

أنجبت خديجة الطفل "محمد" فكان وحيدا في أسرة "المهدي" الذي كان مرضه مناسبة قاسية تبعث في نفس الطفل كثيرا من مشاعر الرعب والخوف وهواجس المستقبل الغامض، إلى أن فتك الموت بالشيخ "المهدي" وبات الطفل في عمق الفاجعة عاريا من كل احتمالات الحماية، في سياق تلك الأجواء الجنائزية التي ترسّخت في ذهنه، وجثمت على قلبه، منتجة كثيرا من مشاعر الكمد والنكد التي جعلته يعتقد بعدم جدوى الطفولة الممحلة ويعتقد بضرورة تشييعها وتجاوزها.

خال الطفل "حماد الفلاقي" الذي له قصته الثورية، وهو أب لثلاثة أطفال، تنكّرت له الأرض التي سلبها المعمرون واستعبدوا أصحابها، فهاجر إلى مدينة "غليزان" ليمتهن بعض الأعمال البسيطة التي لا تلبّي أبسط حاجياته، وقد عانى الاستغلال والتشرد واللامعنى، إلى حين أسعفته الظروف ليلتقي بشخص اسمه "عدة الطالب" الذي منحه سببا وجيها للحياة وكلّفه بعملية فدائية كانت بداية انتمائه للعمل الثوري، فعاد "حماد" بعدها لقريته وتحدّى "القايد موسى" وأهانه، وفي النهاية اعتلى صهوة الجبل الأخضر، وأبدى استعدادا كافيا

لخوض غمار النضال ضد الاستعمار وضد الموالين له، وما يهمنا من حياة "حماد" هو أن الطفل "محمد" كان يرى في خاله النموذج الأعلى والقدوة الأسمى، وكان حضور الخال يجذله كثيرا، ويثير فيه بعض مشاعر الثقة والأمان، لاسيما أن الطفل مات والده ولم يبق له غير خاله "حماد" الذي يعول على وجوده كثيرا، ويعتقد أنه قادر على حماية الأم "خديجة" من أطماع المتربّصين بها، وقادر على حماية الطفولة من أضباث الفاقة والتشرد.

لقد كان "محمد" في البداية يمارس تعليمه في جامع "عدة الطالب" ويحظى ببعض السعادة والذكريات الجميلة، وكيف أنه كان يحفظ آيات القرآن الكريم، ويعايش معاملة جيدة إلى أن تعرّض الجامع للوصاد، وتشرّد كل من فيه، فألفى "محمد" نفسه في مدرسة لغتها غريبة، وكل معطيات الافتراس والتهجم تراوده، لاسيما ذاك المعلم اليهودي الذي بالغ في تعذيب "محمد" وفي قذفه بأبشع الصفات والصفعات، فتحول القسم إلى غرفة للتعذيب والقسوة والإهانة، والمعلم المتعجرف يتمادى ينتهك الطفولة ويتعمّد إغماطها وازدراءها، إلى أن ضاق الطفل ذرعا بهذه المدرسة وبهذا المعلم، وقد احتمل ما يكفي من الشقاء والعناء والضرب والطرد، فكان أن هرب من المدرسة، وأزمع عدم الرجوع إليها أبدا، وتلك الذكريات المشوّهة تلازمه، وتطحنه الإهانات والشتائم، ولعل رعب التعليم الذي عاناه الطفل "محمد" كان من أهم الأسباب التي جعلته يسعى لأن يكون مجاهدا حتى يتسنّى له الانتقام من ذلك المعلم اليهودي الذي زاد حياته شقاء وتعاسة، وجعلها جحيما لا يطاق.

بعد وفاة الشيخ "المهدي" والتحاق "حماد" بالمجاهدين رحلت زوجة "المهدي" الأولى "مريم" رغم علاقات الود التي جمعتها بضرتها "خديجة"، وذلك حتى لا تكون عالة على "خديجة" التي انبرت تبحث عن عمل لإعالة طفلها، لكنها في كل مرة تعود كاسفة البال مهزومة، وقد اهتدت في النهاية إلى جمع السنابل الواقعة على الأرض بعد عملية الحصاد وهو عمل شاق ومضن، لكنه وفّر لها أدنى مستويات البقاء حية مع ابنها في كوخ يكاد يكون حرضا، لولا بقايا الحياة النابضة فيه.

لقد كانت الأم دائما تلحّ على ابنها بضرورة مواصلة دراسته، ولكنه كان دائما يفاجئها بأسئلته عن جدوى التعلم في زمن الفقر والجوع، فتداري حيرتها، وتحاول أن تتحدى

الظروف، وتوفّر لابنها أدنى مستويات الوجود، لتعوّضه عن غياب الأب وغياب الخال وقسوة الظروف المجدبة، لكنها لم تدر أبدا أنه قاطع الدراسة، وكل آماله البائسة منوطة بالجبل الأخضر، وقد استغلّ الطفل فرصة غياب الأم في الحقول وهي تجمع بقايا السنابل ليشد الرحال إلى الجبل الأخضر، تجرشه الدروب الوعرة والوهاد، وبعد مسافات من الضياع والإعياء واختلاط الدروب أخطأ الطريق، فكان ضحية رصاصة العدو التي أردته صريعا ميتا، دون أن يحقّق أحلامه التي كان يصبو من خلالها لأن يكون مجاهدا، ويقتل "جلول الكبي" وذاك المعلم اليهودي، ولما عادت الأم إلى الكوخ، وطال غياب الطفل اعتقدت أن "جلول" الذي كان يتربّص بها قد اختطفه لينتقم منها، ويجبرها على الزواج به، فداهمت منزل "جلول" تهدّد ثائرة، وكانت النتيجة أن قبعت في السجون النائية تكممها الظنون والحيرة المضنية، في سياق التهبت فيه جذاء الثورة، وقتل فيه "جلول" وهام القايد "موسى" ذليلا مشرّدا.

لقد كانت تلك أهم الأحداث والأسيقة التي ارتبطت بالطفل "محمد" وأحالت إلى مواقعه وواقعه، وإلى ما يهجس في خلده من هواجس وأحلام، ولعلها علاقات دلالية كافية لإماطة اللثام عن محتوى الوعي وأهم تحولات الوعي بالطفولة، وعن تلك المضامين السلبية التي ميّزت تيمة الطفولة ووسمتها، وارتبطت ارتباطا وثيقا بالطفل "محمد" المستهدف بالتحليل التيماتي في هذه الدراسة.

ث- رواية رجال وكلاب:

الرواية عالم يزخر بالأحداث وفوضى السرد، ولسنا بصدد رصد كل تفاصيل الأحداث، ولكننا بصدد إعادة صياغة تلك الفوضى السردية، ورصد أهم الأحداث التي ارتبطت بالطفولة، ووسمت حياة الطفل "علال"، ذاك الذي يشكّل محور التجربة الروائية ويتيح لنا دراسة تيمة الطفولة دراسة تيماتية.

لقد ورث الطفل عن الجد اسمه "علال" هذا الجد الذي تواصل معه الطفل بواسطة الحكايات التي غذّت وعيه، وأحالته إلى حياة الجد، وما ارتبط بها من علل ومآس وأمراض

عقلية شاذة، لاسيما تلك الحالة المرضية التي تقمّص فيها الجد حياة كلبية، لازم خلالها جل سلوكات الكلب، وهو قابع في حالته الكلبية، إلى أن وافته المنية، تاركا أبناءه وأحفاده تطاردهم لعنة العار، ولعنة تلك الألقاب المشينة التي وصمتهم بـ "بني كلبون"، لذلك حضرت حكايات الجد – التي في كل مرة يجتهد الطفل في استحضارها – كمحاولة منه لتبرير حالاته النفسية المضطربة، التي قد توعز إلى أسباب وراثية، وما زاد ارتباط الطفل بحكايات الجد هو أن اسمه كان إحالة مباشرة لذلك الجد، ولحالاته الكلبية الشاذة، حيث كان الجميع لمجرد رؤيتهم للطفل تتبادر إليهم صورة الجد، وتلك الإشاعات والحكايات التي ارتبطت به ولعل هذه الرؤية الغيرية من الأسباب التي غيّبت الطفولة، حيث صار الطفل لا يرى في عيون الغير إلا كونه جدا مفضوحا بحالاته الكلبية، وسببا وجيها للسخرية والاستهزاء.

لعل الأمر سيان بالنسبة للعمة التي يروى إنها هي الأخرى تأثرت بحالات أبيها الكلبية، لكنها لم تتأزم إلى مستويات التقمّص المطلق، وبقيت سبيّة الكآبة الخرساء، رغم الجهود المضنية وحالات الاستطباب التي حاولت أم الطفل أن توفرها، وقد انتهى بها الأمر إلى الإخفاق والفشل، يائسة من حالة العمة، وما زاد الأم خوفا هو إمكانية تأثير العمة بحالاتها المرضية على الطفل "علال" فقررت العائلة عدم الاحتفاظ بالعمة، ولم يكن من سبيل لذلك غير إدخالها في مصحة عقلية، تدهورت فيها وضعيتها الصحية، وانتهى بها الأمر جثة هامدة، وقد استحضرنا قصة العمة، وحالاتها المرضية المزمنة، ومأساة موتها لأنها القصة التي مافتيء الطفل يكرّرها، ويلح في تكرارها، مسكونا بعقدة الذنب، ومعتقدا بأنه كان السبب وراء موت العمة، التي كانت ضحية خوف الأم على ابنها من عدوى المرض، وضحية محاولات حمايته بكل الوسائل المتاحة وغير المتاحة، و"علال" يعود لقصة العمة عسى ولعل أن يحظى بتفسير لحالاته المرضية، وكأنه في بعض الأحيان يريد أن يثبت الوراثة علة وجيهة لما طاله من غبن، ومن حالات انفصام ووهم، مبديا بعض التحفظ حيث إن اليقين يغيب دائما في حالاته المرضية المعقدة، لكنه على يقين بأن علاقته بجده وبعمته لم تكن إلا علاقة مثقلة بالمآسي، وبالخيبة وعقد النقص.

تصوّر الرواية الطفل "علال" سقيما ضعيف الجسد، له تاريخ طويل مع الأمراض والعلل، ولعل هذه المعطيات دفعت بالأم للمبالغة في الاهتمام به ورعايته، ومحاولات تطبيبه فكان أن ارتبط بها الطفل ارتباطا مرضيا، جعله عاجزا عن الانفصال عن أمه لحظة واحدة ومتواكلا عليها في كل الأمور، مما سبّب له كثيرا من المتاعب، وألب عليه رؤية أفراد أسرته، وكل الذين يحيطون به راحوا يبخسون وجوده، وينتقدونه نقدا لاذعا، واصفين إياه بـ "ابن أمه" وهو وصف يتضمّن كثيرا من التهكم والاستهزاء، مما أولج الطفل في حالة نفسية صعبة، تدهورت خلالها رؤيته لطفولته، واعترته كثير من مشاعر الحزن والاغتراب، لاسيما حين أنأته الأم عنها وأولجته المدرسة، وألفى نفسه وحيدا تنهشه الظنون والقسوة، وهو يعاني انهيار علاقته بأمه من جهة، ومن جهة أخرى يعاني أزمة حادة في القسم الذي كان فضاء ينهب طفولته، ويمارس فيه المعلم كل مفاجآت الصفع وانتهاك الجسد.

لقد كان الأب غائبا في جل مراحل الطفولة، وارتبط حضوره الفاتر بإثارة هواجس الخوف، حيث إن الأب يهمل ابنه، ويعتقده هو الآخر "ابن أمه"، ولعل أكبر ألم سببه الأب للطفل هو ذاك الألم الذي ارتبط برغبة الطفل في امتلاك جرو، ولكن والده استشاط غيظا وغضبا، ولم تفلح توسّلات الطفل ودموعه في ردع الأب عن انتشال الجرو ورميه خارج المنزل، والأب في ذلك مسكون بهاجس الجد وبحالاته الكلبية، فكان الطفل للمرة الثانية ضحية حالات جده التي تعود في كل مرة جذعة تثير كثيرا من الهم والعار، وفي هذه المرة تعمّق الشعور بالوحدة والحرمان، وتضخّمت الأخيلة، فاستعاض الطفل عن واقعه المنهوك المحروم بالخيال وأحلام اليقظة، فكان أن امتلك الجرو في أحلامه الليلية، والغريب أن الحلم بقي يراوده إلى مرحلة ما بعد الطفولة، وفي كل مرة يعيش لعبا ولهوا ومغامرات مع جروه حتى صار هذا الجرو مع مرور الأيام كلبا ضخما، و"علال" في أحلامه يحظى بالحرية الكاملة، ولا أحد يردعه، وحتى الأب مات في الحلم، وأصبح الخيال تعويضا كاملا للحياة الواقعية التي زاد فيها الطفل خجلا وانطواء واغترابا.

لقد وسم واقع الطفل بالفشل على مستوى كل المجالات، حيث لم يحالفه الحظ في امتلاك شيء يريده أو في إقامة علاقة مع الأنثى أو غير ذلك، بل هو في حد ذاته اعتزل

واقعه، واعترف بأنه لا يحفل بشيء، ولا يريد أي شيء، وكان السبيل الوحيد لإشباع رغباته هو الحلم – الذي توسّمه خلاصه الأبدي – وإدمانه على الرسم والعبث بالألوان، والتعايش بصورة كاملة مع هذا العالم الخيالي، محاولا التخفيف من حدة أزماته النفسية وأمراض الصرع والانفصام والوهم التي تفتك به، وتجعله وحيدا يتوخى الوحدة أكثر من أي وقت مضى، وحتى وهو يتجاوز طور الطفولة، ويمتلك عملا، مازال مسكونا بالأحلام وبالجرو وبهواجس الفن والألوان، ومسكونا بحكايات الجد والعمة، وبغيرها من المواضيع التي تعزّز وحدته، وتزيد تمسّكه بهذه الوحدة.

تتضح لنا معالم الطفولة بسيولها الاسترجاعية الدافقة، وبتكالب الهموم والهواجس والأحلام والكوابيس، وبكثير من الأحداث المتواشجة، وبمحاولات نبش الماضي، وإعادة قراءة تاريخ الوباء الأسري، وبتفسير هواجس الوراثة وعوامل النشأة الاجتماعية، وبأسباب الأمراض الذهانية والتشرد الخيالي، لنلفي أنفسنا أمام طفولة معذبة تستحق – فعلا – الدراسة الجادة ومقاربة تيمة الطفولة مقاربة تيماتية، تتوخى التنقيب في مستويات الوعي، وفي مضامينه العميقة، وفي تلك التحولات الأساسية على مستوى الوعي بالطفولة وعلاقاته المعقّدة.

ج – رواية البزاة:

يهيمن الطفل "مراد" بحضوره المكثّف على كل المستويات السردية، وقد كانت رواية "البزاة" من الروايات التي يتأسس فيها الطفل شخصية محورية بامتياز، ولذلك ييسر استهداف الطفل "مراد" بالدراسة التيماتية، لأن تيمة الطفولة واضحة في كثافة حضورها، وفي علاقاتها الانتشارية، وسيكون من الجدير تقديم طفل الرواية تقديما يميط اللثام عن أهم الأحداث التي ارتبطت بالطفولة، وعن أهم الهواجس والاهتمامات والتطلعات التي بصمتها.

من حيث الموقع الأسري يبدو "مراد" وحيدا عند أبويه، في أسرة تتكون من الأب والأم والجدة، والأب هو المعيل الوحيد لهذه الأسرة، من خلال عمله على متن باخرة أجنبية يسعى لتأمين متطلبات الأسرة، لاسيما تلك التي ترتبط بمصاريف دراسة "مراد"، ولذلك لمّا طرد الوالد من العمل، هجست في خلد "مراد" كثير من هواجس الفاقة والتشرد، واستذأبت

كثير من الأسئلة الطاوية التي تفترس الطفل عن جدوى الدراسة، وعن إمكانيات الحصول على ضرورياتها من كتب وأدوات واشتراك، في سياق فقدت فيه الأسرة مصدر رزقها وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الهاوية، ولعل تلك الهواجس التي استبدّت بالطفل وأثارت مخاوفه هي السبب الوجيه الذي اضطر الطفل للتفكير في العمل، بغية مساعدة الأب الواقع في محنة الطرد، ومحنة انتظار ما تسفر عنه التحقيقات حول ذاك الشجار الذي نشب بينه وبين بحار إيطالي، أضمر له العداء، وتعمّد الكيد له، بيد أن فكرة العمل التي تبنّاها "مراد" لم تجد طريقها للنور، وسرعان ما غاضت وتلاشت، ذلك أن الأب أبدى صرامة كبيرة في ضرورة مواصلة "مراد" للدراسة، فكان يقبل كل شيء إلا فكرة العزوف عن الدراسة وبرح المدرسة، كما أن الأب لم يبق مكتوف اليدين، بل راح يمارس بعض الأعمال، واكترى قاربا للصيد، وقام بجولات صيد ناجحة، فاطمأن "مراد" لما يقوم به والده، وازدادت ثقته به، ثم إن شبح الفاقة قد انجلى نهائيا حين عاد الوالد لعمله وبرّأه التحقيق من التهم التي نسبت إليه.

أما الأم فكان حضورها في الرواية فاترا، واقتصر دورها على إسداء بعض النصح "لمراد" وإبداء بعض مشاعر الاهتمام والحماية، ولعل الجدة كانت أكثر حضورا، وكانت رؤية الطفولة للجدة أكثر ثراء من الرؤية للأم.

لقد ارتبط الطفل كثيرا بالمكان، فكانت تفاصيل الحي الذي يقطنه "مراد" حاضرة بكثافة في الرواية، لكن ما يميّز المكان عند "مراد" هو تلك التشوّهات التي طالت الحي لاسيما حين انتشر الوجود الاستعماري، وازداد إرباكا وفتكا، وهو يحاول محاصرة الثورة وقطع السبل إليها، فتقلّصت المسافات، وكان على "مراد" أن يفتّش عن أماكن أكثر تواريا وعزلة، وأن يبتكر مسالك جديدة تقيه شر مواجهة الجنود الفرنسيين، وتتيح له فرص ممارسة الفضول واللعب الذي يعاني هو الآخر تغيّرات مخيبة، حيث صار اجتماع الأطفال فاشلا في جل الأحايين، ومحاولات اللهو صارت ناضبة، بالإضافة إلى ما يخسره "مراد" من أصدقاء، لاسيما أولئك الأطفال الذين غيّروا مكان إقامتهم أو أولئك الذين اضطرتهم الظروف القاهرة للعمل ولتجاهل طفولتهم، وفي غضون هذه التشوهات المكانية راح "مراد" ينفّس عن ضيقه وتبرمه ببعض أساليب الطفولة، لعل أقمنها بالذكر إطلاق العنان للفضول

والتحقيق في بعض قصص الحي، وما يغذّي هذه القصص من إشاعات وإضافات تلهب الخيال وتذكي الأحلام، كتلك الحكايات التي ارتبطت بجنون "حند" أو ما حدث للشاب "عبد الرحمن" الذي أعدمه الاستعمار.

لقد بدا جليا في رواية "البزاة" مدى حقد "مراد" على الأوربيين الذين يكرههم كرها شديدا، وهو يوعز كل أسباب البلاء والشقاء والموت والجنون والفقر لهم، مفكّرا في حل كفيل بالقضاء على الأوربيين، فتارة يتمنى لو يستمر هطول المطر، ويأتي طوفان عارم لينتشلهم من منازلهم، ويرمي بهم في عمق البحر، ومرة يحلم أن تسحقهم قنبلة، وغيرها من أحلام اليقظة التي يودّ الطفل من خلالها أن يمتلك القدرة الكافية لإبادة الأوربيين بمعمريهم وعساكرهم، وبمراكزهم وكلابهم، وكل ما له علاقة بهم.

لقد كانت المدرسة من أهم فسحات الأمل التي يحظى بها الطفل، وقد كان في البداية يتبرّم من الالتحاق بها، لأنه كان يجهل سبب إقدام والده على نقله من مدرسة فرنسية إلى مدرسة من مدارس جمعية العلماء المسلمين، لكن فيما بعد تفطّن لحقيقة المدرسة الجديدة وأجذله التواجد بها، لاسيما وقد كان "مراد" يكنّ احتراما خاصا لمعلمه، ويعجب بأسلوبه التعليمي، وتثيره الحكايات المرتبطة باعتقال المعلم وبمعاناته في السجون والمحتشدات، كما تبهره تلك المزايا المنوطة بما يقدّمه المعلم من دروس حول تاريخ الجزائر، والتي ألهبت حماس الطفل وأثارت نزعته الوطنية، فكان دائم الشوق للمدرسة التي ارتبطت بها كثير من الأحداث المؤثرة في طفولة "مراد"، خاصة تلك التي داهم فيها الفرنسيون المدرسة، واختلقوا أتفه الأعذار لوصادها، واقتياد المعلم وبعض التلاميذ، واستجوابهم في المركز المخيف ورغم أنهم لم يفلحوا في وصادها إلا أنهم تمكّنوا من فرض شروطهم، وطوّقوا المدرسة برقابة شديدة، كان "مراد" يعايشها، ويعايش كل تفاصيل الحياة في المدرسة، ورغم كل أسيقة الفاقة والخوف التي أحاقت بالطفل إلا أنه في النهاية أبدى رغبته العارمة لمواصلة الدراسة حتى يصير معلما.

أهم علاقة أسسها "مراد" هي تلك التي كانت مع صديقه "محمد الصغير" وهو طفل مقهور، استغنى عنه والده، وتركه يعيش مع أمه في كوخ فقير، يرزخ تحت وطأة الفاقة

ويعاني من لسان أمه السليط، ومن تذمرها الدائم، ومن محاولات المعمر "لوجندر" – صاحب الكوخ والأرض – وسعيه الدائم من أجل استعباد الطفل "محمد" بأبخس الأثمان، واستغلاله استغلالا قميئا، وقد كان "مراد" يسعى جاهدا لمساعدة صديقه، وأهم شيء كان بينهما هو مشروع الراديو الذي شهد صنعه عدة مراحل، وعدة مغامرات وتضحيات وتحقيقات كلّلت بصنع الراديو، لكن كيد الطفل المالطي "جورجو" وعلاقته الوطيدة بالعساكر اضطرت الطفلين الصديقين "مراد و"محمد" لحرق الراديو، وتحويله إلى رماد تسفيه الخيبة والحسرة.

نلفي أيضا في الرواية حديثا مسهبا عن أيام إضراب الشعب الجزائري، وكيف عايش "مراد" جل تفاصيل هذا الإضراب، لاسيما حين عاد والده للعمل، وأوحى له بفكرة المسؤولية الأسرية، فكان "مراد" دائم القلق، يعتقد أنه فعلا الرجل الوحيد في الأسرة، والذي يجب أن يكون في مستوى المسؤولية، وفي مستوى الثقة التي وضعت فيه، وهو في سياق كل الأحداث المنصرمة يتحمّس للنضال الوطني، وينتصر للمجاهدين، ويحفل بأمر أسرته، ولا يتنكّر لصديقه، ويمارس فضوله ومحاولات تواريه عن أنظار الفرنسيين، الذين يخاف من مراكزهم وكلابهم، ومن مظلييهم وشخير محركات شاحناتهم.

نظرا للزخم الهائل من أحداث الطفولة بأحلامها وعلاقاتها وهواجسها وطموحاتها التي ارتبطت بالطفل "مراد" كان من الضروري أن يكون المستهدف بالدراسة التيماتية هو الطفل "مراد" بغية إماطة اللثام عن أهم تجليات الطفولة في مستوياتها العميقة التي تحيل إلى الوعي وإلى تحولات الوعي بالطفولة.

ح – رواية حنة:

يبدو جليا أن رواية "حنة" هي عبارة عن سيرة ذاتية روائية، تتأسس فيها الطفولة تيمة محورية تحيل إلى كثير من الأحداث والذكريات المتواشجة، والتداخلات السردية التي تتسم بالعديد من تقنيات الاسترجاع والاستباق والأخيلة، حيث يضطلع الطفل "محمد" بالسرد اضطلاعا انتشاريا طاغيا، وما دمنا بصدد تقديم طفل رواية "حنة" فسنحاول ترجمة الرواية

بلغة إيجازية، نتوخّى خلالها رصد أهم الذكريات والأحداث التي ارتبطت بالطفولة، واسترعت اهتمام الوعي بنمط من الانتقاء والإلحاح.

الطفل المستهدف بالدراسة في رواية "حنة" اسمه "محمد" ينتمي لعائلة فقيرة يميرها الأب "الصادق" الذي يفلح أرضه الصغيرة في الواحات، ويربّي بضعة حيوانات، وقد كانت الرواية متخمة بالأحداث والذكريات المرتبطة بعمل الأب، ففي كل مرة يعود الراوي مسهبا في الحديث عن الأب، وما يمارسه من أعمال فلاحية مرهقة، كالزرع والسقي وتنظيف زريبة الحيوانات، وغيرها من الأعمال الدائمة التي يساعد الطفل في أدائها بنسب متفاوتة، أما الأم فهي "عيشة" ربة منزل حضرت في الرواية بكثافة، وتبدو امرأة حييّة تتفانى في خدمة أسرتها وتجتهد في أداء الأعمال المنزلية، لها علاقاتها النسوية التقليدية، وعالمها الأنثوي البسيط تسلّط الموت على كل طفل تنجبه، فكانت بعد كل مولود تعيش فاجعة الموت، ولم ينج من أبنائها إلا طفلها "محمد"، وبعد ثلاث عشرة سنة من عمره استطاعت أن تنجب طفلة وتحتفظ بها، وما عدا ذلك افتك منها الموت عددا معتبرا من الأطفال الذين في كل مرة يشيّعون إلى المقبرة، وقد ترسّخت تلك الصور الجنائزية على مستوى ذاكرة الطفل "محمد" فكان في كثير من المناسبات السردية يصف طقوس المرض والموت والجنازة، وما يميّزها من حداد وخيبة وحزن.

حياة الطفل في أغلبها تنوس بين مكانين أساسيين؛ حيث إن عائلته تستقر في المدينة شتاء، وترحل في نهاية الربيع إلى الواحات، ولكل مكان خصائصه وذكرياته المرتبطة به حيث ارتبطت المدينة بالمنزل المتداعي المشاع الذي كانت تقر فيه عدة عائلات (عائلة الأب، وعائلة أولاد عم الأب، وعائلة أخرى من الأقارب) وكان نصيب عائلة الطفل غرفة واحدة، اتسعت فيما بعد إلى غرفتين، وكانت أسرة الطفل في البداية تتكوّن من أب وأم وطفل ثم وفدت العمة العمياء المطلقة، وولدت في النهاية الأخت الصغيرة، وفي البيت كان يقبع الجد للأب مع زوجته الجديدة، وكانت ذكريات البيت مرتبطة أساسا بوصف الأعمال وبالأحداث المتنوعة، خاصة تلك المعارك النسوية الكلامية، وبعض المواسم كالأعياد، وكثير من أحداث الحي، وعلاقات الحارة المتشعبة التي أسهبت الذاكرة في استرجاعها ورصد

تفاصيلها، أما الواحات فقد ارتبطت بالحياة في الريف، وبالكوخ الهش، وبتلك الأعمال الفلاحية العسيرة، وبقصص الفلاحين والجيران، وبالمغامرات الطفولية، وبتقلبات الطقس.

رغم ما يتخلل حياة المدينة وحياة الريف من رزايا وفقر وعدم استقرار وتعقّد في العلاقات، وما يكتنفها من أسيقة استعمارية وتحولات ونكبات إلا أن عائلة الطفل كانت تبدو راضية منصاعة للقضاء والقدر، تحتفي ببساطتها، وتتأقلم مع تقلبات الأسيقة والظروف، مما جعل تلك الحياة البسيطة – بما يتخللها من أحداث وعلاقات كثيفة – سببا وجيها لتبرير حالات السعادة الكثيرة التي تنتاب الطفل، وهو يحتفي بطفولته ويمتنّ لها.

لقد ارتبط النصيب الأوفر من حكايات الذاكرة، ومن حياة الطفولة بكل التفاصيل المرتبطة بالأسرة، وبكل الأعمال التي كانت تمارسها هذه الأسرة في حلّها وترحالها، فأسهب الطفل في الحديث عن كل ما يقوم به الأب، وما تقوم به الأم والعمة، وتلك العلاقات الأسرية بين أفراد الأسرة أو بين الأسرة وغيرها من الأسر والأفراد، كما كانت ممتلكات الأسرة ونشاطاتها بادية للعيان على مستوى الذاكرة، فلم يترك الطفل تقريبا صغيرة ولا كبيرة إلا وحاول إحصاءها.

لم يخل رصد ذكريات الطفولة من مؤشرات متشعبة، حيث إن الراوي في كل مرة يحيلنا إلى مؤشرات سردية، تجعله يحاول أن يكون جادا في التأريخ لطفولته، وموضوعيا في سيرته. مثل الحديث عن الجد الأعمى الذي ارتبطت بعماه بعض القصص، وقد طلّق جدة الطفل (أم الأب) وانتهى به الأمر في "الحوش الكبير" مع زوجته الجديدة سليطة اللسان التي تعينه أحيانا، وتشرّده في كثير من الأحيان، ومثل الصراع في "الحوش الكبير" وما كان يعجّ فيه من صراعات وسجالات حامية الوطيس بين النساء تارة وبين زوجة الجد وأب الطفل تارة أخرى، ورغم موجات الصراع والضيق والعوز ترصد ذاكرة الطفل كثيرا من المناسبات الدينية التي تتجدّد فيها الحياة، ويحضر فيها اللحم واللباس الجديد، والاستحمام والزيارات، كما نلفي في الرواية حديثا عن العساكر الفرنسيين، وعن حملات المداهمة والتفتيش، حيث كانت أول مداهمة يؤرخ لها الطفل حين لم يتجاوز سن السادسة، ناهيك عن عائلات اليهود التي كانت للطفل علاقات مميزة بها، لاسيما أنه في النهاية علقت في ذاكرته

ولم تبرحها الطفلة اليهودية "سارة" التي أتيحت له فرص التعرّف إليها، فعايش بذلك كثيرا من العادات اليهودية، وتنامت صورة اليهودي تفرض وجودها على مستوى السرد السيري بالإضافة إلى كثافة العلاقات العائلية التي كان يؤرّخ لها، فهناك كثير من علاقات القرابة المتشعبة التي يعسر إحصاؤها من الأصدقاء والجيران والزوار والزيارات، لذاك تشعّبت الحكاية المرتبطة بالطفولة، وتجاوزت حدود الأسرة في كثير من الأحيان، لاسيما تلك الحكايات التي أنيطت بالحوذي وابنه، وبابن بائع الغاز "قدور"، وبالعم "حامد" الطبال وابنه "مسعود"، وبأمير الماء، وبـ "جنات" وحكاياتها وعلاقاتها المريبة مع الأب ومع الطفل وبحكاية المشعوذ وافتضاحه في النهاية، وبقصة "حويتة" بنت "حمدية" وبحادثة الكلب التي ارتبطت بالجزار من جهة وبشخص يدعى "التبيب" من جهة أخرى، وغيرها من الحكايات المترامية الأطراف والمتداخلة، والتي إما أن يكون الطفل مشاركا فيها أو شاهدا عليها، أو يعيد سردها كما سمعها.

كما يتحدّث الطفل عن كثير من الأحداث المرتبطة به ارتباطا شخصيا، كحديثه عن موقعه الأسري، وعن علاقاته الأسرية، وعن قصص مدارسه، وعن نحافة جسمه وزيارته الاستشفائية للشيخ "العمراني" وبعض مغامراته السرية مع البنات، مثل حفيدة امرأة كانت تسكن معهم، ومثل مغامرة الحائط مع الفتاة "زنوبة"، وتلك المغامرات المرتبطة بالنساء كالأرملة "جنات" ولعوب الحي "عبلة"، وغير ذلك من طقوس الطفولة وأحلامها ومغامراتها وكل ذلك يستمر من بدايات الطفولة إلى المرحلة الثانوية، ودخول المعهد الثانوي، وهي مرحلة طويلة تكثّف فيها حضور الطفولة، وتشعّبت أحداثها، فكانت بذلك تيمة الطفولة بادية جلية، تتمحور حول الطفل "محمد" المستهدف بالدراسة دراسة تيماتية فينومينولوجية.

خ – رواية أطفال بورقيبة:

وجود الطفل ارتبط بعلاقة غير شرعية بين الأم التونسية "دلندة" والأب الفرنسي "سارج دي لاكروا" حيث تحيلنا المعطيات السردية إلى أن الأم "دلندة" كانت تشتغل خادمة في بيت "دي لاكروا" أستاذ لغة فرنسية يقطن مع زوجته وأطفاله في تونس، وقع بينه وبين "دلندة" حب متبادل، أثمر علاقات غير شرعية، لاسيما عندما تسافر الزوجة في عطلة الصيف إلى

"ليون" مع أطفالها، فنتج حمل غير متوقع، حاول الأبوان في البداية أن يجدا طريقة مناسبة للإجهاض، لكن الأم فيما بعد أحجمت، وقرّرت الاحتفاظ بالجنين، لتؤكّد حبها لـ"سارج" وولعها بهذا الرجل الذي تعتقد أنه متميز في وسامته، ويبرع في تقدير النساء والاحتفاء بهن.

في غضون مرحلة الحمل أتقنت الأم "دلندة" إخفاء الجنين، وتعمّدت النوم على بطنها حتى لا يثير انتفاخ البطن الشك والارتياب، وقد ساعدها وضع والدها الذي كان كفيفا على ذلك، أما الأب "سارج" فكان يكتفي بمداعبة بطنها ومحاورة الجنين بين الحين والآخر ولما أجاء المخاض الأم لإحدى المستشفيات كانت وحيدة خاوية الوفاض من كل الاستعدادات والوثائق والأسماء، لكنها نجت من المساءلة القانونية، وتمكّنت من تسمية طفلها – الذي ولد ليلة بزوغ هلال شهر رمضان – "هلال الأحد"، وبعد أربعة أيام غادرت المستشفى، واتجهت مباشرة إلى مأوى "أطفال بورقيبة" لتقبّل الطفل بحرارة قبل توديعه، ولذلك لم يعرف "هلال" والديه الأصليين طيلة حياته.

في عامه الثاني الذي لم يكتمل تبنّاه شخص يدعى "سي صالح" وجده مسجلا في الميتم باسم "هلال عبد الرحيم الأحد" وأغدق عليه كل أنواع الغنج والنعيم، فتربّى الطفل "هلال" في كنف أبوين رائعين "سي صالح" وزوجته "الحاجة دليلة" ولم يكن لهما غيره لأنهما لا ينجبان، وكان أن زاد من مستويات النعيم وضعية "سي صالح" الذي كان رئيسا لمركز الحرس، يحظى بكثير من الوقار والهيبة، وهو رجل يتفانى في خدمة النظام، ويتخذ رئيس الجمهورية التونسية آنذاك "بورقيبة" مثله الأعلى.

لقد كره "سي صالح" لقبه العائلي "الكسكس" فكانت الفرصة سانحة ليتبنى لقب الطفل (الأحد) في سياق أباح فيه "بورقيبة" تغيير اللقب، وشرّع فيه التبني، فاتخذت العائلة لقب الطفل، وتبنّت "هلال" بطريقة قانونية.

"هلال" كان وسيما مشرقا من يبصره يشك في نسبه لـ"سي صالح" لكن لا أحد يتجرأ على المساءلة أو الانتقاد، أما "سي صالح" فقد أجذله الطفل كثيرا وأدمن على مصاحبته فكانت ذاكرة "هلال" مفعمة بأجمل ذكريات مواسم الأعياد الدينية والوطنية وجولات الصيد.

علم "هلال" أنه من "أطفال بورقيبة" عندما بلغ من العمر عشرين عاما، عن طريق "سالم النذل" الأخ غير الشقيق لـ"سي صالح" وبعد محاولات يائسة من الأم "الحاجة دليلة" لإخفاء الحقيقة انكشف السر، وولج "هلال" دوامة من الشجن والحيرة والتساؤل، واعترته هواجس الانتماء لبورقيبة، فكره يوم الأحد، واضمر الانتقام من بورقيبة، وهاجر إلى بلدان مشرقية معادية لبورقيبة، وبعدها انخرط في المقاومة الفلسطينية لمحاربة إسرائيل، واختار اسم "بوجمعة" وسعى جاهدا ليكون فدائيا، لكن كفاءته في الكتابة ألحقته بقسم الإعلام.

في غضون هذه المرحلة تكبّد "هلال" كثيرا من المآزق النفسية والظرفية، محاولا الانضمام للفدائيين تارة، ومفكرا في الانتحار تارة أخرى، للتكفير عن خطيئة الوالدين، وهو في ذلك يسعى للتملّص من رباق هاجس الانتماء لبورقيبة، وتطهير وجوده من الخطيئة الأولى، لكنه بعد سجالات ذاتية ومغامرات وجولات اقتنع بأبوة بورقيبة، ومن بين ما أهّله لهذا الاقتناع والمصالحة مع الذات علاقات الصداقة التي جمعته بضابط فلسطيني في الاستجواب؛ هذا الضابط هو الآخر ابن علاقة غير شرعية، ونتاج علاقة معقدة نجمت عن اغتصاب إسرائيلي مجهول لأمه، الضابط الفلسطيني "علقمة" مثقف وله علاقات نافذة، وقد أقام في تونس زمنا، ودرس تاريخ الحركة الوطنية التونسية، وقد أعجب في النهاية ببورقيبة ورغم أنه عاش أزمة هوية إلا أنه في النهاية اقتنع بأن هيأته الإنجليزية ووسامته نعمتان إلهيتان من ذاك الجندي الإسرائيلي المجهول، أما أمه فلم يكن لها فضل كبير في نظره لأنها تزوجت رجلا أحدب، وأنجبت منه أولادا بشعين.

في النهاية يظهر "هلال الأحد" مستقرا في تونس وهو كاتب محترف يدنو عمره من الستين، له أسرة غامضة، تصوره الرواية يخوض حوارات فكرية ملغزة، ومغامرات عاطفية فاشلة، وكل أفكاره يبصمها الاعتقاد بالخيانة والعبثية، ومحاولات تأهيل الطفولة، وإعادة محاكمة مستويات إنتاجها وأسباب ظهورها.

تتحدث الرواية عن أخ لـ"هلال" من الأم لم يعرفه أبدا، ولم يتفطّن لوجوده؛ اسمه "يوسف عبد الناصر"، هذا الأخير تطلقت والدته "دلندة" حين كان عمره عامين وتسعة أشهر فأخذه والده إلى منزل عمته وتركه هناك، ثم أعاده للعائلة بعد نفاس الزوجة الجديدة، ولم

يتعرف الطفل إلى والدته إلا بعد مقتل والده، حينها انبرى يبحث عن أمه، فوجدها في قرية مجاورة اسمها قرية "المعصرة"، وبذلك تخلّص الطفل من قسوة الوالد وكوابيس فقدان الأم ومن الكتّاب وحفظ القرآن، بعدما أولجه "دي لاكروا" مدرسة عصرية، وبرع الطفل في اللغة الفرنسية، وصار في النهاية أستاذا للسانيات في الجامعة، ثم تزوج من "شهرازاد" التي يبدو أنها كانت امرأة مميزة تتضح أنوثة وفنا، لكنها عرفت حياة مأساوية، فقدت خلالها إخوتها وأمها بشكل تراجيدي، وقد هام والدها على وجهه، وعاشت سقيمة يفتك بها الصرع، وفي النهاية كانت ثالثة الأثافي حين تعرّضت لحادث فقدت خلاله أبناءها وجل حواسها، ولازمت الفراش ملازمة تامة.

في غضون ذلك لا يحفل "يوسف" كثيرا بما حل لزوجته وأولاده، بقدر ما كان مسكونا بهواجس الطفولة، لاسيما ما ارتبط منها بالأب الذي في غمرة تحمّسه الوطني ونضاله وعدائه للنظام مات ولم يختن ولده، فعاش "يوسف" مختوما فاشلا في علاقاته مع النساء يتخبّط في أزمة نفسية حادة، لكنه وفيّ لعاداته السردية مع زوجته القعيدة، التي فقدت كل شيء إلا حاسة السمع التي تتغذى بها على حكايات زوجها المتشعبة.

في الرواية "يوسف" يحكي لزوجته عن "هلال"، وهلال يحكي لفتاة اسمها "زبيدة" عن "يوسف"، والمتلقي فقط يعتقد أنهما أخوان، وهما لا يدركان أن كل واحد منهما ابن لـ "دلندة" والأب مختلف، رغم أن الشخصيتين في غضون تمويه الراوي وتلاعبه قد تكونان شخصية واحدة.

ما يهمنا في النهاية هو أن المستهدف بالدراسة في هذه الرواية هو الطفل "هلال الأحد" لأن حضوره هيمن على الرواية، ولأنه – حتى وهو كبير – عاد لطفولته وأعاد بعثها من جديد ليعيد محاكمتها واستيعاب حقائقها وبداياتها، محاولا تأهيل مستويات الطفولة من جديد، ولذلك كانت تيمة الطفولة التي ارتبطت بـ "هلال" محورية، وما الشخصيات الأخرى والتيمات الأخرى إلا إحالات إليها، ومستوى من مستوياتها الدلالية المتشعبة، أما طفولة "يوسف" فلم نعرها اهتماما بالدراسة، لأنها لم تحظ بعناصر الكثافة والعمق والامتداد والتشعب التي حظيت بها طفولة "هلال" أولا، وثانيا لأن طفولة "يوسف" في حد ذاتها ظلّ من ظلال

طفولة "هلال" فكانت طفولة "هلال" – بذلك – أوار التجربة السردية، تترك بصمتها وآثارها في كل الأسيقة المكانية والزمانية، واستأهلت بذلك الدراسة التيماتية.

الفصل الأوَّل

تيمة الطفولة السلبية

ضبط المفاهيم:

– يقصد بـ " تيمة الطفولة السلبية " نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة سلبية على مستوى الوعي، حيث نتوخى – في هذا الفصل – رصد كيفيات إنتاج الطفولة انطلاقا من رصد العلاقات القصدية والإحالية بين الوعي والطفولة؛ تلك العلاقات التي حولت الطفولة من موضوع خارج الوعي إلى ظاهرة داخل الوعي الذي حولها إلى ظاهرة حين تواصل معها وقصدها واستبطنها وأحال إليها.

– تستهدف الدراسة في هذا السياق رصد الطفولة كظاهرة داخل الوعي في تجلياتها على شكل أفكار ملحة تحيل إلى الرؤية السلبية للطفولة.

– من أهم ما يميز تيمة الطفولة (نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة) هو التحول، لذلك كان من الضروري رصد أهم تجليات الوعي بالطفولة من خلال رصد أهم تحولات الوعي بالطفولة.

– نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة سلبية على مستوى الوعي يتكون من أنظمة فرعية لإنتاج أفكار ملحة سلبية على مستوى الوعي، أي أن تيمة الطفولة السلبية تتكون من تيمات فرعية هي التيمات التالية:

أولا: تيمة الطفل العبد: بمعنى (نظام إنتاج الطفولة المستعبدة فكرة ملحة سلبية على مستوى وعي الطفل).

ثانيا: تيمة الطفل اللقيط: بمعنى (نظام إنتاج الطفولة اللقيطة فكرة ملحة سلبية على مستوى وعي الطفل).

ثالثا: تيمة الطفل الخجول: بمعنى (نظام إنتاج الطفولة الخجولة فكرة ملحة سلبية على مستوى وعي الطفل).

رابعا: تيمة الطفل المجاهد: بمعنى (نظام إنتاج الطفولة المجاهدة فكرة ملحة سلبية على مستوى وعي الطفل).

أ – تيمة الطفل العبد:

كثير من المعطيات الإنسانية تبدو بسيطة نحدس بساطتها لمجرد أننا دأبنا عليها وألفناها منذ نعومة أظافرنا، ومنذ اتصالاتنا البدئية الواعية، حينها اعتقدنا بكثير مما يسكن عالمنا على أنه بصمة طبيعية جبلتنا الحياة بكل تفاصيلها على الاستغراق فيها والفناء في دلالاتها، ولعل أسماءنا هي تلك المشاريع الوجودية المستمرة التي لطالما تقبّلناها واستحوذت علينا، فآمنا بهويتنا الاسمية، وخلنا أن تقلبات الاسم فرضية بشرية لا تحتاج للمساومة الفلسفية، بقدر ما تحتاج للتأهيل حتى يكون كل واحد منا في مستوى اسمه، أو يكون الاسم في مستوى الافتراض الغيبي الذي يتوخاه من يعتقدون أنهم يمتلكون الصلاحية لوسمنا ونعتقد زيفا أننا أحرار كل الحرية في امتلاك أسمائنا، في حين أننا لم نكن أحرارا أبدا في اختيارنا لها.

لذلك ماذا تفعل بنا أسماؤنا؟ هو سؤال أنطولوجي أجدى وأقمن من ماذا نفعل بأسمائنا؟ هذه الأسماء التي ميزت الحضارة البشرية، وميزت الإنسان منذ كان في الجنة وميزت كل تجليات الوجود البشري، ولم نستطع يوما الاستغناء عنها. هي في الحقيقة معطيات لا تجعل من الوجود البشري وجودا اجتماعيا أو دينيا أو غير ذلك، بقدر ما تجعله وجودا اسميا، حيث تحتلنا أسماؤنا دائما بطريقة كاريزماتية غريبة، ونكون في النهاية أسماء تختصر وجودنا وتواريخنا ومواقعنا.

كم يثير الاسم من أسئلة وغوايات بحثية حين يرتبط بتيمة الطفل، وحين نبيح لأنفسنا التنقيب في ماهية العلاقة التي تربط بين الاسم والطفل تنقيبا فينومينولوجيا تيماتيا، من حيث التنقيب الفينومينولوجي لا يلتزم بنظرية هوسرل (Husserl) بل«يفتح جميع الآفاق الممكنة من أجل تفسير الإبداع»[1]، ومن حيث التنقيب التيماتي يعطي أولوية التحليل والتشريح والقراءة للنص، مقاطعا الاتجاه النقدي اللانسوني، ومهتما بالدراسة الداخلية للنصوص، كما يركز اهتمامه على التيمة التي هي محور النسق الدلالي في الأثر الإبداعي ومحور المعنى

[1] لحميداني، حميد. المرجع السابق. ص 29.

الجوهري للعمل الأدبي، تتحدد حسب موقعها وعلاقاتها داخل النص وصلاتها بالوعي ومحوريتها الدلالية، وهيمنتها وقوتها الانتشارية، والنقد التيماتي يهتم بتلك العلاقات الإحالية والقصدية بين الذات والموضوع، ويحاول أن يرصد كيفيات استبطان الوعي المبدع وتملّكه للأشياء، وكيفيات تحويل هذه الأشياء إلى مواضيع وماهيات على مستوى الوعي، فيكون موضوع البحث هو محتويات الوعي، وما هو خارج هذا الوعي يعتبر غير موجود، كما أن الناقد التيماتي حر في اختيار الموالج النقدية، وحر في اختيار البدايات والنهايات التي يعتقدها قمينة بالاهتمام، ولذلك «لا وجود في القراءة الموضوعية لنقطة بدء ونقطة وصول فالمدخل إلى حقل القراءة الموضوعية مدخل حر مما يضفي عليها شيئا من السحر»[2].

في الحقيقة لم نكن لنتفطن لما قد يثيره الاسم من فتنة وغواية على مستوى البحث لولا رواية "الأسماء المتغيرة" التي ألهمتنا حماس التفتيش عن ماهية الاسم لطفل الرواية، حيث إن الاسم وجود ظاهراتي يتأسس على الإحالة المتبادلة، فلا هو ذاتي مثالي ولا هو واقعي موضوعي، بل لا يمكن إلا أن يكون الاسم علاقة جوهرية وجودية بين الذات والموضوع، أو بالأحرى هو الذات والموضوع في الآن نفسه، كأنه عملة واحدة ذات وجهين يتميز بإحالة نادرة وقدرات دلالية خلاقة، وتكثيف رمزي غامض جدا.

لذلك يثير اسم الطفل البطل في رواية "الأسماء المتغيرة" كثيرا من الإحالات القصدية المتبادلة التي تحيل بدورها إلى محتوى الوعي بالطفولة، وإلى محتوى تحولات هذا الوعي وفي هذه الدراسة نحاول رصد الاسم كظاهرة، ونقاربه كما يتجلى في الوعي ويحيل إلى الوعي بالطفولة «أي بتحليل الوعي وقد استبطن الأشياء فتحولت إلى ظواهر»[3]، بوصف الاسم موضوعا قصده الوعي وارتبط به واستبطنه، وبوصف أن هذا الموضوع لا يحقق وجوده إلا عن طريق هذه القصدية، وعن طريق توجه الوعي إليه عن قصد، وتحويله من وجوده المحايث المستقل إلى ظاهرة متحررة من قيود التعليق الهوسرلي، والموضوع كظاهرة

[2] حمداوي، جميل. المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي. موقع:
.http://www.arabicnadwah.com/articles/muqaraba-hamadaoui.htm

[3] الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. المرجع السابق. ص 321.

يحيل بدوره للوعي، فتكون فكرة الإحالة متبادلة في سياق قصدية متبادلة، ويمكننا هنا أن نحدد موضوع الدراسة الفينومينولوجية والتيماتية على أنه تلك القصدية والإحالة المتبادلة وليس الوعي في حد ذاته أو الموضوع في حد ذاته، وستكون فكرة القصدية المتوخاة بالدراسة هي تلك التي تتأسس بين الغير كوعي من جهة واسم الطفل كظاهرة من جهة ثانية، ومن جهة أخرى نتوخى استيعاب فحوى الإحالات المتبادلة وفكرة القصدية بين الطفل كذات واعية من جهة، والاسم كظاهرة على مستوى الوعي من جهة ثانية.

وبين القصدية الأولى (بين الغير كوعي واسم الطفل كظاهرة) والقصدية الثانية (بين الطفل كذات واعية والطفولة كظاهرة) لا يمكن إغفال قصدية الوعي المبدع، وكذا قصدية التلقي «إذ يرى جورج بوليه أن فعل القراءة ينطوي على التقاء وعيين: وعي القارئ ووعي المؤلف»[4]، وهنا يكمن الاعتياص، حيث إن فكرة القصدية التي تربط بين الذات (الوعي) والموضوع هي في حد ذاتها تتحول بدورها إلى موضوع لم يحقق وجوده إلا في سياق تجليه على مستوى الوعي الذي لا يحقق وجوده أيضا إلا باتجاهه إلى الموضوع، وينتج بذلك نموذج قصدي جديد، وسيتحول بدوره إلى موضوع يحتاج إلى وعي، وبالتالي نموذج قصدي آخر، وهكذا دواليك، وهذا ربما ما لم يشر إليه "هوسرل" (Husserl) الذي «اكتفى بوضع المنهج وكشف مكونات الفعل الشعوري القصدي دون أن يقوم بتطبيقه وذلك لأنه وضع العالم كله بين قوسين مؤقتا»[5]، ولذلك يفترض التفرس جيدا في هذا التحول القصدي الذي يبدو أن صيرورته لا تتوقف أبدا، وأن توالده حر تماما لا تحده حدود أو تخوم، لاسيما على مستوى النص الإبداعي الروائي الذي تتواشج فيه كثير من القصديات والإحالات المتبادلة لأن قطبي النسق القصدي (الوعي والموضوع) متغيران دائما بنمط زئبقي لا يعرف الاستقرار والثبات، لذلك ففكرة الوصف الفينومينولوجي قد لا تؤدي وظيفتها الإجرائية المتوخاة إذا كان الوصف يغفل ماهية التوالد القصدي والتحول الإحالي، ويغفل فرضية الاحتمال، حيث سنتبنى فكرة الاحتمال الفينومينولوجي بدل التعليق أو الرد الفينومينولوجي لأننا نعتقد أن

[4] بروجير، دانيال. النقد الموضوعاتي. المرجع السابق. ص 110.
[5] محمد، سماح رافع. المرجع السابق. ص 119.

الأنجع لمقاربة التحول القصدي هو الاحتمال، ذلك أن الاحتمال الفينومينولوجي – أيضا – يتأسس على التحول والتوالد، وهو – أيضا – حر في كيفيات التموقع الإجرائي، أما التعليق الفينومينولوجي (الظاهراتي) فلا يمكنه مقاومة التوالد الإحالي، حيث إن فرضية وضع العالم بين قوسين موقع التأجيل تثير كثيرا من الالتباس، لأن الوعي – من جهة أولى – لا يمكن الجزم بأنه سيتقيد بهذا الإجراء، على اعتبار أن الوعي – في اعتقادنا – كلي في قصديته وجشطالتي في إحالاته، وإن كان توجهه الكلي ليس متكافئ الأجزاء، فهذا لا يعني أن الوعي في اهتماماته التي تبدو أقل حضورا وإلحاحا يغيّب ما يبدو لنا مهملا ومغيّبا. ولأن فكرة تعليق العالم ووضعه بين قوسين – من جهة ثانية – تحيل إلى العدمية، والعدمية في حد ذاتها مستويات أخرى للوجود «فالعدم ليس مجرد اللاشيء بل الجانب الآخر لوجودنا المادي أي أن العدم في حد ذاته يمكن أن يكون وجودا معنويا لا تستطيع الحواس الخمس أو العقل البشري المحدود إدراكه»[6] ونحن نعي هنا أن تعليق العالم عند "هوسرل" (Husserl) ليس هو فرضية إلغائه، إنما هو تأجيل الحكم عليه إلى حين يتحول إلى ظاهرة؛ بمعنى حين يتمكن الوعي من التوجه لهذا الوجود قصدا، فيكون الوجود موجودا في الوعي وليس مستقلا عنه، لكن هذا التصور يفقد قوته حين ندرك أن الوجود دائما داخل الوعي، ولا يمكن تطبيق التعليق الظاهراتي كيقين منهجي للظفر بالماهيات، لأن الوعي عندما يتجه لموضوع ما يقصده قصدا كليا، انطلاقا من كل الخبرات القصدية التي أتيحت له، ولذلك لا يمكن التأجيل أو تعليق العالم ووضعه بين قوسين، على اعتبار أنه حاضر بالقوة كخبرة إنسانية متحولة دائما ومتوالدة، وهذا يعني أن الوعي حين يقصد موضوعا ما فهو في الآن نفسه يقصد كل مواضيع عالمه في الوقت نفسه، فلا يمكنه التخلص من هذه القصدية الكلية، ولكنه يستطيع أن يبدي اهتماما أكبر بموضوعه المباشر، وهذا الموضوع المباشر الذي نعتقد أن الوعي قد قصده واضعا المواضيع الأخرى بين قوسين هو في الحقيقة يستمد مشروعيته من المواضيع الأخرى، وهو في الحقيقة نمط من التحول، وبذلك لا وجود للموضوع كموضوع مستقل عن الوعي على مستوى الإبداع، هناك فقط ماهيات موجودة في الوعي «لذلك يمكن التعرف

---

[6] راغب، نبيل. موسوعة النظريات الأدبية. الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: دار نوبار للطباعة، 2003(م). ص 446.

على الحقيقة من خلال التعرف على الماهيات الماثلة في الوعي»[7] كما أن هناك فقط تحولات ظاهراتية وتحولات قصدية متكاملة ومترابطة، فصلها وتعليقها غير ممكن، لذلك بدل وضع العالم بين قوسين نحرره «ونضفي عليه المعاني الحقيقية التي استخلصناها من الماهيات السابقة»[8] وندركه كعلاقات قصدية محتملة ومتوارية مع الظاهرة التي أبدى الوعي بها اهتماما واحتفاء في لحظة ما، لا كظاهرة معزولة، بل كتحولات قصدية لا متناهية تفرض علينا لدراستها فكرة الاحتمال، والاحتمال الفينومينولوجي (الظاهراتي) يعني هنا دراسة التحولات القصدية التي تسبق التجلي القصدي الظاهر على مستوى الإبداع، على اعتبار أن تيمة الطفل في الرواية بمختلف تمظهراتها القصدية هي في النهاية نتيجة لعلاقات وتحولات قصدية سابقة وغائبة وليست ظاهرة، ولذلك ينتفي اليقين حين نجزم بتحول قصدي معين لكن حين نلجأ للاحتمال حينها يكمن اليقين الظاهراتي، والاحتمال الفينومينولوجي يتسم بكثير من التأويل لكنه تأويل مرتبط بالتحولات القصدية، سواء أكانت تحولات قصدية سابقة أم لاحقة، وهو تأويل لا يمكن أن يكون محدودا أو منتهيا، لاسيما إذا ارتبط الأمر بأشد المعطيات التصاقا بالإنسان مثل الاسم الذي يحيل إلى الوعي بكيفيات ملتبسة.

الاسم أسبق من وجودنا مثل اللغة، نعتقد أننا نصنعها في حين أنها هي التي تصنعنا وتنتجنا، نخال أننا نخلقها لكنها في الحقيقة تخلقنا، ولكونها أفضل تجل للتحولات الإحالية فسنتوخى دراستها لكونها هي الأخرى تحولية، حيث إن الدال والمدلول يمثلان علامة والعلامة بدورها تتحول إلى دال يحتاج إلى مدلول، فتنتج علامة أخرى، والعلامة الأخرى بدورها تتحول إلى دال يحتاج إلى مدلول، وهكذا حتى يتحول العالم إلى علامات لانهائية وتبقى العلامة اللغوية هي أوار الوجود الاسمي، حيث إن الاسم هو علامة لغوية متحولة وحيث إن الاسم أقدم علامة لغوية حافظت على وجودها وتوالدت بقدرة كثيفة لا يمكن إقصاؤها أو تجاهلها.

[7] لحميداني، حميد. المرجع السابق. ص 24.

[8] محمد، سامح رافع. المرجع السابق. ص ص 109، 110.

1 – فينومينولوجيا الاسم الأول:

بعد غربلة فوضى النظام السردي في رواية "الأسماء المتغيرة" أمكننا أن نحظى بترتيب معين للأحداث، لأن رصد التحولات القصدية للاسم لا بد أن يتأسس على نوع من النظام والسعي إلى «اشتقاق قوانين الظواهر وانتظامها مما يظهر كأنه فوضى تامة»[9]، وقد كانت الصورة الدلالية التي تحيلنا إلى البداية هي كون الطفل الذي يصوره الوعي المبدع في بداية الرواية خاضعا لإرادة غيرية تسخيرية هو في الحقيقة – قبل أن يستعبد – وحيد أبويه «كان يسبح في بركة قريبة من قرية أبيه وكيف داهمه على حدة فارس من قرية أخرى معادية لقريته واختطفه أسيرا»[10]، وهذا الطفل اسمه الحقيقي "موسى"، والمقصود بالاسم الحقيقي هو الاسم الأبوي، وهو الاسم الأول لهذا الطفل؛ بمعنى أنه التجربة الاسمية الأولى في حياة الطفل، وأننا بصدد القصدية الاسمية البدئية، حيث إن الطفل لأول مرة تحتله اللغة بواسطة الاسم، ويكون هذا الاسم شفرة الوجود التي تتيح فرص التموقع الأسري، ولا بد أن يكون هذا الاسم سلطويا، على اعتبار أن الطفل لا يمكن أن يختار اسمه في كل الحالات لكن السلطة الاسمية هنا هي سلطة أبوية، وهي سلطة قصدية تمارس تواصلها مع الطفل عن طريق الاسم، لذلك يحوّل الاسم الطفل من موضوع خارج وعي الأبوة إلى تيمة، وإلى ظاهرة أهم تجلياتها الماهوية الاسم، فالاسم – إذن – من أهم الجسور القصدية بين وعي الأبوة وموضوع الطفل، ونظرا لأهمية الاسم في هذه الحالة الأنطولوجية لا يمكن أن تمارس الأبوة صلاحياتها الاسمية اعتباطا دون مراعاة أبجديات الانتقاء والانتخاب، وهنا تحيلنا المؤشرات السردية إلى الفراغ، ولا نظفر بأية إجابات واضحة عن وعي الأبوة الاسمي، لذلك نتجه إلى الاسم في حد ذاته نستنطق دلالاته المتباينة وإحالات مواقعه اللغوية المختلفة وننبري نمارس الحدس الفينومينولوجي، «والحدس الفينومينولوجي هو الرؤية العقلية للماهيات للعلاقات والبنى الخالصة التي تنتظم الموضوعات من حيث هي أشكال وعي ذات بداهة عقلية مطلقة فالحدس هو الشكل العام لنشاط الوعي سواء تعلق بالمفرد أو بالكلي

[9] الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. المرجع السابق. ص 291.

[10] أحمد ولد عبد القادر. الأسماء المتغيرة. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الباحث، 1981(م). ص 12.

بالموضوعات أم بالدلالات، بالأفكار أم بالأحكام وهو مشروط بحدود المعطى الماثل للوعي»[11] لذلك على الناقد التيماتي أن يحدس الاحتمال الفينومينولوجي الأرجح، ويتأهب لخوض غمار التجربة النقدية التيماتية، بكل إحالاتها الحدسية والتأويلية والإبداعية «لتغدو القراءة من ثمة عملية إبداعية أو عملية محاكاة تتماهى بها لغة النقد مع لغة الكتابة»[12].

تتيح لنا المؤشرات الدلالية الروائية إدراك موقع الطفل داخل الأسرة من حيث هو «ولده الوحيد»[13]، وهذه الوحدة ستمارس سلطتها على القصدية الأبوية، حيث ينفتح المجال وسيعا يهيّئ لشحن الاسم بكثير من التفخيم والتكثيف الدلاليين، ويتحول الاسم في حد ذاته إلى سلطة تفرض وجودها بقوة على الأسرة، وتختصر كثيرا من المواقع، حاظية بكل الامتيازات الأبوية، هذه الأبوة التي تمسي معلقة كل الآمال على هذا الوجود الاسمي الوحيد تتفنن في شحنه بترسانة من العواطف المتأججة، وبكثير من الاحتفاء والامتنان، ومن هنا يمارس هذا الاسم الوحيد غروره السلطوي، ويسلب السلطة الأبوية إرادتها، كما يجبرها على الخضوع، وتنقلب الدلالة بعد أن مارست الأبوة سلطتها الاسمية على الطفل في البداية فالاسم في حد ذاته مكّن للطفل سلطة قوضت السلطة الأبوية، وجعلتها خاضعة في وعيها للاسم الوحيد الذي تزيده الوحدة تميزا وتفردا وقوة تمكّنه من احتكار القصدية الأبوية، وفي الآن نفسه تمكّنه من احتكار كثير من الأسماء الافتراضية، فهو يختصر كل الأسماء التي قد تهجس في خلد الأبوة حين تتمنى الأبوة أطفالا آخرين لكنها تعجز عن إنجابهم، فتحول كل أحلامها الاسمية للاسم الوحيد "موسى" الذي تحول وجوده الاسمي إلى حضارة كاملة تؤثرها الأبوة بكل ألوان التبجيل والتقديس، فيجد الطفل «نفسه محاطا بفائض من الاهتمام»[14].

[11] هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. ص 130.

[12] الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. المرجع السابق. ص 323.

[13] أحمد ولد عبد القادر. المصدر السابق. ص 101.

[14] عبيد، مهدي. أطفالنا والحياة المعاصرة. بيروت، لبنان: دار القلم. ص 22.

سلطة هذا الاسم هي سلطة صوتية أيضا، لأن هذا الاسم سيحظى بكثير من الترديد الشفوي على اعتبار أنه وحيد، والترديد الفونامي يكثف التواصل القصدي بين الأبوة والبنوة ليحتل الاسم كصوت كل الأفضية، وينتشر كنغم وجودي مقدس، محتكرا كل أحرف النداء وأنواع المنادى، لذلك يمتلك الاسم الوحيد رصيدا كافيا من الاحتفاء الأبوي مكّنت له الفطرة الأبوية من جهة، ومكّنت له الوحدة من جهة ثانية، فالفطرة الأبوية والوحدة هما الفكرتان الأساسيتان اللتان تستمد منهما فكرة القصدية وجودها، وهي قصدية إيجابية يكون الاسم فيها مشحونا بكثير من التعالي والفخامة، ويكون "موسى" أوفر حظا في وجوده الاسمي بحكم هذا النمط القصدي الذي عززته الأبوة من جهة والوحدة من جهة ثانية، والذي فرضته الأبوة في البداية لكنه فرض نفسه في النهاية، كما استطاع أن يختصر كل وجود الأبوة والبنوة معا حين استوعب الوجود الأسري في حد ذاته، واستوعب كل الآمال والدلالات التي تمجده حيث لا يمكن للأسرة أن تستغني عن اسم "موسى"، لأن الاستغناء عنه يعني القحط الأسري والهلاك والعدم، ومن هنا كانت الأسرة تتلذذ بهذا الاستعباد الاسمي وبكل تجليات السيد الاسم، لأن وجوده يمثل الخصب والنماء وتأجيل الموت والفناء، ويحقق فكرة الوجود الأبوي وفكرة الخلود الأبوي، وفكرة الأحلام والطموح والجمال والغبطة.

واسم "موسى" يحيل إلى الذكورة بكل ما تعنيه هذه الذكورة من قيمة مركزية، لاسيما في مجتمع قبلي يعتبر الاسم الذكوري عنده تتويجا انتصاريا لمكافحة الاندثار والعفاء خاصة أن اسم "موسى" صيغة رسمية ليس على مستوى التوثيق الكتابي والورقي، بل على مستوى صيغة الحرية، حيث ينعم هذا الاسم بأفضلية الحرية التي منحه إياها انتماؤه الدموي لأبوة شرعية جعلته يحظى بكل امتيازات الاسم الحر، وبكل امتيازات الانتماء الأسري والقبلي معا، وهذا يعني مزيدا من الاحتفاء والتفخيم، حيث تتسع دائرة الرواج الاسمي متجاوزة الأسرة إلى القبيلة، وربما إلى غيرها من القبائل، وهذا في الحقيقة تحول قصدي إيجابي، حيث تحولت القصدية الأولى الأبوية إلى قصدية قبلية، وإيجابية القصدية الأبوية تحولت إلى قصدية إيجابية قبلية، والاسم بدوره تحول من قصديته السلطوية الأسرية إلى قصديته السلطوية القبلية، حيث هو الآخر مارس سلطته على مستوى الأسرة وعلى مستوى القبيلة.

بالإضافة إلى كل ما سبق من احتمالات فينومينولوجية فقد ورد اسم "موسى" في الرواية مرتبطا بصفتين أبويتين؛ الأولى هي "الحبيب" والثانية هي "الغالي": «تعالى يا موسى الحبيب...هذا هو ولدي الغالي موسى»[15]، وهاتان الصفتان تؤكدان الاحتمالات الفينومينولوجية السابقة، من حيث هما صفتان تتوهجان عاطفة أبوية متأججة، وتحيلان إلى كثير من دلالات الافتتان والتقديس، فكان الاسم مشبعا عاطفيا وماديا حد الثمالة أبوة وأسرة وقبيلة، ودلالة وموقعا وحرية وصوتا، وكانت التحولات القصدية وفق الاحتمالات السابقة إيجابية جدا، وكان الاسم في فخامته وثرائه وتعاليه أوار تلك التحولات الإيجابية بين الأبوة والبنوة من جهة، وبين القبيلة والبنوة من جهة ثانية، وما نتج عن ذلك من قيمة إيجابية للوعي بالطفولة باعتبارها طفولة تحتفي بانتمائها وحريتها وجاهها الاسمي، وما نتج – عن ذلك أيضا – من قيمة إيجابية لتيمة الطفولة حين حماها الاسم وخفرها وحباها ومكنها.

2 – فينومينولوجيا التغيير الاسمي:

تحيلنا المعطيات السردية إلى أن "موسى" لم يتح له وقت كاف للتفرس في النعيم الاسمي الذي كان متاحا له، فقد باغته فارس من قرية معادية واختطفه «ليسلمه بعد أسبوعين إلى ذلك الشيخ الأشيب الغريب المنظر»[16]، وهذا العمل الانتقامي الذي يتأسس على القصدية لم يتوخ مجرد طفل، بل انتقى النموذج الاسمي الأسمى حتى يكون للانتقام معنى ومغزى، ولم يتعلق الأمر بطفل آخر أو بطفل من العبيد أو بفتاة، إنما استهدف "موسى" ذاك الاسم الذي أحالنا سابقا إلى دلالات المجد الأسري والقبلي، لذلك كان هذا المجد الاسمي سببا وجيها لاستهداف خطفه بغية توجيه ضربة انتقامية موجعة للقبيلة، ومنها تتحول القصدية من مستواها الإيجابي – في الأسرة والقبيلة – إلى مستواها السلبي، حيث الطفولة يستبطنها الوعي المعادي وسيلة فعالة للانتقام من القبيلة، وكأن الطفل هو نفسه القبيلة، نهبه يعني نهبها، وخطفه يعني سلبها وإبادتها.

---

[15] أحمد ولد عبد القادر. المصدر السابق. ص 12.

[16] المصدر نفسه. ص ن.

من جهة أخرى حين نولي وعينا سجاح الوعي المبدع – من خلال التجليات اللغوية والدلالية واستنطاق «مدلولات الصياغة اللفظية عبر ألفاظها وتراكيبها، وفق مبدأ التقدم والارتداد وإضاءة المستوى اللغوي بالمستوى النفسي»[17] – نلفيه قد أغفل جل الاحتمالات الفينومينولوجية التي اكتنهناها في سياق رصدنا لفحوى فكرة القصدية الأولى، حيث إن الاسم مكّن للوعي بالطفولة باعتبارها طفولة أتخمها الاحتفاء الأبوي والقبلي، وموقع الوحدة والنعوت العاطفية المتوهجة، وموقع المركزية والسلطة، ولعل أقمن تجليات الإغفال التي مارسها الوعي المبدع في سياق المحتوى القصدي مع الاسم هي إسقاط اسم الأب واسم القبيلة وإسقاط اللقب، وهذا الإسقاط يخالف عادة الوعي المبدع، لأنه على طول المسافات السردية يبدي اهتماما جادا بمثل هذه الأسماء: (محمد بن حمود بن المرابط – عبد الصمد بن عبد الله – عبداتي بن عبد الله – أحمد سالم بن علي – الشريف سيدي بن ملامي الزين – عثمان بن علي...) لكنه بالنسبة لـ "موسى" أسقط تلك الأسماء، فلم يذكر لقبه أو اسم والده أو قبيلته، وكان الاسم عند الوعي المبدع وحيدا مجردا من لفظة "بن" التي تعطي للاسم في المجتمع القبلي الموريتاني قوة انتمائية كبيرة تحيل إلى الهوية وإلى الحرية في الوقت نفسه فورد الاسم مخلوعا من موقعه اللغوي التقليدي، وهذا يتنافى مع كل معطيات الرفاهية التي حظي بها اسم "موسى" في كنف قومه، حيث نحتمل أن له لقبا ويمتلك لفظة "بن" واسما أبويا، لذلك يبدو الإغفال مقصودا، وكأن الوعي المبدع منذ البداية يضمر تجريد "موسى" من فكرة التوهج الاسمي والاحتفاء الموقعي ومن الرؤية الإيجابية إزاء الطفولة، ويؤهل فكرة السرد لتقبّل مشيئة السلب التي مارسها الخطف كتحول حاسم ألغى اسم "موسى" نهائيا، وقمع تاريخه الاحتفالي، ولذا يبدو الإغفال تواطؤا دلاليا يمهد لاغتيال الاسم، وما يؤكد أيضا هذا التمهيد هو إلغاء الوعي المبدع لعشر سنوات كاملة من حياة هذا الاسم، حيث يبدو "موسى" في البداية وهو طفل أسير « قد أنهى بالضبط العقد الأول من عمره »[18]، وقد اكتفى الوعي المبدع ببعض الإشارات المقتضبة جدا، والتي تبين لنا في مجملها أن الطفل كان اسمه "موسى" وهو وحيد أبويه، وفجأة اختطف وأسر عبدا، وفقده قومه إلى الأبد، وكل ذلك يعتبر

[17] محمد، عزام. النقد الموضوعاتي. الموقف الأدبي. ع 356. س 30. كانون الأول 2000. ص 22.

[18] أحمد ولد عبد القادر. المصدر السابق. ص 12.

تثمينا للسياق التراجيدي الذي توخاه الوعي المبدع وألح على تصويره كثيرا، كما كد لتأزيمه واجتهد في ذلك، وما يهمنا هو أن قصدية الوعي المبدع تبدو ظاهريا في مستوياتها السلبية لكنها في الحقيقة تؤسس للتمهيد التراجيدي، وتحيل إلى فكرة التحول القصدي الذي تكون بداية تصعيده السلبي فينة الاختطاف الانتقامي ومحاولات إجهاض الجاه الاسمي وإجهاض الوعي الإيجابي بالطفولة.

طفل بلغ عشر سنوات لديه القدرة الكافية للاحتفاظ باسمه على مستوى الذاكرة، لذلك احتار: «لماذا ينادونه هكذا سلاك»[19]، وهنا يكمن التحول الأول للوعي بالطفولة بسبب التغير الاسمي الأول من اسم "موسى" إلى اسم "سلاك"، فدون إرهاصات أو مقدمات سلّم الخاطف الطفل لشيخ اسمه "أحمد سلوم" في سياق من الغموض لا يحيل إلى تفاصيل هذا التسليم، ولا إلى كيفيات تغيير الاسم، وكأنه تقليد تلقائي، ونمط من العادات التي دأب عليها المجتمع الموريتاني من خلال الرواية، ولذلك لم يول الوعي المبدع اهتماما بتفاصيل عملية تغيير الاسم، ليحيلنا بطريقة ضمنية إلى مشروعية هذا التغيير في وعي المجتمع الذي يبدو أنه يعتقد بضرورة تغيير كل اسم فقد انتماءه الأبوي والقبلي، وفقد حريته، فيكون التغيير الاسمي مرادفا للعبودية والتملك والنخاسة، ولا أحد يبالي أو يستفسر أو يعترض، فالاحتمال الفينومينولوجي يحيلنا إلى أن الخاطف أو السيد الأول "أحمد سلوم" كان يمكنه ببساطة تامة أن يستجوب الطفل عن اسمه الحقيقي، وهو طفل يبلغ من العمر عشر سنوات، وكان يمكنه أن يتبنى الاسم الحقيقي، ويناديه باسمه "موسى"، لكن ما حدث هو تغيير الاسم دون تعليق أو استنكار أو تهجين لهذا التغيير، وكل الذين كانوا في القافلة لم ينبسوا ببنت شفة عن هذا التغيير، بل على طول المسافات السردية، وفي سياق كل التحولات الاسمية لم نلف أي انتقاد لهذا التغيير، ولم نلف أي فري أو تشجيب، والأمر يبدو عاديا في وعي الآخرين، وهذا التسليم المطلق بعادة تغيير الأسماء المرتبطة بعادة النخاسة هو في الحقيقة راسخ في البنية الاجتماعية كعادة تمتلك من قوة الوجود التاريخي ما يجعلها تبدو عادية لا تثير امتعاضا أو

[19] المصدر نفسه. ص ن.

استفسارا، ومن هنا يتغير النسق القصدي للاسم، حيث إن اسم "موسى" – كما أومأنا سابقا– نسقه القصدي أقطابه الأبوة والقبيلة والبنوة، أما النسق القصدي الجديد، فهو النسق الذي أنتج اسم "سلاك" مستغنيا ببرودة عن الاسم الأول "موسى"، وهذا النسق ليس أبويا، وليس مرتبطا بالمالك الجديد مباشرة، بقدر ما هو مرتبط بتقاليد البنية الاجتماعية التي تفرض سلطتها على الوعي الفردي، فتأسست كذات موضوعها الطفل، والطفل على مستوى الوعي الجمعي حين فقد حريته بالضرورة يفقد اسمه الأول، وهذا التغيير ناجم عن تغيير الموقع حيث إن الطفل "موسى" حر، أما الطفل "سلاك" فهو عبد، فيكون الاسم الجديد علامة إحالية عميقة إلى العبودية، ومن هنا بدا التغيير الاسمي في سياق العمل النخاسي طبيعيا وضروريا في الآن نفسه من منظور الوعي القصدي الجمعي، وهذا الوعي القصدي معناه تأهيل استقبال الموضوع على مستوى الوعي والشعور، ذلك أن «القصد هو الشعور الفعال الذي يصنع موضوعه في الإدراك»[20]، لكن ما يميز الوعي القصدي هنا هو أنه يتجاوز الفرد ويتأهل على مستوى جمعي، فكان بذلك السيد المالك لهذا الطفل لا يبتكر عادات اسمية مبتدعة، بقدر ما كان يتوخى ترجمة الوعي الجمعي والوفاء لتقاليد البنية الاجتماعية، حيث إن الاسم يصبح ضحية معتقد اجتماعي تستبيحه قصدية سلطوية قاهرة تتجاوز السيد في حد ذاته، وتتجاوز كل احتمالات النقد والرفض.

يستمر التوالد القصدي كلما تغير موقع الطفل، ويستمر معه التغير الاسمي كلما تغير السيد المالك، وكأن الاسم هو ملكية شخصية، ليس لصاحبه بل للسيد يتصرف مع الأسماء بحرية، في حين أن الطفل مجرد من كل مظاهر الحرية، فلا يمكنه التحكم في اسمه كما لم يتحكم به منذ بداية وجوده حين كان الاسم أبويا يحيل إلى الانتماء والحرية والتعالي لكن فقدان الموقع الأبوي سلب الطفل الوعي الإيجابي بالطفولة بعدما سلب منه الاسم الأبوي وتمادى في تغيير أسمائه بحرية مطلقة تغذّيها البنية الاجتماعية وتوجّهها.

[20] كامل، فؤاد. المرجع السابق. ص 166.

والاحتمال الفينومينولوجي يستمد دلالته من الأسيقة الروائية المتعددة التي تحيلنا إلى كون الاسم في المجتمع الموريتاني مقدس وخالد، ولا يمكن أن نتوقع فقدان الطفل لاسمه في سياق تموقعه الطبيعي في كنف أسرته وقبيلته، لكن لمجرد أن يفقد الطفل هذا الموقع يفقد الوعي بالطفولة الحرة، ويفقد تلقائيا اسمه أكثر من مرة، لذلك لما تحول الطفل إلى سيد جديد اسمه "عبد الصمد" تغير اسمه مرة أخرى إلى "بلخير" «فهو سلاك الذي أصبح اسمه في المدة الأخيرة بلخير بإصرار من عبد الصمد»[21] في فترة وجيزة، ثم تغير المالك فتغير أيضا الاسم «اسمه الآن مبروك وليس بلخير»[22] وهكذا يتغير الاسم باستمرار، هذا الاسم الذي كان يفترض به أن يكون ملكية شخصية مقدسة خالدة، تحول إلى قيمة مبتذلة تقلبها الأسيقة، وتنحتها الظروف باستمرار بإزميل الاستعباد والتسلط، وكان يفترض أن يمارس الاسم سلطته وحضوره وهيبته، لكنه تحول إلى سياط تجلد الوعي بالطفولة، وإلى رمال تسفيها الزوابع والرياح باستمرار، وهذا الاسم الذي كان من المفروض أن يتيح لصاحبه صلاحيات ممارسة الهوية أصبح نقمة تجتهد لقبر الهوية.

إن تحول الوعي بالطفولة ارتبط بالتغير الاسمي الذي ارتبط بالتحول القصدي، حيث إن القصدية الأبوية تأسست على الاحتفاء والتبجيل والحرية، ومكّنت للاسم صولجان السلطة، أما القصديات الأخرى فقد تأسست على تدنيس الهوية وعلى الاستعباد، فالقصدية الأولى حررت الاسم من قيود التسلط الأبوي البدئي، أما القصديات الأخرى فقد كبلت الاسم وروضته لخدمتها، على اعتبار أن النخاسة هنا هي في الحقيقة نخاسة اسمية قبل كل شيء تستهدف استعباد الاسم وترويضه ليتسنى لها استعباد وترويض صاحبه بسهولة، وفكرة تغير الاسم في حد ذاتها تشوه الوعي بالطفولة، وتطحن الطفل باستمرار، وتكرر نهبه وسلبه وتجعله يعتقد جازما أنه لن يتمكن من التحرر ما لم يتمكن من التحكم في اسمه، فكان التغيير الاسمي استعبادا ذكيا يبيد باستمرار كل محاولات إنشاد الخلاص وكل إمكانيات

[21] أحمد ولد عبد القادر. المصدر السابق. ص 32.

[22] المصدر نفسه. ص 53.

الرؤية الإيجابية للطفولة، ويتيح للسيد باستمرار التحكم في المملوك، ليس جسديا بقدر ما هو تحكم شعوري فتاك يحول الإنسان إلى حيوان بليد تجره أسماؤه، وتقيده أكثر من القيود.

والاحتمال الفينومينولوجي في هذه الحالة يحيلنا إلى كون الاسم الجديد لو تمكن من التعمير لأتاح فرصة للاستقرار الذي قد يعني الهدوء وتضميد قروح الهوية، وربما محاولات إنشاد الحرية، حيث يتيح الوقت فرصة للتصالح بين الاسم الجديد وصاحبه، وفرصة لتكوين علاقات إنيّة تمكّن الطفل من ترميم أناه، واستعادة عافيته الأنطولوجية، وتحفيز رغبات الحرية، لكن التغيير الاسمي يقمع كل تلك الاحتمالات، ويصيب فكرة المصالحة بالتلاشي فيبقى الأنا دائما مسلوبا منهوكا عاريا من كل حماية، حيث يتحول الاسم من موقع الحماية إلى موقع الافتراس والجلد والقمع، وهذا التحول يتلاءم مع التحولات القصدية الجديدة التي تتوخى الطفل عبدا دائما يستبطن طفولته باعتبارها طفولة خانعة خاضعة، ولا بد أن نومئ إلى أن التغير الاسمي الذي خضع له الطفل في الرواية لم يتوقف أبدا، وأسماؤه كانت كثيرة «حيث وصلت إلى ثمانية أسماء خلال مراحل عمره»[23]، لكننا اكتفينا في دراستنا بالحديث عن الأسماء الأولى (موسى – سلاك – بلخير – مبروك) لأنها ارتبطت بالطفولة كتيمة تحدد دراستنا.

3 – فينومينولوجيا الدلالات الاسمية:

يكمن الاعتياص – لرصد الدلالات الاسمية كما تتبناها النماذج القصدية – في كون الوعي المبدع لا يقدم لنا إجابات كافية ومباشرة، وكما – أومأنا سابقا – نجد الاسم مباشرة دون مقدمات تاريخية تتيح لنا فرصة للتعرف على كيفيات انتقاء الاسم، وعلى كيفيات استبطانه وأسباب اختياره، ومادامت الإجابات السردية المباشرة غير متوفرة فإننا سنلجأ إلى استنطاق الأسيقة السردية وتأويلها عن طريق الاحتمالات الفينومينولوجية التي تؤسس دائما للدلالات الممكنة، دون ادعاء تقديم إجابات مطلقة.

[23] محمد الحسن ولد محمد المصطفى. الرواية العربية الموريتانية. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص 38.

"موسى" هذا الاسم الأول الذي حظي به الطفل في كنف أسرته، ولا يمكن في كل الأحوال أن يكون ارتجاليا، بقدر ما يكون قد خضع لانتقاء وتأهيل، والعادة الاسمية قد تحيل إلى كثير من الاحتمالات لعل أقمنها بالذكر أن اسم "موسى" على مستوى الوعي الأبوي يمثل تاريخا عاطفيا معينا، يجعل الارتباط بهذا الاسم والتعلق به وتفضيله عن غيره من ملايين الأسماء ممكنا جدا، وفي كل الحالات يبقى الاسم من صلاحيات الغير، سواء أكان هذا الغير أبا أم أما أم غيرهما، ويبقى صاحب الاسم مجردا من تلك الصلاحيات، لأن عليه أن يرضخ لهذه الإرادة الاسمية بطريقة ما، وحتى إن أتيحت له الفرصة لرفض سلطة الغير الاسمية فذلك – على الأقل – سيكون متأخرا، وقد يكون ممكنا في حالات تجاوز مرحلة الطفولة، وهكذا يتعايش الطفل مع اسمه بغض النظر عن التفكير في الكيفية التي وسم بها بل كثيرا ما تشغل بال هذا الطفل الكيفيات التي تؤهله ليكون في مستوى هذا الاسم؛ بمعنى في مستوى من كانت لهم صلاحية انتقاء الأسماء، لذلك يرتبط اسم "موسى" – في الحقيقة – بالأبوة أكثر من ارتباطه بالطفل، لأن فكرة الاسمية تكون قد عاشت مخاضا معينا وخضعت لكثير من مراحل الاجتهاد والانتقاء، وحتى لا نلح في رصد التفاصيل التاريخية يمكننا احتمال أن الاسم في النهاية هو نتيجة تحولات انتقائية، سواء أكانت هذه التحولات الانتقائية واعية أم غير واعية، بما أن الأبوة – غالبا – تتوخى انتقاء الأفضل، وهذا الأفضل سيكون مرتبطا بها كل الارتباط، والمقصود هنا هو أن الأفضل يحيل دائما إلى طموحاتها وأحلامها واهتماماتها وتمنياتها وأساطيرها واعتقاداتها، ومن هنا تكون فكرة الانتقاء هي إحالات للموقع الوجودي بكل ما يحمله هذا الموقع من بنيات معرفية موغلة في اللاشعور البشري، تجعل الاسم ظاهرة بشرية بامتياز، تواكب كل التواريخ المتواشجة بامتياز، أو لعلها تصنع تلك التواريخ، أو ربما تحاول بعثها بنمط ثقافي جديد، لكنه دائما يرتبط بالماضي والحنين الفطري للماضي ومحاولات تقمص الماضي، وكأن الاسم نمط للحفاظ على السلالة البشرية، وتحقيق للخلود والأبدية المزعومة، وإلا ما تفسير تكرار الأسماء، وهل يمكن أن تكون اللغة بكل طاقاتها الخلاقة عاجزة عن توليد الابتكار الاسمي؟. كان يمكن أن تباد الأسماء وتفنى كما

يفنى أصحابها، لكن كثيرا منها مازال يعيش خالدا بيننا منذ ملايين السنين لا يطاله العفاء أو الفناء و«إذا كانت كل الأشياء آيلة إلى الزوال فإننا نحتفظ منها بأسماء خالصة»[24] ومازال اسم "آدم" أبي البشرية يعيش بيننا في هذه اللحظة بالذات، حيث إن كثيرين يتحمسون لهذا الاسم، ومازالوا لحد الساعة يسمون أبناءهم "آدم" ولا يهمهم كم "آدم" وجد على هذه الأرض و"موسى" هو الآخر يجعلنا نتساءل كم "موسى" على وجه هذه الأرض أو تحتها أو من هم قادمون ويتربص بهم هذا الاسم؟

لقد ارتبط اسم "موسى" بالنبوة، ولذلك يستمد هذا الاسم سحره من هذه النبوة، والأسماء المرتبطة بالنبوة هي أقوى الأسماء خلودا بين البشرية، وأكثرها رواجا وتداولا، وأبهرها تناسخا وبعثا. لا ندري بالضبط كم "موسى" كان قبل النبي "موسى" لكننا نعتقد أنهم قليلون جدا أو ربما نادرون، أو ربما غير موجودين أصلا، في حين أننا نعي جيدا أن ملايين "موسى" جاؤوا بعد "موسى"، وأن هذا الاسم هو من الأسماء التي قدّر لها أن تبقى خالدة تمارس سحرها وكل إمكانياتها الإحالية، ولا يمكن أن يكون "موسى" إلا نموذجا انتقائيا بامتياز، لأنه بفضل قوته الانتشارية الهائلة ما فتئ يرتبط كل الارتباط بالنبي "موسى"، لذلك كائنا من كان اسمه "موسى" وجب عليه بطريقة أو بأخرى أن يتحمل عبء هذا الانتماء النبوي، لأنه لا يمكن لأحد أن يناديك "موسى" وينسى "موسى"، ولأنه «من غير العادي استعمال اسم علم إذا لم نفكر بأن هذا الاسم يقول شيئا ما لمخاطب»[25] وسيبقى التاريخ النبوي حالّا في هذا الاسم شئنا أم أبينا، لذلك كانت فكرة الانتقاء الاسمي – غالبا – تمتح من الماضي، وتختار أوفر الأسماء قوة وقداسة وشيوعا حتى يكون الاسم مشحونا بقوة تاريخية تؤهله ليحظى بالتبجيل والاحتفاء، في حين يعد ابتكار الاسم نوعا من التخلي عن الماضي وعن التاريخ البشري، وهذا – غالبا – لا يلقى استحسانا واحتفاء، لا لشيء إلا لأنه لا يمنحنا تواصلا مع الماضي؛ هذا الماضي الذي يعني إقصاؤه إلغاء الوجود البشري، والتنكر لكل المقدسات والتواريخ والعادات والحضارات والثقافات.

---

[24] إيكو، أومبيرتو. حاشية على اسم الوردة. ترجمة: سعيد بن كراد. القبة، الجزائر: دار كرم الله للنشر والتوزيع. ص 11.

[25] تودوروف، تزفيطان. مفاهيم سردية. ترجمة: عبد الرحمن مزيان. الطبعة الأولى. منشورات الاختلاف، 2005(م). ص 100.

إن "موسى" هو نموذج انتقائي للتواصل مع الماضي، فهو الحلقة التواصلية بين الحاضر والماضي، لذلك هو أخطر توجه عقدي للأبوين، لأن الاسم من شأنه تضييق الهوة بين الحاضر والماضي أو توسيعها، ذلك أن صاحبه مرغم بطريقة أو بأخرى على التنبه لما قد يثيره اسمه من دلالات، ومرغم على التورط في قراءة التاريخ وبعثه من جديد، ومرغم كذلك على تأويل كثير من مواقف الحياة تأويلا يتماشى مع تاريخ الاسم، ومع هذا التاريخ النبوي الذي يفرض نفسه وحضوره على صاحب الاسم، وعلى أولئك الذين يتعايشون مع هذا الاسم أو يرتبطون به، لاسيما على مستوى الإبداع الذي يكون أكثر لغزا وتكثيفا وغواية حين يتعلق الأمر بالاسم وبانتقاء الاسم، فكما تتبنى الأبوة انتقاء الأسماء، فكذلك الوعي المبدع لطالما يكون مهوسا بالانتقاء، وفي كل تلك الأسيقة تكون الأسماء نموذجا قصديا بامتياز يمكن لمحاولات رصده أن تثير كثيرا من الأفكار، وكثيرا من المتاعب أيضا.

لقد أومأنا سلفا إلى أن الطفل فقد وعيه الإيجابي بالطفولة حين فقد اسم "موسى" وتغيّر اسمه لما استعبد، وكان من الممكن أن يبقي الأسياد على الاسم الحقيقي للطفل لكنهم تجاهلوه تماما وقاموا بإقصائه، ولعل من بين الأسباب الوجيهة – إضافة إلى الاحتمالات التي قدمناها من قبل– أن اسم "موسى" في فخامته الدلالية وقداسته التاريخية وانتمائه النبوي ما يتعارض كل التعارض مع فعل النخاسة، ولذلك لم يتجرأ الأسياد على إبقاء الاسم النبوي، لأنه يتنافى مع العبودية ويقوض سلطتها، حيث إن اسم "موسى" يفقدهم هيبتهم وتجبّرهم، ويثير فيهم خوفا قديما لا يمكّنهم من التطاول على المقدسات، ومن هنا كان السبيل الوحيد للتعامل مع هذا الرهاب التاريخي هو التخلص من الاسم، حيث إن التخلص منه معناه التخلص من أعباء الولاء لهذا الاسم، وبالتالي ييسر استعباد الطفل مادامت سلطته الاسمية قد انتفت واختفت، وكل ما كان يضطلع به الاسم المقدس من حماية قد اندثر لمجرد فقدان الطفل لهذا الاسم، بمعنى أنه فقد كل شروط الأمان والحماية، وبات عاريا تنهشه سياط النخاسة، حيث أسماء جديدة (سلاك – مبروك – بلخير) وكلها أسماء خاوية من كل قداسة ومن كل نبوة وقوة، ودلالاتها التاريخية والدينية ضعيفة يسهل التطاول عليها وتدجينها، لذلك ارتبطت النخاسة بتغيير الاسم وفق ما يتماشى مع الرؤية للعبيد التي

تتأسس على كون العبد خانعا خاضعا وضرا، تافها خادما، وفيا لأسياده، ولا بد أن يكون اسمه كذلك خادما لهم، وفي مستوى اعتقادهم الراسخ بضرورة الاسم لتحقيق سلطتهم، أما "موسى" فهو يتعارض مع هذه السلطة، لأن مجرد التلفظ به يلغي كل أنماط الاستعباد ويغرق التسلط الفرعوني في يم أجاج، ويثير كثيرا من الارتباك والتواري والانحناء، مثل الساحر الذي إذا ذكر له "موسى" أصابه الغثيان، وطفقت لخلده صور أجداده حين جثوا أمام "موسى" خانعين خائبين، فكان لزاما أن يتخلص السيد من الاسم المقدس، لأنه يتخلص من تبعاته ومن أعبائه، ويجيء باسم جديد يضفي به مشروعية على أعماله النخاسية، وما تتطلبه تقاليدها من إغماط واحتقار وإذلال وإهانة واستعباد، فكان التخلص من الاسم ليس تخلصا من سلطة الأبوة والانتماء بقدر ما هو تخلص من سلطة الاسم في حد ذاتها، وعدم القدرة على مواجهته واستعباده وتدجينه، فكان أن يسر استعباد الطفل، لكن استحال استعباد اسمه، وإنه لمن الغريب أن تكون – أحيانا – أسماؤنا أقوى منا بكثير.

ما يثير الانتباه هو أن الطفل كان قادرا – حين أصبح شيخا واستعاد حريته – على أن يستعيد اسمه المقدس، فرغم احتفاظه به في الذاكرة دائما إلا أنه لم يقو على استرجاعه حيث كان بإمكانه – حين عرضت عليه خدمات تمكينه من بطاقة هوية – اقتراح اسم "موسى" والتخلص من رباق أسمائه المتغيرة، لكن المفاجأة أن تقبّل اسما متغيرا جديدا: "سالم"، وكأنه استوعب هويته من حيث هي هوية لا تستطيع أن تكون في مستوى الاسم المقدس، فهو الآخر استوعب وضعه المزري الذي يتنافى مع رهبة الاسم وعظمته، وأدرك أنه لن يكون في مستوى الاسم النبوي، لذا تنازل عن الاسم، لأنه اسم ليس بالمقدور التعايش معه، وليس باستطاعة "سالم" أن يكون "موسى" في كل الأحوال، حيث إن التناقض صارخ بين "موسى" وبين "سالم"؛ بين تاريخ من النبوة والقداسة من جهة، وتاريخ من النخاسة والاستعباد والإذلال من جهة ثانية، وبين وعي بالهوية باعتبارها هوية تحتفي بانتمائها وحريتها وتوهجها من جهة، ووعي بالهوية باعتبارها هوية مسلوبة مستعبدة مشوهة من جهة ثانية.

من خلال ما سبق يتجلى لنا أن اسم "موسى" حافظ على توهجه وقوته ووجوده، فهو اسم محوري لم يستطع أحد العبث معه أو الحط من قيمته، وقد مارس هذا الاسم سلطته على مستوى الوعي الأبوي، وعلى مستوى وعي الغير، وعلى مستوى الوعي الذاتي أيضا فكان حضوره دليلا على قداسته وقوته، وكان تغييبه أيضا دليلا على رهبته وعظمته، فصار يتمتع بنفوذ كاف يتيح له التناسخ في صور متعالية من الفخامة والقداسة والحرية المطلقة دون الحاجة لأية قرينة لغوية تعزز دلالاته النبوية، فهو اسم غني عن التعريف، قوي بما يكفي ليعرّف عن نفسه بنفسه، تاريخه مخبوء في عمق الوجود البشري، لذلك اكتفى الوعي المبدع بتقديمه هكذا "موسى" دون ألقاب ودون لفظة "بن" ليحيل إلى عظمة هذا الاسم المقدس، وبما أن عظمته تتنافى مع ما آل إليه حال الطفل، فقد كان لزاما التنازل عن الاسم مثلما تنازل الطفل عن وعيه الإيجابي بالطفولة وعن حياته الأبوية المترفة، وتنازل عن جاهه وانتمائه غصبا، فهذا الذي كان يفترض به أن يكون نبيا – حيث إن النبوة هنا هي القدرة على التغيير والتشريف والحرية – لم يفلح في ذلك، وعاش ضحية للقهر والتقزيم والتسخير فلم يكن بذلك في مستوى النبوة، ولم يعد جديرا بهذا الاسم، كما أن المجتمع الذي يمارس نخاسة الأطفال واختطافهم وتسخيرهم ليس في مستوى التعايش مع هذا الاسم، ولذلك جاء "موسى" لكنه غاب ورحل بسرعة، ولكي يعود "موسى" من جديد يحتاج مجتمع الرواية لتأهيلات عديدة ولتغيرات جذرية مختلفة.

إن الأسماء الأخرى (سلاك – بلخير – مبروك) التي تهافتت على الطفل تبدو من الوهلة الأولى أنها ملك للأسياد، أما "موسى" فهو الاسم الذي يمتلكهم، ويفترض أن يكونوا عبيدا له، لأن لديه من القوة ما يمكّنه من السيطرة عليهم، لذلك تملصوا من رباق هذه السيادة الاسمية عن طريق أسماء لا تملكهم، بل يمكنهم امتلاكها وتخضيعها، وهي –غالبا– أسماء من صنيعهم وابتكار عاداتهم وتقاليدهم النخاسية، ولا تحيل إلى دلالات مقدسة أو تحرّض على الحرية، أو تبعث على تفخيم الأنا، أو ترتبط بماض تليد، وهي أسماء خاوية من كل توهج تاريخي أو بطولي، و«أسماء مفرغة من شحناتها المعنوية وتخلو من

الأوصاف والمرجعيات وتبتعد عن النماذج التاريخية»[26]، ولهذا كان انتقاؤها في حد ذاته براعة نخاسية، حيث إن الاسم – في هذا السياق – هو مجرد اسم خاوي الوفاض لا يعزز إلا العبودية والخضوع، وسلب الطفل من كل إرادة، ومن كل وعي إيجابي بالطفولة، فهو هكذا مجرد "سلاك" ومجرد "بلخير" ومجرد "مبروك"، وهذا السلاك والخير والبركة كلها في خدمة الأسياد، ونمط اسمي للتفاؤل، يجعل من الحتمي أن يكون هذا الطفل في مستوى أسمائه النخاسية الجديدة؛ بمعنى في مستوى تطلعات الأسياد، لذلك تلغى الذات الإيجابية وتغيب رغباتها وتقمع، ليكون الطفل فقط عبدا لأسمائه، وعبدا للأسياد مادام الاسم في حد ذاته عبدا للسيد، هذا الأخير الذي يبدي رغباته من خلال المعاني التي يضمّنها للاسم فيكفي أن ينادى الطفل بـ "بلخير" ليعي أن المطلوب منه هو توفير الخير للسيد، ويكفي أن ينادى بـ "مبروك" ليلزم بتوفير البركة، وهكذا هو عبد مادام في خدمة معاني أسمائه، وإن صادف وأن تناقض وجوده مع اسمه فسيكون مصيره البيع أو القتل، ولذلك نتج الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة مملوكة تستعبدها الأسماء النخاسية وتقمعها.

لقد ارتبطت باسم "موسى" كل النعوت الجميلة الفاتنة التي تليق بمستوى هذا الاسم النبوي المقدس، ولا يمكن بأي حال أن ترتبط نعوت النخاسة بهذا الاسم، لأن تناقضا صارخا سيهشم فكرة الوجود، لذلك تخلص السادة من صفتي (الغالي – الحبيب) التي ارتبطت بالاسم المقدس، وبذلك تخلصوا من كل النعوت المقدسة المحتملة، واستعاضوا عن الاسم المقدس بأسماء ضعيفة الانتماء ومشوهة النسب، فأتيحت لهم الفرصة وسيعة لممارسة لغتهم النخاسية بأريحية وحرية: «أرأيت أيها المجرم؟»[27] وفي سياق آخر: «أسرع يا خشبة جهنم»[28].

والملاحظ على الأسماء النخاسية أن الأسياد ينتقونها بما يتناسب مع أحلامهم وطموحاتهم، لذلك يعتبرونها من أملاكهم الخاصة، فإن وقع وغادر العبد أو قتل أو اختطف

---

[26] بن عثمان، حسن. أطفال بورقيبة. بيروت، لبنان: دار التنوير، 2011(م). ص 77.

[27] أحمد ولد عبد القادر. المصدر السابق. ص 41.

[28] المصدر نفسه. ص 53.

فإنه مجبر على ترك الاسم، ولذلك كانت الأسماء النخاسية تحيل إلى التفخيم وتضخيم أسماء الأسياد، ولذلك ارتبط اسم "سلاك" بالسيد "أحمد سلوم"، وارتبط اسم "بلخير" بـ "الشريف عبد الصمد"، وارتبط اسم "مبروك" أيضا بأسياده، وهكذا تكون قوة المالك بقوة الأسماء التي يمتلكها، فلطالما كان العبد اسما، ولطالما كان الاسم ملكا للسيد، ولذلك يتفنن السيد في الانتقاء، ويختار أسماء الخير والبركة، لأنه في النهاية ينتقي لنفسه، ويحرص على انتقاء ملكيته ويحافظ عليها، أما العبد كجسد فالاسم ليس من حقه، بل هو عبد لاسم سيده، فكانت الأسماء بذلك أسماء للأسياد، أما العبيد فهم كومة من الأجساد الغارقة في الشقاء لا يملكون شيئا من الأسماء، وما يحظون به فقط هو تلك النعوت المشينة، وكثير من السب والضرب: «عبد الصمد يضربني كل يوم»[29]، لذلك لا يمكن أن يكون الاسم هو العبد نفسه، لأن فكرة القصدية تتناقض مع نفسها، فالقصدية التي يتأسس فيها الاسم ظاهرة مفعمة بالاحتفاء والانتقاء، أما القصدية التي يتأسس فيها العبد ظاهرة فهي قصدية مفعمة بالإغماط والازدراء وشتان بين الاحتفاء والازدراء، لذا تكون علاقة الاسم بالعبد هي علاقة تناقض يفسره الفعل النخاسي الذي يقوم على السلب والقمع، واضطهاد كل محاولات التحرر والوعي الإيجابي بالطفولة، فمادام العبد لا يملك اسمه لا يمكنه أن يملك حريته، وسيكون مستعدا لتقبّل كل الأسماء وكل النعوت وكل الأعمال.

ولكي يكون الاسم النخاسي قامعا بما يكفي فقد جرّده الأسياد من كل القرائن اللغوية التي قد تحيل إلى أي بعد إثنوغرافي، حيث إن الاسم النخاسي خال من كل لقب، وخال من لفظة "بن"، فهو هكذا اسم وحيد عار من كل انتماء قبلي أو دموي، كأن هذا الطفل ولد هكذا دون أب أو قبيلة أو أسرة، وتجريد الاسم النخاسي من كل تلك الدلالات اللغوية يكرس فكرة العبودية، فهو ليس مدينا لأي انتماء، ولا يمكن أن يكون مدينا إلا للسيد الذي وسمه وامتلك اسمه، كما أن الاسم الوحيد لا يثير أي فضول بغية التفتيش يوما عن الهوية الحقيقية، وبذلك هو إلغاء لكل العناوين المحتملة للحرية، ووصاد لكل الأبواب، لكي يبقى العبد غارقا في

[29] المصدر نفسه. ص 40.

وحدته الاسمية إلى الأبد، ومن هنا تأتي المفارقة الاسمية، حيث إن اسم "موسى" يستغني بقوته الإحالية عن كل القرائن اللغوية، أما الأسماء النخاسية التي أطلقت على الطفل فإنها لا تمتلك تلك القوة، وزادها ضعفا أن عزلت عن كل القرائن اللغوية والإثنوغرافية، فكانت تناقض كل التناقض الاسم المقدس، وكانت سببا وجيها للوعي بالطفولة السلبية باعتبارها طفولة مهزومة مستعبدة.

مما سبق يمكن القول إن الطفل في رواية "الأسماء المتغيرة" كان عبارة عن اسم، بكل ما يوحي به هذا الاسم من دلالات، وما أثاره من تغيرات تحكّم فيها التوالد القصدي الذي تغير من النقيض إلى النقيض، ومن القصدية الأبوية والاسم المقدس إلى القصدية النخاسية والأسماء الاستعبادية، ومن الوعي الإيجابي بالطفولة إلى الوعي السلبي بالطفولة، لكن في النهاية حافظ الاسم المقدس على فتنته ورهبته وجاهه، رغم أن الطفل لم يستطع أن يكون يوما في مستوى عظمة هذا الاسم، بل كان دائما وعيه بطفولته أسير أسمائه المتغيرة، حيث تمكّن الفعل النخاسي من تعرية الطفل وسلبه لاسمه المقدس، وتحويله إلى عبد تحترفه العبودية، ولذلك انتهكت حريته وقمعت، أما كون الاسم المقدس قد حافظ على فتنته وقداسته، فذلك يكمن في كون الفعل النخاسي لم يتجرأ على تدنيس الاسم، واكتفى بتغييبه وعدم القدرة على مواجهته، وقد تحققت هذه القصدية في حال لم يستطع فيها الطفل أن يكون في مستوى اسمه المقدس، وضعف مستويات وعيه وقلة حيلته أجبراه على التنازل عن اسمه وهذا يعني أن العبودية قد تمكنت من الطفل، فلم يستطع حتى وهو شيخ حر أن يتجرأ على استعادة اسمه أو المطالبة به، فكان أن دنّست هوية الطفل وتدنست رؤيته للطفولة، لكن لم تدنس هوية الاسم، وكان أن عاش الاسم حرا متميزا قويا، ولم يعش الطفل كذلك، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل تخلى الاسم عن الطفل أم أن الطفل هو الذي تخلى عنه؟ بغض النظر عن الضغوط التي أحاطت به وعن الظروف التي أنهكته، وفي الحقيقة يبدو – ظاهريا – أن الطفل حين صار شيخا تخلّى عن الاسم بإرادته، لأنه اختار اسم "سالم"، في حين أن هذا التخلي يحيل – باطنيا – إلى تلك التحولات القصدية التي فرضت الانفصال فرضا تعسفيا، رغم أن الاسم في حقيقته وفي كل الحالات هو فرض تعسفي، لكن

شتان بين فرض تعسفي تكون غايته إيجابية، وفرض تعسفي غايته نخاسية استعبادية، ولذلك يحيلنا الاحتمال الفينومينولوجي إلى إشكالية عدم قدرة الطفل على مواجهة التحولات القصدية، فلطالما حوّله الغير إلى ظاهرة لها ماهيتها السلبية، ولم يستطع أن يحولهم – بدوره – إلى ظاهرة يمكن اكتشاف ماهيتها، على أن قصديته إزاء الاسم الأبوي المقدس كانت إيجابية، وبالتالي كانت الرؤية للطفولة إيجابية تتميز بالتقبل والاحتفاء، أما قصديته إزاء الأسماء النخاسية فكانت تتميز بالرفض والاستنكار، حيث «تعجب لماذا لا يدعى باسمه الحقيقي؟!»[30]، وكان – حينها – الوعي بالطفولة سلبيا، باعتبارها طفولة مستعبدة مسلوبة لكن طفولته لم تمكنه من التمسك بالاسم المقدس، ومن رفض الأسماء المتغيرة، لذلك يستهدف العمل النخاسي الأطفال لأنه ييسر السيطرة عليهم وعلى أسمائهم، وييسر التلاعب بهم والعبث بعقولهم، وتشويه هويتهم على مستوى الوعي بالطفولة.

في النهاية الانتقاء الاسمي من أهم ما يميز الوعي البشري والحضارة الإنسانية، وهو في الآن نفسه من أخطر الأشياء التي يجب أن نوليها اهتماما بالغا وعناية كبيرة، ويمكن أن يكون الاسم مفتاحا لكثير من الألغاز الوجودية والتاريخية، إذا استهدف بدراسات جادة وبتنقيب تيماتي جاد، كما أن الاسم شكّل أوار التجارب القصدية، ولطالما كان تيمة ثرية في إحالاتها إلى العلاقات المعقدة بين الوعي (الذات) والموضوع، لأنه كثيرا ما يختصر الذات والموضوع معا، وكثيرا ما يتحكم في زمام التوالد القصدي، وفي تحولات الوعي بالطفولة، كما يمكننا أن نقول بنبرة من الثقة إن الإنسان اسم قبل كل شيء، تلك الأسماء التي تسبقنا دائما وربما تسبق خروجنا من الرحم أحيانا، وتبقى معنا وتبقى بعدنا، تلك الأسماء الموجودة على كل أوراقنا ودفاترنا، وفي سجلات وفياتنا، وفوق قبورنا.

ب – تيمة الطفل اللقيط:

وصف الهوية من حيث تجلياتها السطحية يوقع في شرك الممارسة الممحلة، لأنه لا يقدم مبررات كافية لأنطولوجيا الهوية بأبعادها المعقدة وتعلاتها المتشعبة، أما البحث في

[30] المصدر نفسه. ص 12.

الهوية من خلال رصد العلاقات الإنتاجية فيتيح فرصة لإعادة صياغة القوانين التي أسست الهوية، على اعتبار أن هوية الطفل في النهاية هي تلك العلاقات الإنتاجية والقوانين الفينومينولوجية التي تنوس بين البداية والنهاية عبر امتداد زمني معين. والمقصود بالبداية هو ماهية العلاقات الأولى التي تنتج الطفولة، أما المقصود بالنهاية فهو ماهية العلاقات المتأخرة التي تعيد إنتاج الطفولة وتؤهلها.

علاقات البداية ← **الطفولة** → علاقات النهاية

علاقات البداية المتباينة كالعلاقات البيولوجية والاجتماعية والغيرية، وغيرها من العلاقات التي تنتج هوية الطفولة، وهي هوية تحتاج لتأهيل فينومينولوجي، حيث تبقى فيها كثير من الفجوات والدلالات الغامضة، وبعد مرور مرحلة الطفولة بمستويات الهوية الأولى يعود الإنسان – بعد مرحلة الطفولة – عن طريق صيرورة علاقات النهاية لتلك الطفولة ليؤهلها ويعيد إنتاج بعض دلالاتها وتفاصيلها، ولذلك ليست هوية الطفل هي علاقات البداية المرتبطة بالماضي فقط أو هي علاقات النهاية المرتبطة بالمستقبل فقط، بل هي التقاء علاقات البداية بعلاقات النهاية، والتقاء علاقات الماضي بعلاقات المستقبل على مستوى وعي الذات «على اعتبار أن الشخصية تتحدد بتأويل الماضي والمستقبل في وعي الذات»[31]. كما أن صيرورة هذه العلاقات الأنطولوجية ليست في اتجاه واحد بل هي عكسية ومن هنا تتوخى هذه الدراسة رصد تلك العلاقات، والتحقق من القوانين التي تحكمها مهما بدت فوضوية، لأن الفوضى في حد ذاتها تحيل إلى قانون ما.

1 – علاقات البداية:

سننطلق من فرضية أن علاقات البداية هي علاقات محايثة عن وعي الطفل، وهي في الآن نفسه علاقات تتسم بكثير من الصيرورات الحتمية، على اعتبار أن الطفل – مثلا–

[31] واط، أيان.الأدب والواقع. ترجمة: عبد الجليل الأزدي. محمد معتصم. الطبعة الثانية. الجزائر: منشورات الاختلاف. ص 22.

لا دخل له في وجوده الجنيني، ولا يمكنه أن يختار والديه أو يختار اسمه أو ملامحه الجسدية. قد يمكّنه الأنا الغريزي من ممارسة بعض الأفعال التحررية، لكنها في النهاية حرية مصفودة، مما يجعل الهوية في البداية تنتجها علاقات فوقية تتجاوز فرضية الإنتاج الذاتي ولذلك سنحاول أن نبدأ من حيث تمكننا المعطيات السردية من البداية، لأن الدراسة يجب أن تتوخى هوية الطفل في رواية "أطفال بورقيبة"، ولا تتوخى هوية أي طفل آخر، وذلك مراعاة لخصوصية الوعي الروائي الذي يفرض تقبل النتائج مهما كانت شاذة أو متناقضة، ولذلك تتيح لنا الرواية فرصة دراسة علاقات البداية عن طريق تحديد بعض المستويات، والمعيار في اختيار تلك المستويات هو الهيمنة الدلالية والإلحاح التيماتي.

1-1-مستوى التأسيس البيولوجي:

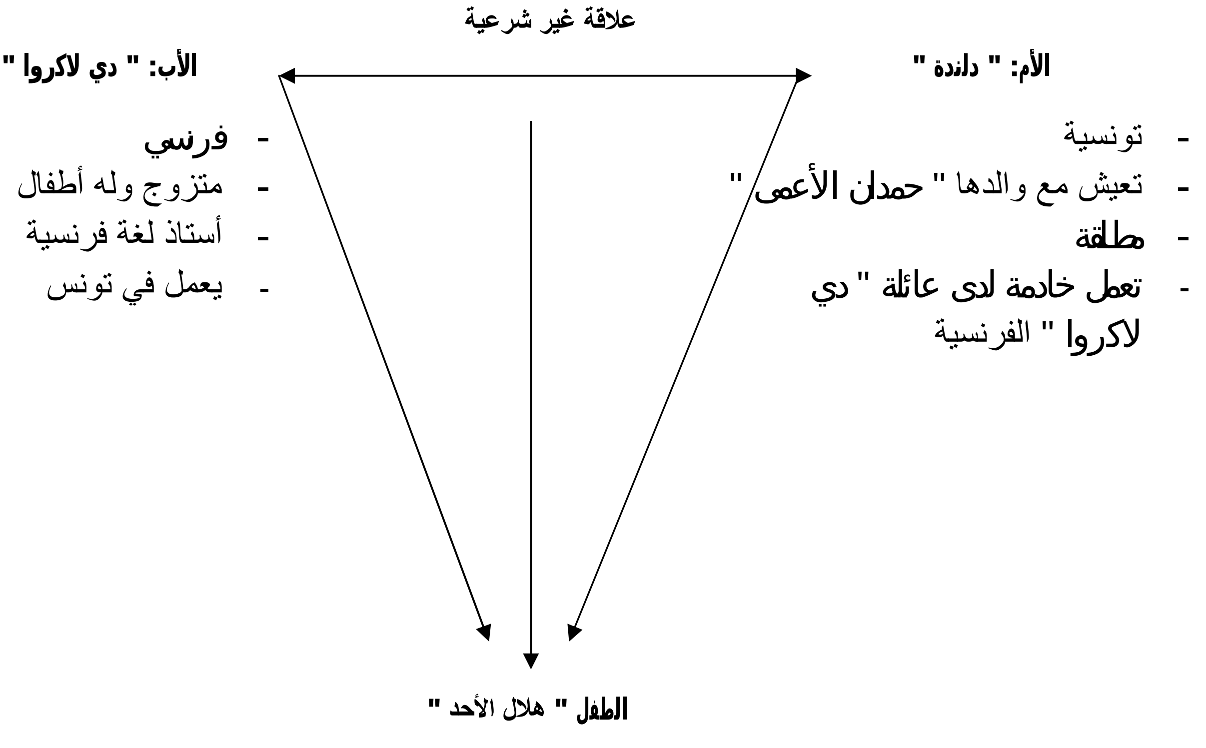

1-2- مستوى الرؤية الفينومينولوجية للطفل:

- **الأم:**

لا تومئ الرواية إلى تخطيط مسبق من الأم للإنجاب، بل الأمر عندها غير متوقع وفجأة تحيلنا الرواية إلى رؤية لهذا الطفل الجنين، حيث يوضح الوعي المبدع أن الأم قررت الاحتفاظ بالجنين، وذلك تعبيرا منها على مدى ولعها وشغفها بعشيقها، وكأنه برهان ملموس لهيامها به، فلطالما أعجبها "دي لاكروا" إلى درجة الغواية، وفتنتها صفاته الخلقية والخلقية ولم يهمها الجنين في حد ذاته، لأننا لا نلفي أي مشاعر ظاهرة أو علامات اهتمام بائنة تجاه هذا الجنين، وما نلفيه من مؤشرات لا تحيل إلا إلى نوع من اللامبالاة وعدم الاكتراث، إلى درجة أن الأم كانت تضطر للنوم على بطنها حتى لا يظهر الجنين للعيان، وعندما أنجبت ارتبكت في اختيار اسمه، وبعد يومين اتجهت مباشرة للملجأ وسلمته دون وجل أو ارتباك أو غصة، وكلها مؤشرات تومئ إلى ضعف مستويات التواصل العاطفي مع الجنين، وتبين مدى استعداد الأم للاستغناء عن هذا الجنين منذ البداية.

- **الأب:**

طبعا "دي لاكرو" لم يخطط هو أيضا للإنجاب مع "دلندة"، لكنه لم يجبرها على الإجهاض، وبدا يتلذذ بهذا الوجود الجنيني، حيث تصف الرواية أن البطن المنتفخ بعروق الدم يدهشه ويغريه، لكن هذا المشهد الإغرائي لطالما كان جذوة للشبق، حيث ينتهي بممارسة الجنس وحمى الانفعال الإيروسي، وما يهمنا أكثر هو أن "دي لاكرو" وهو يتلذذ بجغرافيا تضاريس البطن يقيم حوارا مع الجنين، نستوعب من خلاله الرؤية الظاهراتية لهذا الجنين، وفحوى الخطاب الأبوي هنا يتمحور حول استحضار أبيات شعرية للشاعر "جبران خليل جبران" يتحدث فيها عن الأطفال، ومغزى هذه الأبيات يتمركز حول ضرورة استقلالية الطفل عن والديه، ولذلك نعي أن "دي لاكرو" منذ البداية يتبنى فلسفة تروّج لضرورة منح هذا الطفل فرصة للاستقلال واليتم منذ البداية، وما يؤكد ذلك أن "دي لاكروا" هو من قدم كل

التوجيهات للأم "دلندة" بخصوص المستشفى والملجأ والقوانين، وشجعها بذلك على التخلص من الطفل.

مما سبق يثبت تواطؤ بين الأم والأب على المعطيات التالية: (حمل غير متوقع – الاستغناء التام عن الطفل) والحقيقة أن الظروف التي هيأت لفكرة اللقيط ليست العلاقة غير الشرعية في حد ذاتها – لأن العلاقة غير الشرعية كان يمكن أن تتجنب الحمل غير المتوقع – بل إن المناخ الذي أتاح لهذا الجنين فرصة الظهور هو المناخ الذي هيّأ لفكرة اللقيط، ولعل هذا المناخ هو القانون البورقيبي الذي يسّر كل السبل والإجراءات، وذلل كل الصعوبات، فلو كان هناك قانون رادع لتوقعنا نتيجة أخرى، فحتى لو كانت الأم لا حول ولا قوة لها، فالأب أستاذ وفرنسي مثقف يمكنه تجنب الحمل، كما يمكنه تدبر أمر الإجهاض منذ البداية تجنبا للمضايقات القانونية، ومادام القانون الرادع معدوما لم يساور الوالدين أي قلق أو خوف. وفي سياق التأويلات السابقة تتسع دائرة العلاقة التواطئية لتتحول من علاقة ثنائية بين الأم والأب إلى علاقة ثلاثية بين الأب والأم والقانون.

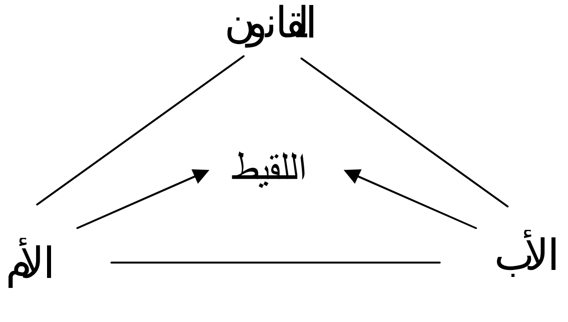

هذه العلاقة الثلاثية يغذيها ويصونها القانون عن طريق تبني فكرة المسؤولية وتحمل عبء الأبوة والأمومة معا، وإعفاء الأب الحقيقي والأم الحقيقية، ليجسد كل ذلك في النهاية الملجأ الذي تتكفل به الدولة التي هي القانون، والقانون هو "بورقيبة"، ولذلك تتحول الأبوة من أبوة بيولوجية إلى أبوة قانونية، تسعى لتحصين نفسها وإضفاء الشرعية والخلود، حيث هيأت هذه الأبوة القانونية المناخ المناسب للتواصل البيولوجي غير المشروع، وحولته إلى مشروع عن طريق التحايل السياسي، ولعل ذلك يوعز إلى أن الأبوة القانونية لا يمكن أن تحقق

هويتها وتحولاتها وشرعيتها بالاعتماد على تشجيع التواصل البيولوجي المشروع، فقنّنت هذا التواصل وقلصته وحددته لأنه يهدد شرعيتها، وبالمقابل أبدت استعدادا تاما لرعاية اللقطاء وهو تشجيع غير مباشر للتواصل البيولوجي غير المشروع، فالمشروع في هذا السياق ملك لصاحبه، أما غير المشروع فهو ملك للدولة، ولهذا استوعب "دي لاكرو" هذه الحقيقة منذ البداية، وكان وفيا لمشروع الدولة، مرشدا "دلندة" الأم إلى الإجراءات القانونية السليمة التي تتيح تسليم الابن إلى الأب القانوني "بورقيبة"، حيث تعتبر الأم في هذه الحالة وكأنها أم مستأجرة والأب كذلك، استأجرهما القانون البورقيبي لتأدية الوظيفة البيولوجية، وأجزل لهما بالمقابل التسهيلات القانونية، ويسّر لهما الإجراءات ووضحها، ولعل ذلك محاولة جادة للتخلص من سلطة الأبوة الشرعية التي تنافس سلطة الدولة، فكان ضروريا إقصاء هذه السلطة وتجريدها من قوتها وروابطها، وإفراغها من محتوى المعارضة، وتحويلها إلى أبوة غير شرعية ييسر ترويضها وتدجينها، والطفل عندما تنكّر له الرحم البيولوجي احتضنه الرحم القانوني الذي خطط لضرورة أن يجهل الطفل الأبوة البيولوجية وأن يناصبها العداء، وأن يعي الأبوة القانونية ويمتن لها ويفي لها، كما خططت الأبوة القانونية لضرورة أن يجهل الطفل تاريخ المؤامرة القانونية ومسرحة الأحداث، وأن يعتقد دائما ببطولة هذه الأبوة التي انتشلته من الضياع، ويعتز لكونه طفلا من أطفال بورقيبة، أو على الأقل يرضخ لهذه الإرادة الأبوية من حيث لا يدري.

من جهة أخرى يعرف عن "بورقيبة" رغبته العظيمة في تأسيس دولة وفق معايير الرقي والتحضر والتمدن، فقد «حرص بورقيبة على تحديث تونس ونجح في هذا الهدف الذي شكل أحد الثوابت الهامة في حياته»[32]، وهذه الرغبة العظيمة في التحديث لا يمكن أن تتحقق إلا إذا تحول الشعب من فكرة الولاء للتعصب القبلي إلى فكرة الولاء لأفكار الرئيس الحداثية، والتعصب لها والإيمان بها، لذلك تمكّن فكرة الأبوة القانونية من هذا التحول، لأن القبيلة بالدرجة الأولى هي روابط دموية، ولتفكيكها يجدر تفكيك هذه الروابط الدموية، بل والقضاء عليها، ولعل أخبث طريقة لذلك هي التخلص من الأبوة الدموية وإنتاج فرد دستوري

[32] بلخوجه، الطاهر. الحبيب بورقيبة. سيرة زعيم. الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: الدار الثقافية للنشر، 1999(م). ص 13.

لا يؤمن إلا بالذات وبالمرجعيات القانونية، ولا يؤمن بالانتماء القبلي وبفكرة العشيرة لأنها ليست موجودة بالنسبة له.

لكي يكون هذا التخطيط مشروعيا لا يثير الخيبة أو الفتنة عززه "بورقيبة" بالإباحة المطلقة للتبني، ضاربا الأحكام الدينية عرض الحائط، وهذه الخطوة بمثابة القضاء النهائي على تاريخ الأبوة الدموية، وإبادة كل محاولات الانتماء أو الثورة، حيث إن كل حقوق الطفل المتبنى هي نفسها الحقوق القانونية لطفل له روابطه الدموية الشرعية، وكل ذلك يشجع على التبني، ويشجع على العلاقات غير الدينية، لأن الطفل غير الشرعي في النهاية أثبت الواقع الروائي أنه يحظى بحياة قد تكون أفضل من حياة الطفل الشرعي، وهذه الحياة ستعزز ثقة الطفل في النظام الذي تحمل مسؤولية رعايته كاملة، وأباح له ما لذ وطاب، ومن جهة أخرى يشجع هذا النظام التبني ويوهم بإمكانية أن تكون أبا أو أما متى أردت، وأن تختار من أردت، حيث اختار "صالح" طفلا وسيما قد لا ينجب مثله لو كان ينجب.

إن التبني يمنح الأبوة المجازية حرية الاختيار والانتقاء، وهي في كل ذلك – الأبوة المجازية – مدينة للنظام الذي أتاح لها كل هذا النعيم، وستعبده صباحا ومساء وفية له كل الوفاء، وما يثبت أيضا مشروع "بورقيبة" – للقضاء على القبيلة وعلى الروابط الدموية وتحقيق فكرة الذات والمواطنة والوفاء للقانون – هو أن القانون البورقيبي بعد كل التسهيلات السابقة منح إمكانية أيضا لتغيير الألقاب، وقد يكون الأمر عاديا في البداية، ولكن غير العادي في الرواية هو أن العائلة التي تبنت الطفل "هلال الأحد" كان لقبها "الكسكس"، ونظرا لما يثيره لقب "الكسكس" عند المتبني "صالح" من معان وضيعة رفع دعوة قضائية لتغيير اللقب، وكان أن غيّر لقبه من "الكسكس" إلى "الأحد" لقب الطفل "هلال"، وهذه المعطيات تحيلنا إلى أبعاد رمزية، حيث من المفروض أن "هلال" هو الذي يتغير لقبه إلى "الكسكس" لقب العائلة – وهي عائلة كبيرة لها أقارب كثيرون ومكانة اجتماعية هامة – لكن ما حدث هو العكس، ولعل هذا التناقض الصارخ يرمز إلى سلطة هذا اللقيط مشروع الدولة الفتية البورقيبية الذي يجب أن تتأسس الدولة الفتية البورقيبية عليه، لا على القبيلة وعلى الروابط الدموية وصلات القرابة، إلى درجة أن القانون منحه قوة تجريد عائلة كاملة من لقبها

وانتمائها، وخلع عليها لقبا جديدا هو الدولة البورقيبية الجديدة، ومحا وجود الجد البيولوجي مستوليا على عرشه وصولجانه، وذلك كله حدث والطفل "هلال الأحد" لم يتجاوز من العمر سنتين، طفل بهذه القوة الجبارة لا يمكن أن يستمد مشروعيته وقوته إلا من الدولة، وهي تصنعه أيضا من أجل أن تستمد منه شرعيتها وقوتها.

1-2- مستوى رمزية الجسد:

تصور الرواية الطفل "هلال" وسيما متميزا في وسامته، وهذا يحيلنا إلى عدة تأويلات لعل أقمنها بالذكر أن هذا التميز يرمز إلى الجيل البورقيبي الجديد الذي ينتجه بغية بناء الدولة الجديدة بمعاييرها الحضارية المتميزة، ولعل هذا الجيل البورقيبي الجديد لن يأتي عن طريق الاستمرارية، بل إن العقيدة البورقيبية تتبنى فكرة القطيعة التي تستلزم القضاء على السلالات الشعبية القديمة وإنتاج سلالات جديدة بمعيار كروموزومي جديد، يمنحها القدرة على أن تكون في مستوى الخطاب الحداثي، وفي مستوى استيعاب قيم الدولة الجديدة، إنه استنساخ جيني جديد يتغلب على المثبطات والتشوهات الوراثية، وملحد بالهوية الإثنوغرافية ولعل التفاصيل الجسدية للطفل لا تحيل إلى الهيأة التونسية، بقدر ما تحيل إلى هوية الآخر الأوربي (الفرنسي) فلم يحدث أن تحدث الوعي المبدع على صفة جسدية واحدة ورثها الطفل عن أمه، بل إن الطفل يشبه فقط كل الشبه والده، وليس الأمر من محض الصدفة السردية كون الطفل منذ البداية مشروع نظام، وهذا النظام يتوخى إعادة تأثيث الدولة بجمهور جديد صفاته في النهاية ليست تونسية، بل هي غربية بكل تفاصيلها الفلسفية والفكرية والمادية ولعل استحضار جسد الآخر هو رمز يحيل إلى استحضار حضارة الآخر، وهذا أيضا يبين عودة الإمبريالية في سياق ما بعد الكولونيالية عبر تجليات مختلفة لعل أخطرها الجنس فليس بالصدفة أن يكون والد الطفل فرنسي لا يستعمل هذه المرة سجونه ودباباته وطائراته بل يستعمل فحولته الجنسية، لا لكي يقتل ويذبح ويحارب الثوار، وإنما ليخلق بديلا عن كل هؤلاء، ويبذر نسله بكل دهاء ونشوة، وهذا أيضا يبين أن الآخر لم يحقق ذلك إلا عندما توفر له المناخ الملائم الذي وفره القانون، حين أبقى على بعض الفرنسيين المدنيين ووفر لهم الحماية، ووفر لهم الأم التونسية – بكل رمزياتها – خادمة، بل وأوكل لهم مهمة تعليم

التونسيين، وفي النهاية تحمّل هذا القانون نتائج نزواتهم الجنسية، واضطلع برعاية نسلهم كنوع من أنواع مباركة تفوقهم الحضاري الذي تغلغل في عمق الوعي السياسي، لكن لكي يحقق النظام البورقيبي بعض الاستقلالية الحضارية التي تمنحه السلطة كان لابد أن يتنازل "دي لاكروا" عن الطفل بعد أن استعين به لخلق جيل جديدة، وكان لابد أن يختفي "دي لاكروا" من حياة الطفل، وكأنها صفقة بين الآخر والنظام، يبدو جليا أن كلاهما استفاد منها. على أن المثير للانتباه أيضا – من حيث البعد الرمزي – هو أن لون عيني الطفل أزرق وعينا والده كذلك، ولون عيني "بورقيبة" أزرق أيضا، والبصر من أهم الحواس التي يمكن أن تحيل إلى الرؤية الفكرية، فهي رؤية ثلاثية تؤسس لعلاقات رؤية الدولة الجديدة، وهي علاقات معقدة يعسر تحديد المستفيد الأكبر منها، ولعلها رؤية تحيل إلى تأسيس دولة بورقيبية بعيون زرقاء غربية (بروح غربية) «عن طريق التعاون الوثيق مع الغرب صاحب الحداثة والتكنولوجيا»[33] أو تحيل إلى تأسيس دولة هي في الحقيقة امتداد للدولة الأوربية، وقد تحيل تلك الرؤية إلى استقلال حققه "بورقيبة" عن طريق الاستفادة من الاستعمار نفسه، أو هي رؤية تعكس السيطرة الإمبريالية بأقنعتها الجديدة.

1-3-المستوى الاجتماعي وأنماط الحماية:

رغم أن الطفل "هلال" ابن بالتبني إلا أنه بلغ سن العشرين عاما ولم تصادفه في غضون تلك المرحلة العمرية مضايقات غيرية واجتماعية، فقد أخذه "صالح" من الملجأ وأغدق عليه كل ألوان النعيم والمحبة، بل وتبنى لقبه وفرضه على كل العائلة الكبيرة و"صالح" هنا يمثل النظام فهو رئيس الحرس، وهو النموذج التربوي الذي اضطلع بتدريب "هلال" في الميدان، وكل التدريبات – مهما تباينت أشكالها – تتوخى دائما تمجيد النظام والوفاء له، والترويج لمشروع الدولة الجديدة، يقول "صالح" مخاطبا "هلال": «لا أنت ابني ولا أنا أعرفك إن أنت اتبعت شراذم المفسدين اليساريين...بورقيبة أبوهم الذي حرر البلاد والعباد..»[34] أما موقف المجتمع من الطفل "هلال" فهو موقف يتسم بالحيرة التي تحيلنا إلى

[33] بلخوجه، الطاهر. المرجع السابق. ص 13.

[34] بن عثمان، حسن. أطفال بورقيبة. د ط. بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2011 (م). ص 85.

أن الشعب مازال في سبات، ولم يتفطن للمشروع الجديد، وأن النظام يكرس هذا السبات ويردع كل محاولة من محاولات الوعي، ويتجلى هذا الردع في الرواية على مستوى مؤشرين هامين؛ أما الأول فهو أن المجتمع التونسي لفتت انتباهه سحنة الطفل ووسامته وتميزه عن الناس «فيشكون في نسبته لسي صالح»[35] لكنهم رغم ذلك «لم يكن أحد ليجرأ على إبداء ملاحظات أو تقول في هذا الشأن»[36] لأنهم لا يجرؤون على مواجهة "سي صالح" الذي يمثل النظام في النهاية، وأما الثاني فهو أن لـ "صالح" أخا سكيرا منحرفا استغل فرصة موت أخيه "صالح" واعتقد أن بإمكانه السيطرة على الميراث لأن أخاه "صالح" عقيم، وقد حاول هذا الأخ السكير مواجهة "هلال" بالحقيقة بعد موت أخيه، ثم يغادر الأخ وتبين لنا – فيما بعد – المسارات السردية أن "هلال" ورث كل شيء، لأن القانون حماه ومكّنه من الميراث، ولعل ذلك يعني أن الأخ – الذي قد يمثل المجتمع التونسي في محاولته لاسترجاع ما سلب منه وما يعتقد أنه حق شرعي – قد فشل وانهار وهذا يحيل إلى أن النظام يحمي هذا الطفل دائما ويؤهله شيئا فشيئا ليؤسس جمهور الدولة الجديدة، لذلك حماه بالدرجة الأولى من أعدائه التونسيين (الجمهور القديم) وقمع كل محاولات التمرد أو الثورة، ويمكن تلخيص أنماط الحماية في النقاط التالية:

– الأم لم تطالب بابنها، ولم تفتش عنه يوما، ولم تتأثر بغيابه، بل بدت راضية تماما والنظام يحمي الطفل المشروع بضرورة إقصاء الأم والتبرير ضمنيا لإقصائها (خادمة – جاهلة – فقيرة)

– تيسير كل سبل الحمل (أب "دلندة" الأم كان أعمى) وتيسير عملية الإنجاب في المستشفى وسهولة إجراءات الملجأ.

– الأب مرتبط بأسرته الفرنسية، ومقتنع بضرورة وضع الطفل في ملجأ.

[35] المصدر نفسه. ص 78.

[36] المصدر نفسه. ص ن.

- تيسير فكرة التبني، وتذليل كل الصعاب، وضمان كل حقوق الطفل، إلى حد مخالفة الأحكام الدينية والتضحية بها لحماية هذا الطفل.

- المتبني رئيس لمركز الشرطة لا يجرؤ أحد على التدخل في حياته الشخصية.

- سيطرة اللقب على العائلة، رغم أنه لقب غريب في المجتمع التونسي.

- تفتيت أملاك القبيلة وتجريدها من قوتها المادية (الميراث) ومنح الدخيل قوة ونفوذا.

2 - علاقات النهاية:

2-1- مستوى الرؤية الفينومينولوجية:

منذ أدرك "هلال" حقيقته ونعت باللقيط بدأت مسارات التأهيل الفينومينولوجي والعودة لقراءة الطفولة، وصياغة الموقع الأنطولوجي، وبما أن صورة الوالدين تحيل إلى العدمية، فقد كانت محاولات رسم تفاصيل هذه الصورة معدومة، لذلك فشل الخيال في التواصل مع الوالدين كصورة فوتوغرافية، واستسلم "هلال" للغياب السديمي المدقع، كما باءت كل محاولات تتبع آثار الوالدين ومحاولات الظفر باسم أو عنوان بالفشل أيضا، وكان الأمر الوحيد الذي استطاع "هلال" الوصول إليه هو معرفة المستشفى الذي ولد فيه والملجأ الذي استقبله، وفي الحقيقة لا يمكن التحكم في الخيال، فرغم غياب المرجعيات الواقعية إلا أن فرضية تكوين صورة ما عن الوالدين في رحم الوعي ممكنة جدا، بغض النظر عن طبيعة هذه الصورة المبتكرة التي تنتجها الحياة الشعورية – عادة – إنتاجا رمزيا يحيل إلى العلاقات الوجدانية واللاشعورية العميقة، وهذه الرمزية هي ما تحوّل غير الممكن وغير المنطقي إلى ممكن ومنطقي، كأن تكون الأم – مثلا – لونا ما أو ضبابا أو شعرا غائبا في السراب أو أي صورة قد تحيل إلى الأمومة في أبعادها الدلالية المعقدة، وليس إلى الأم بوصفها جسدا، فالأم في هذه الحالات تتحول إلى حلم ليلي مفعم بالرموز وبالألغاز والعلامات، لكن بالنسبة لـ"هلال" قوّضت كل هذه الاحتمالات وتحكمت في أخيلته القريحة صورة فوتوغرافية واحدة، كلما حاول تخيل صورة والديه لم تدركه الأحلام وأنصاف الأحلام، ولا العلامات والرموز والألغاز

والأنغام، بل مباشرة تطفر إلى ذهنه صورة "بورقيبة" « بجبهته الواسعة ورأسه الأصلع، وفمه الواسع وأسنانه المنتظمة البراقة، وعينيه الزرقاوين...»[37] فتحضر بذلك الأبوة القانونية وتؤسس لمشروعيتها داخل الذاكرة، في مشروع استيطاني يفرض سلطته على الوعي، ويتحكم في الأخيلة والأحلام، وهو نوع من القمع الاستعماري الفتاك الذي يكرس الولاء للسلطة ويستطيع تقنين الأخيلة وترويضها، فالتحكم في الخيال معناه السيطرة على الإنسان، لأن ما يميز جوهر العقل هو الخيال الذي يمكّن الإنسان من التطور والتفرد والاستشراف والتغيير ويمكّنه من التحرر من رباق السكون وقيود الغريزة العمياء، والأهم أنه يمكّنه من الإبداع والثورة والفن والابتكار والتلذذ بالحياة، ويتيح له فرصة للتعايش بتعال، وفرصة لإعادة إنتاج العالم وإعادة قراءته وتأويله.

كل تلك المعاني السابقة قبرتها الأبوة القانونية وقمعتها، ولم تترك لـ "هلال" إلا كوة واحدة تطل على صورة "بورقيبة" التي كانت التجربة الخيالية الوحيدة التي تستهلكها الذاكرة مرارا وتكرارا، إلى أن «انتهى الأمر بهلال إلى الاقتناع أن بورقيبة هو أبوه الأصلي وهو أمه أيضا»[38] والأبوة هنا ليست نسبة للأب فقط، بل هي أبوة أسطورية تحول فيها الأب "بورقيبة" إلى أب وأم في الآن نفسه، معلنا ناموسا بيولوجيا جديدا يحيل إلى كائن خرافي ابتدعته الذاكرة السياسية، يكون هذا الكائن ذكرا وأنثى في الوقت نفسه وفي الجسد نفسه، ويحبل من تلقاء نفسه، وهو كائن يختصر الذكورة والأنوثة والأبوة والأمومة، ويقصي الأم والأب إقصاء كاملا، محتفيا بوجوده المقدس في الذاكرة والخيال. لذلك غابت صورة الوالدين الافتراضية عند "هلال" ولم يتجاسر خياله على ابتداع رموز تحيل إليها، بل سكنته الصورة الأسطورية وسكنه الكائن الطوطمي المطلق إلى النهاية.

ما يسّر هذا الافتراس السلطوي هو تأسيسه لعلاقات الخيبة منذ البداية، لذلك يلفي الوعي نفسه مسيّجا بمعطيات قاهرة ترسّخ لفكرة إقصاء الوالدين الحقيقيين، وتبرر لهذا الإقصاء، لأن جذوة التأهيل الفينومينولوجي للطفولة عند "هلال" تتوهج من الإلحاح على

---

[37] المصدر نفسه. ص 90.

[38] المصدر نفسه. ص ن.

ضرورة تفسير هوية العلاقة بين الوالدين الحقيقيين لحظة الإنتاج الجنيني، وهذا أعسر تحول فينومينولوجي إزاء الطفولة، وأعسر محاكمة لها في محكمة الوعي، باعتبار المحاكمة في هذا السياق نوعا من التنقيب، وتطورا في مستوى نمو الوعي وتحولات الوعي بالطفولة.

يعتقد "هلال" بعدم شرعية العلاقة بين الوالدين، ويصنفها في خانة الزنا، لكن فلسفة الزنا عنده لا تستمد ماهيتها من الدين، ولا يصفها بالحلال أو الحرام، بل يحاكمها وفق المعايير التالية:

- الزنا ← { - علاقة نشوة عاطفية ونزق إيروسي
- علاقة تواطؤ ورغبة متبادلة
- بين ذكر وأنثى } ← - علاقة طبيعية

لذلك يعتقد "هلال" أن العلاقة بين الوالدين علاقة طبيعية، مهملا الفتوى الشرعية والرؤية الدينية التي تقنن التواصل الجنسي بواسطة الزواج، وحتى يبرر طبيعة هذه العلاقة اضطر لتقويض فكرة الزواج، وتبنى رؤية صديقه التي تعتبر الزواج مجرد قناع عبثي واهم حيث إن المرأة منكوحة في كل الحالات، ويبقى الفرق كامنا في كون الزواج توكل فيه الجماعة رجلا وتفوضه، أما خارج الزواج فيغيب التوكيل وتدخل الإرادة الفردية: «لا فرق بين أن تنكح الأم من طرف الأب الشرعي الذي أوكلت له المجموعة تلك المهمة، أو ممن لم يتحصل على ذلك التوكيل»[39] فيكون فعل الزنا هنا مجرد خيانة للجماعة وخيانة لفكرة التوكيل وللتقليد البشري، لكنها ليست خيانة للنواميس الطبيعية والأيديولوجيات التحررية فحتى تتحسن الحياة لا بد أن يكون هناك استمرار في «ارتكاب المعصية الأزلية وقضم التفاحة حتى يحققا شرف الانتماء إلى الأب الأول والأم الأولى وحتى تظل مشيئة الله تتحقق

[39] المصدر نفسه. ص 104.

عبر الأيام والدهور»[40] لكن إذا أنجبا الوالدان غير الشرعيين «عليهما أن لا يهملا الطفل، وأن لا يودعاه مأوى من مآوي أطفال بورقيبة»[41].

لم تكن الإشكالية عند "هلال" في مستوى العلاقة الجنسية الأولى – بين الوالدين الحقيقيين – التي تسببت في وجوده، بل تكمن الإشكالية في مستوى العلاقة الثانية بينه وبين والديه، ويمكن توضيح هذه الإشكالية بواسطة البيان الفينومينولوجي التالي:

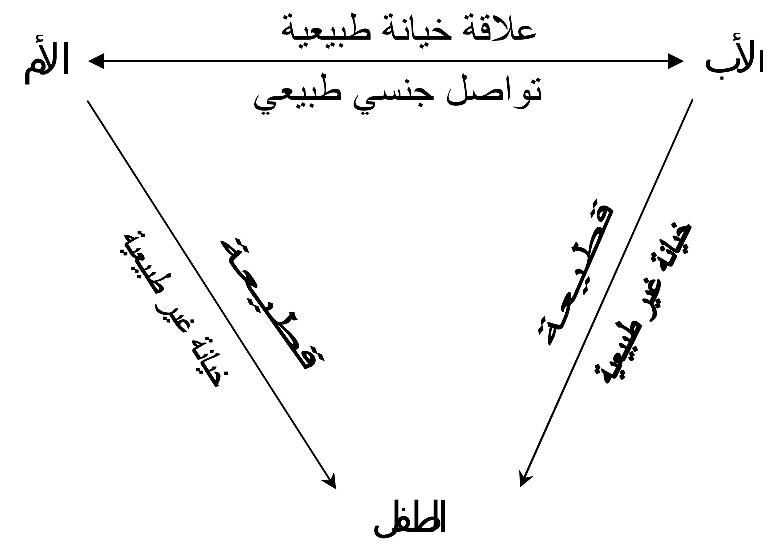

إن "هلال" لم يستطع أن يفهم هذه القطيعة، وانبرى يفتش عن تفسير لعلاقات الاستغناء غير الطبيعية، فاعتبر تلك العلاقات خيانة أفظع من الأولى، لأن الخيانة الأولى مبررة أما الثانية فغير مبررة، ذلك أنه يعتقد أن الحرية التزام ومسؤولية، وعندما انتفى الالتزام في مستوى العلاقة الثانية انتفت مشروعية الحرية في مستوى العلاقة الأولى، وكان أن تشوهت فكرة الحرية ودنست وجوده، وحولت هذا الوجود من المشروع طبيعيا إلى غير المشروع، فنجم عن ذلك أن أغمط "هلال" والديه وازدرى وجوده، واستوعب ضرورة تحمل المسؤولية وحيدا، وتصحيح مسار الوجود ومسار مستويات العلاقة الثانية، عن طريق

[40] المصدر نفسه. ص 194.
[41] المصدر نفسه. ص 195.

محاولات التكفير عن كبوات الوالدين: «كان يتشوق للموت بكيفية يكرم بها نفسه ويزكيها ويطهرها من إثم والديه المنجبين»[42].

إذا كان مستوى العلاقة الأولى مبررا بكونه ناجما عن الطبيعة وعن حتميات التواصل البيولوجي، فإن مستوى العلاقة الثانية (علاقة الاستغناء) غير مبرر وغير منطقي، لأنه يتعارض مع الفطرة ويشوه السليقة، وهذا ما دفع بـ "هلال" للبحث عن تعلات لهذا التشوه والانحراف في الثقافة البشرية، مادامت الطبيعة لا تبرر هذا التشوه ولا تبرر هذا الشذوذ، وقد ألهمت فكرة الثقافة البشرية "هلال" ضرورة التنقيب عن مستوى التفسير القانوني، وعن موقع "بورقيبة" الأب المزعوم الذي يمثل القانون، وحينها أسهب "هلال" في البحث، وتحول بحثه إلى رصد لماهية العلاقة بينه وبين بورقيبة.

الطفل ←———— بورقيبة (الأبوة القانونية)

يعتقد المتلقي أن النتيجة التي سيصل إليها "هلال" هي أن علاقة الاستغناء التي انتهجها الوالدان وليدة إيعاز قانوني، حيث إن الأب القانوني هو الذي قنن لتلك العلاقة وفق صيرورة من التسهيلات التشريعية سلف وأن أومأنا لها في رصدنا لعلاقات البداية، فلو – مثلا – حوّل القانون العلاقات غير الشرعية وما ينجم عنها إلى علاقات شرعية، وأجبر على الاعتراف بالطفل، أو على الأقل كانت الإجراءات القانونية في المستشفى وفي الملجأ تحتم تدوين هوية الأم والتحقق من هويتها، لكان من اليسير على كثير من اللقطاء أن يستوعبوا صلاتهم الدموية. لكن اعتقادنا يخيب لمجرد اكتشافنا أن "هلال" يتغاضى عن كل تلك التأويلات السابقة، ويعفي الأب القانوني من مسؤوليته، ممجّدا "بورقيبة" من حيث إنه تلقف اليتامى والمشردين واللقطاء، وانتشلهم من ضياعهم، واستوعب نكباتهم، وكل ما بدا كرها لبورقيبة وانتقاما منه في البداية تحول إلى اقتناع ومجاملة، حيث كانت مشاعر الكره والانتقام في البداية نابعة من صدمة الانتماء إلى أبوة مشاعة تفتقر لروابط دموية، وليست نابعة من الوعي بخبث البرنامج القانوني، ولذلك كان كره "هلال" لـ "بورقيبة" في البداية كرها

[42] المصدر نفسه. ص 90.

انفعاليا غريزيا وليس كرها مؤسسا، وهذا ما جعل "هلال" يستسلم لنسبه البورقيبي، ويحول عاطفة الكره إلى عاطفة الامتنان إزاء الأبوة القانونية، وبعد تبرئة الأب القانوني يعود "هلال" لإلقاء اللوم على الوالدين معلنا: «كفى تشردا في الأنساب وسفحا للدماء الساخنة. على الأبوين أن يعترفا بأبوتهما للطفل، وعلى الطفل أن يتعرف على أبويه»[43].

مما سبق ينتج عن مرحلة محاكمة علاقات البداية وفق وعي علاقات النهاية ما يلي:

- تبرير علاقات المستوى الأول التي كانت بين الوالدين الحقيقيين (وهو تبرير للوجود، واعتراف ضمني بوجود الوالدين الحقيقيين، وبوجود الانتماء الدموي).
- إدانة علاقات المستوى الثاني التي كانت بين الوالدين والطفل (وهي دعوة للاعتراف بالأبناء مهما كان نوع العلاقة بين الوالدين).
- تبرير علاقات المستوى الثالث التي كانت بين الطفل والأب القانوني (وهو تبرير لوجود الأبوة القانونية).

ويمكن توضيح علاقات البداية وفق وعي علاقات النهاية عن طريق البيان الفينومينولوجي التالي:

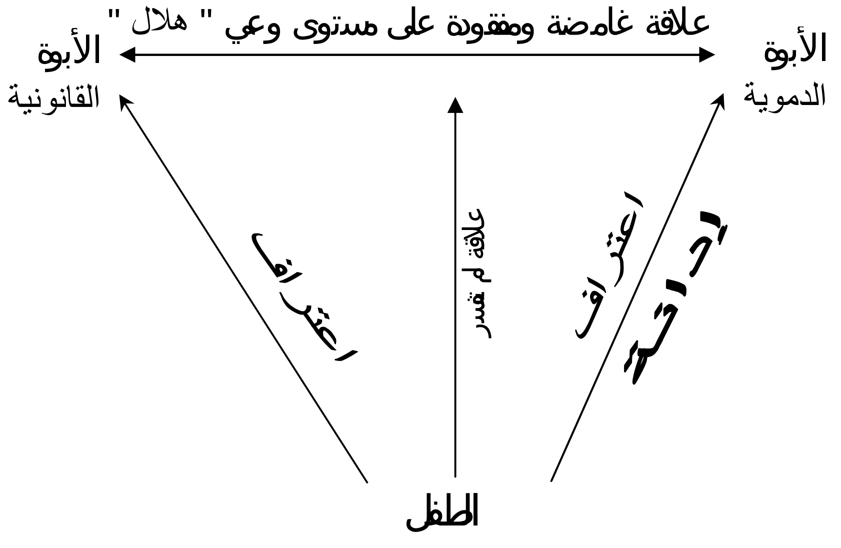

[43] المصدر نفسه. ص 195.

إن البيان الفينومينولجي السابق يترجم المستويات النهائية لتأهيل الطفولة والوعي بالطفولة، من حيث هي طفولة وقعت ضحية علاقات معقدة، ويفترض بعد هذه الرحلة من التنقيب والبحث والتفسير أن يحظى "هلال" بنوع من الاطمئنان والوعي الإيجابي بالطفولة ذلك أن اكتشاف الحقيقة المزعومة عن الهوية قد يلغي الرؤية السلبية للذات، لكن المؤشر السردي التالي يفند هذه الفرضية ويدحضها، حيث يبدو جليا أن الرؤية للطفولة مازالت سلبية والوعي بالهوية مازال محل التباس، لأن الأبوة نفسها مازالت محل التباس: «إن هلال الأحد مقبل غدا على الستين من عمره، ورغم تلك السنوات الطويلة التي عاشها فإن مسألة الأبوة لديه مازالت محل التباس»[44].

قد يمكننا في النهاية أن نستنتج أن الوعي بالهوية وفق صيرورة المقدمات والنهايات قد أخفق في اكتشاف الهوية التي بقيت محل التباس، كما أخفق في تحديد ماهية هذا الالتباس، لأنه قصد بالالتباس مفهوما سطحيا يحيل إلى إشكالية الانتماء للأبوة الدموية أو الأبوة القانونية، وهذا تناقض صارخ، لأنه وفق ما سبق وتجلى على مستوى البيان الفينومينولوجي انتهى الوعي إلى الاعتراف بالأبوتين، وهذا – في نظرنا – ليس التباسا وليس أزمة هوية، مادام الوعي قد تقبل هاتين الأبوتين وأدرك الفرق بينهما، وكان من المفروض بعد هذا اليقين أن يزول الإحساس بالالتباس، لكن وقع العكس، ومازال الالتباس قائما، مما يفضي إلى كون اليقين الذي وصل إليه "هلال" مشبوها لم يلب فضوله الواعي، ومازال عاجزا لم يستطع أن يبرر هذا الإحساس بالالتباس.

مما يجعلنا نعيد التفتيش عن المعنى الحقيقي للالتباس بالعودة لمراجعة صيرورة العلاقات – مقدمات ونهايات – بغية الظفر بأزمة الهوية في بعدها اللاشعوري، على مستوى الفجوات ومناطق الظل المحظورة، وتلك الدهاليز التي أغفلها الوعي في رحلته الاستقصائية لإعادة تأهيل الطفولة ومحاكمتها، وهناك نلفي أن أزمة الهوية قد نجمت في الحقيقة من عزوف الوعي عن تفسير العلاقة بين الأبوة الدموية والأبوة القانونية، فهناك تكمن الحلقة المفقودة، وهذا يحيلنا إلى أن الأبوة القانونية تمكنت من ممارسة شرعيتها وتضليل الوعي

[44] المصدر نفسه. ص 63.

حيث إن الاعتراف بالأبوتين هو في الحقيقة اعتراف ليس متكافئا، لأن الاعتراف بالأبوة الدموية مشوب بالإدانة، أما الاعتراف بالأبوة القانونية لا تشوبه شائبة، وهنا وقعت أزمة الهوية اللاشعورية، حيث تثير فكرة الإدانة في حد ذاتها كثيرا من المتاعب النفسية، ولو تفطن الوعي إلى ماهية العلاقة بين الأبوة الدموية والأبوة القانونية، وفسر تلك العلاقة تفسيرا موضوعيا لاستطاع – ربما – أن يتفطن لخبث الأبوة القانونية ويتمرد عليها، ويحقق استقلالية الهوية، ويتنكّر للاعتراف المزدوج الذي يخالف الفطرة، وبذلك – على الأقل – يدرك هويته الحقيقية، متجاوزا شعور الالتباس، وأزمة الهوية، والوعي بالطفولة من حيث هي طفولة ضائعة، رغم أن الحقيقة تبقى نسبية وغير كافية لتخطي أزمة الهوية بدلالاتها المتباينة ومستوياتها الشعورية واللاشعورية المعقدة، ويبقى إبعاد الطفل وإقصاء انتمائه الدموي أوار أزمة هوية مزمنة، ذلك «أن إبعاد الطفل وإقصاءه يؤدي إلى حرمان الطفل من استحواذ هويته المتكاملة في مختلف المراحل العمرية المختلفة لحياته»[45].

ت – تيمة الطفل الخجول:

الوعي بالطفولة ليس تجربة متعالية خالية من التوجهات القصدية أو فكرة محايثة تتفجر من العدم، ذلك أن الوعي لا يحقق هويته إلا عن طريق الموضوعات التي يرتبط بها ويقصدها، من هنا يكون الوعي بالطفولة هو الوعي بموضوعات الطفولة نفسها، تلك الموضوعات التي تحيل إلى الوعي ويحيل الوعي إليها، وهي تلك الموضوعات التي حولها الوعي إلى ظواهر لها تفاصيلها الماهوية، حيث نتوخى دائما رصد الماهيات وتلك التحولات الأساسية التي تطرأ على مستوى الوعي بالطفولة، وهي تحولات ليست اعتباطية، لأنها دائما تحيلنا إلى نوع من التدخل الذكي الذي لا يمكن أن يكون فطريا فقط، بقدر ما تكون التجربة البشرية بأنواعها حافزا توجيهيا مغريا، وبما أننا بصدد مواجهة نص روائي يتحتم علينا أن نعتقد بفتنة اللغة السردية التي تمارس نوعا من التحايل والتحدي، حيث لا يمكن أن تكون اللغة الروائية تصريحا واضحا خاويا من الكثافة الدلالية، فنحن «حين نتلقى الكلمة الروائية

---

[45] ميكشيللي،أليكس. الهوية. ترجمة: علي وطفة. الطبعة الأولى. دمشق، سورية: دار الوسيم للخدمات الطباعية. 1993 (م). ص 76.

إنما نمخر فورا في عباب»[46]، ولا يمكن أن تكون اللغة الروائية إلا عالما ضبابيا ينبغي قبل الولوج إليه التسلح بكثير من الاحتمالات والتوقعات، حتى تلك التي قد تخيب ظننا، وربما تخيب ظن المؤلف في حد ذاته، لكنها بكل احتمالاتها وخيباتها لغة إلزامية لا مناص من المغامرة فيها مادمنا بصدد رصد هوية الوعي بالطفولة وتحولات الوعي بالطفولة عند الطفل "علال" في رواية "رجال وكلاب"، هذا الطفل الذي لا يمكن أن تكون لغته صريحة دائما كما لا يمكن أن يكون وعيه بطفولته صريحا دائما أو معطى جاهزا تلخصه كلمة أو جملة فغالبا ما يكون الوعي بالطفولة مرادفا للاستنتاج والتأويل والتحليل، وغالبا ما يكون نوعا من اللغز الذي يحتاج إلى كثير من الاجتهاد وعناء التفكير، وإلى كثير من الاحتمالات، لأن إجابة واحدة لن تكون شافية كافية مادام الوعي بالطفولة في حد ذاته يتميز باللااستقرار والفوضى، وقد يناقض نفسه أكثر من مرة، على أن تلك الفوضى هي موضوعنا الشائك الذي نريد أن نعيد صياغة بعض قوانينه التي نعتقدها محورية لبلوغ الغايات البحثية، ومادام الوعي بالطفولة كلغة صريحة غائبا – تقريبا – عند الطفل، فإن هذا لا يعني غياب الوعي بالطفولة، لأن الوعي بالطفولة – عادة – لا يكون مباشرا دون وسائط، حيث من الممكن جدا أن تكون رؤية الطفل لما يحيط به، وتكون تلك العلاقات التي يؤسسها هي السبيل الأنجع لإدراك ماهية الوعي بالطفولة، لذلك من الأجدى رصد أهم موضوعات الوعي التي نحدس منذ البداية أن لها علاقة وطيدة بكيفيات رؤية الطفل لطفولته عن طريق وعي الذات في مفهومها «كما يستخدمه الأدباء المتخصصون عامة هو مجموعة من الشعور والعمليات التأملية»[47]، وهذا الوعي – بالطفولة – الذي لا يمكن أن يكون تصريحا مباشرا، كما لا يمكن أن يكون شعورا بسيطا أو فكرة واضحة أو رؤية ثابتة، فهو دائما يتميز بالرمزية والغموض والتعقيد والتحول، لذلك سنختار في رواية "رجال وكلاب" الموضوعات الأكثر إلحاحا ومحورية وتأثيرا، والتي يمكن أن تكون بوابات تحيل إلى الوعي بالطفولة، وكأن كل موضوع مرآة يبصر فيها الطفل طفولته، ويحاول في كل مرة أن يتعرف على تفاصيل

---

[46] سليمان، نبيلة. فتنة السرد والنقد. الطبعة الأولى. اللاذقية، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1994 (م). ص 128.

[47] لابين، ولاس. مفهوم الذات. أسسه النظرية والتطبيقية. ترجمة: فوزي بهلول. د ط. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية، 1981 (م). ص 18.

صورته، ليس عن طريق الاستبطان المثالي وإنما عن طريق الآخرين، وكل ما يحيط به مثل أن يدرك طفل – مثلا – أنه قصير إذا رأى أطفالا أطول قامة منه، أو وجّه أحدهم له ملاحظة تفيد بأنه قصير أو غير ذلك من التجارب والموضوعات التي يستبطنها وتحيل كلها إلى كونه استوعب طفولته من حيث صفة القصر لازمة من لوازمها، وماهية من ماهياتها التي تبرر فيما بعد كثيرا من سلوكاته، وتفسر معجمه اللغوي ودلالاته، ولا شك أن لكل طفل تيماته المميزة وبصمته الواعية الخاصة، ورصد تلك التيمات لابد أن يكون أهم ضابط للدراسة التيماتية.

نعتقد بعد قراءات فاحصة للرواية أن تيمات الطفولة الأكثر حضورا وإلحاحا عند الطفل "علال" هي تيمة "الهواجس" التي سنحاول تولج أعماقها وتتبع علاقاتها ودلالاتها ليتسنى لنا رصد أهم تحولات الوعي بالطفولة، والظفر بكنه ماهية الرؤية التي يتبناها الطفل إزاء طفولته من خلال رؤيته لما يحيط به، ومن خلال التجربة الحياتية والأسيقة الثقافية التي تفرض نفسها على الوعي بطريقة كاريزماتية مثيرة.

لا بد أن نومئ إلى أن تيمة الهاجس في هذا السياق تتميز بميزات لعل أقمنها بالذكر ميزة الإلحاح، حيث نلفيها تمارس حضورها بقوة على مستوى وعي الطفل، وتفرض حضورها بكثافة، كما أنها تحيل إلى كثير من التيمات الفرعية التي تتضمن دلالات سوداوية، وهي نفسها المضمون السلبي الذي يحيل إلى الوعي بالطفولة وفق رؤية سلبية إزاء الطفولة التي تبدو على طول المسافات السردية معذبة مرهقة، ومثقلة باعترافات مهزومة، وبأخيلة وأحلام موبوءة، وحتى نتمكن من رصد تيمة الهاجس ورصد إحالاتها وتشذيب دلالاتها سنحاول تصنيفها إلى عتبات عنوانية تيسّر البحث والتحليل والتنقيب عن محتوى التيمات الأساسية ومحتوى العلاقات الفرعية، بغية الظفر بكيفيات إدراك الطفولة والرؤية لها من خلال تيمات الهواجس.

1- تيمة هاجس الجد: لقد كان حضور الجد "علال" واضحا وجليا في رواية "رجال وكلاب"، ورغم أن الجد مات قبل أن يولد الطفل، إلا أن هذا الطفل تعرف إلى جده بإسهاب

وإطناب عن طريق الحكايات التي كانت تروى عنه، فاستوعب الطفل حالة جده المرضية المعتاصة، واستوعب حالته الكلبية النادرة، وكيف كان هذا الجد يتقمص صفات الكلب و«قضى فترة من الزمن ليست قصيرة يرتع في دنياه الكلبية، إلى أن وجد في صباح أحد الأيام ميتا، ترتسم على شفتيه الشاحبتين ابتسامة الرضا»[48] ونظرا لما تتضمنه حياة الجد من حالات مرضية مربكة، كان من الضروري جدا أن تكون تيمة الجد من الهواجس التي تثير في خلد الطفل كثيرا من المخاوف، وكثيرا من محاولات المقارنة بين الطفل وجده، لاسيما أن الطفل يعاني حالات من الصرع والاختلالات النفسية، لذلك كلما عانى الطفل نوبة من نوباته المرضية استحضر بطريقة أو بأخرى صورة جده وحكايات اختلالاته الكلبية، ورغم أن هذا الطفل بعد سنوات – وهو كبير تجاوز طفولته – يعاود محاكمة تاريخه الوراثي ويشذبه ويخلص «إلى الاعتقاد بأن حالتي المرضية غير مرتبطة بحالة الجد الكلبية»[49] إلا أننا نخلص إلى أن الطفل في طفولته كان مضطرا للتأثر بتاريخه الوراثي، وذلك لعدة أسباب لعل أقمنها بالذكر تلك الحكايات التي كانت تروى له عن جده، وهي روايات مؤثرة استحوذت على وعيه ردحا زمنيا، على غرار كل الأطفال الذين تلعب الحكايات دورا فعالا في تكوين وعيهم «وإثارة عواطف وانفعالات لدى الطفل إضافة إلى إثارتها العمليات العقلية المعرفية كالإدراك والتخيل والتفكير»[50] لتصبح تلك الحكايات – مهما كانت بسيطة – جزءا لا يتجزأ من عوالمهم وأحلامهم، وحكاية الجد لم تكن بسيطة خافتة، بل كانت – لغرابتها – متداولة منتشرة تحاصر الطفل من كل صوب ومن كل حدب، ويضطر لسماعها بأنماط سردية مختلفة، مما أتاح له الفرصة ليكون على دراية كافية بتاريخ الجد الذي لا يمكن للطفل أن يلغي انتماءه له أو يتبرأ منه، لأنه يلفي نفسه دائما جزءا من الحكاية وفصلا من فصول التاريخ الجدي، وبما أن الطفل يعاني من حالات عصابية حادة فمن المتوقع جدا أن يطغى تاريخ الجد على المخيلة، وينبري وعي الطفل يقارن بين الفينة والأخرى بين حالاته المرضية وحالات جده الكلبية، وفي كل الأحوال لا يمكننا أن نجزم إن كان التأثر بتاريخ الجد قد فتح

[48] لغتيري، مصطفى. رجال وكلاب. د ط. الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق، 2007 (م). ص 23.

[49] المصدر نفسه. ص 24.

[50] الهيتي، هادي نعمان. ثقافة الأطفال. د ط. الكويت: عالم المعرفة، 1988 (م). ص 181.

الباب وسيعا للتقليد والتقمص – وبالتالي كان مرض الطفل العصابي مجرد وهم وامتداد لعوالم الحكاية – أم أن التاريخ الكروموزومي لعب دوره وجاس خلال الذاكرة والمخيلة.

2- تيمة الهاجس الاسمي: للاسم قوة دلالية صارمة، وإحالات تاريخية وفيرة لاسيما أن الطفل وسم بـ"علال" وهو نفس الاسم الذي حمله الجد، لذلك شاء الطفل أم أبى سيكون مضطرا لمعايشة تاريخه الاسمي، ذاك الاسم الذي يحيل مباشرة إلى الجد، وإلى تلك الروايات التي ارتبطت بحالات الجد المرضية وبنزقه الكلبي، فلمجرد أن ينبس أحدهم باسم "علال" تتبادر للذهن حالات الجد الكلبية، ومن هنا هيمن اسم الجد وما يزخر به هذا الاسم من روايات غريبة على اسم الطفل وأخمده، إذ من البديهي جدا أن يرى الطفل في عيون الآخرين صورة الجد حاضرة دائما وجاثمة، تغيّب الطفل وتستحضر الجد بقوة. ولعلها من الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها الأسرة في حق الطفل حين أورثته تاريخ الجد وحملته تبعات الاسم التاريخية، وكل ما يحيل إليه اسم الجد من حالات مرضية، وما يثيره من سخريات وإغماط. لذلك كان الطفل دائما مسكونا بهاجس الجد وبهاجس الانتماء والمقارنة، وبتاريخ الوراثة المشين.

لقد كان هاجس الحكاية وهاجس الاسم سببا وجيها لهاجس الجد، حيث أضحى الطفل مسيّجا بحياة الجد وبتاريخه، ومسكونا بالتاريخ الوراثي، وكأنه محكوم عليه بإلغاء طفولته وأن يكون جدا صغيرا بنفس تفاصيل الجد الكبير، وهي رؤية مفروضة فرضتها الحكايات من جهة، وفرضها الاسم من جهة أخرى، ولا يمكن للوعي بالطفولة أن يتملص من رباق هاتين الجهتين بيسر، لاسيما إذا ارتبط الأمر بطفل وعيه ليس مهيأ للمواجهة والتشذيب والاختيار بقدر كاف يمكنه من تحقيق الاستقلال، وسواء اختلفت الحالة المرضية بين الحفيد والجد أم لم تختلف، سيبقى هدفنا في هذا السياق أن نثبت مدى تأثر الحفيد بالجد، حيث ثبت أن وعي الطفل بطفولته مسكون بهاجس الجد وبتاريخ الجد وحالاته المرضية، وكل محاولات الانعتاق باءت بالفشل أمام قوة الحكايات وقوة الاسم، لذلك لا يرتبط الأمر بتقليد الجد بقدر ما يرتبط بالتأثر بهذا الجد تأثرا سلبيا يتصاعد إلى مستوى الهاجس، بكل ما يحيل إليه هذا الهاجس من دلالات النكد والكمد والفشل والإحباط، فمن المفروض في حالات الطفل "علال"

أن ينتفي تاريخه الجدي، وتبتر كل علاقات الانتماء، وتغيب الحكايات المرتبطة بالجد وبحالاته الكلبية، ويغيب اسم الجد، ويحظى الطفل بحكايات أخرى وباسم آخر ليتمكن حينها من أن يحظى بحياة شعورية مختلفة وبنوع من الاستقلالية، لكن ما حدث أن أسرته أهملت مرحلة طفولته الحرجة، وأورثته تاريخ الجد المشين، فمن جهة أرضعته حكايات عن الجد ومن جهة صفدته باسم الجد، ومن جهة حاصره المجتمع، واضطر في النهاية ومنذ البداية أن يكون جدا هكذا دون طفولة، مضطرا لمعايشة التاريخ الاسمي ومعايشة الانتماء والارتباط بجد يفترض أنه مات منذ زمن وماتت حكاياته معه، وما كان من الضروري أن يتناسخ الجد بنمط سلطوي في وعي طفل نكبته الأسيقة، وعاش تفترسه اللعنات دون مبررات وجيهة لذلك تحيلنا الرواية وتفاصيل الوعي بالطفولة المسكون بهاجس الجد إلى ضرورة التنبه جيدا لأنماط الحكي التي نمارسها مع الأبناء ولأنماط العادات الاسمية، فكل من الحكي والاسم نمط سلطوي تحدده الأسرة، وقد يكون هذا النمط قاتلا فتاكا وسببا لكثير من الأمراض النفسية وحتى الجسدية منها أو سببا للانعتاق والاستقلال والحرية، وسببا لشخصية سوية، فلا يمكن للطفل في طفولته أن يمارس الانتقاء ويتفطن للأبعاد، لكن يمكن للأسرة أن تنتقي وتختار، وفي كل الحالات يجب أن ينظر للطفل على أنه هوية مستقلة ليس بالضرورة أن نقحم لها تاريخا سابقا لا يعنيها من قريب أو بعيد، لاسيما في حالة الطفل "علال" الذي لم يكن من الضروري أن يرتبط بحكايات جده أو باسمه، ولم يكن من الضروري أن يحاكم ذاته على شيء لم يقترفه إرضاء للعادات البليدة التي حاصرته وسيّجته، ولم يكن من الضروري أن يرتبط الوعي بالطفولة – في مرحلة معينة – بتاريخ الجد من حيث هو وعي بلعنة الانتماء وبهاجس الجد، وما يثيره هذا الهاجس من رؤية سلبية إزاء الطفولة تتأسس على الإقصاء والإلغاء والخوف والازدراء، ولابد أن نشير إلى أن الوعي بالطفولة هنا هو وعي البداية، أي أن تحولات الوعي في هذه المرحلة فاترة جدا، على اعتبار أن الطفل تتحكم فيه معطيات قبلية سلطوية لا تتيح له فرص التمرد والتحرر، حيث يكون في هذه المرحلة خاضعا خانعا.

3- تيمة هاجس الذنب: لقد كانت للطفل "علال" عمة ابتليت بحالة مرضية شبيهة بحالة الجد، ومن سوء الصدف أن هذه العمة استقرت في منزل "علال" وكانت أم "علال" تهتم بها في البداية وتسعى لعلاجها ورعايتها، لكن الأمور تغيرت حين ولد الطفل "علال" الذي كان ضعيفا هش البنية، فازدادت مخاوف الأم على ابنها، وقررت العائلة التخلص من العمة وحملها إلى المستشفى، وقد كان «ظاهر الأمر أنها نقلت إلى هناك للشفاء، وما خفي أن أمي ضاقت بها ذرعا، وتوسلت من ذلك حماية ابنها»[51] إلى هنا يبدو الأمر عاديا نوعا ما، لكن ما يلفت الانتباه هو أن الطفل "علال" تأثر بحادثة عمته تأثرا سلبيا، ليس من باب الإشفاق عليها، بل من باب الشعور بالذنب، حيث يصرح قائلا: «تملكني إحساس فظيع بأنني مسؤول عما حدث لها»[52] ذلك أن الطفل استوعب حقيقة ما حدث لعمته، واستوعب أنه كان سببا في إقصائها من المنزل، وفي نقلها للمستشفى لتموت هناك، وفي هذه المرحلة لم يكن الطفل ليهتم بالتاريخ المرضي، ولم تستحوذ عليه فكرة الخطر الوراثي، ولم تكن العمة هاجسا في حد ذاتها، بقدر أن ما كان يمعضه ويرهق وعيه هو اعتقاده بأنه مسؤول على مصير عمته التراجيدي، لهذا سكنه الشعور بالذنب، ومن ثمة كان الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة مذنبة لا تختلف كثيرا عن الذات القاتلة، ولعله التحول الأول البارز في تحولات الوعي بالطفولة، حيث إن الوعي بالطفولة المثقلة بتاريخ الجد وبأمراض الجد وأسمائه تحول إلى الوعي بالطفولة المذنبة، وهو في الحقيقة ليس تحولا واضحا بقدر ما هو تطور سلبي طال الرؤية للطفولة وزادها ألما وامتعاضا وانكسارا، تلك الطفولة التي تتقاذفها الهواجس المربكة وتعيث فيها فسادا، فبالإضافة إلى عقد الانتماء سطت على وعي الطفل عقدة الذنب وازداد الوعي بالطفولة تدهورا وانحرافا، والأسرة في ما حدث للعمة لم تمكّن للطفل من الحياد، بل أقحمته - مثلما حدث مع الجد - في تفاصيل الكآبة الخرساء، وأشركته في جريمة إقصاء العمة، بدل أن تسعى جادة لإقصائه وإلهائه، وجعله يهتم بتفاصيل طفولته التي يبدو أن الأسرة أهدرتها وقوضتها، وشوهت صورتها بأحداث كان من الممكن أن يكون الطفل في غنى ومنأى عنها ولو بنمط نسبي، وسنلاحظ فيما بعد أن الأم كان لها الدور

[51] لغتيري، مصطفى. المصدر السابق. ص 39.

[52] المصدر نفسه. ص ن.

الأساسي في تشويه الرؤية للطفولة، حيث أرادت حماية ابنها لكنها غالت وشطت، فانقلبت المعطيات والأهداف المتوخاة إلى النقيض، وتحقق الوعي بالطفولة المذنبة بدل الوعي بالطفولة البريئة الآمنة، وتهافتت اللعنات وأتأمت، من لعنة الجد وتاريخه المشين وحالاته المرضية العسيرة واسمه المبتذل إلى لعنة العمة والشعور العميق بالذنب.

ما يلاحظ هو أن الهواجس الأولى التي شكلت أوار تجربة تحولات الوعي بالطفولة ناجمة عن تيمات خارج حدود الأسرة المباشرة (أم، أب، إخوة) لأن الجد كما ذكرنا سلفا توفى قبل ميلاد الطفل، أما العمة فليست أصلية في تكوين الأسرة، وهناك ظروف أجبرت على مكوثها في عائلة الطفل، فكانت تجربة الوعي بالطفولة ضحية هواجس ناجمة عن تيمات الأسرة غير المباشرة (الجد، العمة)، وكانت علاقة الطفل بهاتين التيمتين سلبية جدا، إذ كان يمكن أن تكون هاتان التيمتان ملاذا مفعما بالسخاء والعطف والأمان، حيث إن العلاقة الطبيعية تفترض ذلك، حين يكون الجد – ولو كان ميتا – مبعثا على الافتخار والانتماء وتكون العمة موئلا للعطاء والراحة، لكن تشوهت العلاقة الطبيعية وانحرفت، فتحول الجد إلى تيمة ذهانية تبعث على الأسى والعار والنكوص وازدراء الطفولة، وأمست العمة تعلة للشعور بالذنب والامتعاض وجلد الذات، ويمكن توضيح ما سبق من خلال البيان التيماتي التالي:

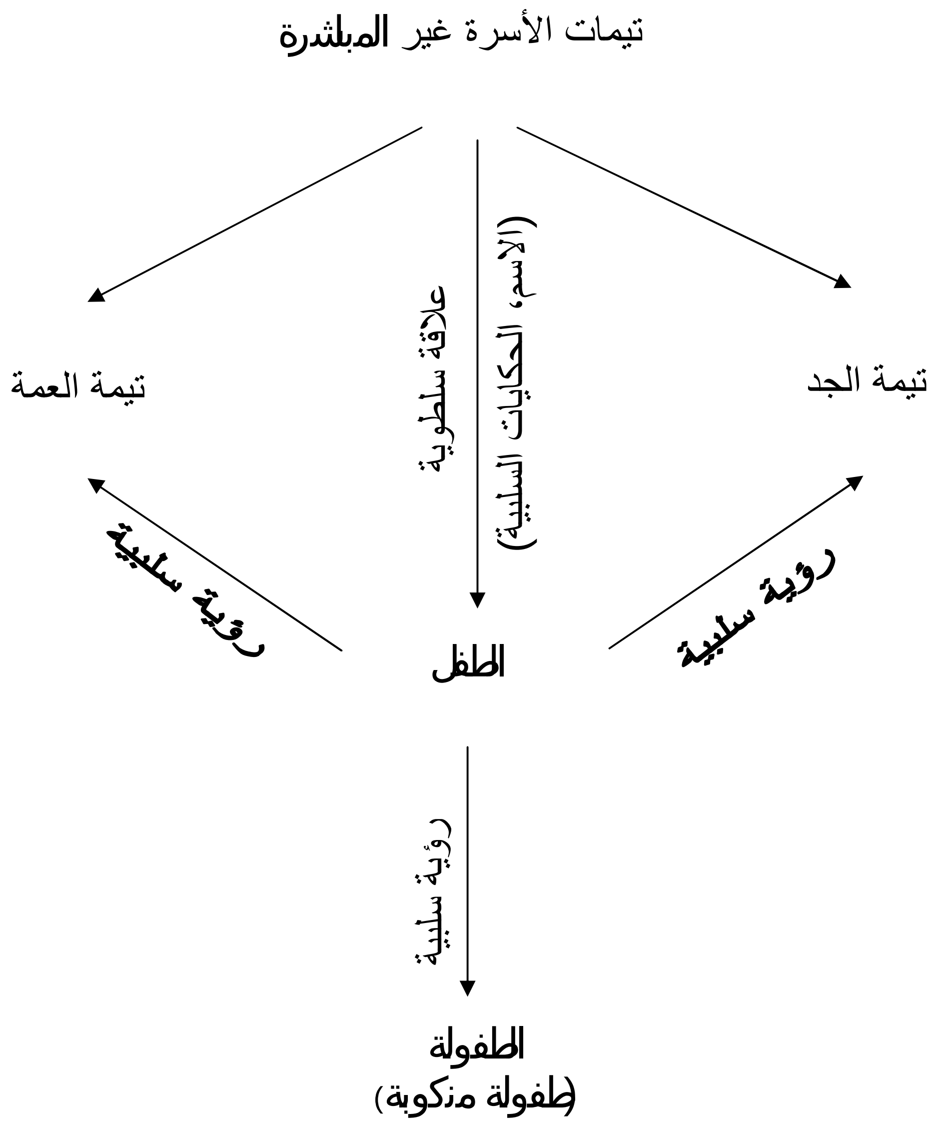

لقد ارتبط الوعي بالطفولة في البداية بتيمات الأسرة غير المباشرة (الجد والعمة) وهي – في مجملها – تيمات سلبية تتسم بسلطة فوقية قاهرة مارسها الاسم والانتماء والحكايات والرؤية الغيرية القاهرة، ولم تكن تيمات الأسرة غير المباشرة في حد ذاتها سببا لتكوين الوعي السلبي بالطفولة عند الطفل، بل إن الرؤية الغيرية السلبية إزاء تيمات الأسرة غير المباشرة هي التي انعكست سلبا على مستوى وعي الطفل بطفولته، وهي التي ربطت ربطا تعسفيا بين حياة الجد المنكوبة وحياة الطفل من جهة، وبين حالة العمة وضرورة حماية الطفل من جهة ثانية، فلا يمكن – في كل الحالات – أن يكون الوعي بالطفولة إيجابيا، والطفل قد فرضت عليه تيمات الأسرة غير المباشرة فرضا مجحفا وبمعطيات قاسية: (اسمه "علال" وجده كذلك

وحكيت له كل تواريخ الجد المربكة وحالاته المرضية المرعبة، ويكفي أن مجرد حضور الطفل يذكّر الجميع بـ "علال" الجد السقيم المخبول، وعمته ماتت مشردة في مستشفى المجانين، والجميع يحكي بأن الطفل كان سببا لإقصائها من المنزل)، لذلك تشوهت الرؤية للطفولة، من حيث هي طفولة مسكونة بلعنة الانتماء لجد موبوء، وبلعنة الارتباط به ارتباطا تعسفيا، ومسكونة بلعنة الجريمة التي يعتقد الطفل أنه اقترفها في حق عمته، فنجم عن كل ذلك شعور قاهر بالذنب يحيل إلى وعي الطفل بالطفولة باعتبارها طفولة منكوبة.

4- تيمة هاجس الأمومة: تبدو علاقة الأم بالطفل "علال" مثيرة للإشباع، وهو إشباع ناجم عن المبالغة في الاهتمام جراء الوضعية التي يتميز بها الطفل، ونلفي الطفل من خلال تصريحاته السردية واعيا بأسباب الاهتمام، حيث يقول: «ترعرعت ضعيف البنية، هشا إلى درجة لا تصدق ... موعدي مع الأمراض تكرر بوتيرة متسارعة»[53] وهي الأسباب نفسها التي أجاءت الأم للاهتمام بابنها اهتماما مميزا: «ظللت ابنها المريض المدلل»[54] ولا شك أن هذا الغنج أجذل الطفل كثيرا، ومنحه فرصة للتعويض عن قروحه، ومنحه بعض إمكانيات التملص من رباق الهواجس التي تسكنه، فكانت الأم عالمه المفضل وملاذه المبجل، يلازمها كل الملازمة إلى درجة التماهي معها، ولم يكن هذا التماهي إلا وعيا بالطفولة من حيث هي طفولة ترتحق من الأمومة وهجها وتألقها، لكن كل من هذا التماهي في حد ذاته وفكرة الملازمة والمبالغة في العناية والاهتمام انبرى يثير كثيرا من المتاعب على مستوى عدة أصعدة، يمكن أن نوجز الحديث حولها وفق العتبات العنوانية التالية:

4-1- تيمة الرؤية الغيرية: لطالما كانت للغير سلطة قاهرة، باعتبار الإنسان كائنا اجتماعيا تؤثر فيه بطريقة أو بأخرى رؤية الغير، والرؤية المقصودة في هذا السياق ليست رؤية بصرية، بل هي رؤية عقلية ناجمة عن الوعي الغيري، ولن تكون هناك مشكلة إلا إذا كانت الرؤية الغيرية تناهض الرؤية الذاتية، مما يتسبب في نشوب صراع بين الأنا والغير

[53] المصدر نفسه. ص 40.

[54] المصدر نفسه. ص ن.

حيث يحاول الأنا دائما الذود عن حياض معتقداته، والتملص من رباق الأسر واستعباد الرؤية الغيرية.

في وضعية الطفل "علال" كان اهتمام الأم مثيرا للريب ومدعاة لسخرية الغير، هذه الرؤية الغيرية التي لم تتوان في شحذ ترسانة من الاتهامات والنعوت، مستهدفة تقويض فكرة الإشباع التي دأب عليها الطفل ولم يخل أن أحدا سينازعه فيها، وطفقت بذلك الرؤية للطفولة تتغير تغيرا ملحوظا على مستوى الوعي بالطفولة، حيث بات من الضروري مراجعة العلاقة الأمومية التي كانت في البداية تعلة للجذل والرفاهية، ثم بدأت تتحول إلى تعلة للتهكم والسخرية بفعل السياط الغيرية التي يمتلكها وعي الآخر «فلقد أطلق علي أفراد العائلة لقبا أصبحت مع الزمن أتضايق منه، كانوا ينادونني "ابن أمه"»[55] وقد تحول الإشباع الناجم عن مبالغة الأم في الاهتمام من دلالات تيماتية إيجابية إلى دلالات تيماتية سلبية، حيث إن الاهتمام نفسه تحول إلى قيمة سلبية تسبب كثيرا من الامتعاض والنكد، لا لشيء إلا لأن الرؤية الغيرية مارست سلطتها وأرهقت الوعي الذاتي بالتهكم والسخرية، فكان أن انتكس الوعي بالطفولة باعتبارها طفولة مسكونة بهاجس الأم، بكل ما تحمله كلمة الهاجس من إحالات سلبية تهور جل حصون المتعة والراحة وتقوضها، وتعوضها بكثير من دلالات الارتباك والقلق، في سياق لا يمكن فيه للطفل "علال" أن يمتلك الجسارة الكافية لمجابهة قلقه وانتشال ازدرائه لطفولته، لأنه لا يقوى على مجابهة الرؤية الغيرية التي تبدو قوية جدا تمارس تسلطها بنوع من الاستعلاء والتفوق، لاسيما إذا أدركنا أن الرؤية الغيرية هي في الحقيقة رؤية أسرية تنبجس من رحم العائلة، حيث يمتلك الطفل أختا كبرى وأخا أصغر وأختا صغرى، وللطبيعة أولويات، حيث كان من المفروض أن تحظى الأخت الصغرى أو يحظى الأخ الأصغر بنصيب أوفر من الغنج والاهتمام، لكن مخالفة أولويات الطبيعة أثارت سخط الإخوة واستثارت غيرتهم، فكانوا يضايقون الطفل "علال" بنعوت ساخرة متهكمة يعسر تجنبها أو التغاضي عنها، لاسيما أنها تصدر ممن يعيشون معه، ولا يمكنه التملص من سياطهم وشزراتهم، فتحولت – بذلك – الأم إلى هاجس مرير يقدح من قيمة الوعي بالطفولة

[55] المصدر نفسه. ص ن.

باعتبارها طفولة لا قيمة لها إلا بوجود الأم وبالارتباط بها من جهة، والارتباط بالأم من جهة ثانية يجعل الطفولة لا قيمة لها أيضا، ففي كلتا الحالتين تكون الطفولة في موقع مشوه لا قيمة لها فيه، وهو موقع يحيل إلى إقصاء الطفولة كما كانت مقصية مع الجد ومع العمة.

4-2- تيمة الأبوة: ليست المتاعب الناجمة عن ملازمة الأم والارتباط بها ارتباطا مغاليا مقتصرة على الرؤية الغيرية الفاتكة وما تسببه من ألم وانتقاص، حيث تتحول تيمة الأمومة في حد ذاتها إلى جذاء للصراع بين الأنا والغير، تلك الأمومة التي يتفانى الطفل جاهدا لامتلاكها والتماهي معها والذود عن حياضها، لذلك كل ما يهدد الأمومة أو يعتقد الطفل أنه يهددها يشكل هاجسا من الوجع والكمد على مستوى الوعي بالطفولة، وكأن الأم محور الوعي بالطفولة، ووجود الطفل مرهون بوجودها، فلا يقوى أبدا – في هذه المرحلة – على الانفصال عنها، لأنها صورته المثالية المتعالية، التي في سبيلها تجاوز ذاتيته وألغاها وراح يصبو دائما لامتلاكها وتقديسها، وبهذا لا يتقبل الطفل أي نوع من أنواع مجازفات التضحية بفكرة التماهي، لأن كل محاولات إقصاء الأم هي نوع من إحالة الطفولة إلى العدمية، تلك الطفولة التي لا يمكنها أن تتأسس كطفولة مستقلة، ولا يمكنها أن تتقبل أي نمط من أنماط إجهاض علاقة التماهي، فكانت الرؤية الغيرية تهديدا حقيقيا يدعو للانتكاس والقلق، لاسيما حين تضخم التهديد وتمارد، وانخرط الوالد في صراع العلاقة بين الأنا والغير حيث بين الحين والآخر يسطو هذا الأب على حلم الطفولة وعلى ممتلكاتها المقدسة ويفترس الأم بالضرب والطرد، لتتجلى بوضوح مأساة الوعي بالطفولة من خلال المؤشر السردي التالي: «أكثر المعاناة التي تسبب لي فيها ارتباطي الوثيق بأمي تلك اللحظات العصيبة التي كان يثور فيها أبي، فينهال على أمي بالضرب ... أتشبث بها بكل ما أملك من قوة ...أبكي ببكائها، وأحقد على أبي أيما حقد...»[56].

تكون العبارة السابقة تصريحا مباشرا بمدى الأسى والشجن الذي يخز الطفولة وينحرها ويقض مضجعها، لاسيما حين تقع الأم ضحية بين أضباث القهر الأبوي، وهي الأم بكل ما تتضمنه معانيها من قداسة واحتفاء، تدنسها الصفعات والشتائم، وفي ذلك تدنيس للطفولة

[56] المصدر نفسه. ص 41.

التي تماهت مع الأمومة وبات وجودها ونقاؤها وتوهجها منوطا بوجود الأمومة وبنقائها وتوهجها، وبالتالي لما استبيحت الأمومة وتدنست تحولت على مستوى الوعي بالطفولة إلى تيمة تقبع فيها الهواجس والكوابيس، وتحولت الأمومة إلى نوع من التهديد الذي يتهدد حصون الوجود الذاتي، حينئذ تضخمت الرؤية السلبية للطفولة باعتبارها طفولة يتهددها السلب.

إن الارتباط بالأم ومحاولات التماهي مشروع يكتنفه كثير من الوجل، ويفرض مستويات من الصراع المتفاقم الذي يفل عزيمة الطفل في كل مرة، ويتصاعد بنوع من الهيجان والتكالب، فمن جهة قسوة الرؤية الغيرية، ومن جهة أخرى الافتراس الأبوي، وكلها مؤشرات وممارسات تبعث على الخيبة وعلى الانطواء، وعلى تضخيم الهاجس التيماتي وسلبية الرؤية للطفولة، من حيث هي طفولة تحولت الأمومة بالنسبة لها إلى مشكلة حقيقية وإلى هاجس من الهواجس المضنية.

4-3- تيمة هاجس الفطام: لعله من القمين أن نستهل ببعض الملاحظات حول الرؤية الغيرية وهاجس الأبوة قبل الولوج إلى هاجس الفطام، حيث بدا جليا مما سلف أن كلا من الرؤية الغيرية وهاجس الأبوة تيمتان متسلطتان تمارسان ما يكفي من الضغط والقهر وتتسببان في كثير من الخيبة، لكنهما لم تفلحا بنمط صارم ونهائي في صرم علاقات الارتباط والتماهي رغم الصدوع التي طالت مستويات الوعي بالطفولة، فعمليا لم يتجرأ الغير على إبعاد الطفل عن أمه، ولم يحدث أن سلب الأب للطفل أمه، لذلك مافتيء الطفل يعزي نفسه بالحيز المكاني الذي يجمعه بالأم، فإن كانت قناعاته تتصدع وتتهار فقد مازالت المسافة المكانية في صالحه، ومازال التواصل مع الأم ممكنا رغم النكبات والكبوات على مستوى الوعي بالطفولة، أما الضربة التي شلت بقايا الآمال القابعة في عمق الوعي بالطفولة فهي تصدع المسافة المكانية، وإجبارية برح الأم حين أولجت الأم ابنها للمدرسة، وكانت الفاجعة مروعة لما انبرت علامات الاستفهام مستذئبة: «لماذا تبعدني أمي عنها ؟»[57].

[57] المصدر نفسه. ص 42.

لقد بات الاعتقاد مفضوحا بأن الأم تنكرت لعلاقات الارتباط والملازمة والتماهي فـ«لحظتها أحسست أنني بدأت أكرهها»[58] ولا شك أن كره الأم يعني بالضرورة – في هذا السياق – كره الطفولة، تلك الطفولة التي في كل مرة تخفق في تحقيق وجودها، وحتى إن عولت على غيرها ازدادت خيبة وفشلا، ولا أدل على ذلك من فكرة الأم التي تفانى الطفل في الاحتفاء بها، وعلق عليها كثيرا من الآمال، متحملا في سبيلها كثيرا من الآلام، هذه الأم ذاتها يعتقد الطفل أنها تناصبه العداء وتتبرأ من انتمائه لها، وتجبره على التخلي عنها وبذلك كانت المدرسة بالنسبة للطفل نوعا من النفي والخيانة، وسببا لتشوه الرؤية للطفولة باعتبارها طفولة مقصية منفية وحيدة، والكل يشزر إليها بعيون الإغماط والتنكر والإقصاء.

مما سبق يتضح جليا كيف تحولت الأمومة من دلالاتها الفطرية إلى تيمات هاجسية تسبب على مستوى الوعي بالطفولة كثيرا من مشاعر الانهيار والوجع، حيث إن الرؤية للطفولة أمست محفوفة بالهواجس السلبية ومقروحة بكثير من الإقصاء، وهكذا تصاعد الارتباط بالأم وتصاعدت محاولات التماهي معها، إلى مستوى القطيعة الفادحة وتشويه الاعتقاد بإمكانيات الآمان المزعوم، حيث يبدو أن مستويات الثقة التي تبناها الطفل بغية ترميم أناه وتضميد قروح الهوية قد طالها الفشل، وعادت الرؤية السلبية للطفولة جذعة تبعث على الانطواء وعلى الرؤية للطفولة كطفولة مذمومة مسلوبة مغلوبة تضطر لمعايشة وحدتها السافرة، وكان من المفروض في الحالات الطبيعية أن تكون الأم والعلاقة مع الأم سببا وجيها للتفاؤل والتعافي والشعور بالأمان، و«قد أجمع الباحثون على اعتبار العلاقة بين الأم والطفل بمثابة ركيزة أساسية في النمو الاجتماعي والانفعالي المبكر عند الطفل»[59] لأن الأم تزكية هامة لكل القرارات ولكل الانطباعات التي يصدرها الطفل إزاء طفولته، إذ الرؤية للطفولة منوطة بقدر كبير بمستويات الرؤية للأم، ولما تشوهت هذه الرؤية الأخيرة تشوهت الرؤية للطفولة، وربما كانت مبالغات الارتباط التي مارستها الأم هي السبب الوجيه الذي تسبب في تشويه الرؤية والوقوع في شرك الإخفاق والفشل، إذ بدا جليا أن ممارسات الأم

[58] المصدر نفسه. ص 43.

[59] قنطار، فايز. الأمومة. نمو العلاقة بين الطفل والأم. د ط. الكويت: عالم المعرفة، 192 (م). ص 45.

ومغالاتها في ملازمة ابنها، وإحاطته بكل ألوان الشفقة والغنج والتبجيل كانت كافية لتأليب الرؤية الغيرية وتحريضها، وكانت كافية لذلك الألم الذي يجتاح الطفل وهو يعايش ممارسات الأب القاهرة، كما كانت سببا جوهريا لعدم تقبل الطفل لفكرة المدرسة ولبرح تخومه المكانية التي دأب عليها، ولاشك أن ممارسات الأم في حد ذاتها تسببت في تحول الرؤية للأم من النقيض إلى النقيض، ومن رغبة التماهي والحب المثالي إلى الإحساس بالكره والامتعاض ومن الأمومة كفكرة ملحة تحبل بالعبق والنقاء والآمان والثقة إلى فكرة ملحة مدنسة بالعفاء والهواجس والشجن، لذلك من البديهي أن تكون الرؤية للطفولة منهوكة مهمشة كمن يبصر صورته في مرآة مكسورة، يعتقد أنه مهشم مشوه تذبحه المسافات من الوريد إلى الوريد، ولعل تلك المرآة المكسورة هي تيمة الأمومة التي شيئا فشيئا فقدت كمالها وتبرجها وتشوهت وشوهت من علق عليها كثيرا من الآمال والأحلام، وتحولت إلى هاجس ينزف كثيرا من الآلام، والبيان التيماتي التالي يترجم أهم التحولات السلبية التي طرأت على مستوى الوعي بالطفولة، وعلى مستوى الوعي بالأمومة:

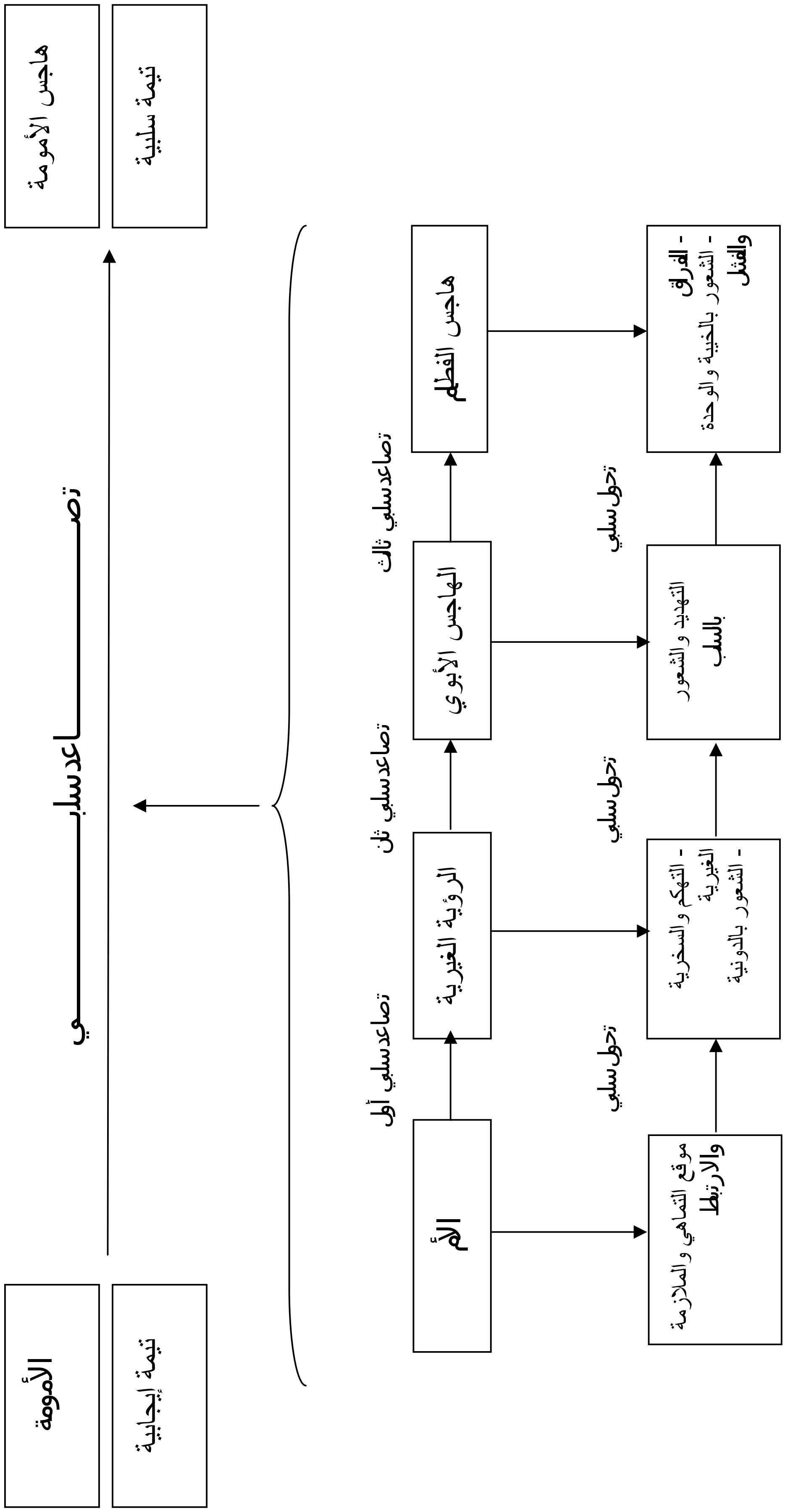
الأمومة
تيمة إيجابية
هاجس الأمومة
تيمة سلبية
تصاعد سلبي
الأم
الرؤية الغيرية
الهاجس الأبوي
هاجس الفطام
تصاعد سلبي أول
تصاعد سلبي ثان
تصاعد سلبي ثالث
موقع التماهي و الملازمة والارتباط
تحول سلبي
تحول سلبي
تحول سلبي
- التهكم و السخرية الغيرية
- الشعور بالدونية
التهديد و الشعور بالسلب
- الفراق
- الشعور بالخيبة و الوحدة والفشل

يبدو أن الرؤية للطفولة تصاعدت تصاعدا سلبيا، وتحول الوعي بالطفولة تحولا سلبيا باعتبارها طفولة دونية قزمتها الرؤية الغيرية، ثم هي طفولة مهددة بالسلب تسلطت عليها الأبوة، وهي في النهاية طفولة فاشلة وحيدة، وفي سياق كل هذه التحولات تحولت الأمومة من تيمة إيجابية إلى تيمة سلبية تنتج كثيرا من هواجس القلق والاغتراب، ومن ثمة يستقر الوعي بالطفولة على رؤية سلبية للطفولة من حيث هي طفولة سباها الفشل ودجنتها الوحدة وهاتان الفكرتان الملحتان (الفشل والوحدة) تبناهما الوعي بالطفولة كقناعات تتجاوز حدود المواضيع الخارجية، إلى ظواهر استبطنها الوعي وشغف بتشذيبها ليحولها إلى ماهيات لذلك تكون الرؤية للطفولة عميقة جدا تتوخى دائما رصد الماهيات، وهكذا نتوخى – فينومينولوجيا – رصد الماهيات دون الاكتفاء بالرؤية السطحية التي قد تكون متحايلة مخيبة تتسم بكثير من المراوغة والزيف، ونحن هنا لا ندعي أننا رصدنا الماهيات رصدا سليما مطلقا، ولكننا نزعم أننا بررنا لما أتيح لنا من تأويل وتحليل بـ«اعتماد كل تأويل على معطيات نصية، وليس على القريحة الخاصة وحدها»[60]، وتبقى الأحكام التأويلية نسبية مثل نسبية الرؤية للطفولة في حد ذاتها.

5- تيمة هاجس الأبوة: لقد سلف وأومأنا إلى أن الرؤية للأب يشوبها التنكر وبعض العداء، على اعتبار أن الأب في مرحلة ارتباط الطفل بأمه ومحاولات التماهي معها مارس سلوكات عنيفة ضد الأم، أنزفت الطفل خيبة وتحسرا وزادته شقاء وألما، لذلك كان الأب من أولئك الذين يخالهم الطفل يسعون وراء نهب أمومته وإقصائها، وبالإضافة إلى العلاقة المضطربة بين الأب والأم وانعكاساتها السلبية على مستوى الوعي بالطفولة هناك تيمات أخرى تتفرع عن هاجس الأبوة، وهي نفسها التيمات التي نعتقد أنها تكوّن مجتمعة تيمة هاجس الأبوة، ويمكن أن نقوم برصدها وفق العتبتين العنوانيتين التاليتين:

5-1- تيمة اللامبالاة والإهمال: تصور الرواية الأب غارقا في عمله منهمكا في عزلته، ويكفي أن رؤية الطفل إزاء الأب لا تتجاوز تخوم هذه الصورة الفاترة، حيث تتسم

[60] لحميداني، حميد. القراءة وتوليد الدلالة. تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي. الطبعة الأولى. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2003 (م). ص 279.

العلاقة مع الأب على مستوى وعي الطفل بالإقصاء، فلا يكاد الطفل على طول المسافات السردية أن يدلي بملاحظة إيجابية واحدة نجمت عن التواصل مع الأب، فهو يكتفي بالحديث عنه نائيا منغمسا في شروده ومخاوفه الخاصة، ولم يحدث أن اجتهد الأب للتزلف من ابنه أو محاورته وإبداء بعض الاهتمام به، وقد كان الطفل يبدي نوعا من الرضا إزاء حياد الأب وكأنه في حديثه عن الأب يلتمس له الأعذار التي كانت دائما منوطة بوضعية الأب المزرية وبتلك اللعنات التاريخية المشينة التي تلاحقه من جهة، ومن جهة ثانية كان الطفل يعتقد أن عزوف الأب ولامبالاته ناجمان عن ما تفطن له الأب من علاقة موغلة في التماهي والملازمة بين الأم وطفلها الغنج الذي يلازمها في حلها وترحالها، ف «قد يكون ذلك من الأسباب التي جعلت أبي يتعامل معي فيما بعد بنوع من اللامبالاة...كنت ابن أمه بمعنى الكلمة»[61] ورغم أن إهمال الوالد كان مبررا نوعا ما على مستوى وعي الطفل إلا أن بعض الأسيقة أثبتت حاجة الطفل الماسة لوالده، لاسيما حين يحكي الطفل عن خوفه ليلا، وأنه لا يمكن أن يرتاح وينام إلا إذا تيقّن من عودة والده للمنزل، إلى درجة أن الأم كانت تضطر للتحايل على الطفل إلى أن يهزمه النوم، وفي الصباح الباكر يتفطن الطفل لحيلة أمه حين يكتشف غياب والده، وتنتابه كثير من مشاعر الخيبة والحسرة، كما أن لامبالاة الوالد تفاقمت وتصاعدت إلى أوجها حين رحل الأب نهائيا، وبرح الأسرة التي كان يميرها تخنقها أزمة الإعالة.

لاشك أن الطفل رغم حالات العداء التي ناصبها للأب بسبب إيذائه للأم، ورغم المبررات الأولى التي التمسها للأب، ورغم أنه دائما استوعب أن والده مهزوم يرزح تحت وطأة الظروف القاسية، إلا أنه في النهاية أبدى حاجته الملحة لحضور الأب، وأبدى خيبة جراء رحيل الأب، وكل تلك مؤشرات تومىء إلى الانتكاس على مستوى الوعي بالطفولة، إذ الحاجة الفطرية لظل الوالد لم تتشبّع ولم تتحقق، ويبدو أن ذلك يجعل من الذات تشعر بالوحدة الممضة، لأنها أخفقت في تحقيق حاجاتها الطبيعية التي من حق أي طفل أن يحظى بها، لكن في حالات الطفل "علال" نكبت علاقته بوالده، وتحولت الأبوة إلى تيمات

[61] لغتيري، مصطفى. المصدر السابق. ص 41.

تنتج كثيرا من هواجس العداء والخوف والخيبة، وأمسى الوعي بالطفولة يمتح دلالاته من تلك التيمات السلبية، من حيث هي طفولة تفتقر للأنس والظلال الأبوية، وبالتالي هي طفولة تطاردها لعنة الوحدة والشقاء دون مبررات كافية ومقنعة.

5-2- تيمة أزمة الامتلاك: ككل الأطفال الذين يتحمسون لامتلاك حيوان ما، أراد الطفل يوما أن يمتلك جروا، وأفلحت توسلاته في إقناع الأم واستعطافها، لكن كل المحاولات والتوسلات والنشيج والدموع والتأوه لم تفلح في إقناع الوالد المسكون بهاجس الكلاب وبلعنة الكلاب، وبلقب "ابن كلبون" الذي ألصق به تاريخيا، وارتبط بالجد وبأمراضه الكلبية، لذلك للمرة الأولى يود الطفل بقوة امتلاك حيوان، لكن إرادة الوالد السلطوية سلبته مبتغاه، وانتهى الجرو مرميا في الشارع، ولم يبال الأب ولم يحفل بدموع الطفل وبآلامه، ولاشك أن الطفل في تلك اللحظات كره الأب كرها جافيا، وتمنى التخلص منه، لأنه كان جدارا صفيقا يحول دون تحقيق ما يصبو إليه ويريده بشدة، فـ «هذه الحادثة جعلتني أكره أبي كرها استوطنني حتى النخاع»[62] فكانت النتيجة أن تشوهت صورة الأب على مستوى وعي الطفل، وتحولت فكرة الأبوة إلى هاجس من الهواجس السحماء التي ترادف العائق والفشل والخيبة، وتحيل إلى وعي مشوه بالطفولة، باعتبارها طفولة مقهورة محرومة، لا تمتلك حق الامتلاك، وتعاني أزمة امتلاك حادة، والأدهى والأمر أن الأبوة التي كان يفترض بها أن تيسّر سبل الامتلاك وتسعى لتحقيق الأحلام والطموح والجذل تحولت إلى سياط للجلد والقمع والحرمان، لهذا تفشل الذات من جديد في تحقيق علاقات سوية، وتعود مرة أخرى - بعد جولة مضنية - خائبة منكسرة، ويزداد الوعي بالطفولة سلبية، من حيث هي طفولة مقموعة محرومة متروكة وحيدة، تفترسها هواجسها المريبة.

6- تيمة هاجس الأنثى: لم يطل الأمد بالطفل حتى ظهرت بوادر الشغف بالأنثى والاهتمام بها والرغبة فيها، حيث كانت مشاعر الشغف تنتاب الطفل بقوة، وكانت فرص التعامل مع الأنثى متوفرة نوعا ما، ولعلها من الفرص المواتية التي خالها الطفل تعويضا عن حرمانه، وتملصا من رباق الهواجس المضنية التي تغير عليه من كل صوب ومن كل

[62] المصدر نفسه. ص 61.

حدب، حيث كانت الأنثى في تصوره عالما من البهاء والفتنة والجذل، و«ما إن وقع عليها بصري حتى استحوذت على تفكيري»[63] لكن محاولات المجازفة العاطفية يبدو أنها هي الأخرى باءت بالفشل، إذ لم يكن التواصل مع الأنثى إلا مجرد هاجس من الهواجس التي تنجم عن الفشل على مستوى الواقع، فنتج عن ذلك أن كان التواصل مع الأنثى لا يتجاوز تخوم المخيلة، أما على مستوى الواقع فقد شهد الشغف بالأنثى في مرحلة الطفولة فشلا ذريعا، أنتجه التدهور النفسي والعجز عن امتلاك الجسارة الكافية للتعبير عن مشاعر الشغف وترجمة الرغبات العاطفية على مستوى الواقع.

«هكذا تأسست علاقتي بالأنثى بهذا الشكل الخجول»[64] وفي العبارة السابقة نلفي أول حكم معياري على الطفولة والوعي بها، باعتبارها طفولة خجولة يعيقها الخجل ويكبتها، ولعله السبب الوجيه وراء فشل التواصل مع الأنثى التي تحولت من ملاذ للأمان وإمكانيات التعويض إلى هاجس من الإخفاق والفشل والعجز، فقد «أضافت الأنثى هاجسا جديدا إلى نفسي، كنت أطمح إلى ربط علاقة متينة مع إحداهن، لكنني فشلت...الخجل يكبلني ويكبس على أنفاسي»[65].

مما سبق نكتته أن الهوس بالأنثى يحيل إلى الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة مشغوفة بالأنثى، وفي حالة ماسة للتواصل معها، لكن الوعي بالطفولة تعرض لانتكاسة وخيبة ليست – كما ذكرنا سلفا – الأولى من نوعها حين باءت محاولات التواصل مع الأنثى بالفشل، لذلك تحول الوعي بالطفولة من الاحتفاء برغبات الطفولة وبشغفها العاطفي إلى الرؤية السلبية للطفولة، من حيث هي طفولة محرومة فاشلة خجولة يقمعها التردد والخجل والعجز عن تحقيق رغباتها وترجمة ميولها وعواطفها، ولعل هذا التحول السلبي في تحولات الوعي بالطفولة سبب وجيه لتعزيز الإحساس بالخجل، فلا يدرك الطفل فقط أنه يتسم بالخجل، لكنه في الوقت ذاته يعزز تفاقم الخجل لديه ويصعّد مستوياته، لأنه لمجرد اكتشافه

[63] المصدر نفسه. ص ص 56، 57.

[64] المصدر نفسه. ص 57.

[65] المصدر نفسه. ص 58.

لعلة إخفاقه في التواصل مع الأنثى أقنعه السبب واكتفى بخجله، ولم يجرؤ على محاولات تجاوز إحباطه، على اعتبار أن الطفل عندما اكتشف خجله، وأدرك أنه علة نكده العاطفي كان من المفترض أن يسعى للتغلب على عاهته النفسية والتخلص من الخجل، لكن من الغريب أنه استسلم لخجله، واكتفى بتلك الأحكام المعيارية التي وسم بها طفولته، وكأن اكتشاف عاهة الخجل التي اكتنفته كاف بالنسبة له حتى يحقق الخنوع والاستكانة، «ويعيش منطويا على نفسه بعيدا عن الآخرين»[66]، وما الأنثى إلا تجربة فضولية لاكتشاف الطفولة التي يبدو أن الطفل يعتقد أنها فاشلة محرومة مسلوبة، وأن التسليم بذلك أمر بديهي لا مفر منه، حيث دأب الطفل على تصنيف طفولته دائما في الخانات السوداء التي لا طائل من محاولة تغيير مصيرها المزري ووحدتها المدقعة، وهذا لا يعني أن الطفل أجذله فشله في التواصل مع الأنثى، لكنه يعني أن الطفل استسلم للخيبة التي عايشها، وانزوى مكتفيا بالحكم على طفولته حكما معياريا، مفاده أنها طفولة خجولة محبطة، والوعي بها لا يتجاوز الوعي بسلبيتها وضعفها.

من خلال استقصاء أهم التحولات التيماتية على مستوى وعي الطفل ورصد أهم تحولات الوعي بالطفولة يمكننا أن ندلي ببعض الملاحظات والاستنتاجات الأساسية، لاسيما ما ارتبط منها بتلك التحولات الجذرية التي ترسّبت في الوعي بنمط فعال وعنيف، ومن بين الملاحظات الجادة تلك التي نلفيها مرتبطة بالفشل الذريع الذي شهده وعي الطفل على مستوى التواصل مع تيماته التي توسم فيها خلاصه وملاذه وتحقيق وجوده في البداية، لكن لما خاض غمار محاولات التواصل وتحقيق الهوية تهافتت عليه الكبوات والنكبات، وباءت كل المحاولات بالفشل، وأنتجت التيمات هواجس منهكة مثقلة بالرزايا ومحفوفة بالوجع والإخفاق، فكان الجد بتاريخه المشين وباسمه الملعون سببا للإقصاء الوجودي، وسببا لازدراء الرؤية الغيرية وتفاقم هواجس المرض والذهان، وكانت العمة تعلة للشعور القاسي بالذنب كما كانت الأم أوار الإغماط الغيري وجفاء الأب، وقسوة الانفصال التعسفي صنّفت الأب في خانة العداء، وجعلته رمزا من رموز الإحباط والقضاء على كل رغبات الامتلاك والحبور

[66] أحمد النبال، مايسة. الخجل وبعض أبعاد الشخصية. د ط. الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1999 (م). ص 173.

والاستقلال، وهكذا تشوهت كل التيمات إلى أن ختمت بتيمة الأنثى وما رافقها أيضا من إحباط وفناء، وأنتجت بذلك كل التيمات هواجس كاوية مفترسة، مجرد التفكير فيها يثير على مستوى الوعي الصداع والغثيان والحسرة، ومن جهة أخرى ترتبط الملاحظات بتلك التحولات الجذرية التي طرأت على مستوى الوعي بالطفولة، حيث كان الوعي بالطفولة في تحولاته المرتبطة بالتيمات الأولى (الجد، العمة، الأم، الأب) يتسم بالتماهي، حيث لم يتمكن الطفل من إبداء أحكام معيارية إزاء طفولته، واكتفى بترجمة بعض المشاعر التي تنتابه، لكننا من خلال التحليل اكتنهنا ماهية الرؤية للطفولة والوعي بالطفولة، من حيث هي طفولة مقموعة محرومة ممتعضة وحيدة، أنهكها الإقصاء وأذوتها النكبات والخيبات والتقزيمات، لكن فيما بعد، وفي سياق تحولات الوعي بالطفولة المرتبطة بتيمة الأنثى بدا جليا تحول مسارات الوعي من التماهي والعجز عن إبداء أحكام معيارية واضحة، إلى إبداء أحكام معيارية واضحة تترجم بصراحة استيعاب الطفل لصفة الخجل التي تسكنه، وقد بدا الطفل في هذه المرحلة أكثر رضا عن طفولته، والوعي بها باعتبارها طفولة خجولة يجب أن تتقبل فشلها التواصلي على مستوى الواقع وتستسلم لوحدتها، وهذا ما يفسر ارتياح الطفل للأحلام التي تجتاحه ليلا، معتبرا إياها تعويضا عن فشله على مستوى الواقع وتحقيقا لرغباته المقموعة لذلك نلفيه – في النهاية – منزويا على نفسه منعزلا مع أحلامه، ولعل الأحلام ارتبطت بحلمين أساسيين؛ أما الأول فهو ذاك الحلم الذي يعوض الفشل في التواصل مع الأنثى على مستوى الواقع حين «اكتفيت باسترجاع صورة فتاة القرية، تزورني في أحلامي أراها غضة ناعمة، ترتدي لباسا أبيض ناصعا، تحضنني وإياها المروج الخضراء بأزهارها الزاهية الألوان أستلقي في دفئها»[67] ثم يقول: «بمرور الزمن أقنع بما حصلت عليه في حلمي»[68] أما الحلم الثاني فهو حلم جوهري راود الطفل كثيرا ودأب على رؤيته ولازمه إلى مرحلة ما بعد الطفولة بسنوات، فحتى حين أصبح الطفل رجلا مازال يعيش الحلم نفسه، والغريب أن أحداث الحلم تتطور وتنمو، حيث إن الجرو – الذي دأب على رؤيته في الحلم وامتلكه ويعيش معه في كل ليلة لهوا ونزهة ومغامرة – زاد مع الأيام حجمه، وتحول بعد سنوات إلى كلب: «فهاك

[67] لغتيري، مصطفى. المصدر السابق. ص ص 58، 59.

[68] المصدر نفسه. ص 59.

سري إذن: إنني لازلت إلى يومنا هذا أحتفظ بالكلب، طبعا لم يعد ذلك الجرو الصغير الذي أخبرتك عنه لقد أضحى ضخما ناضجا، يزورني في أحلامي بين الفينة والأخرى، فنقضي لحظات سعيدة»[69].

لذلك نعتقد أن الطفل يعيش حياته المقموعة في الحلم، أما على مستوى الواقع فهو وحيد منعزل خجول، يفتك به مرض الصرع وتكبله الخيبة، ولم تكن الأحلام هي السبيل الوحيد لتعويض الخيبات والفشل على مستوى الواقع، فرغم أنها كانت أهم ملاذ في حياة الطفل النفسية، لكن إضافة إلى الأحلام، فقد استحوذت على الطفل في مرحلة متأخرة من طفولته رغبات فنية عميقة، فكان دائم الهوس بالريشة والعبث بالألوان، يتقيأ أشجانه العصابية وينفس عن أحلامه المقموعة، فهو يصرح بأن صورة الكلب مازالت تفرض نفسها ليس على مستوى الحلم فقط، بل على مستوى الألوان أيضا: «ومن غريب ما حدث أن صورة الكلب كانت أكثر ما تجد طريقها إلى لوحاتي، كنت لا أقصد ذلك»[70] وهذا يعني أن أزمة الامتلاك – التي أومأنا لها سابقا في سياق تحليل تيمة هاجس الأبوة، والتي ارتبطت برغبة امتلاك جرو انتشله الأب من أحضان الطفل بقسوة ورمى به إلى الشارع دون رجعة – هي الأزمة الأكثر إلحاحا وحضورا وعمقا على مستوى الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة سكنها في النهاية الخجل لاعتقادها بعجزها التام عن التواصل مع الواقع، وعجزها عن محاولات تحقيق أدنى الرغبات وترجمة أتفه المشاعر، ولا مناص من اللجوء للتواري وإفساح المجال وسيعا للأحلام والفن، لأن في كليهما يمكن أن يتجاوز الطفل خجله ومختلف أنماط الرقابة الغيرية وألوان الإحباط الذريع، وينفّس عن رغباته ويحقق وجوده، لذلك ليس من باب الصدفة أن يكون الكلب محور الحلم ومحور اللوحة الفنية، لأنه – ببساطة – محور المعطيات التي فقدها الطفل على مستوى الواقع، لذلك نختم بنتيجة نخالها مهمة هي أن حالة الطفل في النهاية ليست مرتبطة بحالة الجد الكلبية وبفكرة الوراثة، بقدر ما هي مرتبطة بتحولات الوعي بالطفولة، باعتبارها طفولة فاشلة مقموعة وحيدة خجولة.

---

69 المصدر نفسه. ص 65.

70 المصدر نفسه. ص 67.

ث- تيمة الطفل المجاهد:

يبيح لنا النقد التيماتي حرية اختيار الموالج النقدية، ويبقى الحدس الفينومينولوجي أوار تلك الحرية النقدية «وبدون هذا الحدس لا يستطيع الناقد أن يدرك الدلالات الجوهرية للعمل الأدبي»[71] لما يملكه الحدس من طاقات قوة الافتراض، حيث إن الفرضية هي ذاك الاحتمال الدلالي الذي يمكّن من استشراف الأفكار الملحة المهيمنة على مستوى النص، من خلال عدة قراءات فاحصة تتوخى معايشة النص، وحيث إن الفرضية هي تصور أولي للمعنى يؤسس لاستيعاب تفاصيل القوانين الدلالية التي تضبط ماهية الأفكار الملحة التي افترض المتلقي التيماتي هيمنتها ومركزيتها، ذلك أن «كل قراءة تنطلق – بشكل حدسي في أغلب الأحيان – من تصور أولي للمعنى»[72].

مادام النقد التيماتي في هذا السياق مرتبطا برصد تحولات الوعي بالطفولة عند طفل رواية "هموم الزمن الفلاقي" فإن خصوصية موقع الطفل في هذه الرواية هي التي تغذي الفرضيات الحدسية، وتؤهل لرصد تحولات الوعي بالطفولة باعتبارها القضية الموضوعاتية الأساسية التي تبرر جدوى هذا البحث، وتبرر جل المساعي الحثيثة والتأويلات الوسيعة لاكتناه فكرة القانون الفينومينولوجي وما يثيره من توالدات قصدية وإحالات متبادلة وعلاقات مكثفة، حيث إن الوعي بالطفولة – في النهاية – هو الوعي بكل ما يرتبط بتلك الطفولة وهو أيضا العلاقات الإحالية التي أنتجت الطفولة ومكنت الذات من إنتاج أحكام معيارية تتعلق بالطفولة، فتكون تحولات الوعي بالطفولة غاية في التعقيد والتكثيف والتلغيز، وتكون الفرضية إحدى أنجع الموالج النقدية والحدسية التي لا يمكن أن نجزم بصحة توقعاتها، لكننا

---

[71] راغب، نبيل. المرجع السابق. ص 427.

[72] بن كراد، سعيد. السرد الروائي وتجربة المعنى. الطبعة الأولى. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2008 (م). ص 51.

نمنح القراءة التيماتية فرصة لتبريرها وجعلها ممكنة ومحتملة و«مع تقدم عملية القراءة، سوف تتعدل هذه التوقعات نفسها بما نتعلمه»[73].

لعل الفرضية التي نحدسها مرتبطة كل الارتباط بتحولات الوعي بالطفولة عند الطفل "محمد" في رواية "هموم الزمن الفلاقي" هي التحول من الوعي بماهية الطفولة إلى الوعي بضرورة إلغاء هذه الطفولة، وبلغة واضحة يتعلق الأمر في هذا السياق بطفل يرفض أن يكون طفلا، وسنحاول رصد تحولات الوعي بالطفولة من خلال ثلاث مراحل.

1- المرحلة الأولى: تصور الرواية الطفل "محمد" وحيد الأبوين، ورغم أن الأب شيخ بلغ من العمر والفقر مرحلة حرجة إلا أنه يمير عائلته ويكدح في سبيل توفير لقمة العيش ويضطلع بتوفير كثير من مسؤوليات الحماية، لاسيما إذا أدركنا أنه يحمي الطفل من الجوع المدقع ويمكّنه من ولوج المدرسة، ويحميه من كيد الانتهازيين أمثال "القايد موسى" الذي يسعى لجعل الطفل راعيا عنده، وأيضا يحمي الأب الأم "خديجة" الشابة الفاتنة التي يتربص بها الطامعون ويتوسلون استنكاحها بكل أساليب المكر والحيلة، لاسيما "جلول الحركي" وكذا "القايد موسى"، وهذا يعني أن الأب رغم ضعفه يمثل جدار حماية للطفل، وهذا الجدار بدا كافيا نوعا ما لتوفير مناخ تتنفس فيه الطفولة بنوع من الحرية والأمان، بعيدا عن كيد المتطفلين والطامعين، حيث استطاع الأب أن يحمي الطفل من المسغبة ويوفر له التعليم ويحميه من كيد السخرة واستغلال الانتهازيين، ويحمي أمه من أضباث المتربصين، لذلك كان حضور الأب على مستوى وعي الطفل ضروريا جدا لتحقيق الطفولة، ليس باعتبارها طفولة تحتفي بالرفاهية والترف والغنج، ولكنها طفولة بمعنى الاقتناع بجدوى هذه الطفولة وجدوى الاعتراف بها وإمكانيات التعايش معها، لذلك كان الوعي بالطفولة في هذه المرحلة هو وعي تلقائي بجدوى الطفولة وبإمكانيات الاحتفاء بها، حيث إن وجود الأب أهّل لتوفير أسيقة الطفولة وأتاح فرص ممارسة الطفولة، ليس بأسلوب مثالي ولكن بأسلوب زعيم بجعل الطفل يتقبّل طفولته ولا يفكر في صرمها أو قبرها وهجرها، وهذا يعني أن وعي الطفل قد

---

[73] إيجلتون، تيري. مقدمة في نظرية الأدب. ترجمة: أحمد إحسان. د ط. القاهرة، مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1991 (م). ص 98.

استوعب – ضمنيا – سياق الحماية الذي توفره الأبوة، واستوعب ضرورة هذا السياق كشرط من شروط تحقيق الطفولة في زمن محفوف بالفاقة والكيد والخوف، ومن هنا ألححنا على ضرورة رصد قصدية وعي الطفل إزاء الأبوة كموضوع استبطنه وعي الطفل بنمط أهّله للوعي بالطفولة وعيا إيجابيا، من حيث هي طفولة يمكن أن تكون قابلة للمعايشة والممارسة مادامت تحظى ببعض التحفيز والحماية، لذلك ارتبط الوعي الإيجابي بالطفولة بالوعي بالحماية التي توفرها الأبوة.

وهذا يعني أن الأبوة أنتجت حماية، وهذه الحماية أنتجت الطفولة، وهذه الطفولة هي ثمرة استبطان الوعي للأبوة على أنها حماية تمكّن من ممارسة الطفولة، والمقصود بالطفولة المنتجة هنا هو الوعي بالطفولة من حيث تقبلها، وفي كل الرواية المؤشر الظاهر الوحيد الذي يحيلنا إلى تقبّل هذه الطفولة وإلى الوعي الإيجابي بها هو اللعب: «أصبح لا يهمه اللعب...فقد كل رغبته في الترفيه»[74].

رغم أن العبارة السابقة تبين أن الطفل لم يعد يهتم باللعب والترفيه بعد مرض والده وهاجس موت الأب، إلا أنها تحيلنا أيضا إلى أن هذا الطفل – قبل مرض الوالد وقبل هاجس الموت – كان يمارس اللعب والترفيه، واللعب عند الطفل يعني وعيا بالطفولة وترجمة لذاك الوعي عن طريق الممارسة، ولطالما ارتبط اللعب بالطفولة، وكان مؤشرا قويا يدل على مدى تواصل الطفل مع عالمه، وعلى كيفيات تجاوبه مع محيطه، ويحيلنا اللعب إلى أهم المعطيات التي ألحت بحضورها على مستوى وعي الطفل «فأي شيء على درجة من الأهمية حدث من قبل يعاد استرجاعه في اللعب»[75] ولطالما كان اللعب مؤشرا قويا يحيلنا إلى وعي الطفل بذاته، فمثلا لعب الطفل مع الأطفال الذكور قد يدل دلالة واضحة على وعيه بتصنيفه الذكوري، ولعب الفتاة بالعرائس والدمى قد يكون دلالة واضحة على وعيها بأنوثتها، وما يلاحظ على الطفل "محمد" هو أن الوعي المبدع أهمل هذه المرحلة (مرحلة الوعي بالطفولة الإيجابية) حين كان "محمد" يمارس اللعب والترفيه، وأقصى الوعي المبدع

[74] مفلاح، محمد. روايات محمد مفلاح الأعمال غير الكاملة. دط. الجزائر: دار الحكمة، 2007 (م). ص 242.

[75] ميلر، سوزان. سيكولوجية اللعب. ترجمة: حسن عيسى. د ط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، د ت. ص 57.

صور اللعب، مكتفيا بالإشارة إلى التحول من اللعب إلى عدم الاهتمام باللعب، والاحتمال الفينومينولوجي يتيح لنا فرص توقع ممارسات اللعب، على اعتبار أن طفلا صغيرا له أب وأم وعائلة ومحيط، ولا يعاني من أية عاهات أو تشوهات لا يمكن إلا أن يمارس اللعب على أن الوعي المبدع لم يلغ هذا الاحتمال الفينومينولوجي، لكنه تجنب التعاطي مع تفاصيل اللعب، وذلك يحيلنا إلى أن قصدية الوعي المبدع إزاء الطفل تأسست على استبطان تيمة الطفولة استبطانا تراجيديا، لذلك كان الوعي السردي يتوخى دائما رصد التحولات المأساوية التي توجهنا لكيفيات تأزم الوعي بالطفولة، وما نجم عنه من رفض للطفولة ومن محاولات لإلغائها، وما دام عدم الاهتمام باللعب دليلا محتملا على تحول الوعي بالطفولة، فإن اللعب دليل محتمل على الوعي بالطفولة، حيث إن الطفولة على مستوى الوعي موضوع إيجابي مقبول في مرحلة لم يصرح بها الوعي المبدع، لكنه أومأ لها بمؤشرات قد تكفينا للتحقق من هذا الوعي الإيجابي بالطفولة الذي لا يمكن أن يتكون هكذا من الخواء والفراغ، بل هناك دائما أسباب وعلاقات وأسيقة لعل أقمنها سياق الأبوة الذي أومأنا سلفا إلى أنه سياق مهم أنتج الوعي بالحماية، وهذا الوعي بالحماية أنتج نوعا من الارتياح والاطمئنان للطفولة، وأنتج ممارسة اللعب الذي – في الحقيقة – هو ممارسة للطفولة، وبذلك تستبطن البنوة الأبوة وفق علاقة قصدية تتمحور حول الحماية، ويمكن رصد رؤية الطفل للأب وفق النمط العلائقي التالي:

– إن شعور الطفل بالحماية ينبع من رؤية الطفل للأب، وممارسة الطفل لطفولته نابعة من الشعور بالحماية.

– فكانت الطفولة بالنسبة للطفل هي عبارة عن حماية، والوعي بالحماية أنتج ممارسة الطفولة.

– وممارسة الوعي بالطفولة أنتج ممارسة اللعب والترفيه.

كل هذه العلاقات في النهاية أنتجت الوعي بالطفولة، من حيث معايشة هذه الطفولة بمعنى قبول الطفل في هذه المرحلة أن يكون طفلا، وانسجامه مع طفولته وفق علاقات قصدية وإحالية تبدو سوية وفطرية.

رغم أن الأب كان محوريا في إنتاج الوعي الإيجابي بالطفولة إلا أن هناك بعض الأطراف الأخرى الفاعلة على مستوى إنتاج الوعي بالحماية وتأهيل الوعي بالطفولة وتوفير الجو لممارسة هذه الطفولة، ولعل أهم هذه الأطراف الأخرى الفاعلة ما يلي:

- **معلم الجامع** "**عدة**": لقد كان التعليم في الجامع سببا للجذل، وتعلة وجيهة للشعور بالأمان وبنوع من التعالي، لاسيما إذا أدركنا أن المسافة للجامع قصيرة نوعا ما ييسر على الطفل قطعها دون عناء أو امتعاض، كما أن الدروس التي يقدمها المعلم واضحة تمكّن الطفل من فهمها و«كان يحفظ آيات القرآن الكريم بسرعة ويستظهر السور المكية القصيرة بسهولة»[76] والأهم من كل هذا أنه «ينطلق إلى البيت حرا من كل قيد»[77] فهذه المعطيات جعلت "محمد" يحب المسجد ويحب الدراسة ويحب المعلم، ويتمتع بالحرية التي يحتاجها كل طفل لممارسة طفولته بعيدا عن قيود المراجعة المملة، وبعيدا عن هاجس الدروس العسيرة لذلك أحب الطفل في هذه المرحلة كل ما يرتبط بالدراسة، وحبه هذا معناه حبه لطفولته وإبداء نوع من الرضا عن واقع هذه الطفولة، فكان التعليم في هذه المرحلة نوعا من الحماية التي تحفز الوعي بالطفولة وتعزز الثقة، على اعتبار أن الطفل في مراحل تعليمه الأولى لا تهمه المعرفة بقدر ما تهمه طفولته وتغويه كيفيات ممارسة تلك الطفولة في أسيقة من الأمان والحرية، بعيدا عن الضغوط والقيود والالتزام الصارم، لذلك تكون الرؤية للتعليم في هذه المرحلة تترجمها قصدية إحالية مشحونة بالحب والارتياح، يكون فيها موضوع التعليم على مستوى الوعي نوعا من الحماية التي يتمسك بها كل طفل كشرط ضروري لممارسة الطفولة والتكيف مع معطيات الطفولة. ولما كان التكيف إيجابيا كان الوعي بالطفولة أيضا إيجابيا

[76] مفلاح، محمد. المصدر السابق. ص 258.

[77] المصدر نفسه. ص ن.

والتكيف مع الطفولة أيضا كان إيجابيا وعلاقة الطفل بطفولته طبيعية مازالت لم تتشوه ولم تتسنّه.

– **الخال:** لقد كان الطفل "محمد" يحب خاله "حماد الفلاقي" كثيرا ويجذل لرؤيته ولطالما اعتبره النموذج الأسمى للقوة والجسارة، وكم سعى حثيثا لتقليده وتقمص شخصيته وما يهمنا في هذا المقام هو رؤية "محمد" لخاله، حيث يمثل الخال نوعا من الحماية في سياق ظروف مشوهة مشحونة بالكبوات والنكبات وتربص الخونة والانتهازيين، وقد كان "محمد" أكثر أمانا حين يتواجد خاله فـ «يشعر بالقوة حين يكون بينهم حماد الفلاقي»[78] ولعل تلك القوة النابعة من الإحساس بالحماية والأمان هي سبب وجيه للاطمئنان إلى الطفولة فيمكن لـ "محمد" أن يكون طفلا مادام هناك من يضطلع بدور الحماية المنوطة دائما بالكبار، ولا داعي لهجر الطفولة مادام الكبار موجودين يحرسون الطفولة ويمكّنونها من ممارسة طقوسها المقدسة كاللعب والترفيه بحرية وشغف ونشوة.

بالإضافة إلى المعلم والخال هناك أيضا زوجة الأب الكبرى التي لم تتمكن من الإنجاب فزوجت زوجها المهدي عن طيب خاطر، واختارت له حليلة "خديجة" التي أنجبت "محمد" الطفل الوحيد في أسرة تتكون من أم شابة وأب شيخ وزوجة للأب نال منها الكبر والضعف لكن عاطفتها إزاء "محمد" تتأجج حبا وولعا، ولطالما اعتبرت "محمد" ابنا لها «محمد ابنك ولكنه ابني أنا أيضا»[79] لذلك يبدو أن "محمد" حظي بأمين في الآن نفسه وتضاعفت الشحنات العاطفية الموجهة له، متيحة له فرصة التموقع باحتفاء حيث النوال العاطفي وكثير من السخاء.

مما سبق يرتبط الوعي بالطفولة عند "محمد" بالوعي بالحماية التي يوفرها كل من الأب والأم والخال والمعلم وزوجة الأب بدرجات متفاوتة، حين كانت الحماية الأبوية هي المهيمنة، وحين كانت الطفولة مرغوبة بوجود هؤلاء وممكنة، والوعي بالطفولة وعي إيجابي نوعا ما، وما يلاحظ على الوعي بالطفولة في هذه المرحلة أنه لم يتسم بإبداء أحكام معيارية

[78] المصدر نفسه. ص 257.

[79] المصدر نفسه. ص 285.

إزاء الطفولة، واكتفى الطفل فقط بترجمة وعيه التجاوبي مع الطفولة بواسطة اللعب كممارسة تحيل إلى الاطمئنان نوعا ما لهذه الطفولة لتوفر بعض شروط الحماية، فكان أن وعى الطفل فكرة الحماية أكثر مما وعى طفولته وعيا لا يتجاوز التماهي مع الطفولة، وهذا يعني أن الوعي بالحماية هو في الوقت نفسه وعي بالأخطار التي تهدد الطفولة، ويتجلى هذا الوعي في الرواية عن طريق الأب خاصة «أرأيت ماذا يفعل القوي...»[80] وقد استوعب الطفل أن الفقر والاستعباد والبؤس وأولئك الذين يريدونه راعيا، وأولئك الذين يتربصون بأمه، كلها مؤشرات تشكل خطرا محدقا يسعى لإجهاض طفولته، ولا يمكن للطفولة أن تتحقق إلا إذا توفرت شروط الحماية، لذلك ارتبط الوعي بالحماية بالوعي بظروف القهر المتربصة ومادامت الحماية متوفرة تبقى الطفولة ممكنة في هذه المرحلة مادامت ظروف التهديد مستبعدة نوعا ما.

2 – المرحلة الثانية:

في هذه المرحلة نستهل تنقيبنا التيماتي عن طريق حدس الفرضية الثانية التي ترتبط بتحول الوعي بالطفولة من الوعي بالطفولة الممكنة في الفرضية الأولى إلى الوعي برفض الطفولة في الفرضية الثانية، وللظفر بالقوانين الفينومينولوجية التي تبرر الفرضية الثانية سنحاول تبرير تيمة الرفض على مستوى وعي الطفل، عن طريق رصد القضايا الموضوعاتية الكبرى التي أنتجت الوعي بالطفولة والوعي بكل ما يرتبط بهذه الطفولة، وإذا تميزت المرحلة الأولى على مستوى الوعي بالتماهي والتلقائية نوعا ما فإن المرحلة الثانية من مراحل الوعي ستتميز – كما سنرى – بالتحرر من مستوى التماهي والتلقائية النسبية إلى مستوى الأحكام المعيارية والتأمل.

– **موت الأب:** لم يكن من باب الاعتباط التركيز على العلاقات القصدية والإحالية بين الأبوة والبنوة في المرحلة الأولى، حيث إن الأبوة كان لها الدور الأكبر في توفير الحماية، وما يؤكد هذا الزعم هو التحول الواضح والأساسي على مستوى الوعي بالطفولة

[80] . المصدر نفسه. ص 244.

عند الطفل حين مرض الوالد مرضا أخيرا فاجعا أودى بحياته وأنهى كل شروط الحماية تاركا الطفل مفكرا في جدوى طفولته، وجدوى تلك الأسوار التي طفقت تنهار فجأة لتتركه وحيدا تفترسه سياط الفجيعة «تمنى أن يبقى جالسا على الصخرة الملساء حتى يصبح بدوره صخرة لها شكل طفل مشرد»[81].

إن موت الأب يعني الجوع والعري، حيث لا أحد يستطيع أن يعوض مكان الأب ويسد الفراغ الرهيب الذي تركه، وفي ظل الظروف السابقة التي ذكرت في المرحلة الأولى استوعب الطفل كثيرا من الظروف القاهرة التي تهدد طفولته، واستوعب قيمة وجود الأب وحضوره الضروري لتوفير الحماية، وهو الآن يستوعب عمق الفجيعة ويتجاوب تجاوبا مؤلما وممضا مع فكرة الموت الذي سلبه أهم مصدر من مصادر الحماية والاطمئنان للطفولة لذلك لم يفقد الطفل مجرد أب بقدر ما فقد شروط تحقق الطفولة، وهو يتبرم من طفولته و«يفكر في الهموم التي ستواجهه»[82] والأهم أنه انبرى يفكر في موقعه الجديد وجدوى طفولته، والتفكير في كل ذلك يترجم بعض مستويات تحول الوعي بالطفولة، ويبرر عزوف الطفل عن اللعب والترفيه، ولعلها بدايات التحول من الوعي بالطفولة الممكنة إلى الوعي بالطفولة المعذبة، والتحول من تقبل الطفولة إلى بدايات رفض الطفولة مادامت هذه الطفولة قد بدأت تفقد شروط وجودها شيئا فشيئا، حيث كانت البداية بفقدان الأب الذي يعني موته مزيدا من الجوع القاتل ومزيدا من احتمالات الوله والذل والضياع، «وماذا يفعل بعد وفاة والده»[83] وتكون الأم هي الأخرى عرضة للضياع، حيث كان الأب يضطلع بحمايتها لكنها الآن عارية من كل حماية يتربص بها الانتهازيون ويسعون لاستنكاحها.

– **فقدان المسجد:** لقد غلّقت أبواب المسجد، وكم كان هذا الوصاد جارحا بالنسبة للطفل، حيث انتقل لمدرسة بعيدة يمارس فيها المعلم كثيرا من ألوان الإغماط والقسوة والتجريح، كان كل شيء في هذه المدرسة مثيرا للشجن والرعب والخزي، تفتك المسافات

[81] المصدر نفسه. ص 242.
[82] المصدر نفسه. ص 243.
[83] المصدر نفسه. ص ن.

الطويلة بالطفل وتجرشه، وتذبحه سخريات زملائه، وينهشه الطوى والعري والوضر، وتشوهت صورته في عيون الآخرين، ولا ملاذ يلوذ به غير البكاء والأنين والضجر، وما زاد الطين بلة والوجود علة هو ذاك المعلم اليهودي الذي مقته الطفل كثيرا وتمنى أكثر من مرة لو يكون كبيرا مجاهدا يدوسه ويسحقه وينتقم لتاريخ كامل من الإهانات الجاحظة والصفعات القاهرة فلطالما كان المعلم يركله ويضربه «قائلا بقرف: انهض..انهض وإلا حطمت رأسك»[84] وبالتالي فقد الطفل الأمان التعليمي، وشوه التعليم الجديد طفولته، وازداد عريه من مصادر الحماية، كما ازدادت قناعته بكره الأسيقة الجديدة التي تقمع طفولته وتسيجها بالرعب والركل والاضطهاد، وتعمق الوعي بالطفولة منخرطا في تفاصيل هذه الطفولة المهشمة المعذبة التي تثير كثيرا من الأسئلة الطاوية المستذئبة لعل أهمها قول الطفل: «ما جدوى التعليم في زمن الجوع والعري؟»[85]

– **فقدان الخال:** لقد أومأنا سلفا إلى رؤية الطفل للخال، حيث يستبطن الطفل الخال ملاذا للحماية ويعتقده أنموذجا طوباويا للجسارة والأنفة والقوة، وأومأنا في المرحلة الأولى كم كان الطفل يجذله حضور خاله وتطربه مواقفه الفخمة ومعتقداته النضالية المقدسة، لكن دوام الحال من المحال، ومن كان يطمئن الطفل بحضوره ويتوارى خلف ظلاله وقامته الفارعة انكشح بين طرفة عين وانتباهتها، وانكشح وتوارى الخال يعتلي صهوة الجبل الأخضر موئل الثورة والثوار، ورغم أن فكرة الثورة تبدو إيجابية على مستوى وعي الطفل إلا أن فقدان الخال يؤسي الطفل، ويحز في خلده هذا الفراق الذي يعني بقاءه وحيدا، ويعني مزيدا من احتمالات الضياع والتمزق، ذلك أن دروع الحماية يتهافت سقوطها، وكل القلاع المفترضة تهرسها الظروف القاهرة، وتتحول أحلام الطفولة إلى سجون وأجداث وسموم.

بعد أن استحوذ الغياب على هذه المرحلة، واستبد الفقدان يسلب من حياة الطفل كل قلاع الحماية وأبراجها، بدأ يمتعض من طفولته ويعتقدها سببا وجيها لكل الرزايا والمكائد لذلك من القمين أن نرصد تحولات الوعي بالطفولة في هذه المرحلة، ونتبين كيفيات بدايات

[84] المصدر نفسه. ص 264.

[85] المصدر نفسه. ص 261.

الوعي بضرورة طمس معالم الطفولة وقبرها، ولعلنا بعد رصد تحولات الأسيقة وتيمات الغياب والفقدان ننكفئ لرصد الرؤية للطفولة في ظل هذه التحولات والأسيقة الجديدة، عن طريق الاهتمام بالأحكام المعيارية التي تبين لنا بجلاء علاقة الطفل بطفولته في هذه المرحلة وفحوى رؤيته لطفولته بعد أن تعرّت من قلاع الحماية، وفقدت جل أسباب وجودها ومشروعيات حضورها.

- **الفقر**: للمرة الأولى بعد وفاة الأب يصدع الطفل نائحا متوجعا: «أنا فقير»[86] وهو وعي بالطفولة الفقيرة، رغم أن الطفل كان يستوعب فاقة أسرته التي كان يميرها والده بعسر ومشقة، ويكدح في سبيلها خائرا تائها تستذله الظروف الاستعمارية المميتة، لكن الطفل كان مرتاحا نوعا ما لطفولته، وحضور والده كان يمكّنه من أن يمارس بعض اللهو والترفيه، وما كان يتجرأ على التصريح بفقره أو يمتعض بنبرة النواح والوجع، وبعدما تكالبت عليه المصائب واستعبدته ظروف الغياب وأفكار الفقدان خرج عن صمته، وبدأ يستقيل من طفولته شيئا فشيئا، وها هو يعلن فقره ويستوعب عمق ألمه، ويترجم وعيه القريح بأحكام معيارية مباشرة تحيلنا إلى أهم مراحل تحولات الوعي بالطفولة باعتبارها طفولة فقيرة يبرّح بها الجوع والعوز.

- **اليتم**: اليتم هنا ليس يتما بسيطا، بل هو يتم يرادف التشرد والضياع، ويثير على مستوى وعي الطفل كل احتمالات الاستذئاب والافتراس، وكل احتمالات أن يفقد هذا الطفل بفقدان والده ومن يعيله حريته ودراسته وأمه ولقمته وملابسه، لذلك انزوى مستغرقا «يفكر في مستقبله»[87] وكلما استغرق في التفكير استبد به الوجد واليأس، وتضخّمت فكرة اليتم في وعيه بحجم الأرض والسماوات والمجرات، وتحولت طفولته إلى نقمة لا تضارعها نقمة، لذلك نلفيه يصدع مكويا مغموما خائرا: «أنا يتيم»[88] وهو حكم معياري يحيلنا إلى الوعي بالطفولة باعتبارها طفولة يتيمة بكل ما تتضمنه كلمة اليتم من دلالات القنوط والانهزام.

[86] المصدر نفسه. ص 263.

[87] المصدر نفسه. ص 265.

[88] المصدر نفسه. ص 264.

- **الحزن:** يعلن الطفل «أنا حزين.. حزين»[89]. ويصرح بحزنه مرتين متتاليتين تؤكدان عمق البلاء الذي طال وعيه، واستباح طفولته، ينخر الخلايا ويذبح الشرايين بصوانة كابية، تضطر الطفل للاعتراف خائبا بذاك الحزن الذي امتد ويرون، والاعتراف بالحزن مؤشر جلي باعتباره حكما معياريا يحيل مباشرة للوعي بالطفولة من حيث هي طفولة حزينة كل الحزن تقبع في عمق السحمة والوهن، وفي تلك الدهاليز والأوجرة الخبيثة التي تفترس الطفولة بنوع من الاحتراف الإجرامي، وتبالغ في افتراسها مثيرة اعترافا صارخا نائحا.

لقد كان الوعي بالطفولة في هذه المرحلة واضحا جدا تترجمه الأحكام المعيارية المباشرة التي تحيل إلى كون الطفل قد استوعب طفولته الفقيرة اليتيمة الحزينة، كما بدا واضحا جدا امتعاضه من طفولته وضعفها وقلة حيلتها، لاسيما بعد انهيار كل أسوار الحماية وتهشم كل الدروع والتروس بعد موت الأب ورحيل الخال ووصاد الجامع واستذئاب كل الظروف الفتاكة، وهذا يعني أن الوعي بالطفولة في هذه المرحلة قد استبطن الطفولة فكرة ملحة معذبة مقهورة من جهة، ومن جهة ثانية استبطنها كسبب وجيه للمصائب والرزايا وبذلك استوعب الطفل ضرورة رفض هذه الطفولة، وكان هذا الرفض ضروريا للتكيف مع الأسيقة والظروف الجديدة وتحولات الوعي بالطفولة، ولذلك عزف الطفل عن اللعب والترفيه ومال للتأمل والتفكير، غارقا في خبايا طلاسم المستقبل، وكأنه بذلك يحاول جاهدا إلغاء الحاضر، وبالتالي إلغاء طفولته التي يبدو أنه لم يعد يحفل بها أو يتجاوب معها، بقدر ما أصبح ينفر منها ويحاول تجاوزها بكل ما أوتي من حيلة، وقد «فكر في أيامه القادمة»[90] واستفهم «ماذا يفعل الآن؟ وكيف يواجه يوم غد؟»[91] وكل المؤشرات تحيلنا إلى الوعي بضرورة رفض الطفولة وتجاوزها لأنها لم تعد مجدية، ولا يمكن ممارستها أو الاطمئنان إليها.

[89] المصدر نفسه. ص 281.

[90] المصدر نفسه. ص 280.

[91] المصدر نفسه. ص 300.

3 – المرحلة الثالثة: في المرحلة الثالثة التي نعتقدها مرحلة أخرى من مراحل تحول الوعي بالطفولة، ومنعرجا هاما من منعرجات تطور وعي الطفل، نحاول أن نتبنى فكرة الفرضية الثالثة انطلاقا من مؤشرين أساسيين؛ أما الأول فهو حدس التيمات المهيمنة عن طريق محاولات التواصل مع الوعي المبدع بواسطة معايشة النص، وأما الثاني فهو قراءة صيرورة التوالد القصدي الذي تحيلنا إليه القراءات السابقة في المرحلتين الأولى والثانية، على اعتبار أن فكرة التوالد القصدي قد تتيح لنا كثيرا من إمكانيات الافتراض، لاسيما إذا كانت الاحتمالات الفينومينولوجية مؤسسة تراعي في توقعاتها جملة الأسباب والتحولات والعلاقات الموضوعية التي تجعل من المجدي احتمال النتيجة وتوقع الفرضية الثالثة.

لقد بدا جليا في المرحلة الأولى – حين كانت الفرضية هي استبطان وعي الطفل للطفولة على أنها موضوع مقبول – أن فكرة القبول في حد ذاتها يعتريها نوع من الشك والحذر، ذلك أن قبول الطفولة كان مرتبطا بوعي تيمة الحماية، ووعي تيمة الحماية كان بدوره مرتبطا بوعي أسيقة الأزمة التي تساور الطفل، وبتلك الظروف القاهرة التي تتربص بالطفل وتتوخاه فقيرا مقهورا يتيما راعيا، وهذا يعني أن في المرحلة الأولى – مرحلة التماهي مع الطفولة وقبولها – كانت هناك قصديات إحالية تتسم بنوع من الريب واللاأمن، ذلك أن الطفل منذ البداية يحدس صورته في عيون الآخرين تنوس بين محاولات التسخير من جهة أولى، وحالات الأسى والأسف من جهة ثانية، بين أولئك الذين يريدونه راعيا مستعبدا ويحاولون الفتك بأمه وإجهاض أمومته، وأولئك الذين يشفقون على حاله لكونه مازال صغيرا وفي كلتا الحالتين المرآة الغيرية هنا تخلّف عند الطفل انطباعا سلبيا إزاء موقع الطفل، فحتى أولئك الذين يمارسون الشفقة مرآتهم الغيرية تمنح الطفل نوعا من الارتياب والشعور بالخطر وإلا لماذا: «أصبحوا ينظرون إليه كطفل شقي وفي حاجة إلى العطف والحماية»[92] والصورة الغيرية الثانية تغذيها الصورة الغيرية الأولى، حيث إن الصورة الغيرية الأولى هي واقع الألم والفقر وتربص "القايد موسى" الذي يريد الطفل راعيا، ويلح في ذلك على الأب "المهدي" ويحاول إقناعه بمصير ابنه المشؤوم، وتلك الحوارات كان الطفل يسمعها، وكان الأب يبين

[92] المصدر نفسه. ص 242.

للطفل دائما مدى خطورتها وضرورة أن يدرس ويكبر ليقوى على تجاوز القهر والظلم والذل كما أن الصورة الغيرية الأولى يمثلها أيضا "الحركي جلول" الذي استوعب الطفل خطورته ورغبته في الانتقام من خال الطفل واستنكاح الأم، ويبدو أن الصورة الغيرية الأولى على مستوى وعي الطفل واضحة ومباشرة في الآن نفسه لا تحتاج لتأويل أو استنتاج أو قراءة ما وراء السطور، فهي صورة استوعب فحواها مباشرة عن طريق حاسة السمع، وكل ما سمعه كانت لغته مباشرة تفصح دلالاتها بجلاء، ف "القايد" يريده راعيا، والأب يبين له مدى سوء أن يصبح راعيا، ويبين له ضرورة التملص من أضباث الاستغلال، و"الحركي" يريد أن يسلبه أمه، أما الصورة الغيرية الثانية فدلالاتها ليست مباشرة، ولا تتسم بالوضوح والإفصاح بقدر ما تحتاج للتأويل والاستنتاج، وهي صورة تستمد شحناتها الدلالية من أولئك الذين يمتّون بصلات قرابة معينة للطفل مثل "فاطمة" زوجة خاله "حماد الفلاقي" ومثل الأم والأب وغيرهم، وفحوى الصورة الغيرية الثانية يتمحور حول كون الطفل مازال صغيرا: «مازلت صغيرا يا محمد»[93] والإشكالية لا تكمن في التصريح بصغر الطفل – فهو فعلا طفل صغير – لكن الإشكالية في السياق الذي وضع فيه هذا التصريح، حيث هو سياق مشحون بدلالات الأسى والأسف والكمد، وبكثير من نبرات الخوف والجزع، وهذا السياق المحموم تنضاف إليه دلالات الصورة الغيرية الأولى، فيلجأ الطفل للتأويل وقراءة الصورة الغيرية الثانية قراءة يكتنه منها كثيرا من دلالات الأخطار التي توشك أن تحوله إلى حرض، حيث تتحول دلالات الصغر على مستوى الوعي بالطفولة من دلالاتها الإيجابية إلى دلالاتها السلبية، فيكون الصغر مرادفا للضعف والهم، وتكون الطفولة موضوعا مثيرا لكثير من المحن والإحن، وسببا وجيها للكبوات والنكبات، لذلك كان الوعي بفكرة الطفولة المعذبة يستمد قيمته الفينومينولوجية من الوعي الغيري الذي هو الآخر يستبطن الطفولة استبطانا سلبيا، فإمّا أن ترادف هذه الطفولة الاستعباد والتسخير أو ترادف الضعف وكثيرا من الشفقة فكانت كل العلاقات القصدية تتواطأ على تشويه الوعي بالطفولة، حيث لم يستطع الوعي بالطفولة أن يحيد قيد أنملة ويتحرر من سطوة العلاقات القصدية الغيرية التي استبطنت

[93] المصدر نفسه. ص ن.

موضوع الطفولة استبطانا سلبيا، فكان الطفل هو الآخر أن استبطن الطفولة استبطانا سلبيا لكن ما جعل الطفل يقبل نوعا ما طفولته في المرحلة الأولى هو وعيه بتوفر الحماية التي توفرها الصورة الغيرية الثانية، فرغم أنها صورة تثير فيه نوعا من الارتباك إلا أنها توفر عناصر الأب والخال والجامع، وتجعل هذه العناصر حافزا كافيا للاطمئنان نسبيا للطفولة ولممارستها عن طريق اللعب والترفيه، وفي المرحلة الثانية استمرت الصورة الغيرية السلبية واستمر الوعي السلبي بالطفولة، لكن الجديد هو انهيار كل أقنعة الحماية، وخروج الطفل عن صمته، مبديا أحكاما معيارية تندّد بحال الطفولة وما آلت إليه من خواء وعفاء، والأهم في كل هذه المرحلة أن وعي الطفل بانهيار تيمات الحماية أهّله للوعي بالطفولة المقهورة، وهي أكثر قهرا من طفولة المرحلة الأولى، وجرحها أمض وأنكأ، وهي طفولة مرفوضة لا مناص من برحها وصرمها، ولا جدوى من معايشتها والاحتفاء بها، وهي معادلة توالد قصدي جديد في سياقات جديدة أصبحت فيها الطفولة ليست موضوعا منبوذا فقط بل موضوعا مرفوضا أيضا يستحيل التكيف معه.

من خلال هذه القراءة، ومن خلال رصد أهم مستويات التوالد القصدي نسجل أن التوالد القصدي الغيري إزاء الطفولة لم يتغير ولم يتبدل، أما التوالد القصدي الذاتي إزاء الطفولة فقد تغير من القبول إلى الرفض، لكن معادلة القبول والرفض تشترك في رؤية واحدة ومتشابهة للطفولة من حيث هي طفولة مهددة لكنها مقبولة، ومن حيث هي طفولة معذبة لكنها مرفوضة، لذلك يحافظ التوالد القصدي الذاتي والغيري على محورية الرؤية السلبية للطفولة، وهذا يؤهلنا تلقائيا إلى استنتاج الفرضية الثالثة التي تتضمن محاولات استبعاد الطفولة وتعويضها، وبالتالي يتجاوز الوعي بالطفولة مرحلة استيعاب الطفولة المعذبة ورفضها إلى مرحلة استيعاب ضرورة تجاوزها تجاوزا تعويضيا، ومحاولات التعويض – بطبيعة الحال – ستكون على مستوى الوعي بالطفولة، حيث سنحاول في الفرضية الثالثة أن نرصد كيفيات محاولات وعي الطفل لإنكار الطفولة وتجاوزها وتعويضها بتقمص هوية تتجاوز الطفولة، وتتيح للطفل فرصة التكيف مع واقعه، متداركة موقع الطفولة السلبية ومتداركة عجزها عن التكيف والتأقلم مع معطيات سياقية متأزمة وعى الطفل أنه لا يمكنه

أن يتكيف معها وهو طفل، لذلك وجب عليه ألا يكون طفلا حتى يتمكن من التكيف ويتمكن من تحقيق الوجود، ويبدو جليا أن تحول الوعي بالطفولة في هذه المرحلة الثالثة ناجم عن تحولات الوعي بالطفولة في المراحل السابقة، والفرضية الثالثة المتمحورة حول فكرة إنكار الطفولة ومحاولات تعويضها هي أيضا نتيجة للتوالدات القصدية السابقة، حيث تضخّم الوعي بالطفولة تضخما سلبيا أنتج رفضا لموضوع الطفولة، وأنتج محاولات الاستعاضة عنها في سياق محاولات التكيف والاستمرار، وإذا كنا هنا قد بررنا للفرضية الثالثة من خلال استشراف صيرورة التوالدات القصدية السابقة، ومن خلال توقع الاحتمالات الفينومينولوجية الممكنة على مستوى إعادة قراءة تحولات الوعي بالطفولة في المرحلة الأولى والثانية، فإننا الآن سنحاول التبرير للفرضية الثالثة عن طريق حدس التيمات المهيمنة في المرحلة الثالثة اعتمادا على القراءات النصية الجادة، وعلى محاولات معايشة النص.

- **الحلم**: يرادف الحلم عند الطفل "محمد" الطموح المرتبط بأحلام اليقظة التي عادة ما تسهب في احتكار ذاكرة الطفولة، والتي - عادة - تترجم الرغبات المكبوتة المقموعة على مستوى الواقع، وحلم اليقظة أو ما سماه "غاستون باشلار" بالتأملات الشاردة يختلف عن الحلم الليلي «فحلم الليل هو حلم دون حالم، وعلى العكس فإن حالم التأملات الشاردة يحتفظ بدرجة كافية من الوعي ليقول أنا الذي أحلم بالتأملات الشاردة»[94] ليكون حلم اليقظة حلما واعيا يوجهه الوعي ويتحكم في تفاصيله، فهو حلم نابع من الإرادة الواعية، يحاول الطفل من خلاله رسم العالم التي يتوسمه ملائما، ويحاول الولوج إلى الفردوس المفقود، على اعتبار أن الواقع أصبح مقهورا مرفوضا، والطفولة مخبوءة في عمق الوله والوجع، ولا يمكن للطفل أن يمارس طفولته على مستوى الواقع، فيلجأ حينها للحلم ليعوض ما ليس ممكنا - على مستوى واقع الطفولة الموبوء - بما هو ممكن في عالم الاحتمالات الحلمية الممكنة التي تستطيع أن تحول كل ما هو ليس ممكنا إلى كل ما هو ممكن جدا.

[94] باشلار، غاستون. شاعرية أحلام اليقظة. ترجمة: جورج سعد. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991 (م). ص 24.

على ضوء هذه المقاربة الحلمية يخال المتلقي انطلاقا من احتمالات فينومينولوجية أن أحلام اليقظة عند الطفل "محمد" سترتبط – عادة – بمعطيات الطفولة وبحياة الطفولة وبتلك الحاجات التقليدية التي يلح كل طفل للحصول عليها، ويجذله الحصول عليها، وإن لم يتمكن من الاستيلاء على رغباته على مستوى الواقع يلذ بأحلام اليقظة، ليمثل كل تلك الأدوار التي هام بها وشغفته حبا، فاحتال على اعتياص التمكن منها بتلك الطاقات الخلاقة التي تهبها له أحلام اليقظة، حيث يمكن أن يكون حينها ثريا ثراء فاحشا، ويمتلك كل أنواع الألعاب، أو إمبراطورا صغيرا يسيطر على كل أطفال الحي، أو غير ذلك من أحلام اليقظة المرتبطة – عادة – بالطفولة، وفي حال "محمد" وظروفه نتوقع أن توفر له أحلام اليقظة كثيرا من الطعام واللباس، وتجعله بارعا في الدراسة، أو ربما تعيد له والده من العالم الآخر أو غير ذلك من الأشياء التي يفتقدها "محمد" ويحتاج إليها على مستوى واقعه، لكن كل الاحتمالات الفينومينولوجية تذوي وتنهار لمجرد أن نعي أن جل ما قد يتسبب في إغراء طفل لا يوليه "محمد" أهمية على مستوى أحلامه، وكل ما يهتم به ويطمح له ليس لعبا أو دراسة أو حروفا أو خلّانا أو حلوى فـ«حلمه الوحيد هو أن يكون مجاهدا»[95] وغرابة هذا الحلم تنضاف إليه وحدته، فهو حلم وحيد يختصر كل ما يمكن أن يحلم به الطفل "محمد" وهذا يعني أن هذا الحلم يسيطر على بقية الأحلام، ويستحوذ استحواذا تاما على الوعي، وهو حلم لا يمكن أن يرتبط تحققه بمرحلة الطفولة، لأن فكرة الجهاد تحتاج لقوة جسدية وخبرات لا يملكها الطفل، بالإضافة إلى أنه على طول المسافات السردية لا أحد ممن يعرفهم الطفل قد شجعه على فكرة الجهاد أو حرضه عليها (الوالد كان دائما يوصيه بالدراسة، ولا أحد نبس ببنت شفة حول احتمال أن يكون "محمد" مجاهدا في يوم ما)، وما نحتاج إليه في هذا السياق – سياق تبرير الفرضية الثالثة – أن حلم الجهاد يتعارض كل التعارض مع فكرة الطفولة، وهو حلم يتضمن في أبعاده الدلالية كثيرا من رغبات التأسيس لمرحلة ما بعد الطفولة، كما أنه حلم يحيل إلى فكرة رفض الطفولة، وإلى محاولات تجاوز هذه المرحلة على الأقل على مستوى أحلام اليقظة التي تشبع الرغبة المقموعة على مستوى الواقع، وتمكن

[95] مفلاح، محمد. المصدر السابق. ص 300.

للطفل أن يكون ما يريد بالشروط التي يريد، وهذا يدل على تحولات الوعي بالطفولة، حيث يجسد الحلم بداية تغير الرؤية الواعية للطفولة، وتحول الوعي بالطفولة من الوعي بالطفولة المقهورة إلى الوعي بما بعد الطفولة، وإلغاء فكرة الطفل، حيث بدا جليا على مستوى الحلم أن "محمد" انبرى ينظر إلى نفسه بوصفه مجاهدا رجلا وليس طفلا، وهذا يفسر بعض سلوكاته التي تتوخى طمس كل معالم الطفولة ومحو كل آثارها، لاسيما ما تعلق بالمدرسة حيث ارتبطت المدرسة كثيرا في الرواية بطفولة "محمد" وكانت مبررا جادا لطفولته، والكل يلحون على مواصلتها ويصرون عليها، وقد استوعب الطفل بأنه لن يتملص من طفولته ما لم يتملص من دراسته فـ «رمى المحفظة ثم جرى»[96] وهو بذلك يؤهل ذاته ويؤهل غيره لتقبل فكرة تجاوز الطفولة، وأنه لم يعد أبدا طفلا بقدر ما أصبح في سياق وعيه بالطفولة مجاهدا أو هو على الأقل مجاهد على مستوى أحلام اليقظة، وما صور ومحتويات حلم اليقظة في النهاية إلا تجلّ من تجليات الوعي بالطفولة ونمط من أنماط تجاوز الطفولة بالنسبة للطفل "محمد"، وأوار التجربة الحلمية هو التخيل الذي يعتبر «وظيفة من وظائف العقل التي تعمل في عالم الأشياء بوساطة الإدراك الذي ينحو نحو إعادة خلق العالم»[97] ويمنح الذات طاقة لا متناهية قادرة كل القدرة على الخلق والابتكار، وقادرة على تحقيق الحرية بمعناها المطلق حيث إن التخيل يقوى على تحطيم كل الأغلال والأصفاد، ويفلح في تجاوز كل الحدود والتخوم، فالطفل لا يمتلك الواقع ولم يتمكن من التكيف معه، وبدا مستذلا خانعا خائرا، لكن على مستوى حلم اليقظة يسخّر الخيال للطفل خاتم سليمان، ويمنحه إرادة مطلقة وقوة كافية تمنحه فرصة لإعادة صياغة وجوده، وتمكنه من تحويل كل ما يرغب في تحويله.

«ثم تخيل نفسه مجاهدا وهو يحمل على كتفه مدفعا»[98] ولا يمكن لطفل أن يحمل مدفعا، لكن التخيل جعل ذلك ممكنا، وهذا يعني – ضمنيا – أن الطفل على مستوى تخيلاته لم يعد طفلا بقدر ما هو مجاهد قوي الجسد يمكنه حمل مدفع وممارسة مشاق الجهاد، ولا

---

[96] المصدر نفسه. ص 261.

[97] حسب حسين، مسلم. جماليات النص الأدبي. دراسات في البنية والدلالة. الطبعة الأولى. لندن: دار السياب للنشر، 2008 (م). ص 34.

[98] مفلاح، محمد. المصدر السابق. ص 264.

مكان للألعاب والحلوى والترف والدراسة، حيث تبدو تخيلات الجهاد صارمة صرامة الجهاد نفسه.

ختاما يمكن اعتبار أحلام اليقظة وممارسات التخيل أساليب يمارسها وعي الطفل بغية تحقيق نوع من التكيف، ومهما تباينت الأسباب أو تشابهت يبقى التخيل عند الطفل "محمد" تجليا من تجليات تحولات الوعي بالطفولة في المرحلة الثالثة، حيث إن الوعي بالطفولة يؤسس لتجاوز الطفولة، ويؤسس لمرحلة ما بعد الطفولة، ولهذا تحول الوعي بالطفولة من الوعي بالطفولة الممكنة – رغم الكبوات والنكبات في المرحلة الأولى – إلى الوعي بالطفولة المعذبة غير الممكنة في المرحلة الثانية، وإلى الوعي بضرورة تجاوز الطفولة والتمرد على طقوسها وممارساتها في المرحلة الثالثة، حيث قرّر الطفل في النهاية أن يكون مجاهدا، لكنه أخفق في ذلك، وأخطأ الطريق إلى الجبل الأخضر في يوم كان فيه الضباب كثيفا «وانطلق الرصاص من بندقية العسكري. استقرت الرصاصة الأولى في دماغ محمد ونفذت الرصاصة الثانية في عموده الفقري فسقط الطفل جثة هامدة»[99].

[99] المصدر نفسه. ص 301.

خاتمة الفصل الأول:

-تيمات الطفولة السلبية تتكون من التيمات التالية: (تيمة الطفل العبد – تيمة الطفل اللقيط – تيمة الطفل الخجول – تيمة الطفل المجاهد).

-محور نظام إنتاج الطفل العبد فكرة ملحة على مستوى الوعي هو التغيرات الاسمية وتغير دلالات العلاقات القصدية في سياق التغير من موقع الحرية والانتماء إلى موقع العبودية واللاانتماء.

-نظام إنتاج الطفل اللقيط فكرة ملحة على مستوى الوعي تأسس وفق تأهيل علاقات البداية عن طريق علاقات النهاية التي أعادت إنتاج الطفولة، وأهّلت الرؤية إليها، وقد نتج في النهاية التباس على مستوى الوعي بالهوية.

-نظام إنتاج الطفل الخجول فكرة ملحة على مستوى الوعي يتكون من تيمات فرعية كلها أنظمة إنتاجية أنتجت الهاجس فكرة ملحة، وهذه الفكرة الملحة جعلت من الخجل صفة سلبية تحيل إلى الرؤية السلبية للطفولة، وتحيل إلى رفض واقع الطفولة ومقاطعته.

-إن نظام إنتاج الطفل المجاهد فكرة ملحة على مستوى الوعي يستمد عناصره من الأسيقة الاستعمارية التي جرّدت الطفل من طفولته، وأودت بحياته.

الفصل الثاني

تيمة الطفولة الإيجابية

ضبط المفاهيم:

– يقصد بـ "تيمة الطفولة الإيجابية" نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة إيجابية على مستوى الوعي، حيث نتوخى – في هذا الفصل – رصد كيفيات إنتاج الطفولة انطلاقا من رصد العلاقات القصدية والإحالية بين الوعي والطفولة؛ تلك العلاقات التي حولت الطفولة من موضوع خارج الوعي إلى ظاهرة داخل الوعي الذي حولها إلى ظاهرة حين تواصل معها وقصدها واستبطنها وأحال إليها.

– تستهدف الدراسة في هذا السياق رصد الطفولة كظاهرة داخل الوعي في تجلياتها على شكل أفكار ملحة تحيل إلى الرؤية الإيجابية للطفولة.

– من أهم ما يميز تيمة الطفولة (نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة) هو التحول، لذلك كان من الضروري رصد أهم تجليات الوعي بالطفولة من خلال رصد أهم تحولات الوعي بالطفولة.

– نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة إيجابية على مستوى الوعي يتكون من أنظمة فرعية لإنتاج أفكار ملحة إيجابية على مستوى الوعي، أي أن تيمة الطفولة الإيجابية تتكون من تيمات فرعية هي التيمات التالية:

أولا: تيمة الطفل الجميل: بمعنى (نظام إنتاج الطفولة الجميلة فكرة ملحة إيجابية على مستوى وعي الطفل).

ثانيا: تيمة الطفل المسؤول: بمعنى (نظام إنتاج الطفولة المسؤولة فكرة ملحة إيجابية على مستوى وعي الطفل).

ثالثا: تيمة الطفل الخجول: بمعنى (نظام إنتاج الطفولة الخجولة فكرة ملحة إيجابية على مستوى وعي الطفل).

أ – تيمة الطفل الجميل:

لقد ارتبطت فكرة الجمال بالتاريخ البشري الذي يبدو أنه جبل على تذوق الجمال وأدمن على التعاطي معه منذ عصور موغلة في الغموض والقدم، فكانت فكرة الجمال مخبوءة دائما في عمق الوعي البشري بضرورة التقديس والاحتفاء، وأضحى كل جميل سببا وجيها للانتشاء والوجود، ورغم أن التذوق الجمالي لازب بالطبيعة البشرية بما لا يدعو مجالا للشك أو التخمين، فقد ساورت فكرة الجمال في حد ذاتها كثير من التساؤلات التي تتوخى رصد ماهية الجمال وحقائق التذوق الجمالي والانتشاء، فكان أوار التجربة التساؤلية يتمحور حول ما إن كان الجمال موجودا في حد ذاته أم أن الوعي في كل مرة يبتكره ويبرر لوجوده وفق خلفيات ثقافية متنوعة، مما يحيل إلى فكرة النسبية، ويجهض الاعتقاد بالجمال المطلق «إذ لا توجد (جمالية مطلقة)، بل (جمالية نسبية)، تساهم فيها الأجيال/الحضارات/الإبداعات الأدبية والفنية»[1] لأن ما يبدو جميلا في زمن ما وعلى مستوى وعي بشري معين قد يبدو في زمن آخر وعلى مستوى وعي بشري آخر قبيحا وسمجا، وهكذا ارتبط الجمال أساسا بالرؤية البشرية الفينومينولوجية لفكرة الجمال وبكيفيات استبطانها والتعاطي معها تعاطيا تتحكم فيه معطيات متباينة وخلفيات متواشجة، ترسّخ للتذوق الجمالي بنمط – أكثر سلطوية وفوقية واستعلاء – يتجاوز في أغلب الأحايين فكرة الاستقلال الذاتي النافقة، التي تحاول جاهدة أن تتملص من رباق الاستعباد الفوقي وتنأى عنه، لكنها دائما تجازف من حيث المجازفة تهوى بها في عمق الثقافة البشرية الباذخة، ولهذا يبقى التذوق الجمالي استعدادا بشريا فطريا، لكن نموّه مرهون برصيد ثقافي يتكون على مستوى الوعي على مر العصور والأجيال المتهافتة ويبقى الجمال في صورته المطلقة نوعا من الهذيان الطوباوي الذي تبطله النسبية مرارا وتكرارا، وهذا لا يعني غياب التميز وأنماط التحرر والتفرد والابتكار، فهناك دائما من يحاول

[1] علوش، سعيد. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني، 1985 (م). ص 62.

التحليق خارج السرب، لكن بصفة عامة يبقى التصور الجمالي نسبيا، ويبقى خاضعا – بنسب متفاوتة قد تقل أو تزيد – لخلفيات وتراكمات ورواسب يعتاص إقصاؤها أو نفيها أو ادعاء الانطلاق من الخواء، فمن يحلق خارج السرب لم يوجد منذ البداية هكذا في الهواء فهو لابد أن انطلق من مكان ما، وربما كان داخل السرب في حد ذاته، وما التمرد إلا وعي بالأسباب والمواقع.

ما يهمنا في هذا السياق البحثي هو رصد العلاقات الفينومينولوجية التي يؤسسها الوعي انطلاقا من استبطانه لفكرة الجمال وتشذيبها وتحويلها إلى ماهية من الماهيات. وذلك يحيلنا مباشرة إلى رواية "حب وبرتقال" وإلى طفل الرواية وضرورة استقصاء رؤيته لطفولته ورصد تحولات الوعي بالطفولة، وكيفيات الإحساس بالجمال، من حيث هو إحساس لم ينضخ من فراغ، بل خضع لكثير من التوجيه، وتحكّمت فيه مشاريع غيرية متميزة تعبق فتنة وتأثيرا، لاسيما أن الطفل في البداية يبدو – غالبا – مستعدا لفرضيات التأهيل والتوجيه.

1- تيمة الأم: أقوى وأرسخ ما تحتفظ به ذاكرة الطفل وتلح على صونه، وتحتفي بالبوح به هو الاحتفاء بالأم احتفاء باذخا يحيل إلى ترسانة من العواطف الفياضة المتوهجة إزاء الأم والإعلاء من شأوها، إلى درجة أن كل كلمة ينبس بها الطفل ويحدّث بها نفسه مثقلة حتى الثمالة بإيحاء عاطفي خلاب، يتوّج الأمومة أفضل هبة إلهية نورانية سما بها الوجود وعبق، فكانت بداية الوعي بالطفولة عند الطفل مجهولة مغيبة تماما يطغى عليها الهوس بالأمومة ويواريها، وما نلفيه في هذه المرحلة الأولى لا يتجاوز الاهتمام بالأم والسعي الملح في سبيل رصد مناقبها وخلالها وفيض الحنان الدافق الذي يحظى به الطفل في حضن لا يغيض ولا يتنكر، ويبدو إنكار الاستقلال ومحاولات التماهي مع الأم في مرحلة البدايات الطفولية شيئا منطقيا جدا، لاسيما إذا أدركنا أن أم الطفل تجتهد كثيرا لإشباع رغبات طفلها وقد أفلحت في استقطاب اهتمامه، فكانت النموذج الأعلى بالنسبة له والقدوة الأسمى، ولم يكن ذلك بسبب الهدايا والعطايا البسيطة التي تغدقها عليه، بقدر ما كان السبب هو روحها الجميلة وحنانها المتميز وذكاؤها المتقد الذي وجد طريقه بسلاسة وعفوية لوعي الطفل وترسّخ في عمقه كفكرة ملحة تنضح أمومة، وترتحق كل معاني النقاء والغبطة، ولم يكن

سبي الأم لوعي الطفل تعسفيا مفتعلا، ولم يكن إلا نوعا من الارتياح العفوي والتلقائية المغرية، فاعتقد الطفل جازما بجمال الأم، وأن لا شيء يضاهي هذا الجمال أو يجرؤ على تشويهه، وكأن فكرة القبح قد اختفت من قاموسه وتوارت، ولم يكن لها أدنى حضور على مستوى وعيه الذي لم يعرف في هذه المرحلة إلا الجمال وظلال الجمال ومرادفاته وكل لغاته ودلالاته، ومن الضروري – إذن – في هذه الحالة الفردوسية أن لا ينتبه الطفل لطفولته، لأن صورة الأم اكتسحت خياله واحتلت ذهنه، وأغناه وجودها عن وجوده، فكانت معرفته لطفولته لا تتجاوز معرفته لأمه، وكل غاياته مرتبطة بتلك المعرفة، وبالهوس بها هوسا باذخا يجعل منه مدمنا بحق على التحديق في صورة الأم، والتلذذ بما تثيره تلك الصورة من مشاعر الود والعطف والحبور، دون أن تكون صورة الأم سببا لاكتشاف الطفولة، لأن الرغبة في صورة الأم كانت لذاتها ومن أجل ذاتها، دون توخي غايات اكتشاف الطفولة والوعي بها، ولعل ذلك يحيلنا إلى نتيجة مفادها أن الطفولة في هذه المرحلة يطبعها التماهي المطلق الذي يكون –عادة – امتدادا للحياة الجنينية، وما عزّز هذا الامتداد وكثّفه هو الأم التي احتفت بابنها وأحسنت الاحتفاء، ولا يبدو التماهي سلبيا والتعلق بالأم مقوضا خاذلا مادام يثير فيضا من العواطف الإيجابية، وينتج كثيرا من إمكانيات الارتياح والاعتدال والغبطة، ذلك أن «التعلق حاجة أساسية تمكن الطفل من النمو سويا من النواحي البيولوجية والعاطفية والاجتماعية»[2] لأن الإشباع العاطفي ضرورة ملحة مهما كان سببا للغنج والتماهي، حيث إن الغنج – في حد ذاته – في مراحل الطفولة يبدو ضرورة بشرية يجب على كل الأسر أن تتوخى تحقيقها بعيدا عن هوس الانحراف والخطيئة وعقد الذنب.

«تدريجيا تستقيم صورتها فينبني في أعماقي بصيص من فرح ... ذكرى سعيدة ... أحلام داعبت وجداني في لحظات منفلتة من الزمن الجميل»[3].

إن صورة الأم في احتوائها للطفولة بدت ضرورية جدا لترشح بكل ذلك العبق الأمومي العارم المتسلل بوحي نوراني إلى وعي الطفل، وتجعله يؤمن بفكرة الجمال، ويتحول

---

[2] قنطار، فايز. المرجع السابق. ص 38.

[3] لغتيري، مصطفى. حب وبرتقال. الطبعة الأولى. دمشق، سورية: دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، 2014(م). ص 09.

العالم حوله إلى جمال، رغم أن الصورة التي يتحدث عنها الطفل لا تومىء إلى العالم الخارجي بقدر ما هي توحي إلى العالم الباطني في أعماق الذات، حيث صنعت الصورة عالما باطنيا نابضا بالفرح والسعادة، ولم يكن التعبير عن البصيص إلا تحايلا لغويا من الذاكرة لتتمكن دائما من استحضار الزمن الجميل والاحتفاظ بباقات الجذل والسرور، فيتحول البصيص إلى نور متوهج يبيد كل احتمالات الظلام، ويتغلب على جل أنماط الشرود والسلوان، بذلك لم تكن الذكرى أبدا شيئا من الماضي بقدر ما هي حاضر متناسخ في الذاكرة تغلّب على حدود الزمن وانفلت من ربقة الحجر التاريخي، فتعمد الطفل – بذلك – أن يتمسك بصورة الأم ويحفّز ذاكرته دائما، ويحرّضها بجذاء البصيص، ليمنحه ذلك لحظات قوية من السعادة وشحنات عاطفية لا تضاهى من الانتشاء، وهو في كل مرة يضخّم صورة الأم ويفتعل تضخيمها وتفخيمها بغية تحقيق فرص المعايشة الحالمة الزاهية التي تداعب الوجدان وتحاول جاهدة أن تحقق له الإشباع الدائم، بعيدا عن رقابة التحولات الزمنية الصارمة وبذلك كانت فكرة الأمومة على مستوى الوعي ترادف دائما الزمن الجميل؛ ذاك الزمن الذي تخلده الذاكرة، وترفض دائما أن يفنى أو يطاله العفاء والدنس، ولا مجال يدعو للشك في أن هذه المرحلة من مراحل الوعي في الطفولة محورية لبناء الشخصية والتحكم في نمط تكوينها وتحقيق ماهيتها: «هذه الطفولة الدائمة المستمرة»[4] التي لا تبرحنا أبدا مهما خلنا أنها جفتها أو أبادتها سنوات العمر المتهافتة.

ما يبدو جليا في وعي طفل رواية "حب وبرتقال" هو ذاك التشبّع العاطفي الباذخ الذي سكنه وأحاط به، لذلك كان وعيه بالطفولة غائبا، من حيث هي طفولة استعبدها الجمال الأمومي وأغناها عن الاهتمام بتفاصيلها الذاتية، والغياب لا يعني الإقصاء العدمي، لكنه يعني غموض الرؤية للطفولة، وعدم وجود توجه مقصود إزاء الطفولة التي يعني أن الشعور بحضورها مرتبط بحضور الأم، مما يجعل الوعي بالطفولة في هذه المرحلة ليس مقصودا بنمط الافتعال والإدراك الذكي، لكنه وعي تلقائي بالطفولة يتسم بالتماهي، ويتخمه الثراء العاطفي الذي ينجم عنه نوع من الرضا والارتياح، لذلك غابت في هذه المرحلة الأحكام

[4] باشلار، غاستون. المرجع السابق. ص 22.

المعيارية المرتبطة بالرؤية للطفولة، وهيمنت بدل ذلك أفكار السخاء العاطفي ومشاعر الجذل التي تحيل إلى نمط من التماهي والارتباط أكثر مما تحيل إلى رؤية واضحة للطفولة، لأنها تصنّف في مستوى الامتداد الذي يجعل الطفل في مرحلة ما أكثر تماهيا وارتباطا بالأم حيث يسعي دائما لتقديسها، واستمداد كل طاقات الحياة من وجودها باعتبارها اليقين الوحيد الذي يستمد حضوره من حضورها، لذلك كان الوعي بها وبضرورتها أكثر من الوعي بالطفولة، إذ الطفولة تكون بالأم مفعمة بالمشاعر فقط، وتكون دون الأم خاوية منعدمة.

فرق واضح بين المشاعر التي تختلج الذات من جهة، وبين الرؤية الواعية للطفولة من جهة أخرى، فكان أن ألفينا كثيرا من المشاعر الإيجابية التي تسكن الطفل، لكننا لم نظفر برؤية واعية واضحة إزاء الطفولة في هذه المرحلة، وكان أن اكتشفنا أن ما تتمتع به الذات من قيم الجمال مرتبط أساسا بالمشاعر المجذلة وبإمكانيات الإشباع والارتياح والرضا وهي كلها قيم جمالية تستمد نسغها من وجود الأم، وترتحق من صورتها كل العبق والامتنان فلم تكن – بذلك – الرؤية الجمالية إلا نوعا من العواطف المتراكمة التي تفتقر لتفسير ذكي على مستوى الوعي، وكأنها نوع من التلقائية التي لا تحتاج إلى تعليل أو تبرير واع، وفي كل الأحوال لم تكن القيم الجمالية واضحة، ولم تكن نابعة من الوعي الذاتي، بقدر ما هي تستمد مشروعيتها من صورة الأم عن طريق علاقة من الارتباط والامتداد والتماهي.

2- تيمة الجميل: لقد ثبت سلفا أن الأم سبت وعي الطفل، وأغدقت عليه كثيرا من أنواع الاحتفاء والغنج، فكانت بالنسبة له مثالا متعاليا يصبو إليه، وقيمة تيماتية مدهشة تستمد فتنتها من كنه التوهّج العاطفي ومستويات التلقائية والتماهي، حيث إن الأم في المرحلة السابقة لم تستهدف استثارة وعي الطفل بالطفولة، واكتفت بالحياد وببداهة الأمومة لكنها بعد ذلك نلفيها تفتعل خطابا مشفّرا يحيل إلى كثير من محاولات استثارة وعي الطفل بطفولته، وإملاصه من غفوته وتماهيه، حيث بدا جليا أن الأم تتعمّد توجيه الطفل لطفولته ليستوعبها استيعابا فاخرا باذخا، إذ حاولت بذلك تجاوز تخوم الحياد، لتستهدف تضخيم الأنا ومنحه هبة التعالي والنرجسية، فنلفي خطابها الموجه الأول ناضحا بالفخامة، وباعثا على الانتشاء، وكأنها بذلك تنتشل الذات من غفوتها، وتحرّضها على تجاوز السبات: «أنت أجمل

طفل في العالم، إياك أن تنسى ذلك أو تسمح لشخص أن يقنعك بغير ذلك»[5] فللمرة الأولى يكون الخطاب موجّها مباشرة لذات الطفل ليشحذ إمكانياته الواعية، ويحيله إلى ضرورة الوعي الجاد بالطفولة من حيث هي طفولة جميلة، كانت تشعر بالجمال لكنها الآن يجب أن تؤمن بالجمال كماهية من ماهياتها، لذلك بعد أن كان الوعي يعتقد أن الأم مصدر للجمال آن الأوان أن يؤمن بإمكانياته الجمالية، وأنه هو الآخر مصدر للجمال والفتنة، وقد جاءت لغة الأم تلقائية صريحة نائية عن الألغاز والغموض، توحي بمستويات الثقة التي استوعبتها الأم في ابنها، حيث بدا جليا أنه مفتون بما تطفح به من أمومة وعاطفة، وكل ما تنبس به يصنّفه في باب اليقين والنّقاء والصدق، حينئذ يكون الارتباط الإيجابي بالأم والإيمان بها سببا وجيها لنجاح الخطاب في أيسر معانيه وأفصحها، وتكون العبارة الواحدة كافية للتأثير التام، وتحقيق التجاوب المطلق بضرورة الوعي بالطفولة وعيا إيجابيا من حيث هي طفولة جميلة دون شك أو صد أو ارتياب، ثم تتعالى مستويات الخطاب الأمومي ومستويات الإلحاح الدلالي لترسيخ الإيمان بحتمية التمسك باعتماد الجمال كفكرة ملحة لا تتنازل ولا تخضع للمساومة أو المناقشة، حيث كانت لغة الأم تحذيرية بنوع من التلاعب العاطفي السلس، متوخية تقويض كل الاحتمالات الغيرية المعادية التي قد تشكل تهديدا افتراضيا على رؤية الطفل لطفولته، وهي لغة تنبئّية تبعث الطفل على التأهيل لكل التوقعات والهواجس الغيرية، وتفنّد كل الاحتمالات المستقبلية السلبية، ليتجاوز بذلك الخطاب الأمومي فكرة الآنية، ويتوخى دائما الاستمرار بالثقة نفسها وبالإيمان الجازم نفسه، حيث يعي الطفل أنه جميل حتى وإن قال شخص عكس ذلك أو سوّلت لأحدهم نفسه بأن يشوه الحقيقة الجمالية.

إن الطفل تغلغل في ذاته خطاب الأم وآمن به وصدّقه بنوع من اليقين الذي لا يساوره ريب أو سلوان «ولم أنس ذلك أبدا»[6] فأفلحت الأم في غاياتها الجمالية، وتمكّنت من إثارة الوعي بالطفولة الطافحة بالجمال، ولم يكن الأمر منوطا بلحظة طارئة بقدر ما كانت مساعي الأم مرتبطة بقهر النسيان، وتجنيد كل طاقات الجلد واليقين والإيمان، فكانت مهمتها

[5] لغتيري، مصطفى. المصدر السابق. ص 10.

[6] المصدر نفسه. ص ن.

الأسمى أن يعايش الطفل جماله بنمط أبدي خالد لا يطاله العفاء أو الفناء، ولا تدنّسه الرؤية الغيرية ومحاولة زرع الشك والارتياب، فلم ينس الطفل أبدا، وما أهّله أن لا ينسى هو إلحاح الأم وسعيها الحثيث، حيث كان خطابها عادة من عادات ذكائها العاطفي الذي يعير للزمن أهمية جادة، ويتعامل مع ترسيخ العادة باحتراف وإدمان: «بمرور الزمن ترسخت هذه الكلمات في ذهني»[7] ولا يمكن أن نتوقع أن الإيمان بالرؤية الجمالية للطفولة بقي أسير الوعي النظري، حيث ما إن ترسّخت المعتقدات الجمالية وترجم الخطاب الأمومي في عمق الوعي بالطفولة حتى انبرى الطفل يترجم وعيه بالطفولة على مستوى السلوك: «على أساس هذه الكلمات أمضي في حياتي معتزا بنفسي، نرجسيا، فخورا بكوني أجمل طفل في العالم حتى المقارنة مع أقراني لم تكن ذات جدوى ولا معنى لها ولا أحتاجها، يكفي أن أمي نطقت بها وملأتني بظلال معانيها الجميلة»[8] ولعلنا نتيقن من أن الوعي بالطفولة وما يترجمة من سلوك ما زال يتسم بالتلقائية والتماهي مع الأم، فلمجرد أن أومأت الأم لابنها بفكرة معينة تبناها دون مراوغة أو وجل، فكانت بذلك سلوكاته ترجمة حرفية لخطاب الأم، وكانت معتقداته الجمالية أيضا نقلا حرفيا لمعتقدات الأم التي أوصدت كل احتمالات التمرد والشك وبهذا لم يحفل الطفل في سلوكاته بطفولته في حد ذاتها، بقدر ما كان احتفاؤه منصبا على الافتتان بلغة الأم التي مافتئ الطفل يقدسها، ويستمد مشروعية جماله من مشروعية جمالها فيكفي أن يراها جميلة ليعتقد أنه جميل بجمالها، وقد زاده خطابها الصريح يقينا وثباتا، فكانت كل الأفكار الغيرية والأسيقة والمقارنات لا جدوى منها، لأن كل شيء يفقد مصداقيته أمام الكلمات الخالدة التي نطقت بها الأم وكرّرتها ورسّختها، وشحنتها بالمعاني الجميلة.

ما أردنا أن نصل إليه من تحليلاتنا الفينومينولوجية والتيماتية السابقة يتمحور حول أن رؤية الطفل لطفولته – باعتبارها طفولة جميلة – مازالت خاضعة لفكرة التماهي، لذا بدا اليقين بجمال الطفولة مرتبطا كل الارتباط بلغة الأم وبأحكامها المعيارية الصريحة، واتسمت سلوكات الطفل بنوع من التلقائية والفطرة العمياء، وبنوع من التسليم المطلق، دون إبداء أي

[7] المصدر نفسه. ص ن.

[8] المصدر نفسه. ص ن.

تردد أو نوع من محاولات التذاكي والتأكد، لهذا بقي الاعتقاد الجمالي على مستوى وعي الطفل مطلقا لا توجد مؤشرات دلالية واضحة تبين نوعه، وتبين ما إن كان جمالا سلوكيا أو خلقيا جسديا، وهذا يحيلنا إلى كون الطفل من شدة إيمانه المطلق بالأم تقبّل فكرة الجمال تقبّلا مطلقا، ولم يكلّف نفسه عناء التمحيص أو الاستفسار أو التصنيف، فكان هكذا يعتقد بجماله من حيث الجمال فكرة ملحة مطلقة ترادف الكمال، وترادف إثارة مشاعر الاعتزاز والنرجسية، ولا يهم إن كان الجمال روحيا سلوكيا أو جسديا، بقدر ما يهم أنه قيمة ثرية نابعة من الأم التي سيكون إرضاؤها في حد ذاته قيمة جمالية تبارك مستويات التماهي والامتداد وتكثفها، ولا ضرورة من الانتباه للرؤية الغيرية التي أعدمتها الأم، وقد هيمنت هذه الأم على كل الأسيقة الزمنية والمكانية، واستولت على الوعي استيلاء عاطفيا بارعا، فرغم أن الأم كان لها الفضل في إثارة الوعي بالطفولة إلا أنها ما زالت تصادر هذا الوعي وتسيطر عليه وتوجهه، لهذا كان الوعي بالطفولة الجميلة نمطا تحوليا خاضعا لإرادة توجيهية غيرية، تجعل الوعي بالطفولة تلقائيا خاضعا، ومستويات نشاطه ضعيفة فاترة، رغم ترسّخ الاعتقاد والوعي بالطفولة الجميلة، وهذا الاعتقاد في ذاته مكسب، لأنه من المؤشرات الأولى التي تحيلنا إلى تحولات الوعي بالطفولة تحولا إيجابيا يتصاعد ويتنامى ليحيلنا إلى تحولات أخرى.

تحيلنا المؤشرات السردية فيما بعد إلى أن تحكّم الأم في زمام الوعي الجمالي انبرت تجابهه بعض العوائق والتصدعات حين تقدم الطفل في السن، وبدأت الخيبة تشوه معتقداته الجمالية عن طفولته، وقد ارتبط التشوه أساسا بالجمال الجسدي، وهي أول إحالة لوعي الطفل بأصناف القيم الجمالية، حيث ارتبط مفهوم الجمال عنده في هذه المرحلة الحرجة بالجمال الجسدي: «صدمتي ستتحقق بعد وقت طويل، طويل جدا حين تأكدت بما لا يدع مجالا للشك أو المناورة بأن الحقيقة أبعد من أن تكون كذلك، ببساطة لست أجمل طفل في العالم»[9] للوهلة الأولى يتبادر للذهن أن الصدمة التي تعرّض لها الطفل من العيار الثقيل وهي صدمة كفيلة بإبادة معتقداته الجمالية ورؤيته الاحتفائية لطفولته، لكن تكرار مواجهة الخطاب اللغوي يبيح لنا – مرة أخرى – جس النبض الإيحائي وغواية الكلمات المشفرة التي

---

[9] المصدر نفسه. ص 11.

تبقى دائما «قابلة للتجدد والتغير والتحول حتى وإن ظلت داخل سياقها»[10] ولا يمكن أن تحيل إلى معنى يتيم وتفسيرات مطلقة، ففي كل محاولة تفكيكية لتولّج عمق الخطاب وقراءة الشفرات التيماتية قد نحظى بالجديد وبدلالات قد تقوض قناعاتنا السابقة أو تؤكدها.

الصدمة التي تعرّض لها الطفل لم تكن في مستوى الحدة التي زعمها أو اعتقدناها لمجرد التمويه اللغوي الذي مارسته كلمة "الصدمة" في حد ذاتها، إذ يبدو جليا أن الوعي بالطفولة الجميلة لم يتقوض نهائيا، ولكن مستويات التوهج قد تراجعت بشكل ملحوظ، وبلغة دقيقة لم يفقد الطفل اعتقاده بالجمال، لكنه فقد مشاعر النرجسية التي تحيل إلى التفوق حيث انهار الاعتقاد بالتفوق الجمالي، وانهارت صورة الجمال المطلق، وكأن الأمر ارتبط بخلل في الوعي بالمرتبة حين اكتشف الطفل أنه ليس أجمل طفل في العالم، وهذا يعني أن اعتقاده بالجمال مازال قائما، لكن اعتقاده بالتفوق المطلق انهار ليحيلنا إلى كون الوعي بالطفولة الجميلة لم يفقد مصداقيته، لكن تحولات الوعي بالطفولة بدأت تنذر بتدخلات إرادية تتوخى نوعا من الاستقلال وتجاوز التماهي المطلق، وهي نفسها التدخلات الواعية التي أعادت النظر فيما تبناه الوعي بالطفولة كمسلمات غير قابلة للنقاش أو الشك، وأهّلت الوعي للتجرد – نوعا ما – من نرجسيته، والتنازل عن معتقداته الجمالية المطلقة، ونبّهته لضرورة إعادة الرؤية للطفولة من حيث هي طفولة جميلة، ولكنها ليست الأجمل، لذلك فقدت فكرة التفوق المطلق مصداقيتها، وفقدت معها الأم بعض سلطتها العاطفية، وهو مؤشر أول لبدايات محاولات الانفصال العسير.

في سياق المسافات السردية السابقة، وفي سياق التنقيب عن مستويات الوعي بالطفولة وتحولاته لم نلف إلا حكما معياريا صريحا واحدا تبنته الأم لإثارة توجّهات الطفل إزاء طفولته، وللتفطن للمعتقدات الجمالية التي بدت أكثر تماهيا وارتباطا وتلقائية في البداية ثم أبدت فيما بعد بعض محاولات الانتقاء والتبيّن والتشذيب، لكنها في مجملها محاولات استقلالية ضعيفة أزاحت بعض الشطط عن رؤيتها النرجسية، وعانت بعض الخيبة

[10] الغذامي، عبد الله محمد. الخطيئة والتكفير. من البنيوية إلى التشريحية. الطبعة الأولى. جدة، المملكة العربية السعودية: النادي الأدبي الثقافي، 1985 (م). ص 09.

والانتكاس، بيد أنها حافظت على فكرة الاعتقاد الجمالي والرؤية الإيجابية للطفولة، وما يؤكد هذا الزعم هو أن الطفل – بعد مغامرة اكتشاف الحقيقة المناقضة، وانهيار قيم التفوق الجمالي المطلق، وبعد دوامة من الارتياب وتراجع التوهج النرجسي – عاد له الحماس العاطفي والشغف الجمالي جذعا، ونتج عن ذلك أول حكم معياري ذاتي إزاء الطفولة ليصرح فيه الطفل بنبرة من الثقة واليقين بأنه أجمل طفل في العالم: «إنني أجمل طفل في العالم»[11] فهكذا يبدو التحدي في أوج خيلائه وأنانيته ونرجسيته الباذخة التي تتمرد على التوقعات والأسيقة، فرغم اكتشافه للحقيقة المناقضة، واكتشافه بأن فكرة أجمل طفل في العالم مجرد أسطورة نافقة إلا أنه عاد معاندا مفنّدا يقين الواقع، ومكذّبا خيبته بكل سلاسة وبرودة أعصاب، ليعلن من جديد أنه مازال مصرا على الاحتفاظ بمعتقداته الجمالية المطلقة التي تشرّبها من تيمة الأمومة وآمن بها في وقت سابق، حيث بدا جليا أن صوت الأم وخطابها المعياري الأول لم يبرحا أعماقه، وقد تحققت كل نبوءات الأمومة وضروراتها التوقعية وإلحاحها على ترسيخ فكرة الوعي بالطفولة الجميلة جمالا متعاليا متفوقا لا يعتريه الشك أو النسيان، ولعل سر العناد الذي تبناه وعي الطفل – بخصوص ضرورة الاحتفاظ بوصايا الأم الجمالية واستمرار الرؤية للطفولة من حيث هي طفولة جميلة ذاك الجمال المطلق – مازال يستمد قوته من الرؤية للأم التي مافتئت رؤية مثالية مفعمة بالإعجاب المطلق وبالانتشاء الجمالي الباذخ: «كنت أراها أجمل امرأة في العالم»[12] وهو سبب وجيه أن مازال الطفل يتمسك باعتقاده الجازم بأنه أجمل طفل في العالم، وبأن تلك الحقيقة تتجاوز كيد الأسيقة وحقائق الواقع والمنطق.

بيد أن الملاحظ في تحولات الوعي بالطفولة في هذه المرحلة لا يتعلق أساسا بالوهم الجمالي الذي أصر الطفل على التمسك به بعد كل المبررات المناقضة التي اكتشفها، بقدر ما يتعلق بتغير المعتقد الجمالي في حد ذاته، حيث إن الوعي بالطفولة في سياق استبطانه لفكرة الجمال فكرة ملحة قد تفطن إلى كون هذه الفكرة الملحة بدأت تشحن بدلالات جديدة

---

[11] لغتيري، مصطفى. المصدر السابق. ص 11.

[12] المصدر نفسه. ص 14.

تختلف كل الاختلاف عن الدلالات السابقة التي كان يعتقدها الوعي مرتبطة بالجمال السلوكي أو بالجمال الجسدي، ذلك أن الطفل على مستوى وعيه أقدم على مناورة ذكية يداري بها خيبته المناقضة، حيث استوعب دلالات جديدة للجمال باعتباره جمالا يرادف جمال المشاعر التي تنتابه وتعتريه، وبذلك أبدى نوعا من الرضا والإصرار على العودة لاعتناق المعتقد الأمومي الجمالي الذي يمنحه إشباعا عاطفيا مغريا ومثيرا للجذل والحماس والرفاهية النفسية، لهذا كانت تحولات الوعي بالطفولة في هذه المرحلة مرتبطة بالاستعداد المتخم عاطفيا لممارسة النشوة الجمالية، والتي ترتبط أساسا بالاكتفاء بما يمنحه الولاء للأم من إمكانيات السعادة والاحتفاء المتواصل، فكان الطفل يعتقد بجماله المطلق المتفوق، ليس باعتباره جمالا جسديا أو سلوكيا، بل باعتباره جمالا عاطفيا على مستوى تجربة المشاعر الطافحة دهشة جمالية خلابة، تجعل من الشعور بالجمال كافيا لتحقيق التفوق، وتجعله تعويضا ممكنا وناجعا لكل مستويات النقص التي قد تعتري قيمة الجمال الجسدي والسلوكي فهو هكذا أجمل طفل في العالم، لا لأسباب موضوعية وتجليات مادية ملموسة، بل لأسباب الإحساس العابق بالجمال، والشعور بأنه أجمل طفل في العالم، مثلما خبّرته أمه يوما وألحت في إخبارها، فهي يجب أن تكون محقة، لأنها أجمل امرأة في العالم، وامتلاكها في حد ذاته متعة جمالية لا تضاهى، فيعود الطفل بذلك ليعتقد أن الجمال الحقيقي يكمن في جمال أمه أما طفولته فجمالها وقف على جمال الأم وعلى تصوراتها الجمالية الراقية، لذلك كانت تحولات الوعي بالطفولة أكثر تماهيا من المرحلة الأولى، لكنها أكثر تعقّدا وذكاء، لأن الوعي بالطفولة في هذه المرحلة أبدى تحايلا واضحا، وفهما أعمق للمعتقدات الجمالية، ينم عن نوع من محاولات التعاطي مع الرؤية للطفولة تعاطيا شخصيا، يمارسه الوعي بنوع من الاستقلال المحتشم، إذ استطاع الطفل الاعتماد على وعيه في إعادة تقييم المعتقدات الجمالية، لكنه بقي دائما تقييما محدودا لا يقوى على تجاوز تخوم التماهي وحدود الرؤية للأم والتماهي معها، حتى وإن كان التماهي في هذه المرحلة يختلف أيضا عن التماهي في المراحل السابقة لأنه يتسم بنوع من الإرادة الحرة والاختيار، متجاوزا بعض التوجيهات الصارمة والرؤية السلطوية التي كان الطفل خاضعا لها كل الخضوع، لاسيما أنها تصدر من الأم التي تتعمّد توجيهه، فهو لم يرفض السلطة الأمومية، لكنه أعاد النظر فيها بنوع من الإرادة الحرة، وأعاد

تأهيل مستويات الرؤية إليها، رغم أنه في النهاية صادق عليها وأعاد الاحتفاء بها، وأثبت مشروعيتها، ولقد ساعده على ذلك جهود الأم الحثيثة التي تتوخى ترسيخ المعتقدات الجمالية بنوع من الكفاءة والاحتراف، حيث بدت الأم دائما متألّقة في نظر الطفل، في كل مرة تمارس فتنتها، وسحرها لا ينتهي أبدا، فهذه أعمال المنزل التي تبرع فيها الأم، تبهره وتبعث الحياة في الخواء والجدران، وتحوّل المنزل في فترة وجيزة – بعد عودتها من العمل – إلى مكان فردوسي يطفح بالحركة والنشاط والحيوية والأمل، وهذه أساليب التعليم المغرية التي تمارسها مع الطفل، فرغم أنها أمية إلا أنها استطاعت – وهي تحفظ سورة قرآنية واحدة – أن تستثير فضول طفلها، وتبعث فيه نشوة التعلم وغواية الحروف والكلمات، وهذا عيد العمال وكيف تحتفل به الأم مع طفلها بطريقة بارعة، وتشركه في كل اللهو والحبور والتجوال، وتلبسه أجمل الثياب، وتضمخه بأعبق العطور وأزكاها، وتولجه عالمها النسوي، حيث صديقاتها يغدقن على الطفل بكثير من العناق والتقبيل والتعليق وغير ذلك، وكل تلك الممارسات أعتقت الطفل من خيبته الجمالية، وحرّضته على ضرورة إعادة إنتاج مستويات الوعي بفكرة الجمال وبعثها من جديد متأهبة متألقة مادامت الرؤية للأم لم تفقد نظارتها وسناءها ومادامت الدهشة العاطفية قائمة في أوج عطائها ونشاطها.

لقد اتسم الوعي بالطفولة في المرحلة السابقة بتحولات أكثر وعيا وانتقاء واعتقادا بنرجسية التفوق الجمالي الشعوري الذي يتجاوز بكثير التفوق الجمالي المادي، حيث لم يكترث الطفل للحقائق المناقضة التي تبخس قيمة الجمال المادي، مستعيضا عن خيباته بالاعتقاد الجمالي الشعوري المطلق الذي منحه فرصة الاعتزاز بوجوده والاحتفاء بتفوقه.

3 – تيمة الراشد: «كنت صغيرا لم أتجاوز العاشرة من عمري»[13].

من البديهي أن الطفل قد استوعب صفة الصغير التي يتصف بها، وهي صفة ترادف في دلالاتها فكرة الطفولة التي تحددها المؤشرات الزمنية تحديدا محوريا، فالجملة السابقة تحيلنا إلى الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة لم تتخط مرحلة الطفولة، وقد بدا جليا من

[13] المصدر نفسه. ص 20.

التحليلات الفينومينولوجية السابقة أن الطفل منسجم مع حقيقة الطفولة الباذخة التي يحياها وقد أبدى كثيرا من الاحتفاء بها، فكان يمارس طفولته بنوع من الثقة والحبور والحماس، لذلك يسر أن يتفطن لطفولته ويتعشّقها بحماس، ويعشق كل معطياتها وأسيقتها الفاخرة، إلى درجة أنه يجتهد في الاحتفاظ بتفاصيلها الصغيرة، ويتفنن في وصفها وصفا حالما منتشيا، ذلك أن الجمال حباه من كل مكان وزمان، وتيمة الأمومة تغمره دائما بالغواية والتطلع والاشتهاء لذلك نلفي قيمة المصالحة مع الطفولة بادية مفصحة بنمط من التلقائية التي تثير كل معاني ومشاعر الارتياح والاطمئنان.

ما يستقطب اهتمامنا التيماتي في هذا المقام الذي نستعير دلالاته الفينومينولوجية من الجملة السردية السابقة ليس هو الوعي بالطفولة في حد ذاته بقدر ما هو المؤشر الزمني الذي طفح جليا على مستوى الخطاب، حيث تمكن الطفل من تحديد سن العاشرة التي لم يبلغها بعد، وأصرّت ذاكرته على الاحتفاظ بهذا المؤشر العمري، ولا يمكن أن يكون هذا الاحتفاظ اعتباطيا، ذلك أن الذاكرة لها انتباهها الانتقائي الذي يسمح «بالتكيف مع المعلومات اللازمة، والتركيز عليها، وإهمال ما تبقى»[14]، فللذاكرة أولوياتها الانتقائية التي تستمد مشروعيتها من مستوى التأثير الذي تنتجه بعض الأسيقة، لهذا يكون المؤشر الزمني على مستوى الذاكرة أولوية انتقائية ملحّة فرضت نفسها على الذاكرة، وأصرّت الذاكرة على الاحتفاظ بها وإنتاجها فكرة ملحة مهيمنة لها حضورها الباذخ على مستوى الوعي، حيث إن هذا المؤشر الزمني الذي تبنّته الذاكرة يحيل إلى مدى تأثر الطفل بتلك المرحلة بالذات والتي يكون فيها الزمن من المنعرجات الأساسية والتحولات الواعية الجوهرية التي تؤدي وظيفة عميقة في تكوين الطفولة وتكوين الوعي بها، وإنتاج مستويات الهوية والماهية، فهي من الحوافز الداخلية التي تؤسس مستويات البصمة والإمضاء الشعوري الشخصي.

لعل ما يبرر الاعتقادات السابقة هو أن الطفل لم يحتفظ بذلك التاريخ عبثا في الذاكرة، بل هناك – فعلا – أنماط تحولية واعية وشعورية ميزت ذلك التاريخ، حيث إن

---

[14] كلاتسكي، روبرتا. ذاكرة الإنسان. بنى وعمليات على ضوء منهجية علم النفس المعرفي. د ط. دمشق، سورية: منشورات وزارة الثقافة، 1995 (م). ص 40.

مستويات نبض الوعي بالطفولة قد تصاعدت وتحولت تحولا ملحوظا، وإن أردنا تفسير ذلك أجاءتنا المعطيات السردية ومستويات وعي الطفل إلى النقطة التي ألحت بحضورها على الذاكرة وعلى حياة الطفل ووعيه، ألا وهي الأم التي يبدو أن حضورها مازال باذخا متوهجا يمارس سطوته الهائلة، ففي هذا التاريخ الذي احتفت به ذاكرة الطفل نلفي الأم قد تعمّدت تكليف الطفل ببعض الأعمال المرتبطة بإدارة المنزل، ولم يكن العمل شاقا أو معقدا، ولكنه بسيط ارتبط باقتناء الدجاج بانتظام من عند الجزار، وكانت عملية الشراء تتم عن طريق مرحلتين؛ أما الأولى فهي إحضار الدجاج، وأما الثانية فهي تسديد الدين، وقد اعتنت الأم بهذه المواعيد جيدا، فكان هذا الأمر سببا وجيها لتبني الجزار رؤية إيجابية إزاء الطفل، وبعد مرور الوقت تحولت هذه الرؤية إلى حكم معياري له ثقله الدلالي وتأثيره الشعوري البليغ على مستويات وعي الطفل بذلك، حيث نبس الجزار يوما بلغة جادة مخاطبا الطفل: «يا بني معاملاتك أحسن من معاملات الكبار»[15] فكانت العبارة بمهابتها وبخيلائها إثارة لنوازع التمكن وتضخيم الأنا الذي أتخمته الثقة بالذات التي بذرتها الأم سابقا وتعهدتها بالعناية، ثم للمرة الأولى تتمكن الأم من تطويع الرؤية الغيرية وتخضيعها لإرادتها، لأن أسلوبها والتزامها ومحافظتها على صورة طفلها جعل الرؤية الغيرية تحتفي بمستويات النضج والالتزام الذي اتصف به الطفل، فكان أن زاد الوعي بالطفولة عند الطفل ثراء فاحشا، وتصاعد رصيده العاطفي بكثير من الثقة واليقين، ليدرك الطفل أنه ليس جميلا فقط، بل هو أيضا راشد، لأن «الرجل يعاملني كشخص راشد»[16] ولأن الرؤية الغيرية المتمثلة في الجزار باحت له واعترفت بأن معاملاته أفضل من معاملات الكبار، ولهذه الرؤية الإيجابية إزاء الطفولة، ولتحولات الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة مؤهلة اجتماعيا وراشدة انعكاسات إيجابية على مستوى السلوك، فبعد أن ترّسخت المعتقدات الواعية حول الطفولة بكونها راشدة «كنت أحرص على أن أحمل له النقود كل يوم أحد وبدون تأخير»[17] والأهم في ذلك ليس الحرص في حد ذاته بل الأهم هو أن تحولات الوعي بالطفولة باعتبارها طفولة راشدة أهّلت الطفل ليستوعب قيمة

---

[15] لغتيري، مصطفى. المصدر السابق. ص 20.

[16] المصدر نفسه. ص ن.

[17] المصدر نفسه. ص ن.

الحرص والانضباط حتى يكون في مستوى الرؤية الغيرية، وفي مستوى الطفولة الراشدة الجديدة التي اكتشفها، وقد أعجبه اكتشافه واستوعب ضرورة الاحتفاظ بها، كما أهّلته الرؤية لطفولته من حيث هي طفولة راشدة إلى تقمص سلوك الأم، حيث لاحظنا في البداية أن الأم هي التي كانت تحرص على الانضباط والمواعيد، ولكن بعد تحولات الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة راشدة أصبح الطفل هو الذي يحرص على الانضباط والمواعيد، إلى درجة أنه أصبح يذكّر أمه، وكأنه استوعب مسؤوليته: «أما من جانبي كنت حريصا على أن لا تنسى ذلك أبدا»[18].

لعل تيمة المسؤولية التي أحال إليها التحليل الفينومينولوجي السابق تبرّر للحرص على الطفولة الراشدة، فهي مسؤولية ترتبط قبل كل شيء بضرورة صون تلك الطفولة والمحافظة عليها، على اعتبار أنها مكسب من المكاسب الجمالية الراقية التي تدر شحنات كثيفة من عواطف السعادة والارتياح، لذلك لم يرتبط الأمر بالمسؤولية في حد ذاتها كمسؤولية مادية أو منزلية، بقدر ما ارتبط الوعي بضرورة السعي والاجتهاد ليكون دائما هذه الطفولة الراشدة، لأن معنى الرشد في حد ذاته كان يمكن أن يكون على مستوى الوعي مرادفا للعذاب والسخرة والاستغلال، ويثير في الذاكرة تاريخا كاملا من الاستعباد والقهر، لكنه بالنسبة لطفل الرواية كان مرادفا للجمال والاحتفاء وتضخيم مستويات الثقة، فلم يكن لتيمة الرشد إلا تاريخا من العبق والأيام الحالمة، وكان ذلك قبل سن العاشرة؛ أي قبل الرشد الحقيقي، حيث كان الطفل أفضل من الكبار، وكانت معاملاته أفضل من معاملات الكبار ورغم أن فكرة الرشد التي أجذلت الوعي بالطفولة واحتفى بها كانت فعلا مثيرة للاهتمام والاحتفاء إلا أنها لم تكن في حد ذاتها أوار الحماس والحرص وتضخيم الأنا، بقدر ما كانت الرؤية الغيرية هي أوار التجربة الواعية الإيجابية، ذلك أن الطفل في النهاية يحرص على الاحتفاظ بمستويات الرؤية الغيرية الإيجابية، وعلى الاحتفاظ باعترافها الاحتفائي، لتتسنى له ممارسات مستويات الثقة في الغير وفي الطفولة، ويتسنى له أن يحيا مشاعر النشوة الباذخة التي تغمره.

---

[18] المصدر نفسه. ص ن.

لذلك كان للحرص على مستوى الوعي مستويات تتمحور أساسا حول رؤيتين فينومينولوجيتين هما: الحرص على تيمة الرؤية الغيرية الإيجابية من جهة، والحرص – من جهة ثانية – على مستويات الوعي بالطفولة، من حيث هي طفولة راشدة بكل ما تنتجه تيمة الرشد في هذا السياق من مشاعر الفخر والثقة والأمان، ولا غرو أن الرؤيتين الفينومينولوجيتين متلازمتان، ذلك أن الرؤية الغيرية سبب مباشر للرؤية للطفولة الراشدة فكان لزاما على الطفل أن يسعى حثيثا للحرص على الانضباط والمواعيد، ويجتهد في المحافظة على مستويات الرؤية الغيرية، وهذا يفسر وعي الطفل بالتلازم بين الرؤيتين الفينومينولوجيتين، ويفسر تحولات الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة راشدة لا تهتم بالرشد كمرحلة عمرية في حد ذاتها، بل بالرشد كفكرة ملحة مترعة بالفخامة، ومثيرة لكثير من مشاعر الثقة والسعادة، لهذا كان ما أثارته تلك الفكرة الملحة من مشاعر متوهجة حافزا كافيا لنشاط الذاكرة، وترسّخ تلك المرحلة العمرية في صميم الذات، باعتبار تلك المرحلة تحولا أساسيا من تحولات الوعي بالطفولة.

مما سبق نستنتج أن تيمات وأسيقة منعطفات تحولات الوعي بالطفولة هي من أولويات الذاكرة، لهذا تحتفظ بها وترسّخها، وتبدو على مستوى كل خطاب سيري استرجاعي مهيمنة، كما نستنتج أن تحولات الوعي بالطفولة في هذه المرحلة باعتبارها طفولة راشدة مازالت تحيل إلى تحولات الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة جميلة، ذلك أن الوعي بالطفولة تبنى الرشد، ليس كقيمة سلوكية أو عمرية زمنية أو جسدية، بل كقيمة جمالية تحيل إلى كثير من مشاعر الثقة والنرجسية والحبور، حيث كانت معاني الرشد على مستوى الوعي بالطفولة نوعا من السخاء الجمالي والإحساس الجميل بالرضا والغبطة، لهذا مازال الطفل يتعالى في معتقداته الجمالية حول طفولته، ويسعى جادا للحرص عليها والاحتفاء بها، وما الرشد إلا قيمة جمالية تتضاف للقيم الجمالية السابقة، وما الوعي بالطفولة الراشدة وبمعتقداتها الجمالية إلا امتداد للوعي الجمالي بالأم، حيث مازال الطفل يمارس نوعا من التماهي مع الأم، ومازالت تحولات الوعي بالطفولة عنده تتسم بالاتصال، سواء أكان هذا الاتصال مباشرا أم غير مباشر، ذلك أن الأم في النهاية مازالت تحتفظ بصورتها السلطوية

وبنفوذها العاطفي المؤثر، باعتبارها جذاء لتحولات الوعي بالطفولة، فحتى في مرحلة الوعي بالطفولة الراشدة كانت الأم سببا لذلك، لأنها أهّلت طفلها ليحظى برؤية غيرية إيجابية وبرؤية ذاتية إيجابية أيضا.

4 – تيمة الجسد: لقد أومأنا سابقا إلى أن الوعي بالطفولة في مراحله الأولى بلور البعد الجسدي كقيمة جمالية شعورية، ولم يكن الجسد في حد ذاته محور الاهتمام والمتعة الجمالية، بقدر ما كانت رؤية الأم وأحكامها المعيارية جذاء لتحويل الوعي بالجسد من مستوياته المادية إلى مستويات رمزية تتمتع بنصيب وافر من التجريد والمثالية، لاسيما حين اكتشف الطفل الرؤية المناقضة، وانهارت لديه معتقدات التفوق الجمالي المطلق، لكنه كابر واحتال على خيبته، متجاوزا نمط الانتكاس عن طريق قدرته المذهلة على اكتشاف قناعات جمالية تواري الرؤية المناقضة، وتعيد إنتاج كثير من مشاعر الاعتزاز والثقة بالمعتقد الجمالي المطلق، بوصفه قيمة شعورية وموقعية، وليس قيمة مادية، أما الجسد كبعد مادي على مستوى الوعي بالطفولة فقد هندسته هو الآخر الكفاءة العاطفية الأمومية، فكان الطفل لا يعتقد إلا بكونه امتدادا أموميا زاخرا بالمواهب الشعورية وبالجمال الطافح.

ولعل الرواية تحيل إلى إرهاصات الرؤية للجسد حين يروي الطفل عن بدايات اكتشافه لجسد الأم، حين كانت تولجه معها للحمام، وتحتفي بجسده الغض الطري، وتمنحه سيلا من التدفق العاطفي ومن الاهتمام، فكان جسد الأم غاية في الأنس والعبق، وكان الحمام تجربة تنحت تفاصيل الذاكرة بنوع من التخليد الطوباوي، ذلك أن وعي الطفل بجسد الأم كان غامضا يكتنفه الذهول، لم يعر حينها جغرافية الأنوثة اهتماما، وكان إلحاحه منصبا على ما ينضح به الجسد من لغة أمومية حانية، وفيض عارم من التوهج العاطفي المثير حتى اعتقد بفكرة الامتداد، وتمادى في نمط التماهي مع جسد يرتبط به عاطفيا على امتداد خلجان المشاعر الجذلة «وكأن جسدها امتداد لجسدي»[19] حيث يحيل الوعي بالامتداد الجسدي إلى الامتداد العاطفي، فهو امتداد يقتصر على شحنات العواطف الجارفة مع إقصاء للامتداد المادي، ففي خضم النشوة العاطفية غفل الوعي عن مراقبة تضاريس

[19] المصدر نفسه. ص 24.

الاختلاف الجسدي، وراح يستغفله الانتشاء العاطفي ووهم الامتداد، حتى تحول الجسدان معا إلى قيمة شعورية للتماهي والوحدة، وهي رؤية للطفولة من حيث الجسد قد تحول إلى قيمة عاطفية كلية يحتويها الجسد الأمومي كقيمة مثالية وليست مادية.

لكن بدايات الرؤية للطفولة الجسدية وأفكار التماهي الجسدي بدأت بمرور الزمن تفقد مبرراتها عن طريق ما بدأ الطفل يلاحظه من اختلاف بين الجسدين، حينئذ كانت الملاحظة سببا وجيها للاستيقاظ من أسر النشوة، بعد أن تفطّن الطفل بفضوله الفطري لمميزات تضاريس الجسد الأنثوي الذي بدا جليا أنه يختلف عن تضاريس جسده، فأثار واقع الاختلاف على مستوى وعيه هاجس الحيرة والارتباك «وكان ذلك يربكني»[20] ولم يتوقف الأمر عند هذا الارتباك، بل تصاعدت مستويات الوعي بالطفولة إلى درجة يمكن فيها الجزم بأن الوعي بالطفولة قد تفطّن بشكل واضح للجسد عن طريق اكتشافه لفكرة الاختلاف، وعن طريق المقارنة بين جسدين، حيث كان في البداية منتشيا يعتقد أنهما واحد، لكنه اكتشف أنهما مختلفان جل الاختلاف، ومن هنا كانت الملاحظات، وكان الاختلاف والارتباك مؤشرات تيماتية تحيل إلى اكتشاف الجسد متميزا عن جسد الأم، وبذلك تفقد فكرة الامتداد جدواها ولعل الوعي بالجسد من حيث هو جسد متميز مختلف منفصل عن جسد الأم يترجمه سلوكيا توقف الطفل بعد ذلك عن رؤية جسد الأم، فمن الواضح أن فكرة التماهي مع الأم، والامتداد لها، والوعي بالطفولة متصلة بها كل الاتصال، رؤى فينومينولوجية بدأت تتصدع منذ تصدع فكرة الامتداد الجسدي، حيث بدا جليا أن مستويات الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة متصلة بالأم بدأت ترتاب وتنفصل شيئا فشيئا، ولعل الوعي بالجسد المختلف أولى بوادر الانفصال والوعي بضرورة الاستقلال والتميز.

«انشغلت بالمرآة أصبحت مدمنا عليها، إنها جعلتني أتعرف على نفسي بشكل مختلف أضنه أكثر موضوعية وحيادية وأكثر من ذلك دفعني للمقارنة بيني وبين باقي أقراني، حقيقة أحبطني ذلك»[21] لقد كان الوعي بالاختلاف الجسدي هاجسا مضنيا يلازم

[20] المصدر نفسه. ص ن.

[21] المصدر نفسه. ص 30.

مستويات الانفصال المؤلم، لذلك نلفي الوعي قلقا من فكرة الاختلاف، ويحاول جاهدا أن يتوخّى حقيقة الخيبة التي صرمت أوهام الامتداد عنده، حيث بدا الانفصال الجسدي عن الأم صدمة شعورية كبيرة، اضطرت الطفل للتفتيش عن بقايا الحقيقة الجديدة، فكان لا مناص من الاهتمام بالجسد عن طريق إدمان الرؤية في المرآة، بغية اكتشاف الهوية الجسدية اكتشافا معقولا، وحينذاك تغيّرت الرؤية للجسد أكثر من السابق، حيث لم يعد الجسد مختلفا عن جسد الأم فقط، بل هو يختلف أيضا عن بقية الأجساد، ونلاحظ هنا أن الرؤية للطفولة قد تغيّرت ويكمن تغيّرها في اعتمادها نوعا من الاستقلال والموضوعية والحياد، والمقصود هنا أنها تمكنت من إقصاء التأثير الأمومي، وتملّصت من عماء الانتشاء العاطفي، أما مستويات الإحباط التي طرأت على تحولات الوعي بالطفولة، فإنها تحيل إلى فكرة الخيبة التي جابهت الوعي، حيث بدأت معتقدات الجمال التي قدّسها زمنا طويلا واحتفى بها تغيض وتخبو، ذلك أن الرؤية الموضوعية للطفولة، وتوخي الحياد والمقارنة أقنعت الطفل بكون مستويات الجمال الجسدي التي يحظى بها ليست في مستوى ما كان يعتقده ويؤمن به، وليست في مستوى أحلامه وطموحاته الجارفة.

انطلاقا مما سبق يبدو واضحا أن مستويات تحولات الوعي بالطفولة تتجه نحو الانفصال جراء اكتشاف الاختلاف وانهيار فكرة الامتداد، وتفاقم الرؤية الموضوعية، وما نجم عنها من خيبة طالت مستويات الجمال، وجرّاء مشاعر الإحباط التي يعانيها الطفل، وتدفعه للتفكير في الاستقلال، وهو على يقين هذه المرة وأكثر وعيا موضوعيا بطفولته من حيث هي طفولة مختلفة جسديا، وليست امتدادا للأم، ولها مميزاتها الجسدية، وهي طفولة لا تتميز بمستويات باذخة من الجمال، وفي الآن نفسه هي طفولة محبطة.

من خلال التحليل الفينومينولوجي السابق يبدو أن فكرة الإحباط فكرة شعورية لم ترتبط بالاختلاف والخيبة الجمالية، بقدر ما ارتبطت بتلك التحولات العسيرة التي طرأت على مستوى العلاقة بالأم، حيث انهارت طقوس الامتداد والتماهي، وبدأت بوادر التشتت والانفصال تتفاقم، واتضح أن بدايات الاستقلال عسيرة لا يمكن أن تمر هكذا دون عواقب

وآثار وآلام، ومهما كان مستوى الألم خائرا أو عارما، فإنه سيكون مؤثرا ومحددا لكثير من مستويات تحولات الوعي بالطفولة.

أما على مستوى السلوك الذي يترجم بوضوح مستوى تحولات الوعي بالطفولة، فقد أدمن الطفل على رؤية المرآة، محاولا أن يظفر بالصورة الجميلة وبالجمال الفردوسي المفقود لكنه في كل مرة يعود خائبا محبطا حزينا، لأن المرآة لا تمنحه الصورة التي كان قد كوّنها عن نفسه، وبسبب الفشل مع المرآة، والخواء المدقع الذي سبّبه الإحباط، اتضح فشل آخر على مستوى العلاقة مع الأنثى بسبب الرؤية للطفولة من حيث هي طفولة ليست في مستوى الجمال المطلوب، وبالتالي فإن تغيّر الرؤية للطفولة قد غيّر الرؤية للأنثى، فأصبح الطفل عاجزا على إنتاج علاقات ناجحة مع الأنثى، واتسمت سلوكاته إزاءها بالخجل والإحجام وتفاقم التردد إلى مستوى اليأس، وتعطّلت كل إمكانيات المحاولة، وكلها سلوكات تومئ بوضوح إلى مستويات تحولات الوعي بالطفولة تحولا سلبيا من حيث هي طفولة محبطة في أسيقة بدايات الانفصال عن الأم، وفي أسيقة اكتشاف الأفكار المناقضة واكتشاف الاختلاف.

5 – تيمة الثقة: لقد تفطّنت الأم بحدسها العاطفي الذكي إلى المعضلة التي يتخبّط فيها الطفل، ولاحظت أكثر من مرة أن وحدته تزداد سوءا وإحباطا، فحرصت على التدخل مستهدفة انتشال طفلها من غياهب الفوضى النفسية المضنية، وذلك حين منحته كثيرا من الفرص للتواصل مع الأنثى، وأفلحت في استدراج أفضل الفتيات للمنزل، مغدقة عليهن نعيم العناية والألعاب والحرية، ولا أدل على ذلك من تلك الطفلة التي تزور بمعية أمها منزل الطفل، وكان الطفل يتوق لتلك الفتاة توقا شديدا، فتتدخل الأم وتطلب منه أن يخرج من المنزل مع الفتاة ليتجولا على الشاطيء، وهي فرصة ماكرة ليستعيد الطفل ثقته بنفسه ويتمكن من إنشاء علاقة ناجحة مع الأنثى، وقد كان له ذلك فعلا حين حرّضته الأم ووهبته خلوة ناجحة شعر فيها بالارتياح مع الطفلة، ومارس معها التجوال على الشاطيء، وتبادلا أطراف الكلام والعوم، وتطورت العلاقة إلى درجة أن الطفلة أصبحت تزور المنزل باستمرار وتتركها أمها هناك يمارس الطفل معها كثيرا من اللعب والأنس، لهذا غفل الطفل عن

مستويات الإحباط التي كان يعايشها، وتجددت ثقته بنفسه، في غمرة عواطف الارتياح التي تنتابه، لا لشيء إلا لأنه تجاوز عقد الخيبة والانتكاس والفشل، وتحقّقت أمنياته في التواصل مع الأنثى تواصلا ناجحا، فكان ذلك مناسبة مواتية للإفصاح عن الامتنان الذي يكنّه للأم: «أمي قادرة على كل شيء وبدونها لا أساوي أي شيء»[22] وهذا يحيلنا إلى أن الطفل أدرك أن الفضل في علاقاته الناجحة لا يعود لكفاءته الخاصة – إذ سبق وأن اكتشف الصورة الخاذلة عن طفولته بمستوياتها الجمالية الناضبة – بل يعود الفضل للأم، لأنها الوحيدة القادرة على إنقاذه من إحباطه وفشله وعجزه، لذلك كانت تيمة الأم على مستوى الوعي بالطفولة أوار كل تجربة ناجحة، فأيقن الطفل بوعيه أن وجوده مازال مرتبطا بوجودها وبكفاءتها، ومن دونها لا يساوي أي شيء، وهنا نلفي على مستوى تحولات الوعي بالطفولة قمة الرؤية العدمية للطفولة المستقلة، من حيث هي طفولة ليست موجودة إلا حين تكون الأم موجودة، لذلك فإن قدرة الذات منعدمة عاجزة ما لم تستمد قوتها من قدرة الأم ومن كفاءتها لكن رغم الرؤية السلبية للطفولة من حيث هي طفولة ليست مستقلة، إلا أن الطفل تغمره مشاعر الثقة والارتياح، وانتشاؤه العاطفي عوّضه عن كل الخيبات السابقة، فاكتفى بما تدرّه هذه المرحلة من عواطف ولذات باذخة فـ «هذه المرحلة من حياتي ألبستني هدنة مع نفسي ومع الحياة من حولي»[23] فكان بذلك تدخّل الأم ملهما لكيفيات الإشباع العاطفي والتملص من أصفاد الإحباط والخيبة، ونجم عن ذلك تصالح مع الطفولة ومع الغير، ومنح هذا التصالح للطفل فرصته لتضميد قروح الهوية واستعادة الرخاء العاطفي، فكانت الهدنة التي يتحدث عنها مرتبطة بالمشاعر وبالمكاسب السلوكية أكثر من ارتباطها بالوعي بالطفولة، إذ أن اكتشاف الطفولة غير المستقلة سيبقى يلح على الوعي بكثير من الأسئلة، لأن التعويل الكامل على وجود الأم سينتابه كثير من الارتياب والوجل حول جدوى استمراره الإيجابي.

6- تيمة الانفصال: لقد اكتشفنا سابقا من خلال التحليلات الفينومينولوجية أن تحولات الوعي بالطفولة في مستوياتها السلبية، واكتشاف تيمة الطفولة غير المستقلة بدأت

[22] المصدر نفسه. ص 34.
[23] المصدر نفسه. ص 38.

تثير كثيرا من الأسئلة، رغم مشاعر الهدنة ومكاسب الرخاء العاطفي، لاسيما حين تعقّدت الأسيقة تدريجيا، وأصبحت تدخلات الأم جدواها تنقص وتضعف، حيث يصرح الطفل قائلا: «أنا أكبر وتكبر معي أناي، تحول عميق يطالني داخليا وخارجيا»[24] وملاحظة تلك التحولات والانتباه لها ارتبط بالرؤية للأم، حيث لا يمكن أن ننسى أن الرؤية للطفولة تتأسس على اعتبار الطفولة ليست مستقلة، ووجود الطفولة مرتبط كل الارتباط بوجود الأم، ولما كانت الأم قادرة على تحقيق وجود الطفولة وتلبية طموحاتها، كانت فكرة الكبر والتغير متوارية لا وجود لها، لكن لما بدأت تدخلات الأم تقل وتضعف، بدأت الطفولة أيضا تضعف وتكل فمفهوم الكبر في هذه الحالة مفهوم رمزي لا يحيل إلى النمو الإيجابي بقدر ما يحيل إلى مستويات العدمية التي تنحدر إليها الطفولة بنمط يثير كثيرا من القلق والاستفسار حول مدى جدوى الارتباط الدائم بالأم، ذلك أن فجوات غياب الأم تسبّب للطفولة نوعا من الاحتضار فكان التحول العميق في حد ذاته إعلانا عن حالة من الاحتضار الذي تعانيه الطفولة جرّاء عدميتها المدقعة في أسيقة تتسم بخذلان وجود الأم، حيث إن وجودها الذي راهن عليه الطفل كثيرا واعتمد كل الاعتماد عليه خذله، وبدأت خدماته تتراجع بشكل لافت للانتباه، فكان بذلك الوعي بالطفولة – من حيث هي طفولة تنمو وتكبر – يتعارض مع وجود الأم، مادام وجود الأم عائقا لهذا النمو والكبر، ومادامت الطفولة مقيّدة في حال وجود الأم، فإنها لن تتملّص من قيدها إلا إذا تخلّصت من وجود الأم، وتخلّصت من معادلة: "وجود الطفولة مرتبط كل الارتباط بوجود الأم"، لذلك «كان علي أن أكف عن الاستعانة بأمي»[25] وذلك يتضمّن اعترافا صريحا بالوعي بالطفولة من حيث هي طفولة يجب أن تحظى ببعض الاستقلالية حتى يتسنى لها الخروج من أزمة التبعية، فبدت جلية رغبة الطفل في الانفصال عن أمه من حيث الاستغناء عن بعض تدخلاتها، ذلك أن الطفل اكتشف أن تدخلاتها باتت غير مجدية وأن فكرة التعويل الكامل عليها مخيّبة تكرّس تبعية الذات وضعفها، ولا تلبي حاجات التحول العميق الذي طال الأنا من حيث احتياجاته المتنامية، لهذا بدا جليا أن تحولات الوعي بالطفولة تتوخى التحرر من فكرة التبعية والتواكل، فكان أن تحول الوعي بالطفولة من الوعي

[24] المصدر نفسه. ص ن.

[25] المصدر نفسه. ص ن.

بالطفولة التابعة المتواكلة إلى الوعي بالطفولة من حيث يجب أن تكون طفولة منفصلة تتبنى فكرة الاستقلال والاستغناء عن الاستعانة بالأم، لذلك تضخّم اعتقاد الاستقلال، وتصاعدت مستوياته أكثر من ذي قبل، وتوصل الطفل من خلال هذا الاعتقاد إلى قرار حاسم يؤرخ لتحول الوعي بالطفولة باعتباره وعيا انفصاليا صريحا.

سيعيش الطفل عسر مخاض محاولات الاستقلال من جديد، ذلك أن سطوة حضور الأم على مستوى الوعي تجعل من تحقيق الاستقلال والاستغناء عن الأم أمرا صعب المنال والتحقق، مما اضطر الطفل لتبنّي إستراتيجية تعويضية تمثلت في الانغماس في الخيال فعكف على قراءة الروايات الرومانسية، وعايش الإبداع، ومارس تقمّص شخصيات الفن، كما أنه أدمن على أحلام اليقظة التي منحته فرصة لإعادة إنتاج العالم، بنمط فني يتيح تحقيق كل الإمكانيات المقموعة على مستوى الواقع، فكان الطفل يحظى برحلات خيالية مثقفة للصين واليابان ومصر والبرازيل، وحتى عندما فشل فشلا ذريعا في التواصل مع فتاة أحلامه في المدرسة، عوّض ذلك بالعيش معها في الأحلام، حتى إن ذلك منحه نشوة عاطفية لا تضاهى، وإرضاء مريحا، وبذلك راح ينغمس في الخيال، ويحتفي باستقلاليته وبعده عن كل أشكال التواكل والاستعانة، ذلك أن حريته المطلقة تجسدت على مستوى الخيال، فاستعاد بذلك عافيته الشعورية، وتجدّدت مستويات الثقة بالذات، إلى درجة أن مستويات الاعتقاد الجمالي المطلق عادت جذعة تستمد مشروعيتها وقوتها من طاقات الخيال الخلاق، ولعل عالم الخيال الذي انغمس فيه الطفل أهّل مستويات تحولات الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة يجب أن تحظى بالاستقلال والانفصال، ولم يكن بد من ترجمة هذا الوعي على مستوى الخيال الذي وجد فيه الطفل ضالته، وإمكانيات لا حصر لها من الإشباع، وسيكون هذا الخيال فيما بعد سببا وجيها للمصالحة مع الواقع والعودة للاحتفاء بالطفولة، والشعور بالثقة والاطمئنان والسعادة، لأنه كان خيالا إيجابيا أعاد للطفولة توازنها وقوتها المطلوبة.

أما الرؤية للأم فقد حافظت على توهّجها، ومازالت مفعمة بمشاعر الجمال والحب والتقديس، لأن الخيال هو إرضاء لتحولات الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة يجب أن تتملّص من تبعيتها، عن طريق تحقيق نوع من الاستقلال، فالدافع لذلك هو الرؤية السلبية

للطفولة، وليست الرؤية للأم التي كانت ومازالت إيجابية، لذلك انفصل الطفل في الخيال عن أمه (يعني الانفصال هنا الاستغناء عن مساندتها) ليحرر طفولته من التبعية المطلقة لكنه أبدا لم يتنازل عن رؤيته الإيجابية إزاء الأم وتقديسها، فحقّق عن طريق هذه المعادلة نوعا من اليقين والاطمئنان والثقة، حيث أرضى وعيه بالطفولة من حيث هي طفولة مستقلة منفصلة متميزة، وأرضى مشاعره، حيث احتفظ بالرؤية الإيجابية إزاء الأم، لهذا لم يكن الهدف من الخيال هو إقصاء الرؤية الإيجابية للأم، وإنما هو منح الطفولة فرصة لتحقيق استقلالها وانفصالها، وتجاوز مراحل التبعية المطلقة، فتحوّلت المعادلة من: "وجود الطفولة مربوط بوجود الأم" إلى: "وجود الطفولة متحقق إلى جنب وجود الأم" وهما وجودان ضروريان يحيلان إلى تحولات الوعي بالطفولة، باعتبارها طفولة مستقلة، يتخمها الرخاء العاطفي وتتميز بالاطمئنان والثقة، ولعلها التحولات الأخيرة التي تبدو أكثر وضوحا في الرواية.

لقد بدا جليا أن تحولات الوعي بالطفولة التي شهدها طفل الرواية كانت في مجملها مترفة ومثيرة للكثير من الانتشاء العاطفي، وكانت الأم محور تحولات الوعي بالطفولة، تلك التحولات التي كانت في عمومها تتجه من مستويات الاتصال والتماهي والامتداد إلى مستويات التحرر والانفصال والاستقلال، وكلها مستويات – رغم بعض الكبوات والخيبات – حققت في النهاية الاطمئنان والثقة، والرؤية للطفولة من حيث هي طفولة تحتفي باستقلالها وخيالها ونشوتها العاطفية من جهة، وتحتفي برؤيتها الإيجابية للأم بحضورها العاطفي الباذخ من جهة ثانية، فكانت بذلك تحولات الوعي بالطفولة إيجابية، حافظ الطفل خلالها على طفولته الجميلة جنبا إلى جنب مع أمه الجميلة، فترسّخ بذلك المعتقد الجمالي في معادلة واعية أكثر تطورا من ذي قبل، حيث أصبح الجمال والشعور بالجمال يرادف وجود الطفولة وهي تنعم ببعض الاستقلال بجنب وجود الأم المحفّز لمشاعر الجذل والاحتفاء، وبدا الوضع الانفصالي في حد ذاته قيمة إيجابية جمالية، حافظ فيها الطفل على طفولته، وحرّرها من تبعيتها المطلقة، وحافظ في الوقت ذاته على أمه وعلى رؤيته الإيجابية لها، فانطبع سلوكه بالإبداع والاطمئنان والثقة والسعادة، وذلك يجعل من الخيال الذي لجأ إليه الطفل في النهاية

خيالا إيجابيا، أتاح له مع مرور الوقت فرصة للمصالحة مع الواقع، وفرصة للتملص من رباق إمكانيات الانفصام والانهيار.

ب – تيمة الطفل المسؤول:

يقتضي التنقيب التيماتي عن خبايا وخفايا الوعي وتحولاته الأساسية مراعاة خصوصية الإبداع، حيث لا يمكن بأي حال من الأحوال تخضيع كل الروايات لمعطيات منهجية واحدة، قد تتواءم مع رواية وتخفق مع رواية أخرى، لذلك كان من الضروري التنقيب عن تحولات الوعي بالطفولة عند الطفل في رواية "البزاة" انطلاقا من معطيات تؤهل لصياغة مقاربة منهجية تتماشى مع دلالات الرواية من جهة، وتحاول أن تبقى وفية للفلسفة التيماتية وأبجديات النقد التيماتي من جهة أخرى، وبعد قراءة حدسية فاحصة لرواية "البزاة" والتولّج في عمق ما تزخر به من تيمات متشعبة ورؤى متواشجة في عالم مفعم بالطفولة وأفكار الطفولة وحيواتها وأحلامها، أمكننا أن نؤسّس لأهم الأفكار الملحة التي يمكن رصدها من خلال مستوياتها الإحالية التي تحيل إلى أهم محتويات وعي الطفل بالطفولة، وإلى أهم محطات تحول الوعي بالطفولة، والتيمة هي نظام إنتاج تلك الفكرة الملحة التي تحظى بالقسط الأوفر من اهتمامات الوعي، وتكون محورية، عنها تتفرع بعض الأفكار الملحة الأخرى الفرعية التي ترتبط كلها بالتيمة الكبرى وفق علاقات فينومينولوجية تتأسس على مفاهيم الإحالة المتبادلة والقصديات والتوالد القصدي والاستبطان الظاهراتي، وغير ذلك من المفاهيم الفينومينولوجية التي تحاول أن تستوعب أهم القوانين التي تفسر العلاقة بين الذات (الوعي) والموضوع وفق علاقات هوسرلية تعتقد بأنه «ليس هناك موضوع بدون ذات، ولا ذات بدون موضوع»[26].

إن الفكرة الملحة تومئ إلى الوعي والموضوع في تلازمهما المطلق، وتومئ إلى أعلى مستويات اهتمام الوعي، والتلازم المطلق يعني أن كلا من الوعي والموضوع شرط ضروري لوجود الآخر، فلا وعي دون موضوع ولا موضوع دون وعي، أما أعلى مستويات الاهتمام فتعني أعلى مستويات التوالد القصدي، ذلك أن فكرة القصدية التي تربط بين الذات (الوعي)

---

[26] إيجلتون، تيري. المرجع السابق. ص 77.

والموضوع تتحول بدورها إلى موضوع لن يحقق وجوده إلا في سياق تجليه على مستويات الوعي، الذي لا يحقق وجوده – أيضا – إلا باتجاهه إلى الموضوع، فينتج بذلك نموذج قصدي جديد، وسيتحول بدوره إلى موضوع يحتاج إلى وعي، وبالتالي ينتج نموذج قصدي آخر، وهكذا دواليك، وسيستمر التوالد القصدي في محاولات للوصول إلى النموذج القصدي الأهم، والتوالد القصدي في تلك الصيرورة يرتّب أولوياته، لتكون الفكرة الملحة هي تلك الفكرة التي تحظى بالأولوية الأولى على مستوى الوعي، فهذه الفكرة الأولوية الأولى لم تأت من الخواء، بل هي نتاج توالد وانتقاء من جهة، ومن جهة أخرى هي نتاج أفكار ملحة فرعية أخرى متوالدة، قد تكون هامشية أو قد تكون ذات أولويات ثانية وثالثة وهكذا.

إن الفكرة الملحة الأولوية الأولى في النهاية نتاج علاقات قصدية بين مجموعة من الأفكار الملحة الأخرى، وهي في النهاية ما يجب أن نركز عليه ونرصد تجلياته وتحولاته بصفتها الفكرة الملحة الأكثر إلحاحا وحضورا وإحالة إلى الوعي وتحولاته، لاسيما أن تحولات الوعي عند طفل "البزاة" ليست معطى مباشرا جاهزا، ولا يمكن رصدها إلا من خلال رصد جملة الأفكار الملحة التي تحيل إلى الوعي وترتبط معه كل الارتباط، حيث لا يمكن أن يوجد وعي دون فكرة ملحة، ولا وجود لفكرة ملحة دون وعي، وهي نفسها العلاقة القصدية والإحالية بين الذات والموضوع، إلا أنها تختلف عنها في كونها أكثر تطورا، وفي كونها تترجم أعلى مستويات التوالد والاهتمام، والفكرة الملحة تحتمل الخطأ والصواب، فهي فكرة احتمالية في النهاية، لذلك تظهر فكرة الاحتمالات بشكل وجيه، لكن حضور الاحتمال الفينومينولوجي دائما يتوخى نوعا من التأويل المنطقي «عن طريق تفسير بعض الشفرات الموجودة على المستوى الظاهري للنص»[27] واكتناه الدلالات الباطنية وفق ما قد يبررها ويمكّن من إثبات مشروعيتها، حتى لا تكون الدراسة التيماتية مجرد تخمين واه وتأويل بائر.

بعد التنقيب عن أفكار الوعي الملحة في رواية "البزاة" وبعد محاولات التبرير المنهجي يبدو أن الاحتمال الأرجح للخوض في رصد تحولات الوعي بالطفولة عند الطفل "مراد" هو

[27] محمد سالم، سعد الله. ما وراء النص. دراسات في النقد المعرفي المعاصر. الطبعة الأولى. عمان، الأردن: عالم الكتب الحديث، 2008 (م). ص 184.

رصد نظام إنتاج أهم أفكار الوعي الملحة في مرحلة ما قبل التحول، ثم رصد نظام إنتاج أهم أفكار الوعي الملحة في مرحلة التحول، وحتى تكون الدراسة أكثر منهجية ويسرا ووضوحا ستكون مشفوعة بمجموعة من البيانات التيماتية التي تقنّن لعلاقات التيمات وتفرعاتها، وتبيّن وضعيات ما قبل التحول، ومسارات التحول على مستوى الوعي.

1 – أهم التيمات في مرحلة ما قبل التحول:

سنحاول في هذا السياق رصد تيمة اللعب، وما يتفرع عنها من تيمات تحيل إلى أهم أفكار الوعي الملحة في مستوى ما قبل التحول، وفي مستويات وعي الطفولة البدئي الذي يحيل إلى ممارسة الطفولة في مرحلة الوعي الخام؛ تلك المرحلة التي تتسم – عادة – بالتماهي والتلقائية، ويكون فيها الوعي – عادة – فطريا تغيب فيه الأحكام المعيارية، وتغيب فيه تحولات الوعي بالطفولة، على اعتبار أن الوعي في هذه المرحلة مازال يتسم بالبساطة ولم يرق إلى مستويات التعقيد.

1-1- تيمة اللعب: واللعب هو الفكرة المحورية لكل طفل فـ «كل طفل بحاجة إلى وقت للعب وإفساح المكان لذلك واختيار اللعبة المشوقة»[28]، ورغم أن اللعب سلوك فطري إلا أنه في الآن نفسه سلوك جدير بالاهتمام، يمنح الدارس فرصة لاستيعاب كثير من محتويات وعي الطفولة، على اعتبار أن اللعب ترجمة للوعي، ونشاط قد يمنحنا التمييز بين طفل سوي وآخر غير سوي، كما أنه يبيّن لنا كيفيات استيعاب الطفل لطفولته، ومدى إدراكه للعالم الذي يحيط به، ولتلك العلاقات التي يؤسسها مع الغير.

لعل الطفل "مراد" في رواية "البزاة" تغريه فكرة اللعب كثيرا، وتفتنه العلاقات والأماكن والأصدقاء، لكن ما نلاحظه هو أن الوعي المبدع قد أقصى الخوض في تفاصيل اللعب لاسيما في بداية الرواية، فرغم حضور كثير من المؤشرات الدلالية التي تحيلنا – ضمنيا – إلى اللعب كفكرة محورية من أفكار الطفولة إلا أن تفاصيل اللعبة تبقى غائبة، وكأن الوعي المبدع يبرّر منذ البداية لفكرة تغييب اللعب على مستوى وعي الطفل، ويبين لنا أن فكرة

[28] زهران، حامد عبد السلام. علم النفس الطفولة والمراهقة. الطبعة الخامسة. القاهرة، مصر: عالم الكتب، 1995 (م). ص 298.

اللعب في حد ذاتها بدأت منذ البداية تفقد سلطة حضورها، ولعل ذلك يعني بداية تحول الوعي بالطفولة، لأنه لا يمكن أن يتجاوز الطفل فكرة اللعب دون أن يتكوّن له وعي يتجاوز فكرة اللعب في حد ذاتها، ومادمنا بصدد رصد أهم أفكار الوعي الملحة في مرحلة ما قبل التحول، فإننا سنجتهد لاستنتاج أفكار الوعي بالطفولة في بداياتها، قبل التحول والتطور والوصول إلى مراحل التعقيد.

«وضعية الأطفال أنفسهم تغيرت هي الأخرى فلم يعد يجمعهم شمل كما مضى، ولم تعد حناجرهم تنطق بالنشيد»[29] رغم أن المؤشر السردي السابق يبين بعض التحولات التي طرأت على فكرة اللعب، إلا أنه في الآن نفسه تأكيد على وجود اللعب في مرحلة أولى كان فيها الطفل "مراد" يجتمع برفاقه، ويمارسون طقوس اللهو والنشيد، والاحتمال الفينومينولوجي يتيح لنا فرصة تخيّل كثير من طقوس اللعب الأخرى التي غيّبها الوعي المبدع، لأن فكرة اجتماع الأطفال في حد ذاتها نوع من اللهو الطفولي، الذي لا يمكن إلا أن يكون مفعما بكثير من طقوس اللعب المختلفة، فلا يمكن أن يجتمع الأطفال لمناقشة قضية اجتماعية أو فلسفية، وحتى إن كانت هناك مناقشات، فلا يمكن إلا أن تكون نوعا من اللعب أو على الأقل يتخللها كثير من اللعب، على أن اللعب في حد ذاته مستويات، فقد يكون ساذجا بسيطا أو يكون ذكيا معقدا، تساهم في إنتاجه أسيقة ومستويات مختلفة، ولعل الطفل "مراد" كان يمارس اللعب ويحتفي به، ويصنّفه ضمن أولوياته الأولى، ولكي ندرك أهم أنظمة إنتاج هذه الفكرة الملحة الأولوية الأولى وجب أن نتطرق لأهم ما تتكون منه تيمة اللعب من تيمات فرعية مهمة لعل أقمنها بالذكر تيمات: (العلاقات والمكان والفضول والدراسة).

1-1-1- تيمة العلاقات: إن طقوس اللعب تتطلب مجموعة من العلاقات، وكلما زادت العلاقات زادت مستويات اللهو وتكثّفت، وفي الرواية يبدو أن للطفل "مراد" علاقات متعددة، كما أن الحي الذي يقطن فيه يبدو متخما بالأطفال، وبما أن العلاقات بين الأطفال مستويات، سنحاول أن نرصد العلاقات التي خلّفت بصمة على مستوى وعي الطفل "مراد" وهم بالتالي أولئك الأطفال الذين كوّن معهم "مراد" علاقات خاصة أكثر إيغالا وعمقا وتأثرا

[29] بقطاش، مرزاق. البزاة. الطبعة الأولى. رغاية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983 (م). ص 14.

وهم: "فتيحة" التي حزن "مراد" كثيرا لفراقها وتأسف، لأنها رحلت وسكنت أعلى المدينة وصديقه "أحمد" الذي وجد عملا في مصنع الجلود، و"جوزي" الذي انخرط في ثانوية داخلية هذان الأخيران هما الصديقان اللذان «يشهد لهما أطفال الحي بالريادة في مختلف الألعاب»[30] إلا أن أبرز صديق رافق "مراد" وحضر معه في الرواية حضورا مكثفا هو الطفل "محمد الصغير"، وهكذا يبدو جليا أن الطفل "مراد" حظي بكثير من العلاقات والأصدقاء مما يجعلنا نعتقد أنه يحظى أيضا بكثير من ممارسات اللعب واللهو، على اعتبار أن أهم محور من محاور اللعب هو حضور الأطفال الأصدقاء، حيث تشيع الألعاب وكثير من أفكار اللهو والعبث.

1-1-2- تيمة المكان: لا يمكن إلا أن يرتبط اللعب كل الارتباط بالمكان، ولا يمكن أن يكون هناك لعب دون مكان، ولطالما احتفى الطفل "مراد" بالمكان احتفاء نلفيه واضحا على طول المسافات السردية، حيث كان حضور المكان كثيفا على مستوى وعي الطفل، وبالتالي تحوّل المكان إلى موضوع، والموضوع بدوره تحول إلى ظاهرة، على اعتبار أنه لم يبق مجرد مكان هندسي محايث، بل استبطنه الوعي وحوّله إلى ظاهرة تميّزها كثير من الدلالات والنعوت التي أضفاها عليها الوعي، وتعامل معها تعاملا خاصا يحيل إلى بعض تفاصيل الوعي بالطفولة، حيث إن المكان في مرحلة ما قبل التحول يرتبط ارتباطا وثيقا باللعب، لاسيما مكان الربوة الذي شغل حيزا كبيرا في الذاكرة الروائية، وكان هذا المكان ملاذا هاما يتنفّس فيه الطفل، ويمارس فيه بعض طقوس اللعب، لاسيما إذا أدركنا أن الاستعمار شوّه المكان، وسيّج الحدود، وقلّص المساحات، محرّما كثيرا من الأماكن: «فميدان اللعب صار مقتصرا على هذا المكان الصغير من الحي»[31] ورغم ما تعرّض له المكان من انتهاك ومصادرة إلا أن الطفل "مراد" لم يذعن للانزواء والتواري، وراح يجتهد لاكتشاف أماكن من شأنها أن تكون أكثر أمانا وتواريا وعذرية، لتتاح له فرصة ممارسة اللعب بنوع من الحرية والانعتاق، لذلك كانت الربوة بحكم موقعها المتواري والإستراتيجي مكانا مثاليا تعشّقه

[30] المصدر نفسه. ص 17.

[31] المصدر نفسه. ص 18.

الطفل وأدمن التردد إليه، وسعى جادا لاستضافة رفاقه للعب والاختباء من العساكر، كما كان يتلذذ برؤية كثير من المناظر، لعل أهمها الغابة والبحر والجبل المقابل، وجانب من المدينة العلوي، ولذلك «عقد العزم على أن يحول هذا المكان إلى ساحة حقيقية»[32].

1-1-3- تيمة الفضول: لقد تميّز الطفل "مراد" بفضوله الشره، وكان لا يتوانى في المجازفة بغية اكتشاف ما يعتقده ضروريا، وهو بذلك يمارس طفولته، وفي الآن نفسه يمارس نمطا معينا من اللعب، على اعتبار أن الفضول عند الطفل يرادف في كثير من دلالاته اللعب، لأنه يمنح الطفل فرصة للهو والتنفيس والمغامرة والتلذذ، لاسيما أن طفلا مثل "مراد" قد خسر كثيرا من الأصدقاء، وضيّق عليه الخناق، وسلبت منه كثير من الأماكن، وأصبح محيطه ضحلا، وإمكانيات اللعب فيه والانعتاق تتقزّم شيئا فشيئا، وفي ظل هذه الأسيقة أمسى الفضول ورغبات مغامرات الاكتشاف تعويضا وجيها، وأسلوبا فعّالا لتدارك فرص اللهو الضائعة: «إن في نفسه ميلا شديدا إلى استقصاء خفايا هذه الأمور كلها»[33] ولعل أهم قضية ألهمت فضول الطفل، وألهبت حماسه هي قضية جارهم "حند" الذي أصيب بالجنون وراجت حول ذلك كثير من الأقاويل «ومن ثم فإن المجال لا يزال مفتوحا أمامه وأمام غيره من الأطفال لمحاولة التعرف على أسباب ذلك الجنون»[34] ثم إنه « تمنى أن يصعد إلى الحي ويتسقط الأخبار»[35].

1-1-4- تيمة الدراسة: ما يهمنا من أمر الدراسة في هذه المرحلة هو أن الطفل "مراد" رغم أنه امتعض في بداية انتقاله من مدرسة فرنسية إلى مدرسة جزائرية ترعاها جمعية العلماء المسلمين، وتحسّر لهجر تعلم اللغة الفرنسية التي كان يعتقد بضرورة التمكّن منها وامتلاك ناصيتها، إلا أنه سرعان ما تجاوب مع المدرسة التي نقله إليها والده وتفاعل معها وكم كانت تجذله أفكارها وتوجهاتها الوطنية، وتلك الدروس التي تقدمها: «إنه على أية حال

---

[32] المصدر نفسه. ص 19.

[33] المصدر نفسه. ص 23.

[34] المصدر نفسه. ص 17.

[35] المصدر نفسه. ص 24.

في شوق بالغ إلى نهار الغد، فقد وعدهم المعلم بتناول موضوع إنشائي حول الطبيعة»[36] ولا يمكننا أن نسهب في الحديث عن الدراسة كثيرا، لأننا سنسهب في الحديث عنها في مرحلة التحول، فقط ما يثير اهتمامنا في هذه المرحلة – مرحلة ما قبل تحول الوعي – هو كيفيات تجاوب الطفل مع الدراسة كفكرة من أهم أفكار الوعي في مرحلة ما قبل تحول الوعي، وهذا يعني أن فكرة الدراسة قد حظيت باهتمام كبير، لكن الاهتمام بها لم يتعد الوعي التلقائي البسيط، حيث هي أقرب للعب بمعطياته العلائقية والمكانية والفضولية، ولذلك كانت اهتمامات الدراسة ترجمة لتجاوب الطفل، وكأنه يبدي نوعا من الرضا إزاءها، ومازال وعيه متماهيا يتقبّل طفولته كما هي تمارس نشاطاتها بنوع من التلقائية والبساطة.

مما سبق يتجلى أن الطفل يمارس سلوكات تعكس مستوايات معينة من الوعي بالطفولة، من حيث هي طفولة تحتفي بطفولتها، وبشرعية قضايا الطفولة، في مستويات تواصلها البدئي مع العالم، وفي تواصلها مع الطفولة تواصلا تلقائيا فطريا، يحيلنا إلى وعي البداية الذي يتميز بالبساطة والغفلة والتماهي، وغياب الأحكام المعيارية، وعدم وجود رؤية جادة إزاء الطفولة، ولذلك نطلق على هذا الوعي وعي البداية، باعتباره وعيا يخلو من مستويات تحولية واضحة، وباعتبار قضايا الوعي في هذه المرحلة هي القضايا الأولى التي تؤرخ لمرحلة ما قبل تحولات الوعي.

2 – أهم التيمات في مرحلة التحول:

في سياق هذه المرحلة نرصد أهم التيمات التي يمكن أن تحيل إلى تحولات الوعي بالطفولة، وهي التيمات الجديدة التي طرأت على مستوى الوعي، وجعلته يحاول أن يتجاوز مرحلة الغفلة والتماهي المطلق مع الطفولة، إلى مرحلة الاهتمام الواعي والجاد بالطفولة، من خلال الأفكار الملحة الجديدة التي ألحّت بحضورها على الوعي، ولعل أهم تلك التيمات التي يمكن أن تحيل إلى تحولات الوعي بالطفولة هي التيمات التالية: "تيمة مسؤولية الأسرة" –

[36] المصدر نفسه. ص 25.

"تيمة مسؤولية المجاهدين" – "تيمة مسؤولية الدراسة" التي تتفرع عن التيمة العامة تيمة المسؤولية.

سنحاول أن نرصد مجموعة التيمات التي أنتجت كل تيمة من التيمات السابقة التي أنتجت بدورها التيمة العامة، وهي أهم التيمات الكبرى التي يمكن أن تحيلنا إلى أهم اهتمامات الوعي، وبالتالي تحيلنا إلى كيفيات تحولات الوعي بالطفولة، حيث إن كل تيمة تعكس رؤية معينة للطفولة، كما أن كل تيمة هي نوع من تحول الوعي، والعلاقة بين كل تيمة كبرى وأخرى هي أيضا علاقة تحول، ولذلك سيكون التحول على مستوى الوعي بالطفولة هو السمة البارزة والأكثر حضورا في هذه المرحلة، عكس مرحلة ما قبل التحول التي كانت فيها التحولات على مستوى الوعي غائبة، والبيان التيماتي التالي يبين أهم التيمات الكبرى، وأهم العلاقات التحولية الكبرى التي تضبطها:

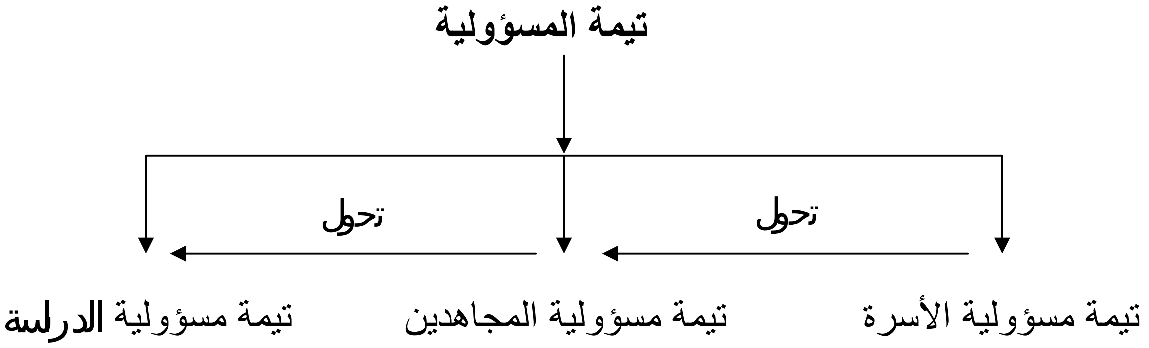

كل التيمات الكبرى السابقة ترتبط فيما بينها عن طريق علاقات تحولية، وكلها تيمات تحيل إلى دلالات وتجليات تيمة المسؤولية، باعتبارها التيمة العامة التي ألحت على الوعي كما أن كل تيمة كبرى تتكون من مجموعة من التيمات الفرعية المتوالدة والمتحولة، لذلك سنفصّل الدراسة في شبكة التيمات المختلفة، وفي نهاية دراسة كل تيمة كبرى نحدّد البيان التيماتي، ثم نشفعه بتفسيرات ختامية، وهكذا إلى أن نصل في النهاية إلى التفسيرات النهائية.

2-1- تيمة مسؤولية الأسرة: تتكون من التيمات التالية: "تيمة العمل" – "تيمة التنازل" – "تيمة الحماية".

2-1-1- تيمة العمل: تتكون هذه التيمة من التيمات الفرعية التالية: "تيمة الوضعيات السلبية" – "تيمة المقارنة والتقليد" – "تيمة العمل" – "تيمة العوائق" – "تيمة الإثبات".

– **تيمة الوضعيات السلبية:** تتكون مما يلي: "تيمة وضعية الأب" – "تيمة وضعية الأسرة" – "تيمة الوضعية الذاتية".

– **تيمة وضعية الأب:** لقد كان الطفل "مراد" يعيش في رخاء أبوي، حيث إن الأب يضطلع بمير الأسرة ويمارس عمله كبحار على متن إحدى البواخر، لكن فجأة «تشاجر مع بحار إيطالي فطرد من عمله»[37] إلى غاية التحقيق في قضيته، وفي غضون هذه الوضعية السلبية الجديدة هجست في خلد "مراد" كثير من المخاوف و«تساءل إذا ما كان والده سيقوى إزاء هذه الوضعية الجديدة على دفع حقوق الدراسة»[38]ومير العائلة والتكفل بها.

– **تيمة وضعية الأسرة:** إن وضعية الأب السلبية انعكست على الأسرة، حيث باتت هذه الأسرة مهدّدة بالضياع وبالفاقة، وقد استوعب "مراد" الخطر الذي يتربص بأسرته و«وقع في روعه بأن مستقبل الأسرة كلها في خطر»[39] مادام الأب هو المعيل الوحيد وغياب عمله يعني غياب إمكانيات إعالة الأسرة والاضطلاع بتكاليفها المتعددة «فكيف لها أن تواجه أعباء الحياة دون مصاريف؟»[40].

– **تيمة الوضعية الذاتية:** الوضعيتان السابقتان مرتبطتان كل الارتباط بوضعية الطفل "مراد"، لاسيما أنه توقّع العواقب الوخيمة التي قد تفترسه و«تخيل نفسه متسولا يعبر

[37] المصدر نفسه. ص 31.

[38] المصدر نفسه. ص 38.

[39] المصدر نفسه. ص 37.

[40] المصدر نفسه. ص 36.

الطرقات ويطرق الأبواب»[41] واستذأبت كثير من الأسئلة في مخيلته، وراح يستفسر عن كيفيات توفير حقوق الدراسة والكراريس والكتب المدرسية، وغيرها من اللوازم التي يحتاج إليها، فإن عجز والده عن ذلك «سوف يجد نفسه في الشارع حتما»[42].

إن الوضعيات السابقة بسلبياتها تتواطأ على الفتك بمستويات الأمان التي كان يحظى بها الطفل، وتضطر وعيه للتفطن إلى ما قد يعتريه من ضياع وفاقة وعوز، وهي من جهة أخرى تملصه من غفلته، وتنمّي وعيه بضرورة بحث وضعيته السلبية وضرورة التفكير في حلول ناجعة تنتشله من غيابات الأسى والشجن، وتنقذه من أضباث التوقعات السحماء.

– **تيمة المقارنة والتقليد:** أبرز ردة فعل إزاء الوضعيات السلبية هي الوعي بضرورة التفتيش عن حلول تتيح فرصة تجنب المآزق المحتملة، عن طريق المقارنة ورغبات التقليد لذلك انبرى الطفل "مراد" يقارن وضعيته بوضعيات غيره من الأطفال الذين يعرفهم، عسى ولعل أن تتاح له الفرصة للظفر بحل من الحلول لمواجهة الوضعيات التي يتخبط فيها ويمكننا أن نحدد كيفيات المقارنة انطلاقا من رصد أهم الأطفال الذين توجّه إليهم وعي الطفل، وراح يقارن وضعيته بوضعياتهم، وهو يتبيّن الدروب التي سلكوها، والحلول التي انتهجوها، حيث نلفي ثلاثة أطفال هم "أحمد" و"علي" و"محمد الصغير" وكلهم أطفال يعملون ويكدحون في سبيل إعالة أنفسهم ومساعدة أسرهم، فأحمد يعمل في مصنع للجلود، و«علي هو الآخر هجر حانوت العم عبد الله وانخرط في معمل النجارة»[43] أما صديقه "محمد الصغير" فقد باع الخضر لمدة طويلة «واستطاع أن يكسب بهذا العمل قوته اليومي وقوت والدته»[44]والطفل "مراد" من خلال استيعابه لوضعيات هؤلاء الأطفال يحاول أن يستوعب وضعيته، لذلك راح يعقد مقارنة بين ما تمكّن هؤلاء الأطفال من تحقيقه، وبين ما لم يتمكن هو من تحقيقه، وكانت النتيجة أن أغمط ضعفه، وامتعض من تقاعسه وفشله، فهؤلاء الأطفال يعتمدون على أنفسهم «أما هو فإنه لم يربح إلى حد اليوم درهما واحدا يمكن له أن

[41] المصدر نفسه. ص 31.
[42] المصدر نفسه. ص 38.
[43] المصدر نفسه. ص 15.
[44] المصدر نفسه. ص 73.

يفتخر به، حتى النقود التي تتوفر في جيبه من حين لآخر إنما ينالها من والده أو من جدته»[45] لذلك أدرك ضرورة أن يقلّد هؤلاء الأطفال، ويسعى للحصول على المال دون مساعدة أحد ما، وكان هذا الأمر بالنسبة له أمنية يسعى حثيثا لتحقيقها، لاسيما أن الوضعيات السلبية تهدّده وتستفزّه في الآن نفسه.

– **تيمة العمل:** بعد التيمات السابقة استوعب الطفل "مراد" ضرورة الحصول على المال دون مساعدة أسرته، واستوعب ضرورة تحقيق هذه الأمنية، ولا يمكن أن تتحقق هذه الأمنية إلا عن طريق العمل، فهو السبيل الوحيد والأنجع للخلاص، وتحقيق الأمان، ودرء التوقعات الموجعة وجل احتمالات المسغبة والضياع، وهو السبيل الوحيد لمساعدة الأسرة ورد الجميل، لذلك «أليس يجدر به أن يسر إلى والده عن رغبته في مباشرة عمل ما حتى يساعده؟»[46].

مما سبق يكون وعي الطفل قد بدأ يتحول ويتطور بسبب الأسيقة والوضعيات الجديدة من حيث الوعي بضرورة العمل، ومن حيث الوعي بالطفولة يتمحور حول فكرة المسؤولية ذاك أن الطفل بات يعتقد أنه مسؤول، ويعتقد بضرورة تحمّل هذه المسؤولية، وفكرة العمل هي ترجمة لهذا الاعتقاد، حيث لا يمكن تحمّل المسؤولية إلا عن طريق العمل، وهذا يعني أن الوعي بالطفولة باعتبارها طفولة مسؤولة تجاوز الفكرة كرغبة إلى ضرورة تجسيد هذه الفكرة (فكرة المسؤولية) على مستوى الواقع، وذلك عن طريق العمل، فالرغبة في العمل تحيلنا إلى الوعي بالطفولة باعتبارها طفولة مسؤولة، وهذا في الوقت نفسه يفسّر اقتناع الطفل بضرورة العمل من أجل مساعدة أسرته، على غرار ما يفعله بعض الأطفال مثل صديقه المقرب "محمد الصغير" ويفسر بداية تحول الوعي من الوعي بالطفولة حيث الاحتفاء بالطفولة والتماهي معها وممارسة اللعب والانعتاق إلى الوعي بالمسؤولية وضرورة مساعدة الأسرة، وهذا يعني ظهور بدايات إهمال الطفولة وإهمال ممارسات اللعب والانعتاق، والتحول إلى بدايات الاهتمام بمساعدة الأسرة والشعور بالمسؤولية، وضرورة تطبيق هذا الشعور.

---

[45] المصدر نفسه. ص ن.

[46] المصدر نفسه. ص 71.

- **تيمة العوائق:** يبدو الاقتناع بفكرة المسؤولية والتبرير لضرورة العمل يسيرا، لكن تجسيد فكرة العمل على أرض الواقع بدا عسيرا جدا، حيث استوعب الطفل مجموعة العوائق التي تحول دون تحقيق غاياته وقناعاته التي توصل إليها، ويمكن أن نرصد تيمة العوائق انطلاقا من تسليط الضوء على التيمات الفرعية التالية: "تيمة الأب" – "تيمة الوعد الأبوي" – "تيمة الخجل".

- **تيمة الأب:** يبدو الأب في الرواية واثقا في قدراته على إعالة أسرته، وقادرا على توفير ما يحتاج إليه طفله "مراد" ولذلك كان يكد ويجتهد لإيجاد الحلول بغية تجاوز محنته وكان على طول المسافات السردية يلح على ابنه لمواصلة الدراسة، ويتفانى لضمان مستقبله، لذلك «قد يقبل منه والده أي شيء إلا الانقطاع عن الدراسة»[47] وحين تجرّأ "مراد" وصرّح للوالد برغبته في العمل وتقديم المساعدة استشاط الأب غضبا «وأمره بأن يغرب عن وجهه وإلا ضربه ضربا مبرحا»[48] ومن هنا استوعب الطفل أن الأب يقف عائقا صفيقا في وجه ما يطمح لتحقيقه.

- **تيمة الوعد الأبوي:** لم يتجاهل الوالد قلق ولده، وقد لاحظ أكثر من مرة ملامح الكآبة والحيرة تتسلّط عليه، لذلك تعمّد أن يطمئن ابنه بين الحين والآخر، كما تعمّد أن يثور غضبا في وجهه ليردعه عن التفكير في العمل، ولم يقف عند هذا الحد، بل راح يستدرجه إلى أن افتك منه وعدا بضرورة مواصلة الدراسة مهما كانت الكبوات والنكبات، فـ «كان الوعد الذي قطعه على والده ذلك النهار جدارا هائلا يحول دون تحقيق ما يصبو إليه»[49] ولذلك استوعب الطفل أن الوعد الأبوي هو الآخر عائق يقمع أفكاره وأحلامه في العمل.

- **تيمة الخجل:** رغم أن هذا العائق أقل حدة وسطوة من العائقين السابقين، إلا أن الطفل وعى طفولته من حيث هي طفولة خجولة، من العسير جدا أن تمارس العمل وتتأقلم

[47] المصدر نفسه. ص 60.

[48] المصدر نفسه. ص 72.

[49] المصدر نفسه. ص 162.

مع متطلباته وضروراته، ذلك أنه لاحظ ما يقوم به صديقه "محمد الصغير" وهو يبيع البصل فاستنتج أن «خجله يعوقه عن الدخول في مثل هذه المقايضات»[50].

مما سبق يتضح جليا أن الطفل وعى طفولته من حيث هي طفولة مسؤولة تطمح للعمل ومساعدة الأسرة، وتنشد الخلاص من رباق الوضعيات السلبية، لكن هناك مجموعة من العوائق تحول دون تحقيق غاياتها، وهي تلك العوائق التي تتوس بين "الأب" و"الوعد الأبوي" و"الخجل"، لذلك وعى الطفل طفولته من حيث هي طفولة مسؤولة، لكنها عاجزة في الآن نفسه.

- **تيمة الإثبات:** رغم إدراك الطفل "مراد" للعوائق التي تجابهه وتقمع قناعاته إلا أنه مافتئ مصرا على التمسك بفكرة المسؤولية والعمل ومساعدة الأسرة، ذلك أن الوضعيات السلبية في رأيه مازالت تهدّد مستقبله ومستقبل أسرته، لذلك انبرى يفتش عن وسيلة تتيح له فرصة لتحقيق ما يصبو إليه، وهو بذلك يريد أن يثبت جدارته في تحمّل المسؤولية التي بقيت مجرّد فكرة مؤجّلة تؤرّقه وتعذّبه، وفي غضون هذه الأسيقة من الوله والحيرة أوحى له صديقه "محمد الصغير" بمشروع صنع "راديو" وأقنعه بأن هذا الراديو يمكن أن يباع بعد صنعه، ويعود عليهما بربح معتبر، فراقت له الفكرة كثيرا، واستبطن مشروع الراديو كقضية إثبات تثبت قدرته على تحمّل المسؤولية والعمل ومساعدة الأسرة، ويمكنه «أن يحصل هو الآخر على حصة مالية تمكنه من مساعدة والده»[51] لذلك كان المشروع ضروريا في نظر "مراد" وتحمّس له كثيرا، وتحوّل المشروع في حد ذاته إلى مسؤولية، لأن «عليه أن يتقدم بنصيبه من النقود لشراء ما يلزم»[52] وهي المعضلة نفسها التي جابهها من قبل، حيث لا يمكنه توفير النقود دون العمل، والعمل محرّم عليه، ولذلك اهتدى لفكرة اقتلاع قطع الحديد من جسر قديم، وتقديمها لصديقه بغية بيعها، وراح «ينتفخ زهوا وكبرياء بفكرته»[53] وعلى

---

[50] المصدر نفسه. ص 145.

[51] المصدر نفسه. ص 68.

[52] المصدر نفسه. ص 146.

[53] المصدر نفسه. ص 149.

العموم تشبّث الطفل بفكرة المشروع وتحمّس لها كثيرا، لأنها في نظره الفكرة الوحيدة التي يمكنها أن تؤهّله وتثبت مسؤوليته.

2-1-2- تيمة التنازل: تتكون هذه التيمة من التيمات التالية "تيمة الوضعيات الإيجابية" – "تيمة الأبوة" – "تيمة مسؤولية الجهاد".

– تيمة الوضعيات الإيجابية: تتكون من "تيمة وضعية الأب" – "تيمة وضعية الأسرة" – "تيمة الوضعية الذاتية".

– **تيمة وضعية الأب:** بعد أن تواشجت هواجس الخوف على خلد الطفل "مراد" جرّاء وضعية الطرد من العمل التي يرزح تحتها والده، لم يطل الأمد حتى انكشحت تلك الهواجس لاسيما حين أدرك الطفل أن توقعاته المشؤومة وكوابيس الضياع والعوز لا مبرر لتحققها ذلك أن الحلول التي ابتكرها والده راقت له واطمئن لها، و«قد تيقن أن والده سيخرج من المأزق الذي وقع فيه»[54] ولهذا استوعب الطفل أسيقة الوضعية الإيجابية الجديدة، وزاد يقينه بالنجاة من شبح الفاقة رجوع والده في النهاية إلى عمله، بعد أن برّأه التحقيق من التهم المنسوبة إليه.

– **تيمة وضعية الأسرة:** بتحسّن وضعية الأب تحسّنت وضعية الأسرة، وعندما نتحدّث هنا عن التحسّن، فإننا نقصد به التحسّن من حيث هو تحسّن استبطنه وعي الطفل لأننا بصدد رصد المواضيع كظواهر كما تتبدّى في الوعي، وليست كمواضيع خارج الوعي لأن الموضوع خارج الوعي قد يختلف كل الاختلاف عن الموضوع كظاهرة داخل الوعي ومن هنا ما يهمنا هو أن وعي الطفل تبنّى فكرة التحسّن كوضعية إيجابية أنقذت الأسرة من كيد العوز، وحرّرتها من استعباد الظروف القاهرة، ومن مستقبل الهلاك الذي يتربّص بها.

– **تيمة الوضعية الذاتية:** في ظل الوضعيتين السابقتين من البديهي أن يطمئن الطفل لوضعيته الذاتية، مادام موقعه بمنأى عن كل كوابيس التشرد والهلاك، ومادام والده قد

[54] المصدر نفسه. ص 93.

عاد كما كان حصنا صفيقا يقيه القر والحر، ويوفّر له ما يلزمه وما يحتاج إليه، ويوفّر عليه مسؤولية تحمّل أعباء الأسرة وسد نفقاتها المختلفة.

– **تيمة الأبوة:** تتكون من التيمات التالية: "تيمة الأب" – "تيمة الوعد الأبوي" – "تيمة الأحلام".

– **تيمة الأب:** لقد أومأنا سابقا في سياق رصدنا لتيمة العوائق أن الأب يرفض فكرة العمل رفضا قاطعا، لذلك كان لزاما على الطفل بعد أن استوعب هذه الحقيقة وأدرك عاقبة التمرد عليها «أن يقطع دابر التفكير في العمل»[55] طالما أن والده على قيد الحياة.

– **تيمة الوعد الأبوي:** بما أن الأب حرص كل الحرص على مواصلة ابنه للدراسة فقد «طلب منه أن يتعهد له بمزاولة الدراسة بكل جد واجتهاد»[56] وقد كان الوعد الذي قطعه الطفل مهمّا بالنسبة له، حيث نلفيه حريصا على الوفاء به حتى في حالات غياب الوالد وسفره بعيدا، ولذلك رصدنا الوعد الأبوي كفكرة ملحة ضرورية من الأفكار الملحة التي أولاها وعي الطفل اهتماما جادا، وكانت من بين الأفكار الملحة التي ساهمت في خلق تحولات جديدة على مستوى الوعي بالطفولة.

– **تيمة الأحلام:** لقد صوّر الوعي المبدع "مراد" مرتبطا بوالده كثيرا، ولعل أهم دلالات هذا الارتباط هي تقدير هذا الأب واحترام الجهود المضنية التي يبذلها في سبيل توفير شروط حياة ملائمة، ولطالما تمنّى "مراد" لو تسنح له الفرصة حتى يرد الجميل، ولعل الفرصة كانت سانحة عندما أدرك ضرورة أن يكون في حسن ظن والده الذي طلب منه بإلحاح شديد أن يواصل دراسته بجد واجتهاد، لذلك من المنطقي أن يحضر الأب برغباته ووعوده في أحلام الطفل الليلية، وكأن هذه الأحلام تعكس الاهتمام الذي تحوّل في عمق "مراد" وتمثّل بالنسبة له ميثاقا من المواثيق المقدسة، وكثيرا ما يكون الحلم صادقا إلى أبعد الحدود، يتيح لنا فرصة للاطلاع على كثير من تلك الأسرار التي لا يمكن أن نطلع عليها

---

[55] المصدر نفسه. ص 72.

[56] المصدر نفسه. ص 161.

بطريقة مباشرة: «حلم بأن والده قد طلع على ما يعتمل في نفسه لذلك فقد راح يأمره بارتداء سترة شتوية سوداء حتى يقوى على تحمل البرد»[57] ولما روى الحلم لجدته أوّلته بأن والده يريد منه أن يواصل طريقه، و«وأدرك منها أن عليه أن يواصل طريقه من أجل التعلم»[58].

رغم أنه لا توجد إشارات واضحة في الحلم تتوافق مع تأويل الطفل، إلا أننا نستوعب أن الطفل لم يفسّر الحلم في حد ذاته، بقدر ما فسّر ما يجيش في صدره ويدور في ذهنه وهذا يعني أن الأحلام هي الأخرى تنتمي لتيمة الأبوة انتماء كبيرا يحيلنا إلى القوة التي تتميز بها فكرة الأبوّة على مستوى اهتمامات الوعي بالطفولة، من حيث هي طفولة تمجّد الأبوّة وتحتفي بها، وتبارك قراراتها وتلتزم بها.

– **تيمة مسؤولية الجهاد:** سنسهب في الحديث حول هذه التيمة لاحقا، لكننا نومئ هنا إلى أنه قد استجدت مسؤولية جديدة على مستوى وعي الطفل "مراد" نظرا للأسيقة الاستعمارية التي يعايشها، وقد أغوته كثير من المعطيات والظروف بفكرة الجهاد، فبات يتحرّق شوقا لممارسة شيء يبرّر ولعه بالمجاهدين الذين يعتقدهم الخلاص الأنجح من جحيم الاستعمار الفرنسي الذي جثم على صدره طويلا.

في ظل التيمات السابقة من وضعيات إيجابية وأبوّة وتحمّس للجهاد، تحوّل الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة مسؤولة – يجب أن تتوخى مساعدة الأسرة عن طريق العمل أو على الأقل عن طريق مشروع الراديو – إلى الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة يجب أن تتنازل عن فكرة مسؤولية الأسرة وعن فكرة العمل، وما يؤكد هذه النتيجة – إضافة إلى رصد التيمات السابقة التي كونت تيمة التنازل – هو أن الطفل حوّل فكرة المشروع من أجل مساعدة الأسرة إلى فكرة المشروع من أجل تقديمه كمساعدة للمجاهدين، فهو مازال يعتقد أنه مسؤول، لكن مسؤولية الأسرة انتفت لانتفاء أسبابها، فتنازل عنها وعوّضها بمسؤولية جديدة – اعتقد جدواها وضرورتها – هي مسؤولية الجهاد.

---

57 المصدر نفسه. ص ص 256، 257.

58 المصدر نفسه. ص 257.

2-1-3- تيمة الحماية: تتكون هذه التيمة من التيمات التالية: "تيمة الوضعيات" – "تيمة الأبوة" – "تيمة الرجولة"

– **تيمة الوضعيات:** تتكون من التيمات التالية: "تيمة وضعية الأب" – "تيمة وضعية الأسرة" – "تيمة الوضعية الذاتية"

– **تيمة وضعية الأب:** في هذه الوضعية حدس الطفل «أن والده يستعد للعودة إلى عمله»[59] وبالرغم مما أثارته هذه الوضعية من اطمئنان وارتياح على مستوى وعي الطفل "مراد" – حيث انتهت أزمة العمل، وانتهت معها كوابيس الضياع والعوز – إلا أن هذه الوضعية بالذات تثير أيضا شعورا بالوحدة، وخوفا من تلك الوحدة، ووعيا بضرورة تعويض الشغور الذي طرأ في الأسرة، وهو تحوّل على مستوى الوعي بالطفولة، من حيث تبنّي فكرة المسؤولية الأسرية من جديد، لكنها مسؤولية لا ترتبط بضرورة إعالة الأسرة ومساعدتها بالعمل، بقدر ما هي مسؤولية ترتبط بضرورة حماية هذه الأسرة في حالات غياب الأب.

– **تيمة وضعية الأسرة:** أسرة "مراد" تتكوّن من أب وأم وأخ صغير وجدة، رحل الأب عائدا إلى عمله على متن إحدى البواخر التي تجوب البحار، ولم يبق إلا الأخ الصغير والأم والجدة يتأهّبون لخوض غمار الإضراب الذي قرّرته جبهة التحرير الوطني، وفي هذه الظروف وفدت إلى الأسرة عمة "مراد" التي ارتأت أن تمكث مع الأسرة إلى غاية انتهاء الإضراب، وإزاء وضعية هذه الأسرة شعر الطفل بمسؤولية توفير الحماية، وكأنه اعتقد أن عبء الحماية يقع الآن على كاهله، حيث ظعن الأب، وهو الوحيد في الأسرة الذي يبدو قادرا على حماية أسرته.

– **تيمة الوضعية الذاتية:** بحكم موقع الطفل "مراد" في الأسرة، وبحكم وضعية الأب ووضعية الأسرة استوعب "مراد" ضرورة تبنّي فكرة المسؤولية الأسرية، من حيث هي مسؤولية تقتضي رعاية الأسرة وحمايتها، وربما لأنه مسكون من قبل بهاجس المسؤولية وإثبات الجدارة ولم تتح له الفرصة أبدا لممارسة هذا الإثبات، عادت الأسيقة والظروف والوضعيات جذعة

[59] المصدر نفسه. ص 170.

لتمنحه فرصة إحياء قضية المسؤولية وبعثها من جديد، لكن وفق دلالات جديدة تتمحور حول قضية الحماية وضرورة إثبات الذات.

– **تيمة الأبوة:** إن الأحكام الأبوية ضرورية جدا بالنسبة للطفل "مراد" وهي بمثابة المحفز أو المثبط، لأنه رغم وعيه بضرورة الاضطلاع بمسؤولية الحماية، إلا أنه دائما يفتقر إلى تزكية أبوية تدعم ما يصبو إليه، وقد كانت الفرصة سانحة حين شرع الأب في جلسة أسرية يعلي من شأن ابنه، ويبيّن قيمته، ويمتدح ذكاءه وفطنته، وينوّه بقدراته «حينئذ أحس مراد بنشوة الفخر والاعتزاز يتسرب في نفسه، أبوه يقدره حق قدره إذن وهذا أمر لم يكن يعرفه من قبل»[60] وهذا أمر يعد بمثابة تتويج وتأهيل كفيلين بإماطة اللثام عن التردد، وإباحة الانعتاق في سبيل تحقيق ما يصبو إليه "مراد" بخصوص الاضطلاع بمسؤولية الحماية الأسرية، وتعويض الفراغ الذي سيخلّفه الأب بعد رحيله وعودته للعمل في البحر.

– **تيمة الرجولة:** كل المعطيات السابقة المرتبطة بتيمة الوضعيات وتيمة الأبوة أجّجت الوعي الإيجابي بالطفولة، وضخّمت الأنا، وتنامت في خلد الطفل كثير من أفكار الاحتفاء بالطفولة، وبدأ شيئا فشيئا يتحوّل الوعي من الوعي بالطفولة إلى الوعي بالرجولة وهذا التحوّل جعله يعتقد أنه تجاوز طور الطفولة إلى طور الرجولة، وجعله يعتقد جازما أن قضية مسؤولية الحماية الأسرية لا يمكن إلا أن ترتبط دائما بالرجال، لذلك آن الأوان «أن يثبت رجولته»[61] وآن الأوان أيضا لـ:«يبرهن لأسرته بأنه كبر حقا»[62].

مما سبق يتبيّن لنا أن الوعي بعد تيمة التنازل تحوّل تحوّلا جديدا، ليتبنّى فكرة المسؤولية الأسرية، من حيث هي مسؤولية لا ترتبط بالإعالة والعمل، بل ترتبط بالحماية وكانت تيمات الوضعيات والأبوة والرجولة قد تواشجت وتواصلت لتكوّن تيمة الحماية باعتبار هذه الحماية فكرة ملحة تحيل إلى الوعي بضرورة حماية الأسرة، وإلى الاعتقاد

---

[60] المصدر نفسه. ص 173.

[61] المصدر نفسه. ص 175.

[62] المصدر نفسه. ص ن.

بتجاوز طور الطفولة، والاحتفاء بولوج عالم الرجال والمسؤوليات المنوطة بالرجال وكانت – بالتالي – فكرة الحماية مسؤولية وإثباتا في الآن نفسه.

بعد محاولاتنا لرصد تيمات مسؤولية الأسرة يمكننا أن نقدّم بيانا تيماتيا توضيحيا نشفعه بقراءة ختامية، بغية الوصول إلى رصد أهم النتائج وأهم التحولات التي طرأت على مستوى الوعي بالطفولة في مرحلة التحول.

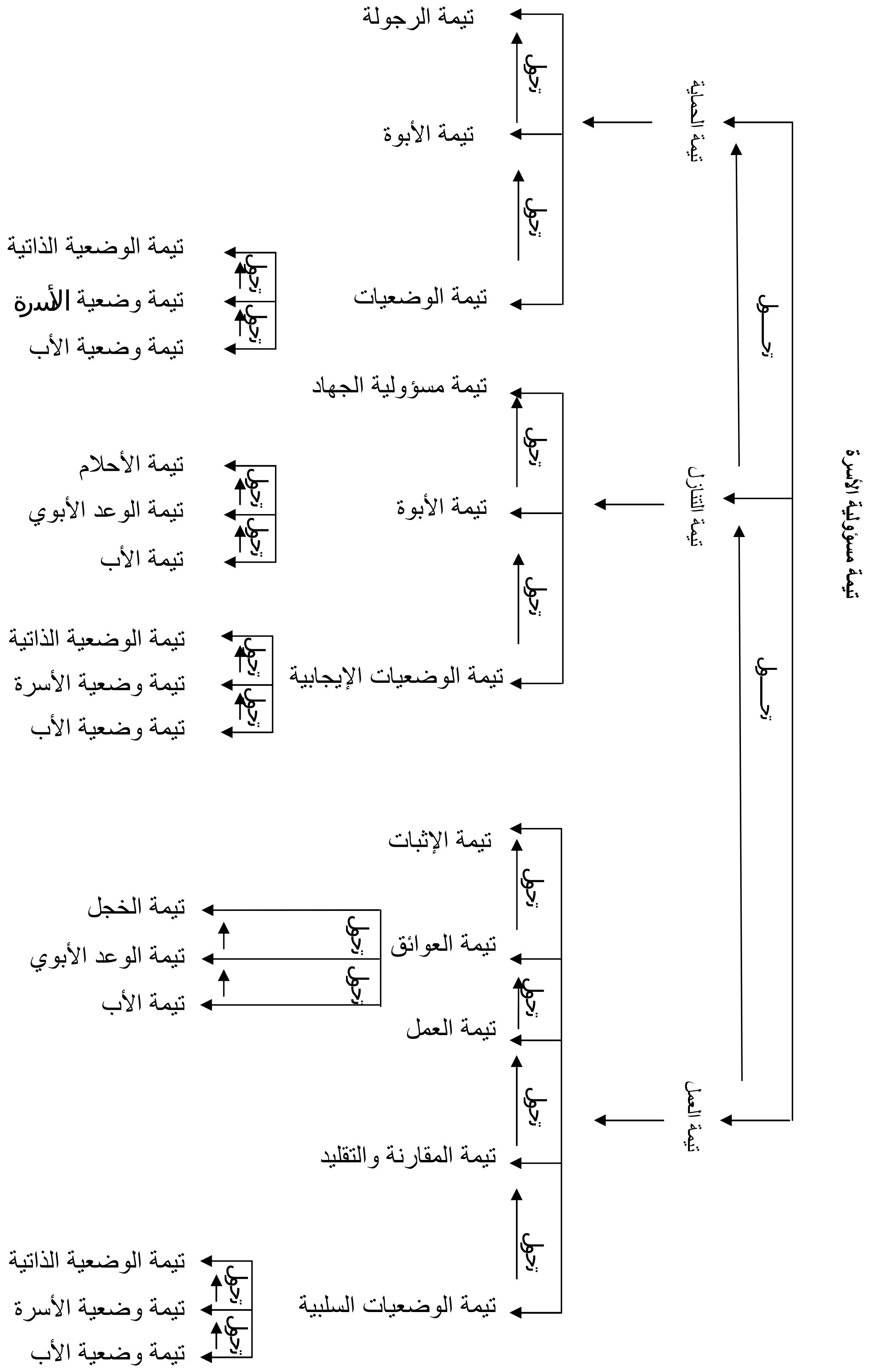
تيمة مسؤولية الأسرة
تيمة الحماية
تيمة التنازل
تيمة العمل
تحول
تيمة الرجولة
تيمة الأبوة
تيمة الوضعيات
تيمة الوضعية الذاتية
تيمة وضعية الأسرة
تيمة وضعية الأب
تيمة مسؤولية الجهاد
تيمة الأبوة
تيمة الأحلام
تيمة الوعد الأبوي
تيمة الأب
تيمة الوضعيات الإيجابية
تيمة الوضعية الذاتية
تيمة وضعية الأسرة
تيمة وضعية الأب
تيمة الإثبات
تيمة العوائق
تيمة الخجل
تيمة الوعد الأبوي
تيمة الأب
تيمة العمل
تيمة المقارنة والتقليد
تيمة الوضعيات السلبية
تيمة الوضعية الذاتية
تيمة وضعية الأسرة
تيمة وضعية الأب

التفسيرات الختامية:

– تيمة مسؤولية الأسرة تتكون من ثلاث تيمات محورية هي على الترتيب تيمة العمل وتيمة التنازل وتيمة الحماية، والعلاقة بين التيمات المحورية هي علاقة تحولية على مستوى الوعي، حيث يتحول الوعي من الاهتمام بفكرة إلى أخرى، وهذا يعني أن التحول على مستوى الوعي تأسس – في الحقيقة – على القطيعة بين التيمات المحورية، فليست التيمات ذاتها هي التي تحوّلت، ولكن الوعي بالطفولة هو الذي تحوّل انطلاقا من تحوّل اهتمامه من قضية لأخرى.

– كل تيمة محورية نتجت عن علاقات تحول بين تيمات فرعية.

– كل تيمة محورية أنتجت فكرة ألحّت بحضورها على مستوى وعي الطفل.

– كل تيمة محورية تبدأ عن طريق تيمة الوضعيات بمختلف أنواعها، مما يحيلنا إلى مدى قيمة الموقع الأسري للطفل، ومساهمته الأساسية في تفعيل تحولات الوعي بالطفولة.

– تيمة التنازل هي التيمة التي جسّدت جوهر القطيعة بين تيمات مسؤولية الأسرة، لكنها ضرورية في الدراسة، لأنها ارتبطت بالرؤية لقضية مسؤولية الأسرة.

– رغم القطيعة في مستويات تيمات مسؤولية الأسرة إلا أن الوعي في النهاية لم يستغن عن فكرة المسؤولية الأسرية، وقد لازمه الاعتقاد بالطفولة المسؤولة، وهذا يحيلنا إلى مدى تأثر الوعي بفكرة الأسرة وبالأسيقة الأسرية التي جعلته يؤمن بفكرة المسؤولية الأسرية، سواء حين اعتقد أنه مسؤول إزاء الأسرة عن طريق العمل أو حين اعتقد أنه مسؤول تجاهها عن طريق الحماية.

– التيمات المحورية ترتبط بإنتاج رؤية مستقبلية، بمعنى وعي الطفل بما يجب أن يكون عليه، على اعتبار أن الطفل لم يكن عاملا، ولم يتنازل عن شيء ملموس، بل تنازل عن فكرة، ولم يكن يحمي أسرته فعلا، ولم يكن رجلا، بل كان طفلا، وهذا يحيلنا إلى رغبة الطفل العارمة في أن يكون مسؤولا، ورجلا يقوى على هذه المسؤولية، وذلك يعني محاولة تجاوز

مرحلة الطفولة، ولعل محاولات تجاوز الطفولة نتجت عن الأوضاع المضطربة للأسرة، وعن الأسيقة الاستعمارية التي أفرزت وعيا بضرورة تجاوز الطفولة.

2-2- تيمة مسؤولية المجاهدين: تتكون هذه التيمة من التيمات التالية:(تيمة الهوية – تيمة المسؤولية – تيمة الإثبات – تيمة التأجيل)

2-2-1- تيمة الهوية: تتكون من التيمات التالية (تيمة كره الأوربيين – تيمة تاريخ الجزائر – تيمة المجاهدين الجزائريين)

– **تيمة كره الأوربيين:** لا شيء يمقته "مراد" أكثر من الأوربيين الذين يكنّ لهم كل مشاعر الكره، ويناصبهم عداء صارخا، ولم يكن كرهه مجرد نزوة عابرة أو انطباع متداع بل كان الطفل واعيا بضرورة هذا الكره وبأسبابه وتعلاته، فالأوربيون بالنسبة له «هم سبب هذا الشبح المخيف الذي يقض مضجعه ويهدد مستقبل أسرته»[63] ولم يتعلّق الكره إلا بأولئك الأوربيين الذين قرّوا في الجزائر يعيثون عذابا وفسادا، ولكي تتضح قضية الكره الذي يكنّه "مراد" للأوربيين وجب أن نتوخى بالدراسة جل أصناف الأوربيين الذين اتضح جليا أن الطفل "مراد" يشمئز لمجرد ذكرهم، ويتحاشى بكل الطرق رؤيتهم أو الاختلاط بهم، لاسيما أولئك الذين يرعبونه، وتيّقن من أنهم أكثر وحشية وهمجية من غيرهم، ولعل أهم الأوربيين الذين كان حضورهم كثيفا وملحا على مستوى وعي الطفل "مراد" هم: (الجنود الفرنسيون – المعمرون – الطفل جورجو – البحار الإيطالي).

– **الجنود الفرنسيون:** وهم الذين يستبطنهم "مراد" نموذجا للافتراس والتوحش، وقد تأكّد من همجيتهم في كثير من المرات، حيث عايش قسوتهم وفتكهم: «فكثيرا ما يفتحون باب الفيلا ويطلقون سراح كلابهم لمطاردة الأطفال والمارة»[64] وكثيرا ما قذفوه بأقذع الشتم والسباب، وانهالوا عليه بالصفع والتهديد، ولم يكن الطفل "مراد" ليستوعب همجية الجنود

[63] المصدر نفسه. ص 38.
[64] المصدر نفسه. ص 49.

الفرنسيين فقط، بل نلفيه في الرواية واعيا بكل حقائقهم ونواياهم الاستعمارية الخبيثة، ولذلك كان «يتمنى في قرارة نفسه أن يلاقوا مصرعهم جميعا»[65].

– **المعمرون:** النموذج الذي يمثّل المعمرين في الرواية هو المعمر الذي اسمه "لوجندر" يصوّره الوعي المبدع رجلا طاعنا في السن، إقطاعيا ثريا يسكن مع زوجته فقط وقد عرف الطفل "مراد" المعمر "لوجندر" عن طريق صديقه "محمد الصغير" حينها اكتشف "مراد" قسوة هذا المعمر وخبثه ومكره، وهو يستغل "محمد الصغير" ويسخّره للعمل عنده، وفي كل مرة يهدد والدته بالطرد، ويعيّرها بابنها ويشمت بحالها، وزيادة على ذلك يحرم "محمد الصغير" من أجرته، ويحرص كل الحرص على بقائه طاويا خاضعا خانعا، حينها أدرك "مراد" مدى اللؤم الذي يتسم به هذا المعمر العجوز الذي ينهب الأرض ويستعبد أبناءها و«تمنى في أعماقه ألا يجد من يعمل معه في الحقل في المستقبل فيموت جوعا ووحدة مع زوجته اللئيمة»[66].

– **الطفل "جورجو"**: رغم أن أوار شعور الكره الذي يكنّه "مراد" للطفل "جورجو" نابع من كون هذا الأخير منافسا عنيدا يطمح هو الآخر لصنع راديو – وقد حز في نفس "مراد" أن يكون لهذا الطفل الأوربي كثير من المساعدين، لاسيما أولئك العساكر الذي يشدون أزر ابن بلدتهم، ويزوّدونه بما يحتاج إليه من لوازم تتيح له فرصة صنع الراديو بيسر وفي ظرف وجيز – إلا أن فكرة المنافسة في حد ذاتها لا تبدو سببا وجيها لكل ذلك الكره الذي يكنّه "مراد" للطفل "جورجو" حيث يبدو جليا أن السبب الأكثر وجاهة وتفسيرا لذلك الكره الذي يكنّه "مراد" إزاء "جورجو" هو كون هذا الأخير بالدرجة الأولى أوربي، وكل ما هو أوربي في نظر "مراد" يبعث على المقت والاشمئزاز، ويتجاوز مجرد الكره إلى الحقد ومناصبة العداء، لذلك لطالما اعتبر "مراد" الطفل "جورجو" «ذلك العدو اللدود»[67].

[65] المصدر نفسه. ص 171.
[66] المصدر نفسه. ص 198.
[67] المصدر نفسه. ص 68.

– **البحار الإيطالي:** هو ذلك البحار الذي كاد لأب "مراد" كيدا «وتسبب في طرد والده من عمله لفترة طويلة»[68] لهذا من البديهي أن يكرهه "مراد" ويصفه بأبشع النعوت، ولم يكن كره "مراد" سطحيا نابعا من الاندفاع العاطفي والأحكام المسبقة، بل ظل دائما يحاكم هؤلاء الأوربيين ويجتهد في رصد مثالبهم، ويحاول جاهدا أن يستوعب حقائقهم، ويجرّدهم من أقنعتهم، ولعله اكتنه في النهاية أن هؤلاء الأوربيين مهما تباينت سحناتهم وأسماؤهم وحرفهم يتميزون باحتراف الكيد والمؤامرة، وممارسة الدهاء والمخاتلة، ويلجؤون «إلى الحيلة وإن هم لم تنفعهم عمدوا إلى استخدام القوة»[69] ذلك أنه السلوك نفسه الذي انتهجه البحار الإيطالي حين كاد للأب كيدا ودسّ له الدسائس، وعندما لم تنفع هذه الأشراك استشاط غيظا، وهاجم أب "مراد" كأنه ثور إسباني هائج، والأمر سيان بالنسبة للمعمر "لوجندر" الذي مارس كثيرا من أساليب التضييق والمراوغة والتهديد والتجويع مع "محمد الصغير" ليروضه ويستعبده وعندما لم يتسنّ له ذلك استشاط هو الآخر غضبا وصوّب البندقية لوجه طفل صغير، لذلك نلفي الطفل قد استوعب الحقيقة الاستعمارية التي لا يمكن أن تكون إلا احتيالا ومداهنة أو رصاصا وقمعا، وقتلا وقنبلة.

مما سبق يمكن أن يتساءل المتلقي عن العلاقة بين تيمة الكره الذي يكنّه "مراد" للأوربيين، وتيمة الهوية التي نحن بصدد رصد التيمات التي تتكون منها، والتفسير يسير ذلك أن استيعاب الآخر يعني استيعاب الهوية، وإدراك الآخر يسهّل إدراك الهوية، و"مراد" يكره الأوربيين، وكرهه نابع من كونه أدرك حقيقة الأوربيين، وتفطّن لما يتميزون به من مكر ومؤامرة، وما يبثّونه من نوايا سيئة، وكثير من ممارساتهم المتوحشة تفضحهم وتكشف مخالبهم وأنيابهم، لذلك تيقّن "مراد" من أنهم يختلفون عنه كل الاختلاف، وهويتهم ليست هي هويته، ولا يمكن أن ينتمي إليهم، وكلها استنتاجات تبيّن مدى استيعاب "مراد" لهويته، ومن هم أولئك الذين يجب أن ينتمي إليهم، وهم بطبيعة الحال أولئك الذين يشاركونه كره الأوربيين ويسعون جاهدين لاجتثاث هذا الاستعمار البغيض.

[68] المصدر نفسه. ص 139.
[69] المصدر نفسه. ص ن.

- **تيمة تاريخ الجزائر:** أهم ما استرعى اهتمام "مراد" في المدرسة هو تلك الحصص التدريسية التي كان المعلم يحدّثهم فيها عن تاريخ الجزائر، حيث بدا الأمر للطفل جديدا كل الجدة، لأنه كان يتردّد إلى مدرسة فرنسية تتعمّد طمس الهوية الجزائرية، وتقصي كل ما يمتّ للتاريخ الوطني بصلة، وبالمقابل تدرّس تاريخ أوربا، في محاولات منها لإنتاج جيل يبارك وجودها ويستسلم لإرادتها، لكن بعدما انتقل "مراد" لمدرسة تابعة لجمعية العلماء المسلمين تغيّرت النوايا التعليمية، وسعى المعلم جاهدا لاسترداد الحقائق المصادرة، موضّحا للتلاميذ أن للجزائر أيضا تاريخا، فأدرك "مراد" أنهم «سوف يتعلمون لأول مرة شيئا عن تاريخ أجدادهم»[70] وأن التاريخ «لا ينطلق من بلاد الغال ومن فرسنجيتوريكس»[71] وأن للجزائر تاريخا موغلا في القدم، صنعه كثير من الأبطال الغطاريف الذين لا يقلّون شأنا عن أولئك الذين تفتخر بهم أوربا، وتدّعي تفوقهم وتميزهم «وقد بلغ الزهو بالتلاميذ أنهم كانوا يتبادلون لقب يوغرطة فيما بينهم ويحاولون المقارنة بين الماضي والحاضر»[72] وقد بلغ الوعي بـ "مراد" أن أغواه تاريخ الجزائر، وفتن به، واستوعب جذوره وهويته، وتعزّزت ثقته بانتمائه وبضرورة الذود عن حياض هذا الانتماء.

- **تيمة المجاهدين الجزائريين:** في سياق كره الأوربيين والتشبّع بتاريخ الجزائر واستيعاب أسيقة الهوية والانتماء، وفي سياق الموقع الذي يستلزم امتنانا لما يقوم به المجاهدون اعتقد الطفل جازما بأن المجاهدين هم الخيار الأنسب الذي يمنح للطفل فرصة استرداد هويته التاريخية والاحتفاء بانتمائه، ويمنحه فرصة للخلاص من جحيم أولئك الأوربيين الذين يعكّرون طفولته ويعفّرون وجوده، ويسيّجون عالمه بالحديد والنار، لذلك كان دائما يعتقد بتفوق المجاهدين ويتحمّس لهم، و«خياله الجامح لا يسمح له بأن تكون قوة العدو أعظم من قوة المجاهدين»[73].

[70] المصدر نفسه. ص 98.
[71] المصدر نفسه. ص 99.
[72] المصدر نفسه. ص 119.
[73] المصدر نفسه. ص 12.

2-2-2- تيمة المسؤولية: تتكون من التيمات التالية: (تيمة التلميذة المجاهدة – تيمة الأب – تيمة الفدائي – تيمة المجاهدين الجزائريين)

– **تيمة التلميذة المجاهدة:** تحيلنا المؤشرات السردية إلى كون هذه الفتاة المجاهدة قبل أن تلتحق بالمجاهدين في الجبال كانت تلميذة في المدرسة نفسها التي يدرس فيها "مراد" ولم يكن ذلك ليسترعي اهتمامه، بقدر ما استرعت انتباهه زيارة هذه الفتاة للمدرسة، وذاك الاحتفاء الذي لاقته من المدير والمعلم، وهما يمتدحانها وينوّهان بها، ويسهبان في الترحيب بها، وكم سبت "مراد" تلك المغامرة الثورية التي كانت الفتاة تحكي عنها، و"مراد" تستبيحه الأخيلة وأحلام اليقظة، وتدهشه الجبال وصياخيد المعركة، فاعتقد حينها أن «هذه الفتاة تستحق التمجيد»[74] ولكنه في الآن نفسه استبطن طفولته كموضوع مثير للشفقة، لأنه لا يقدر أن يكون في مستوى مجد هذه الفتاة التي كانت تلميذة مثله، لكنها برحت المدرسة والسبورة والمصطبة، واعتلت صهوة الجبال، وهاهي الآن يمجّدها الجميع ويعترفون بفضلها وكم تمنّى "مراد" أن يكون مثلها، ولمجرّد أن استوعب مكانتها قزّم طفولته وأغمط موقعه «وشعر مراد حينذاك بأنه تافه وبأنه لن يقوى على اللحاق بمثل هذه الفتاة»[75] لكنه في الآن نفسه استوعب ما يمكن أن يكونه، واستوعب تلك الخيارات المتاحة له، مادامت الفتاة المجاهدة كانت يوما في مثل وضعه، وأمكنها أن تكون ما هي عليه الآن، فهو الآخر يمكنه ذلك، و«قد يطلب المجاهدون بعض الفتيان وقد يقع الاختيار عليه»[76] وفي كل الحالات كانت الفتاة المجاهدة فكرة ألهبت "مراد" وألهمته التفكير الجاد في ضرورة مساعدة المجاهدين بطريقة أو بأخرى، بغية التملّص من أصفاد المواقع السلبية التي اعتقد بأنها تعيق تحقيق المكانة التي يصبو إليها، حيث اعتقد أن مجرّد كونه تلميذا يعني كثيرا من دلالات التقزيم والتفاهة، وأن فكرة الجهاد ومساعدة المجاهدين تتطلب أكثر من الجلوس وراء الطاولات، ومن الاستسلام لدروس اللغة والتاريخ والحساب.

[74] المصدر نفسه. ص 122.

[75] المصدر نفسه. ص ن.

[76] المصدر نفسه. ص ن.

– **تيمة الأب:** لقد أثبتنا من قبل في كثير من الأسيقة مدى ارتباط الابن بالأب، وهذا الارتباط من بين ما يعنيه محاولات تقليد الابن للأب، على اعتبار أن الطفل "مراد" في مرحلة عمرية يكون فيها التقليد من بين الوسائل الناجعة والبارزة التي يلجأ إليها الطفل ويحاول دائما أن يكون في مستوى أولئك الذين يتأثر بهم ويتحمّس لمجاراتهم، وهو يعبّر عن ولعه بهم عن طريق محاولات تقليدهم، وهنا يكون التقليد مرتبطا بالأشياء التي أحبّها الطفل وانبهر بها، وتبنّاها وعيه موضوعا مشحونا بكثير من الأماني والطموحات والأحلام، لذلك يعبّر التقليد عند الطفل عن مستوى الطموحات والأحلام التي اعتنقها الوعي واعتقد بضرورتها وأولويتها، وما يهمنا في هذا المقام هو أن "مراد" تأثر بطموحات والده النضالية «فهو يعرف ميول والده وعواطفه»[77] لاسيما حين أدرك أن الوالد ابتاع "مسدسا" من إيطاليا ليسلّمه للمجاهدين، وأدرك كم هي العوائق واحتمالات الموت التي جابهها الأب في سبيل ذلك، وفي كل هذه الأسيقة لا يمكن إلا أن يتأثر "مراد" بوالده، وتطربه تلك الأعمال البطولية التي يقوم بها الأب في سبيل مساعدة المجاهدين، ولا يمكن إلا أن يتفطن لضرورة تقليد الأب، ويستوعب هو الآخر ضرورة تحمّل نوع من المسؤولية إزاء هؤلاء المجاهدين الذين أثبتت قضية الهوية أنه ينتمي إليهم، ولا يمكن إلا أن يكون واحدا منهم أو واحدا من بين أولئك الذين يقدّمون يد المساعدة لهم.

– **تيمة الفدائي:** المقصود بالفدائي هنا هو ذاك الشاب الذي يدعى "عبد الرحمن" والذي يقطن في حي "مراد" وقد كان أن استوعب "مراد" حقيقة "عبد الرحمن" بأنه من أولئك الفدائيين الأفذاذ الذين يستلذّون الموت في سبيل محاولات تحرير الوطن، وكان "مراد" من بين الأطفال الذين كان لهم شرف التداول على الحراسة، وتحذير "عبد الرحمن" من أي خطر يحدق به أو يوشك أن يداهمه، لذلك على المستوى العاطفي هناك ارتباط وثيق بـ"عبد الرحمن" وقد تأجّج هذا الارتباط العاطفي عند "مراد" حين قام "عبد الرحمن" بتفجير حانة فرنسية، فأعجب "مراد" بذلك «وهو مأخوذ بالعمل الفدائي الذي قام به عبد الرحمن»[78] وهذا

[77] المصدر نفسه. ص 35.

[78] المصدر نفسه. ص 78.

الإعجاب بـ "عبد الرحمن" والتأثّر بأعماله الفدائية والارتباط به عاطفيا سيتيح للوعي استيعاب فكرة المسؤولية النضالية، وهذه الفكرة تستمد مشروعيتها من خلال استبطان "عبد الرحمن" موضوعا مثالا للنضال والجهاد، وهو موضوع جدير بالتقليد والاحتفاء، لأنه يلبّي تلك الرغبات التي تحفّز فكرة الهوية، وتترجم شحنات الارتباط العاطفي، وضرورة أن يكون "مراد" في مستوى هؤلاء الذين ارتبط بهم واحتفى بهم، وكانت أعمالهم تبهره، ويغريه كثيرا تقليدهم وهو يستشعر المسؤولية الملقاة على عاتقه.

- **تيمة المجاهدين الجزائريين:** لطالما كان المجاهدون المثال الذي يعتقده "مراد" قمينا بالاقتداء، وهو بذلك يستبطنهم على مستوى وعيه الأنموذج الأنجع والوسيلة الأفضل لمواجهة الأوربيين بشتى أصنافهم من عساكر ومعمرين يحتلّون البلاد، ويعيثون فيها دمارا وفسادا، لذلك «يجب الاقتداء بما قام به هؤلاء المجاهدون»[79] وكل أحلام وطموحات القضاء على الفقر والأوربيين مرتبطة كل الارتباط بالمجاهدين، لهذا يتعزّز شعور الانتماء إليهم وتظهر جلية رغبات تقديم المساعدة لهم والاضطلاع بالمسؤولية إزاءهم.

إن التيمات السابقة تم رصدها والاعتناء بأهم تفاصيلها لأنها أنتجت اهتمامات الوعي، وأحالت إلى كثير من الدلالات، حيث لا يمكن أن يلحّ الوعي على فكرة ما إلحاحا اعتباطيا أو جزافيا، فهناك دائما علاقات دلالية وتوالدات قصدية وإحالية تحيل إلى موضوع ما، وإلى كيفيات استبطان هذا الموضوع، حيث بدا جليا أن التلميذة المجاهدة والأب والمجاهدين هم أفكار ملحة تبنّى الوعي الاهتمام بها، لأنه تأثّر كل التأثر بها، واستبطنها قضايا نموذجية تمكّن لفكرة التقليد والاقتداء، وفي سياق هذا الاهتمام الواعي والاستبطان القصدي بدا جليا الإيمان بضرورة قضية المسؤولية، وهنا يكمن التحول على مستوى الوعي بالطفولة، حيث - من قبل - كان هناك فقط الوعي بالطفولة من حيث إدراك هويتها والانتصار شعوريا للمجاهدين، ومباركة أعمالهم وثورتهم وأفكارهم، لكن في سياق هذه الأفكار الملحة الجديدة اكتشف "مراد" عن طريق اكتشاف الغير (من يعتقدهم نموذجا للاقتداء) ضرورة أن يتجاوز الانتصار للمجاهدين شعوريا إلى الانتصار لهم عمليا، وفي هذه

[79] المصدر نفسه. ص 57.

المرحلة أدرك من خلال استيعاب الأفكار الملحة ضرورة أن يقدم شيئا ما، وأن يكون مسؤولا عن عمل ما يساعد به المجاهدين، مثله في ذلك مثل التلميذة، ومثل الأب ومثل الفدائي لذلك تحوّل الوعي بالطفولة في هذه المرحلة من الوعي بالطفولة من حيث الهوية والاكتفاء بالمشاعر والأفكار، إلى الوعي بالطفولة من حيث هي طفولة مسؤولة يجب هي الأخرى أن تلتزم التزاما عمليا إزاء المجاهدين، وهو التزام يتجاوز مجرد الاكتفاء بالمشاعر والأفكار والمباركة الذهنية.

2-2-3- تيمة الإثبات: تتكون هذه التيمة من التيمات التالية (تيمة المشروع – تيمة التهميش – تيمة حلم الانتقام – تيمة حلم الانفجار).

– **تيمة المشروع:** لقد تضخّم الإحساس بالمسؤولية إزاء المجاهدين على مستوى وعي "مراد" وتنامت الرغبة في ضرورة تقديم المساعدة والمشاركة، ذلك أن الأمر ارتبط بتقدير الذات، وإتيان عمل يعيد للطفولة توازنها، في موقع كل ما لم يرتبط فيه بالجهاد وبالمجاهدين يبدو تافها خائرا، ومن هنا كان لزاما على "مراد" أن يقدّم عملا يترجم وعيه بضرورة المسؤولية إزاء المجاهدين من جهة، ويعزّز هذا العمل موقعه، وينتشله من التفاهة والضعف من جهة ثانية، وكان الأمر الوحيد الذي يثبت جدارته، ويؤكد مسؤوليته هو مشروع الراديو الذي كان من قبل يساعد صديقه "محمد الصغير" لصنعه بغية بيعه ومساعدة أسرته لكنه في هذه الأسيقة الجديدة عزف عن فكرة مساعدة الأسرة، وارتأى أنه «من الأفضل ألا يعرض الراديو جالينيه للبيع في حالة الفراغ من صنعه، ذلك لأن المجاهدين في الجبال قد يحتاجون إلى مثل هذا الإنجاز»[80] ومن هنا يحاول "مراد" أن يثبت مسؤوليته إزاء المجاهدين وهو يعتقد أن مشروع الراديو كفيل بهذا الإثبات، وزعيم بمساعدة المجاهدين.

– **تيمة التهميش:** يبدو من خلال المؤشرات السردية أن من عادة "مراد" الاهتمام بالدراسة والتحمّس لها، لكنه في سياق وعيه بالطفولة من حيث هي طفولة مسؤولة إزاء المجاهدين تسلّل إليه شعور بالخيبة، و«لم يشعر مراد بأي دافع على الانهماك في

[80] المصدر نفسه. ص 69.

دروسه»[81] وانبرى يتمرّد على عاداته الدراسية «ويبلغ به السأم أقصاه وهو يتابع دروس الحساب والنحو فيسر إلى زملائه في القسم بأنهم يضيعون أوقاتهم في غير طائل وأن من حقهم أن يسيروا في اتجاه مغاير»[82] وهذا الاتجاه المغاير هو فكرة الجهاد التي سيطرت على البلاد آنذاك، وسيطرت على وعي "مراد"، وأراد بكل طاقاته أن يكون في مستوى هذه الفكرة حيث شغلته قضية إثبات مسؤوليته إزاء المجاهدين، ولعل تهميش الدراسة من أهم المؤشرات التي تحيلنا إلى اهتمام "مراد" بقضايا تتجاوز الدراسة، وهي بالضرورة – في هذا السياق – قضايا مسؤولية مساعدة المجاهدين.

– **تيمة حلم الانتقام:** ظهر الانتقام عند "مراد" كقضية من قضايا الإثبات الذي يرتبط بقضية المسؤولية إزاء المجاهدين، وما تتطلّبه هذه المسؤولية من أعباء والتزامات يحاول "مراد" تكرارا ومرارا إثباتها وترجمتها بكل الإمكانيات والاحتمالات المتاحة له، ولعل الانتقام كنزعة حلمية متجذّرة في صميم الوعي بالطفولة المسؤولة من أبرز الوسائل التي تبناها الوعي ليثبت مدى اضطلاعه بقضية المسؤولية، وحتى إن كان الانتقام لا يتجاوز مستوى الأحلام فهو يعتبر وسيلة فعّالة لإنتاج مستويات إثباتية كفيلة بالإحالة إلى قضية الإثبات إحالة واضحة، تمكّننا من رصد المحاولات الحثيثة التي يسعى الطفل من خلالها لإثبات مسؤوليته الجهادية، ومدى تحمّسه وتأهّبه لخوض غمار النضال والمجابهة، مهما كانت فتاكة حامية الوطيس، لذلك «كان يشعر بأن الانتقام ينبغي أن يكون شاملا وأن تكون الضربات موجهة للمدنيين الأوربيين والعساكر على حد السواء».[83]

– **تيمة حلم الانفجار:** الأمر سيان بالنسبة لفكرة الانفجار التي تبنّاها وعي الطفل وآمن بها، واقتنع «بهذه الفكرة الجهنمية»[84] التي استبطنها ملاذا ليقيه وباء الاستعمار ووسيلة ناجعة لإثبات قضية المسؤولية إزاء المجاهدين، وحتى إن كان الانفجار هو الآخر مثل الانتقام أسير الفكرة الحلمية إلا أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالذات، حيث إن حلم اليقظة من

[81] المصدر نفسه. ص 167.
[82] المصدر نفسه. ص ن.
[83] المصدر نفسه. ص 85.
[84] المصدر نفسه. ص 56.

المؤشرات المهمة التي تحيلنا إلى الوعي بالطفولة، ذلك أن حلم الانفجار الذي يعتقده "مراد" «الطريق الأمثل»[85] يحيلنا إلى طموحاته التي تتوخى دائما إثبات جدارته النضالية، حيث هو الآخر يحاول أن يقدّم عملا ملموسا يثبت من خلاله قدرته على تحمّل المسؤولية الجهادية التي لطالما آمن بها واعتقد بضرورتها.

هكذا تكون تيمات (المشروع، والتهميش، وأحلام الانتقام والانفجار) إحالات واضحة إلى تيمة الإثبات، حيث يحاول "مراد" من خلال هذه التيمات أن يترجم قضية المسؤولية ويثبت مدى جدارته بالاضطلاع بهذه المسؤولية، وهذا معناه التحوّل على مستوى الوعي بالطفولة، من الوعي بالطفولة المسؤولة إلى الوعي بضرورة إثبات هذه المسؤولية، وتجاوز مستويات التفكير الذهني إلى مستويات الممارسة العملية.

2-2-4- تيمة التأجيل: تتكون هذه التيمة من التيمات التالية: (تيمة مسؤولية الدراسة – تيمة فشل المشروع – تيمة تأجيل الحلم).

– **تيمة مسؤولية الدراسة:** في سياق الوعد الأبوي المرتبط بضرورة مواصلة الدراسة وفي سياق بعض التغيّرات المرتبطة بكثير من الوقائع التي أحاطت بالطفل، واضطرته لإعادة النظر في كثير من الأفكار التي اعتنقها، وفي سياق إعادة ترتيب الأولويات والأحلام والطموحات، خلص الطفل إلى تصنيف المسؤولية الدراسية كأولوية أولى، وأنه «من الأفضل له أن يواظب على الدراسة»[86].

– **تيمة فشل المشروع:** مشروع صنع الراديو – الذي كان عبارة عن وسيلة أراد من خلالها "مراد" أن يثبت مسؤوليته إزاء المجاهدين، ويقدّم لهم هذا المشروع كمساعدة – كان مصيره في النهاية هو الفشل، حيث «كانت النار قد أتت على الراديو جالينه، ولم تبق إلا بعض الأسلاك النحاسية التي صارت بلون الرماد»[87] بعد ما اضطر "مراد" وصديقه "محمد الصغير" إلى حرق المشروع خوفا من أن يكتشفه الجنود الفرنسيون، بعد وشاية الطفل

[85] المصدر نفسه. ص 57.

[86] المصدر نفسه. ص 256.

[87] المصدر نفسه. ص 250.

الأوربي "جورجو" الذي كان يعلم بأمر المشروع، ويحقد على الطفلين كثيرا، ويسعى بكل الأساليب لإفشال المشروع وإغاظة ندّيه اللدودين.

– **تيمة تأجيل الحلم:** في نهاية الرواية تبين لنا المؤشرات السردية أن "مراد" عزم على مواصلة دراسته حتى يصير معلما، أما أحلام الجهاد والانفجار والانتقام فلم تغب نهائيا ولكنها أجّلت عن طريق إعادة ترتيب الأولويات على مستوى الوعي بالطفولة، حيث بات لزاما على الطفل أن يسعى أولا ليصير مدرسا «وقد تستمر الحرب مدة طويلة فيلتحق بالمجاهدين في الجبال»[88] وسيثبت حينها مسؤوليته إزاء المجاهدين، ليس بتقديم الراديو كمساعدة لهم، بل بتقديم نفسه كمجاهد من بين المجاهدين الذي يصولون ويجولون على صهوات الجبال والنيران.

لعل تيمات مسؤولية الدراسة وفشل المشروع من أهم التيمات التي جعلت الطفل يعتقد بضرورة تأجيل كل الأحلام المرتبطة بالجهاد وبمسؤولية مساعدة المجاهدين، لهذا تحوّل الوعي بالطفولة من حيث ضرورة إثبات المسؤولية الجهادية إلى الوعي بالطفولة من حيث ضرورة تأجيل الأحلام الجهادية، وتأجيل كل الأفكار الملحة المرتبطة بمسؤولية مساعدة المجاهدين، والأمر هنا مرتبط – كما هو واضح – بالتأجيل وليس بالإلغاء، حيث مازال الطفل متشبّثا بفكرة المسؤولية الجهادية، ومازال متحمسا لمناصرة المجاهدين، ومافتئ واعيا بفكرة الطفولة المسؤولة، لكن الأمر في هذه المرحلة ارتبط عنده بإعادة ترتيب الأولويات على مستوى الوعي، وهو ترتيب ارتبط بتلك التحولات التي ارتبطت بكيفيات استبطان الأفكار الملحة المختلفة التي رصدنا أهمها من قبل، وتبيّن أن استبطانها يتحكّم تحكّما محوريا بصيرورة تحولات الوعي بالطفولة، من خلال الوعي بالأسيقة والقضايا والظروف التي تحيط بهذه الطفولة، وتنتج كثيرا من مستوياتها الواعية.

[88] المصدر نفسه. ص 261.

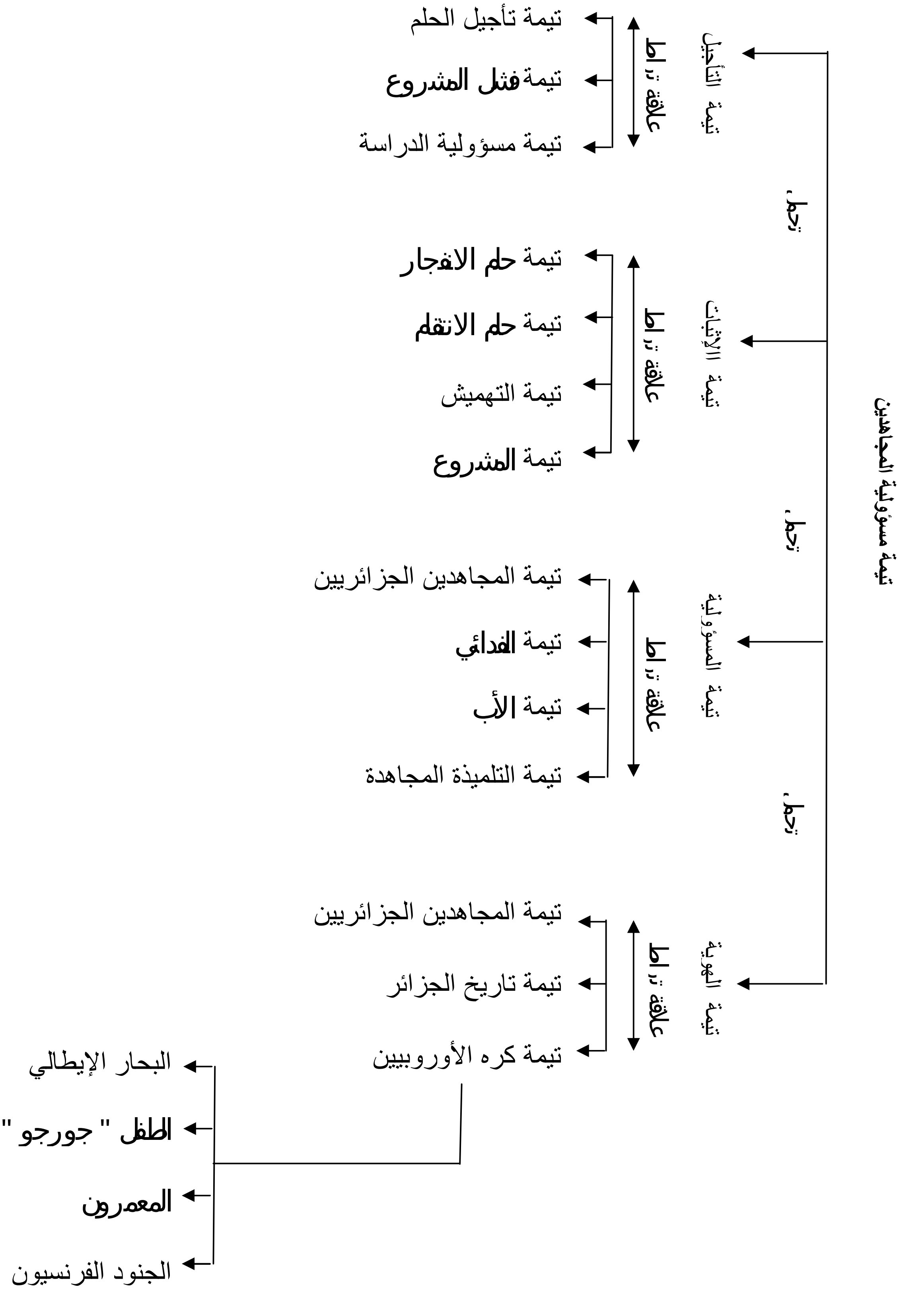
تيمة مسؤولية المجاهدين
تيمة التأجيل
علاقة ترابط
تيمة تأجيل الحلم
تيمة فشل المشروع
تيمة مسؤولية الدراسة
تحمل
تيمة الإثبات
علاقة ترابط
تيمة حلم الانفجار
تيمة حلم الانتقام
تيمة التهميش
تيمة المشروع
تحمل
تيمة المسؤولية
علاقة ترابط
تيمة المجاهدين الجزائريين
تيمة الفدائي
تيمة الأب
تيمة التلميذة المجاهدة
تحمل
تيمة الهوية
علاقة ترابط
تيمة المجاهدين الجزائريين
تيمة تاريخ الجزائر
تيمة كره الأوروبيين
البحار الإيطالي
الطفل " جورجو "
المعمرون
الجنود الفرنسيون

التفسيرات الختامية:

- إن تيمة مسؤولية المجاهدين أنتجتها أربع تيمات محورية هي تيمة الهوية، وتيمة المسؤولية، وتيمة الإثبات، وتيمة التأجيل، والعلاقة بين هذه التيمات تضبطها علاقات تحوّل اهتمام الوعي من فكرة ملحة إلى أخرى.

- ما يلاحظ هو أن التيمات الأولى مرتبطة ببعضها البعض وفق علاقة تحوّلية إنتاجية حيث إن تيمة الهوية أنتجت تيمة المسؤولية، وهذه الأخيرة أنتجت تيمة الإثبات، أما التيمة الأخيرة (تيمة الإثبات) فهي تعكس تحوّل اهتمام الوعي، لكنها بالنسبة للتيمات السابقة عنها تمثل القطيعة، رغم ارتباطها الوثيق بالتيمة الأم.

- كل تيمة محورية أنتجتها تيمات فرعية معينة، وليست العلاقة بين التيمات الفرعية لكل تيمة محورية هي علاقة تحوّل بقدر ما هي علاقة ترابط وتداخل.

- تيمة مسؤولية المجاهدين بتفرعاتها بقيت رهينة المستوى الفكري الذي يحيل إلى الطموح الذي ألحّ على الوعي، ورغم أن هذا الطموح أجّل، إلا أن التأجيل في حد ذاته يعني أن الطموح لم يفقد حضوره، ولعل أهم ما مكّن لهذا الطموح على مستوى الوعي هو وعي الطفل بهويته وبموقع الصراع بينه وبين الآخر.

2-3- تيمة مسؤولية الدراسة: تتكون من التيمات التالية (تيمة الأبوة – تيمة الحلم – تيمة الطموح).

2-**3-1- تيمة الأبوة:** تتكون هذه التيمة من تيمتين أساسيتين هما (تيمة الوعد الأبوي – تيمة رد الجميل).

- **تيمة الوعد الأبوي:** أومأنا في أسيقة سبقت إلى أن الأب كان حريصا على مواصلة ابنه للدراسة كل الحرص، وبلغت به العناية بهذا الأمر أن استدرج ابنه "مراد" ليعده بمواصلة الدراسة والاهتمام بها، وقد كان هذا الوعد بالنسبة لـ"مراد" ضروريا ومهما، وجدارا صفيقا يقوّض كل محاولات التملّص من رباق الالتزام، لذلك كان "مراد" يجتهد للالتزام بالوعد

الأبوي، ويحاول «أن يواصل دراسته تلبية لرغبة والده وتحقيقا لتلك الرغبة الخفية التي تتنامى في صدره»[89] حيث هو الآخر اقتنع بضرورة «استعمال ذهنه بدلا من يديه»[90] وكان الوعد الأبوي حافزا لمواصلة الدراسة، وجذوة من جذاء تفتّق الوعي بالطفولة، من حيث هي طفولة يجب أن تتصف ببعض القدرات الذهنية التي لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق الدراسة ومواصلة الدراسة، لذلك بعد أن همّش "مراد" دراسته فترة معينة واعتقد بتفاهة مقاعد الدراسة عاد من جديد يغربل أولوياته، متفطّنا إلى قيمة الدراسة وضرورة الوفاء بالوعد الأبوي، فكان لزاما «عليه إذن أن يعود إلى المدرسة ويبر بوعده»[91].

- **تيمة رد الجميل:** على طول المسافات السردية نلفي "مراد" يهتم اهتماما جادا بكل ما يرتبط بوالده، وتغريه تفاصيل الأعمال التي يقوم بها الأب، وقد استوعب "مراد" قيمة هذا الأب وقيمة حضوره، لأنه الوحيد الذي يمير الأسرة ويوفّر للابن ما يحتاج إليه من ملابس ودراسة وأدوات، وغيرها من لوازم، لذلك لطالما ارتبطت أحلام "مراد" بتلك الفرص التي تتيح له مساعدة والده، وكثيرا ما تمنى «لو استطاع هو ذات يوم أن يرد له جميله»[92] لهذا سعى في البداية للعمل ليساعد والده، لكنه فشل، ثم سعى لمساعدة أسرته عن طريق مشروع الراديو، لكنه سرعان ما تنازل عن ذلك حين أقنعته الحلول العملية التي يقدمها والده، واطمأن إلى قدرة والده على مير الأسرة وإعالتها، وفي النهاية تيقّن بأن أفضل وسيلة للامتنان لهذا الأب ورد جميله هي مواصلة الدراسة التي يهتم بها الوالد كثيرا ويلحّ عليها، ويرغب فيها بقوة لا تضارعها قوة أخرى.

2-3-2- تيمة الحلم: المقصود بالحلم هنا هو الحلم الليلي، ذلك أن هذا الحلم يساهم مساهمة فعّالة في توجيه مسارات تحولات الوعي بالطفولة، حيث إن "الطفل" يؤمن بمحتويات الأحلام الليلية، ويعتقدها حقيقة نورانية مقدسة، أما بالنسبة لنا فالأحلام تحيلنا إلى أهم اهتمامات الوعي، وإلى كيفيات استبطان الوعي لقضية الدراسة كفكرة ملحة في هذه

[89] المصدر نفسه . ص 256.
[90] المصدر نفسه. ص ن.
[91] المصدر نفسه. ص 161.
[92] المصدر نفسه. ص 73.

المرحلة، أولاها الوعي كل مشاعر الاحتفاء والاهتمام والتبجيل: «فقد رأى شجرة تين عملاقة في فناء دارهم، غير أنها كانت عارية من الأوراق، وإذا بوالده وهو بلباسه الزرقاء المعهودة يطلب منه أن يسقيها كل ساعة حتى تعود إليها أوراقها»[93] ولم يلجأ الطفل – هذه المرة – لجدته لتأويل الحلم والنظر في دلالاته، بل «أوله على طريقته وخلص إلى القول بأن والده لا يريد له سوى أن يواصل دراسته»[94] ولعل تفاصيل الحلم تتطابق مع تفاصيل واقع الطفل، فقد سبق وأن همّش دراسته ونبذها وأهملها في سياق وعيه بضرورة المسؤولية الجهادية، لكنه سرعان ما تراجع عن ذلك، وأعاد ترتيب أولوياته على مستوى الوعي، واقتنع بضرورة مواصلة الدراسة، وبمدى نجاعة الدراسة وأولويتها على الأحلام والطموحات الأخرى، لذلك لابد أن يهتم بأحلامه الدراسية، ويتعهّدها بالرعاية لكي تورق من جديد وتعود إليها نضرتها وتعود الأمور إلى نصابها، ويطمئن الوالد في غربته، ويطمئن الطفل كذلك للطريق التي يشقّها، وهو يتأكّد من سلامة وجهته عن طريق تلك الأحلام الليلية التي تبارك دربه وتعكس مشاعره الدفينة بضرورة مواصلة الدراسة، وضرورة الوفاء بالوعد الأبوي، وتلبية رغبة الأب ورد جميله والظفر برضاه.

2-3-3- **تيمة الطموح:** تتكون هذه التيمة من تيمتين أساسيتين هما (تيمة الاقتداء – تيمة الجهاد).

– **تيمة الاقتداء:** لا يغفل على من قرأ رواية "البزاة" مدى إعجاب "مراد" بمعلمه؛ هذا المعلم الذي صوّره الوعي المبدع وطنيا حريصا على توعية تلاميذه ورعايتهم، وقد تعرّض في سبيل ذلك لكثير من المضايقات الاستعمارية، وكان "مراد" قد استوعب جلّ الحقائق المرتبطة بمعلمه، وكيف أنّه درس في جامع الزيتونة، وكيف أنّه يجيد فهم القضايا الشائكة وله دراية كافية بالوطن وقضايا الوطن وتاريخ الوطن، وبذلك يكون المعلم نموذجا ممتازا للاقتداء، يجعل "مراد" يفكر بجد في أن يدرس «حتى يصير معلما».[95]

[93] المصدر نفسه. ص 257.
[94] المصدر نفسه. ص ص 257، 258.
[95] المصدر نفسه . ص 256.

- **تيمة الجهاد:** رغم أن فكرة الجهاد قد فقدت أولويتها على مستوى الوعي وأجّلت إلا أنها مازالت تمارس غوايتها وفتنتها، ذلك أنها ارتبطت ارتباطا وثيقا بفكرة الطموح، وعندما فشل الطفل في تحقيق أحلامه وطموحاته الجهادية على أرض الواقع، تمكّن من الظفر بصيغة جهادية جديدة، لا ترتبط بالجبال وبالأسلحة، ولكنها ترتبط باستعمال الذهن، حيث بدا له أن فكرة المعلم جديرة بتحقيق طموحاته النضالية، ذلك أن المعلم – في اعتقاده – من أقدر الناس على النضال، ومن أخطرهم على الاستعمار.

مما سبق يتضح جليا أن تيمات مسؤولية الدراسة هي الأخرى ترتبط وفق علاقات تحوّلية على مستوى الوعي، حيث تحوّلت تيمة الأبوة إلى تيمة الحلم، وهاتان التيمتان تحوّلتا – في النهاية – إلى تيمة الطموح المرتبط أساسا بفكرة الاقتداء وبفكرة الجهاد المعرفي فكانت التيمات السابقة في علاقاتها وتحوّلاتها إحالات واضحة إلى تيمة مسؤولية الدراسة حيث استوعب الطفل طفولته باعتبارها طفولة مسؤولة على مواصلة الدراسة، ومسؤولة على تحقيق طموحات الطفل التعليمية، فأراد "مراد" في النهاية مواصلة الدراسة، واختار أن يصبح معلما، وصنّف هذا الطموح كأولوية أولى على مستوى الوعي.

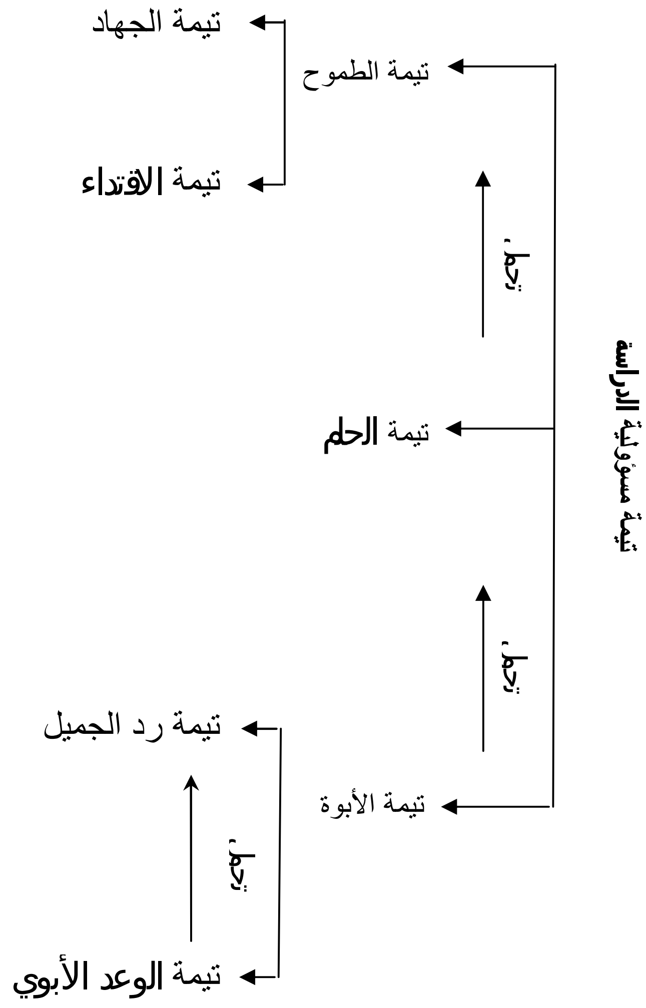

التفسيرات الختامية:

- تيمة مسؤولية الدراسة أنتجتها علاقات تحوّل بين تيمات فرعية لعل أهمها تيمة الأبوة التي تحوّلت إلى تيمة حلم ليلي، وتحوّلت تيمة الحلم الليلي بدورها إلى تيمة الطموح.

- الطموح ارتبط بالدراسة التي يعني مفهومها – في هذا السياق – تلك الدراسة التي تتيح فرصة لمواجهة الاستعمار، ولذلك اعتبر الطفل نفسه مسؤولا على أن يصبح معلما مجاهدا بكل ما تتضمّنه كلمة الجهاد من معان فكرية ومادية.

التفسيرات النهائية:

- الوعي بالطفولة خضع لصيرورة تحولات متعددة ومتواشجة.

- تحولات الوعي بالطفولة ارتبطت باهتمام الوعي بكثير من القضايا (الأفكار الملحة).

- تيمات مسؤولية الأسرة هي أكثر التيمات تشعّبا وحضورا في البداية.

- تيمات مسؤولية الأسرة اختفت نهائيا، في حين أن تيمات مسؤولية مساعدة المجاهدين لم تختف، ولكن قضاياها أجّلت؛ بمعنى أنها بقيت مستمرة بطريقة ضمنية.

- أهم تيمة تكرّرت في مختلف التحولات، وفرضت حضورها على مستوى الوعي هي تيمة الأبوة، حيث نلفيها حاضرة في مختلف تيمات مسؤولية الأسرة، وتيمات مساعدة المجاهدين وتيمات مسؤولية الدراسة.

- التحول كان على مستوى الوعي عن طريق التواصل بين التيمات أو عن طريق القطيعة.

- تيمة المسؤولية هي محور الوعي بالطفولة، ومحور التحولات على مستوى الوعي، فرغم كل التحولات، ورغم اختلاف تيمات المسؤولية إلا أن الوعي بالطفولة يتمحور دائما حول قضية المسؤولية، لأن الطفل وعى طفولته دائما من حيث هي طفولة مسؤولة، وفي كل مرة كان يسعى لتبرير وعيه بالمسؤولية، ويسعى لإثبات مسؤوليته، وربما يلغي نوعا من المسؤولية أو يؤجل نوعا آخر، إلا أنه في النهاية لا يخرج عن نطاق الوعي بالمسؤولية وضرورة أن يكون مسؤولا بطريقة أو بأخرى، مهما تباينت وتشعّبت القضايا التي تغذّي قضية المسؤولية، وتؤهّلها على مستوى الوعي، وتضفي عليها الدلالات اللازمة.

ت – تيمة الطفل الخجول:

لكي لا تكون الدراسة المتوخاة هنا مجرد أفكار عشوائية يجب تحديد بعض المفاهيم الأساسية، حتى يتسنّى ضبط الوسائل الإجرائية على مستوى التطبيق، وكذا ضبط الأهداف المفترضة، حيث يكون مفهوم الوعي محوريا، وبما أن مفهوم الوعي في حد ذاته يحيل إلى كثير من الغموض والاستعجام، فقد كان لا مناص من رصد التجربة الواعية من منظور فينومينولوجي سارتري، على اعتبار أن التيمة المستهدفة في هذه الدراسة هي تيمة الطفل الخجول في رواية "حنة" للباردي، التي صرّح مؤلفها بأنها عبارة عن سيرة ذاتية روائية، حيث

يشترط «أن يصرح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أن ما يكتبه هو سيرة ذاتية»[96] تتأسس على تقنيات محاولات الاسترجاع وترميم الذاكرة، وتلك الأسيقة التي ترتبط كل الارتباط بحياة الطفولة، وبغض النظر عن موضوعية فكرة الاسترجاع ومصداقية الذاكرة فإن ما يفترض رصده وتولّج أعماقه هو وعي الطفل الذي يهيمن بحضوره، ويؤسس أوار التجربة الروائية والسيرية، فمن هنا يكون وعي الطفل كتجربة فينومينولوجية مبررا كافيا لهذه الدراسة، من حيث تبنّي مفهوم تحولات تيمة الخجل عند طفل الرواية كتقنية من تقنيات تحولات الوعي، وما تحيل إليه هذه التحولات من علاقات تيماتية معينة، ومن علاقات بيذاتية جدلية تثير فكرة الكوجيتو السارتري وإشكالية وجود الغير، وإشكاليات تحوّل الحياة الشعورية.

الأمر – إذن – يتعلق بكيفيات وأسباب تحوّل الوعي من وضعية التماهي إلى وضعية التجلي والانعتاق من رباق السكون، وتجاوز الصورة الخام، وكأنه نوع من التحوّل من درجة المعرفة الصفر إلى درجة المعرفة بالأحكام المعيارية المتباينة؛ أو بمعنى من وضعية يكون فيها وعي الطفل خامدا، ولا يتيح له فرصة إطلاق الأحكام المعيارية بشأن إدراكاته وحدوسه وتفاصيل شخصيته الواعية، إلى وضعية نلفيه فيها يمتلك كثيرا من المبررات لإطلاق أحكام معيارية ترتبط بالإحالة إلى نمط صورة شخصيته، فهي عملية رصد الكيفيات والتحولات الواعية التي انتهجها وعي الطفل لمعرفة طفولته من حيث هي طفولة معقّدة بعلاقاتها ورؤاها وتحولاتها.

1 – مرحلة خمود الوعي:

سننطلق من مسلمة مفادها أن الوعي استعداد فطري، وصفة ملازمة للإنسان في كل أشواطه العمرية، فالجنين في بطن أمه لديه مستويات فطرية من الوعي البيولوجي، تمكّنه من التأثر ببعض المؤثرات المتنوعة، حيث أثبتت الدراسات أن الجنين في بطن أمه يتأثر إيجابا وسلبا بكثير من السياقات البيولوجية والاجتماعية والنفسية التي تطرأ على الأم، «وأن

---

[96] عبد الفتاح شاكر، تهاني. السيرة الذاتية في الأدب العربي. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002 (م). ص 16.

أي مؤثر بيئي سوف يترك آثارا على التركيب الأساسي لشكل الجسم وبشكل خاص على الجهاز العصبي»[97] وسيبقى قياس مستوى الوعي غامضا جدا في هذه المرحلة، وستبقى كثير من نتائج الدراسات نسبية، حيث إن الحياة الجنينية غامضة، والمبرر الوحيد الأكثر موثوقية في هذه الحالة هو التغيّرات والأعراض البيولوجية التي تطرأ على جسم الجنين، وبما أن الجسد هو إحالات للوعي البيولوجي، فإن هذا الوعي بطريقة أو بأخرى سيتأثّر بتغيّرات النمو الفيزيولوجي.

ولا أحد أنكر أن النمط الغذائي عند الأم في مرحلة الحمل يؤدّي وظيفته التأثيرية على حياة الجنين إيجابا وسلبا «وتشير نتائج دراسة بأن حرمان الأم الحامل من البروتين في المراحل الجنينية المختلفة ينجم عنه زيادة بينة في الأطفال الخدج وعيوب في الجهاز العصبي»[98]، ناهيك عن تأثير الطقم الوراثي البشري، حيث يؤدي الجينوم البشري دوره الفعال «وتحمل الجينات المعلومات الوراثية الضرورية لبناء الجسم»[99]. هذه المؤشرات الموجزة تحيلنا إلى تبني فرضيتين، أما الأولى فتبيّن وجود مستويات واعية معينة لدى الإنسان منذ المرحلة الجنينية، وأما الثانية فتبيّن أن الوعي لديه تاريخ جينومي من التحولات يسبق حتى الوجود الجنيني، وإذا كان للوعي تاريخ عميق من التكونات والتحولات، فهذا لا يعني أن الأنا في إدراكها الواعي لديها المقدمات التاريخية نفسها، وإذا كان تاريخ الوعي موغلا في القدم والتجريد والغموض، ولا يمكن تجريبيا أن نزعم تحديد مؤشر تاريخي حاسم له، فإن الوعي بالطفولة قد يمكن تحديد بعض بداياته التاريخية، لاسيما إذا ارتبط الأمر بتلك المؤشرات الملحة والمهيمنة على الذاكرة، في صورة شفرات تيماتية تشكّل منعرجات حاسمة في تاريخ تحولات الوعي من حالة التماهي والخمود إلى حالة الإدراك الفينومينولوجي للطفولة، لاسيما إذا توفّرت لنا معطيات عن الاتصال البدئي.

---

97 شاكر مجيد، سوسن. علم نفس النمو للطفل. الطبعة الأولى. عمان، الأردن: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2009 (م). ص 72.

98 المرجع نفسه. ص 76.

99 ناصف، مصطفى. الوراثة والإنسان. أساسيات الوراثة البشرية والطبية. د ط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1986 (م). ص 11.

سنتجاوز إشكالية العلاقة بين وعي المؤلف ووعي الطفل السارد في رواية "حنة" ونسلم بأننا بصدد تتبّع مسارات تحولات الوعي كما يتبنّاها الطفل السارد، ونفقد حضور المؤلف إلى حين، على أن الانتباه لوجوده في النهاية ضرورة ملحة تعيننا على تأكيد بعض النتائج أو تفنيدها.

الحياة الجنينية للطفل في "حنة" مغيّبة تماما، فهو هكذا في "حنة" وجد طفلا في الرواية، ولا توجد أيّة مؤشرات سردية تومئ إلى حياة الطفل كجنين، ونحن لا نطالب الطفل بالحديث عن سيرته الجنينية، لكننا نحاول قراءتها من خلال الأسيقة الأسرية خاصة، فلا نلفي إلا الغياب، فلا الأم تحدّث عنها ولا الوالد أيضا، ولا الطفل يستحضر بعض الحكايات المرتبطة بحياته الجنينية، وكأنه هكذا كان طفلا حين أتاحت له الذاكرة فرصة ليكون طفلا وفي الغالب يعود الإنسان ليؤثّث تاريخه الجنيني عن طريق حكايات الآخرين، وسيكون مجبرا على تصديقها واعتمادها كمرجعية موضوعية، ولعل بعض الأمهات اللواتي يحاولن الحديث عن حياتهن في مرحلة الحمل، ويسردن كثيرا من التفاصيل – لاسيما عن مرحلة الوحام – ينقلن للطفل بطريقة أو بأخرى بعض تفاصيل حياته الجنينية، ويعتقد الطفل في النهاية أن تاريخ حمل الأم هو نفسه تاريخه، لذلك فالأمر بالدرجة الأولى يعنيه ويستبطن ذلك التاريخ المروى، ويحوّله إلى ظاهرة، ومع مرور الوقت يحوّله إلى ماهية، وتلك الماهية هي في الحقيقة صفة أساسية من صفات الوعي بالطفولة، لذلك بعض الأمهات يغالين في صيانة تاريخ هذه المرحلة، إلى درجة الاحتفاظ ببعض الصور الفوتوغرافية التي ما إن يبصرها الطفل بعد سنوات معينة، لا يرى بطنا منتفخا فقط، بل يرى أول صورة له في الوجود.

طفل "حنة" – إذن – لا توجد عنده أول صورة فوتوغرافية أو سيرية، ولذلك اضطر لإسقاط هذه الصورة من سيرته، فهو لا يملكها، ولم يجرؤ على الحديث عنها، وكل الذين أحاطوا به لم ينبسوا ببنت شفة عنها، وهذه الصورة غائبة لأن الغير قد غيّبها، لذلك صودرت فكرة الوعي بالطفولة وبتاريخ هذه المرحلة، والآخر هو الذي مكّن من مصادرتها حين التزم الصمت، وعادة ما تكون هذه المصادرة في وضعيات اليتم، حيث يغيب التاريخ الجنيني

لكن طفل "حنة" له أبوان، لكنه فينومينولوجيا يتيم، ذلك أنه لم يحظ بفرصة لمعايشة تاريخه الجنيني كفكرة سردية تتيح له فرصة إعادة ملأ فجوات الذاكرة الضائعة، وتأثيث المراحل المفقودة في الوعي، ولذلك يبقى الوعي بالطفولة المرتبط بهذه المرحلة في حالة خمود "سكون".

ما سبق الحديث عنه بخصوص التاريخ الجنيني ينطبق على مرحلة الولادة وما بعد الولادة، حيث هناك غياب تام لهذه الصورة في وعي الآخرين، وبالتالي غيابها في وعي الطفل، وهذا يعني أن تاريخ الوعي بصورة الطفولة الأولى لدى الطفل "محمد" أجهضته فكرة الغياب الذي يتبناه وعي الغير لأسباب تبقى مجهولة داخل المتن الروائي، ولا يمكننا تفسير المجهول بقدر ما يمكننا تفسير بعض نتائج تغييب هذه المرحلة التاريخية المهمة في تفعيل صيرورة التحولات الواعية.

الطفل تظهر له صورته الأولى متجاوزا المراحل المسكوت عنها التي ذكرناها سلفا حيث يبوح قائلا: «... وأنت في قميصك الطويل، تحملك قدماك الحافيتان تحاذي الجدول الضيق وتقفز بين ضفة وأخرى ...وتحمل منجلك الصغير»[100].

لقد فتّشنا في الرواية لنظفر بالصورة الأولى التي يستبطنها الطفل عن نفسه، والأرجح أن العبارات السابقة تجسّد معنى الصورة الواعية الأولى التي ترتبط بالطفولة عن طريق الإدراك الحسي الذي تترجمه الأفعال والدلالات التالية: "القميص الطويل"، "المشي على الأقدام الحافية"، وإدراك البعد المكاني "القفز" و"حمل المنجل الصغير" وكلها مؤشرات تومئ إلى أن الصورة الواعية الأولى كانت عبارة عن صورة حسية، قنواتها الإدراك الحسي؛ عن طريق الحواس، خاصة البصر الذي بدأ يصوّر الأبعاد التجريبية تصويرا سطحيا، وهو – فعلا – نوع من الوعي بالطفولة، لكنه وعي خامد يخضع للتماهي، لأنه لا ينتج أي أحكام معيارية، إنه نوع من الذكاء الفطري الذي يتأسس على الملاحظة المباشرة، وحتى إن خال أحدهم أن تلك مؤشرات دلالية تحيل إلى بعض الكنايات مثل كون الطفل يعي أنه قصير

[100] الباردي، محمد. حنة. الطبعة الأولى. قابس، تونس: مركز الرواية العربية للنشر والتوزيع، 2010 (م). ص09.

إلا أن ذلك قد يكون تأويلا ناقصا، لأن الطفل قد يكون قصيرا أو ربما هو لم يعر انتباها لقامته، بقدر ما انتبه للقميص الطويل الذي يرتديه، فالمستقرئ للدلالة النصية يلفي أن حضور جسد الطفل في الرواية محتشم جدا، حيث يمكننا إحصاء العبارات التي تصف الجسم في البدايات السردية، وفي سياق الصورة الحسية الأولى كالتالي: «ولكن قميصي الطويل»[101] – «وأنا في قميصي الطويل»[102] – « يشدني أبي من يدي الصغيرة»[103] وكل ذلك يحيلنا إلى أن وعي الطفل بأبعاده الجسدية كان ضحلا جدا لا يتجاوز الملاحظة الساذجة لبعض الأعضاء كالقدمين الحافيتين واليد الصغيرة، وهذه الملاحظات طارئة وليست جادة، ذلك أن الأسيقة الدلالية تبيّن لنا أن الملاحظات ارتبطت أصلا بما يحيط بالجسد وليس بالجسد في حد ذاته، ولم يكن حضور الجسد ببعض تفاصيله في الوعي إلا هامشيا جدا.

هامشية الوعي بالأبعاد الجسدية امتدت في الرواية كلها تقريبا، حتى عندما يشير الطفل إلى أنه قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاما تقريبا، ولعل هذا الإقصاء يعود إلى هامشية وعي الغير بجسد الطفل، فالمؤشرات الدلالية التي قد تحيلنا إلى كيفيات استبطان الغير لجسد الطفل قليلة جدا إلى حد الندرة، ولعل أقمنها بالذكر قول الوالد: «...أصابعك لم تستقم بعد وذراعاك طريان..»[104] وقول الشيخ العمراني: «كفك مباركة يا محمد»[105] ولعلنا ندرك أنها ملاحظات هامشية، معانيها انزياحية لا تحيل إلى صفات فيزيولوجية واضحة ولذلك كان الوعي بالجسد لدى الطفل "محمد" غائبا تقريبا عند الغير، فالغير هو المرآة التي يكتشف فيها الطفل أبعاده الجسدية، والواقع يثبت ذلك، فهناك طفل يدرك منذ سنواته الأولى أنه أبيض وطويل، وعيناه سوداوان، وشعره أسود مثلا، وطفل يدرك تلك المعطيات – ربما – بعد أربعة عشر أو خمسة عشر عاما، وهذا غالبا يوعز لغياب المرآة الغيرية، والتي هي

[101] المصدر نفسه. ص 10.
[102] المصدر نفسه. ص 11.
[103] المصدر نفسه. ص 14.
[104] المصدر نفسه. ص 10.
[105] المصدر نفسه. ص 97.

صورة الطفل في وعي الغير الذي لم يقدّم للطفل صورته الجسدية، بل أهمله وأخضعه للتلقائية والصدفة، فكان أن أجهض تاريخا آخر من تاريخ تحولات الوعي بالطفولة، بعدما أجهضت تواريخ الحياة الجنينية، وما بعدها من مراحل الطفولة الأولى .

نحن نعي أن هناك ظروفا أخرى تساهم في نمو الوعي بالجسد وبالأبعاد الفيزيائية عند الطفل، لعل أجدرها بالذكر النمو الحسي الحركي، والنمو العقلي، والموهبة وغيرها، كما نعي أن «الأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث تكوين كل واحد منهم»[106] لكننا نسلّط الضوء هنا على الخيبة التي يعيشها الطفل في رواية "حنة" جرّاء غياب صورة المرآة الغيرية في وعيه، وما لهذه المرآة الغيرية من أهمية في صيرورة تحولات الوعي بالطفولة. يقول سارتر في هذا السياق: «أنا في حاجة ماسة إلى الغير لأدرك إدراكا كاملا كل تركيباتي وجودي»[107]، وقد بدا جليا أن غياب المرآة الغيرية بالنسبة للطفل أحدث تشوّها وضعفا شديدين على مستوى الوعي بالطفولة، فطفل مثل "محمد" وهو في عمر ثلاثة عشر عاما لا يتحدّث عن جسمه، بل يوشك أن يتحوّل جسمه في وعيه الذاتي إلى طابو يصنف في خانة المحظور والمسكوت عنه، وهذا – في اعتقادنا – من أهم الأسباب التي عزّزت فكرة التخيل الشبقي، حيث يعتبر هذا التخيل الشبقي تعويضا لضعف مستويات وعي الذات بالجسد فغياب صورة الجسد في وعي الآخر أفرز غياب الوعي الذاتي للطفل بجسده، والذي أفرز بدوره ضعفا في مواجهة الغير، وخيبة في ترجمة العواطف والرغبات والشهوات، لاسيما على مستوى التواصل الإيروسي، الذي كانت الرواية تطفح به، لكن الملفت للانتباه هو رغم أن الطفل يسرد مشاهد التواصل الإيروسي إلا أنها كلها مشاهد عندما نفكّكها نلفي التواصل فاشلا أو يسدل ستار السرد فجأة، محدثا قطيعة في المشاهد، وربما المشهد الجنسي الناجح نوعا ما هو الاختلاء لممارسة العادة السرية، وحتى في هذه المشاهد يعاني الطفل أحيانا الخيبة، حيث تكتشفه أمه على حين غرة، وما يهمنا هنا هو أن الوعي الذاتي بالجسد غائب بنسبة كبيرة، لأن المرآة الغيرية غائبة، لاسيما في مرحلة حرجة كان الطفل في أمس الحاجة

---

106 أبو العلا، محمد. علم النفس. د ط. القاهرة، مصر: مكتبة عين شمس، 1989 (م). ص 261.

107 سارتر، جان بول. الوجود والعدم. بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية. ترجمة: عبد الرحمن بدوي. د ط. بيروت، لبنان: منشورات دار الآداب، د ت. ص 381.

إليها، ولذلك على طول المسافات السردية يحضر جسد الأنثى بكثافة، وتحضر الفرص الشبقية بكثافة أيضا، لكن التواصل الإيروسي فاتر جدا، وهذا يعود إلى فتور الوعي الذاتي بالجسد الذي مازال غامضا بالنسبة لصاحبه، حيث قد يتولد عن كل ذلك فقدان الثقة بالنفس، وقد يتحوّل هذا الشعور إلى خجل من المرأة، وهو في الحقيقة خجل من غياب صورة الجسد في الوعي، فتكون المواجهة غير متكافئة، حيث لا تبقى سوى الرغبة، ومن يترجم هذه الرغبة غائب في نظر الوعي، ومواجهة المرأة في النهاية دون جسد ضرب من التخمين الفاشل نهائيا على مستوى العلاقات الجنسية، لذلك يلجأ الوعي إلى إستراتيجية تعويضية تكمن في التخيّل وممارسة العادة السرية، وكم كان حضور هذا التخيّل مكثّفا نوعا ما، يترجم الفشل على مستوى الواقع، وهو فشل منوط بالوعي، فهو في الحقيقة فشل الوعي في تجاوز مرحلة الخمود والتماهي، ولذلك بقي الطفل في كل هذه المراحل عاجزا عن إصدار حكم معياري جاد إزاء شخصيته، وحتى إن وجدنا بعض الأحكام فإنها تبقى واهية وتلقائية وليست واعية، ولا تعدو أن تكون أسئلة تثيرها الحيرة والدهشة، ففي كل تلك المراحل كان الوعي خامدا خاملا متماهيا مع أفعاله، حيث إن الطفل صادر الغير تاريخ طفولته الأولى، وصادر مرآته، وبقي الوعي في حالته الخام، تحرّكه الفطرة والضرورات البيولوجية والأسيقة الطبيعية والاجتماعية، ولذلك لطالما اعتبر الطفل نفسه شاهدا «أكون في تلك السنوات الأولى من حياتي شاهدا على ما يجري»[108] وهذه العبارة تصريح بإلغاء الطفولة وتغييبها، لا لشيء إلا لأن الغير قد أقصاها وغيّبها، وصادر فكرة المرآة من حياة الطفل فأضحى لا يبصر إلا غيره، ولا يبصر صورته عند غيره، ولهذه المصادرة تاريخ طويل – كما أومأنا – بدأ منذ مصادرة الحياة الجنينية، ولذلك لم يستطع وعي الطفل إدراك هذا البعد الإشكالي، وبدا دائما راضخا لسلطة الإقصاء دون إبداء أية مقاومة، وكأن فكرة الوعي البدئي تمكّنت منه، ورضخ لإرادتها، وتقبّل وجوده كما أراده الغير من حوله، لذلك عوّضت فكرة الوعي بالطفولة بالوعي بالغير، حيث رضي أن يكون مجرّد شاهد على ما حوله، ولم يتجرّأ في المراحل السابقة على أن يكون شاهدا على نفسه، أو يتجرأ على الإجابة عن سؤال:

[108] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص 22.

من هو في نظر نفسه؟ وهو في المراحل السابقة فكرة السؤال عن نفسه في حد ذاتها لم تراوده، لأن وضعية الوعي بالطفولة في حالة خمود وسكون وتماه، وجل جذاء التحريض والاستفزاز غائبة، إذ الغير لم يؤدّ دوره في إثارة هذا الخمود.

إن الغير في رواية "حنة" لم يؤسس لفكرة مشروع تكوين الوعي بالطفولة، بل عمل على تدجين الطفل في فكرة التماهي، وحوّله إلى تقليد الغير، حيث دائما يوجهه للمثال مهملا فكرة التفرد والتميز، تقول الأم: «أريد أن تكون مثل خالك، خالك متعلم»[109] ويقول الأب: «هيا اكبر بسرعة يا ولد لتعينني على هذا العمل الشاق»[110] ويقول أيضا: «محمد سيدخل المدرسة، سيصبح معلما»[111] فالطفل عند الغير هو الخال، وهو المعلم، وهو الكبير إنه المستقبل، أما الطفل الأنا المتميز فليس موجودا، ولذلك لم يكن موجودا أيضا في وعي الطفل «وقد تركت طفولتي لأدخل مرحلة الشباب المبكر»[112] على اعتبار أن الوجود مرتبط بالوعي، ولم تتوفر فكرة الكوجيتو الديكارتي هنا، على أننا نختلف مع "ديكارت" في أن الوعي لا يكون ذاتيا من تلقاء نفسه دائما، بل إن الغير هو الذي يملك دورا فاعلا في تحرير هذا الوعي من كمونه لتأسيس العلاقات البيذاتية التي سنحاول أن نحدّد ماهيتها فيها بعد، حين نواصل رصد تحولات الوعي بالطفولة من مرحلة التماهي إلى مرحلة الأحكام المعيارية، ومن مرحلة الخمود إلى مرحلة الفعالية.

لقد أجرينا تحقيقا ميدانيا بسيطا، وكانت العينة عبارة عن مجموعات من الأطفال وكل مجموعة طرحت عليها الأسئلة التالية: كيف تفرق بين أنك طفل أو طفلة؟ فكانت الإجابات الأكثر إلحاحا هي: اللباس، طول الشعر، وبعدما بيّنا لهم من خلال بعض العينات أن الطفلة هي أيضا قد يكون شعرها قصيرا، وقد ترتدي أيضا سروالا وقميصا مثل الطفل لاحظنا بعض الاستغراب والفشل في عيونهم، ثم حاولنا تصعيد الفشل عندهم حيث سألناهم: هل يعني هذا أنك إذا قمت بارتداء تنورة مثلا، وأطلت شعرك بأنك طفلة، والطفلة حين يكون

[109] المصدر نفسه. ص 15.

[110] المصدر نفسه. ص 19.

[111] المصدر نفسه. ص 88.

[112] المصدر نفسه. ص 29.

شعرها قصيرا، وترتدي لباسا معينا تتحول إلى طفل ذكر؟ وهنا أعلنت العينة فشلها الكامل عن الإجابة، والآن نعود للاستثناء، حيث كانت هناك طفلة قد صرّحت بأنها طفلة لأن فيها عضوا تناسليا يختلف عن العضو الموجود لدى الطفل، وكانت قد سمّت هذين العضوين باللهجة العامية، ولما سألناها عن مصدر معرفتها هذه قالت: أمي. ما نصل إليه من خلال هذه التحقيق التطبيقي البسيط – رغم نسبية نتائجه – هو أن الوعي الذاتي للطفل يحفّزه الغير، وبداية الوعي تختلف من طفل لآخر، وهذا الاختلاف يتحكّم فيه الغير بنسبة كبيرة فالوعي ببعض ملامح الأنوثة الفيزيولوجية نوع من الوعي، وكلما كان هذا الوعي سليما وصادقا، كلما كانت تحولات الوعي سليمة، ويكون الأنا سليما. وهنا نسأل: لو افترضنا أن طفلا نعزله عن الآخرين نهائيا، وبعد عشرين سنة نسأله السؤال نفسه، هل يمكنه أن يميز بين كونه ذكرا أو أنثى؟ نعتقد أن الكوجيتو الديكارتي يفقد نوعا ما مصداقيته في تلك الحالة فالوجود الحقيقي للأنا عند الطفل يحقّقه وجود الغير، وتلك العلاقات البيذاتية التي تتأسس معه لأن «الغير هو الوسيط الذي لا غنى عنه بين أنا ونفسي»[113] وإلا يبقى الوعي خامدا أو مشوّها دائما تحرّكه الفطرة العمياء.

لا يمكن أن يكون رصد تحولات الوعي بالطفولة إلا عملا عسيرا يحيل إلى كثير من الإشكاليات، لاسيما حين يرتبط الأمر بطفل لم يتح له الغير في مراحل طفولته الأولى فرصة كافية لتحويل الوعي بالذوات الأخرى إلى مواضيع تحيل إلى الأنا، لكننا – رغم ذلك – استطعنا رصد فكرة الغياب والمصادرة كنوع من أنواع القمع الفينومينولوجي الذي مارسه الغير إزاء الطفل، مما نجم عنه قمع تاريخ كامل من الوعي بالطفولة.

2 – مرحلة نشاط تحولات الوعي بالطفولة:

حين يمارس الطفل دور الشاهد نلفيه يحكي عن أسرته، ولعل التجربة الأكثر حضورا هي كون الأم تنجب مرارا وتكرارا، لكن تلك المخلوقات التي تزور الأسرة لا تطيل المكوث حتى ينهبها الموت، إلى درجة أن الطفل "محمد" لم يحظ بأخت إلا حين بلغ من العمر ثلاثة

[113] سارتر، جون بول. المرجع السابق. ص 380.

عشر عاما، ورغم أن الطفل يحيلنا إلى بعض المشاعر التي تنتابه إزاء هذه الوضعية كإدراكه – مثلا – لفكرة الموت التي ألحّت بحضورها على هذه العائلة حين يقول: «بدأت أدرك معنى الموت إدراكا قويا»[114] إلا أن كل تلك المشاعر لا تؤهّلنا لاختبار صيرورة الوعي بالطفولة، حيث مافتئ الطفل يتجاهل الخوض في طفولته، وكأنه لا يبصرها، إلى أن توقظه الأم (الغير) من سباته حين تخاطبه مباشرة: «يا ولدي أنت ما بقي لي»[115] فهاهو الغير يوجّه مرآته للطفل، ليتيح له للمرة الأولى النظر إلى طفولته، حيث يتبار للذهن موقع الوحدة داخل الأسرة، وهو المؤشر الأول الذي ينذرنا بوجود ارتباك في التعرف إلى الطفولة، حين يحدّد الغير موقع الطفل داخل الأسرة كرقم وحيد، ورغم أن هذا الوجود الوحيد هو وجود جسدي، إلا أن معرفة الموقع الجسدي يشكّل فرضية أساسية لتحديد موقع الطفولة، ويحيل إليه، وستهتز فكرة التماهي لدى وعي الطفل، لأن الوعي بدأ يغيّر – للمرة الأولى – اهتمامه من استبطان الآخر واستبطان الأسيقة المحيطة إلى استبطان الطفولة، وكأنه اللقاء السريع مع الغريب الذي يسكنه، ولم يعره يوما أحد اهتماما، إلى أن صرّحت الأم وأدهشته، حيث يتفطّن الطفل لموقعه: «عشت وحيدا»[116]. والوحدة هنا تحيل إلى كثير من الدلالات، فرغم أن الأم أومأت إلى الموقع الأسري، إلا أن الوعي حرّضته هذه الفكرة ليعيد إنتاج العوالم التي عايشها من قبل، ويحول فكرة الوحدة إلى ظاهرة، ثم ينبري في تشذيبها بغية إدراك ماهيتها وستتحوّل هذه الوحدة من بعد فيزيائي إلى بعد نفسي، وهنا نعي أن الوعي بالطفولة قد بدأ يخرج من مرحلة الخمود والتماهي، ليدلي ببعض الأحكام المعيارية المتعلقة بتضاريس الأنا وهو التحول الأول للوعي بالطفولة، وسيكون الإدراك هو فعل الوعي الذي يضطلع بهذا الدور، فالوعي له أفعاله كالحلم والإدراك والتفكير وغيرها، ولا يمكن أن يكون هناك إدراك دون شيء يدرك، كما لا يوجد موضوع دون فعل من أفعال الوعي، فالعلاقة جدلية بين فعل الوعي والموضوع، لأن وجود كل واحد منهما شرط حتمي لوجود الآخر، وقد تحقّقت هذه الجدلية عند الطفل، حيث هناك إدراك (فعل من أفعال الوعي) وهناك موضوع وهو "الوحدة"

[114] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص 93.
[115] المصدر نفسه. ص 14.
[116] المصدر نفسه. ص 29.

وعن طريق هذه العلاقة الجدلية يحضر الوعي بالطفولة للمرة الأولى: «يومئذ أدركت أنني فعلا وحيد»[117] هذا الإدراك البدئي للطفولة من حيث حضور فكرة الوحدة، مثلما أوقده الغير المتجلي في الأم يستمر أيضا في تعزيزه الغير، حيث يقول الأب: «لا أريدك أن تكون وحدك»[118] وكلها خطابات مرآوية تحيل إلى وعي الطفل بموقع الطفولة، وهي في كنهها إحالات إيجابية تجذل الشعور، وتتيح فرصة للطفل كي يحظى بفرصة للتعالي، فاكتشاف الأنا لمفهوم الوحدة الإيجابية يعزّز الثقة بالنفس ويضخّم الأنا، ذلك أن الوحدة هنا معناها حاجة الغير لهذا الطفل، وسلوكات الغير في هذه المرحلة وخطاباته المرآوية تثمّن ذلك وتؤكده، والوعي أدرك تلك الحاجة في مرآة الغير التي من خلالها اكتشف قيمته وموقعه وللمرة الأولى يحظى الأنا بهذا التشريف بعد إقصاء وتهميش، لذلك لا تكمن الأهمية في التعرف على موقع الوحدة في حد ذاته، بل تكمن في كون الغير أتاح فرصة –أخيرا– للنظر للطفولة، والاحتفاء بتجربة التواصل مع الطفولة بطريقة إدراكية واعية، كمن ينظر للمرة الأولى إلى وجهه في المرآة، وما يهمنا هنا هو أن مؤشر تحوّل الوعي بالطفولة إيجابي.

سرعان ما تقع النكسة حين يعيد الغير توجيه المرآة مرة أخرى للطفل، ليبصر موقعه ويعيد النظر في فكرة الوحدة التي منحته صفة التعالي لوقت ما، حيث تتحول الوحدة إلى نقمة، حين يعلن الغير أنها وحدة منحوسة، و«هذا الولد لا يترك وراءه أحدا»[119] وفي السياق نفسه: «كل الذين ولدوا بعده ماتوا»[120] وتتعزّز هذه الرؤية السلبية ببعض سلوكات الغير لاسيما حين يأخذ الأب الطفل "محمد" للشيخ "العمراني" ويروي له كيف أن هذا الطفل كل الذين ولدوا بعده ماتوا، ويعود الأب، وتمارس الأسرة بعض الطقوس على الطفل، وتعلّق له التمائم. إن الغير هنا يمارس مصادرته من جديد، حيث يصادر فكرة التعالي لدى الطفل ويسلبه لذة الحضور، ويحوّل موقعه من وحيد تعجبه وحدته ويتلذذ بموقعه، إلى وحيد منحوس يعاني الخيبة، ونحن هنا إذ نتحدث عن الموقع فنحن لا نقصد الموقع الطبيعي

[117] المصدر نفسه. ص 93.

[118] المصدر نفسه. ص 109.

[119] المصدر نفسه. ص 94.

[120] المصدر نفسه. ص 97.

فالطفل يحبه والداه ويتمسكان به ويهتمان به، وإنما نقصد الموقع الشعوري على مستوى وعي الطفل، حيث إن تحولات الوعي بالطفولة تعاني نكوصا جراء الصدمة التي عايشها الطفل والتي لم يستطع تقبلها، ولا أدل على ذلك من قول الطفل وهو حائر: «أضحيت مسؤولا عن وفاة إخوتي ... يا الهي ما ذنبي»[121] وهذا مؤشر سردي – أيضا – لتحوّل الوعي بالطفولة ونمو نشاطه، إلى درجة الولوج في علاقة مقاومة مع الغير، وتوتر العلاقة البيذاتية، وهذا المؤشر قوي كفاية كي يتيح لنا فرصة رصد تحولات الوعي بالطفولة، حيث إن الرفض ومقاومة وعي الغير هو تقدم ملحوظ، وهو في الآن نفسه دفاع عن هوية الأنا الذي يتمسك بفكرة الوحدة الإيجابية، ورغم أن الطفل استعان بالغير في اكتشاف وحدته الإيجابية، وقبل صورة المرآة الغيرية الأولى واحتفى بها، إلا أنه في المرة الثانية يرفض صورته في المرآة الغيرية الثانية، وهذا دليل على نمو الوعي بالطفولة، حيث بدأت تحولات الوعي تؤسس لماهية الطفولة وتحتفي بالجواهر، ولكن في كل الحالات نبض الوعي بالطفولة ازداد بتدخلات الغير، وازداد حدة حين تحولت العلاقة البيذاتية مع الغير من العدمية إلى علاقة صراع جدلي؛ كل وعي يحاول تحويل الوعي الآخر إلى موضوع، رغم أن وعي الطفل هنا لا يحاول مصارعة وعي الغير من أجل تحويله إلى موضوع، بل يحاول فقط المحافظة على مكتسباته التي منحه إياها الغير، وعاد ليسلبه بعدما سلبه من قبل الكثير، لكن وعي الطفل للمرة الأولى يشعر بفكرة السلب تهدّده، وبما أن وعي الطفل بالطفولة قد عاش تاريخا طويلا من الإقصاء والمصادرة لا حول ولا قوة له في هذا الصراع، فإن تحول الوعي المتأخر عنده يقيّده ويكبّله، ويبطئ ردة فعله، وهو بالكاد استضاف طفولته، وبالكاد فرح بها، وسرعان ما بدأت طفولته يشوّهها الغير، ويتحول التعالي إلى نوع من الإحباط والانطواء: «سأنشأ طفلا منطويا»[122] والانطواء هو لحظة الانكسار في معرفة الذات، وتحوّل الرؤية من النقيض إلى النقيض، لأن الغير فرض سلطته وقال كلمته الأخيرة، فلا يمكن أن يجابه وعي الطفل هذه السلطة إلا بالانطواء، والانطواء تحوّل سلبي في مسار تحول الوعي بالطفولة، فالانطواء تضميد لقروح الطفولة؛ هذه الطفولة التي بالكاد حدسها الوعي إلا أنه سرعان ما تعاطف

[121] المصدر نفسه. ص 94.

[122] المصدر نفسه. ص 93.

معها، واتحد معها اتحادا غامضا، لا يتيح له الفرصة للمواجهة، بقدر ما يتيح له الفرصة للانطواء، باعتباره «وسيلة دفاعية تهدف إلى التقليل من الشعور بالتوتر وألوان القلق».[123]

إن الانطواء فينومينولوجيا هو التوقف عن رؤية الطفولة من خلال مرآة الغير، وهذا يعني ركودا في معنى تحولات الوعي بالطفولة، وكأن لحظة الصدمة أعادت الوعي بالطفولة إلى مرحلة الخمود الأولى، وبالتالي من حيث لا يدري الطفل تتسع الهوة بينه وبين طفولته ويعود الطفل شاهدا من جديد، مهملا النظر لصورته في المرآة الغيرية، حيث إن التجربة شكّلت خيبة وانتكاسة الانطواء، أما ما يمكن أن نسميه تحولا ثانيا في الوعي بالطفولة – في هذا السياق – فهو الرفض، حيث يكون هناك إيقاف إرادي نوعا ما لصيرورة تحول الوعي بالطفولة، فهو هنا يرفض النظر للطفولة، ويرفض نمو الوعي بالطفولة المشوهة كما عكستها المرآة الغيرية الثانية، ولذلك يتعمّد إهمال الطفولة، ويعود إلى تقمّص دور الشاهد، ويبقى – في كل الحالات تقريبا – الرفض تعطيلا لصيرورة نمو الوعي بالطفولة، وهذا التعطيل الإرادي – نوعا ما – سينتج نوعا من الكبت اللاإرادي، حيث تتضخّم فكرة الرفض لتنتج بعض الحالات النفسية المعقدة لعل أبرزها الخجل.

بعد تعطيل صيرورة الوعي بالطفولة من خلال إستراتيجية الرفض، وبعد عقدة الصدمة الأولى، وتوتر العلاقات الإنية والغيرية، يتبنى الوعي بالطفولة ميكانيزما للدفاع يكمن في النكوص عن طريق العودة لاسترجاع الصورة المسلوبة الأولى التي شكّلت نقطة البداية في الوعي بالطفولة؛ بمعنى التحول النكوصي، وهو التحول الثالث للوعي بالطفولة لتبني مركزية الوحدة المتعالية، وتبني الصورة الغيرية الأولى، وهذا التحول النكوصي يعزز مركزية الأنا، ويشحنها بمختلف دلالات التلذذ بالوحدة، بعيدا عن السلطة الغيرية الواعية: «لقد عشت مع وحدتي بل وعشقت وحدتي»[124]، فالوعي بالوحدة المتعالية هو تضخيم للأنا في محاولاتها لتحقيق استقلاليتها والمحافظة على هويتها، والتحرر من رباق الاستعباد الغيري الواعي، لذلك كان إقصاء صورة المرآة الغيرية الثانية شرطا أساسيا للاحتفاء بالأنا، لأن

[123] حافظ بطرس، حافظ. تعديل وبناء سلوك الأطفال. الطبعة الأولى. عمان، الأردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2010 (م). ص 146.

[124] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص ص 259، 260.

الغير تحول من واهب للوعي بالطفولة، والوعي بالوحدة المتعالية، والاحتفاء بالحياة الشعورية إلى ناهب لكل ما وهبه، حيث قدّم صورة مشوّهة عن مفهوم الوحدة، وقزّم الأنا، وألغى وجودها الإيجابي، وإزاء هذه السلبية التي يمارسها وعي الغير يناضل الوعي بالطفولة من أجل الإبقاء على مركزيته المتعالية، متحاشيا الهامشية التي تحيله للعدم، فتحول وعي الغير من واهب للحياة الواعية إلى هادم للذات، ولذلك يشكّل الغير خطرا جسيما يجب إقصاء حضوره قدر الإمكان على مستوى الوعي، والسلوك الأنجح الذي يترجم محاولات الإقصاء هو الوحدة التي أعلن الطفل أنه يتلذذ بها، لأنها بالنسبة له تعني الاستقلال، وتعني حماية الأنا المتعالية، وحماية وحدتها المتعالية، وحماية حرية الوعي بمركزيتها، لكن تجريبيا لا يمكن تحاشي وعي الغير دائما، ولا يمكن تحقيق فكرة الاستقلال الإني الطوباوي، وعندما يقتحم وعي الغير خلوة الأنا يدرك الوعي بالطفولة الخطر المحدق بها، فيلجأ لإلغائها أمام وعي الغير عن طريق الخجل «وهكذا نجد أن الخجل خجل من الذات أمام الغير»[125].

مما سبق يكون الخجل في هذا السياق عبارة عن إخفاء للطفولة، وتعطيل لصيرورة الوعي، ولن يبقى حينها إلا الخواء الذي يسكنه وعي الغير بسهولة، فالخجل فينومينولوجيا هو احتلال وعي الغير للطفل، وتعطيل الوعي بالطفولة المتعالية، وعندما ينسحب وعي الغير ينسحب الخجل، لأن الوعي بالطفولة المتعالية قد نشط من جديد، واستعاد أناه المتعالية، ليحتفي بخلوته المقدسة معها من جديد، وتكرار هذه الصيرورات الفينومينولوجية يتبعه تكرار في السلوك، وهذا التكرار على اعتبار أنه تجربة مكثفة يفرض على الوعي ملاحظة المتغير، فيقوم بعملية الغربلة، حيث يهمل المتغير ويحتفظ باللامتغير الذي هو الماهية، والماهية هنا صفة جوهرية للأنا في علاقاته الباطنية «فالخجل يحقق إذن علاقة باطنة بين الأنا والأنا وقد اكتشفت الخجل مظهرا من وجودي»[126]، حيث يصبح الخجل من الصفات الجوهرية للأنا في نظر الوعي بالطفولة، وهو التحول الرابع للوعي بالطفولة: «فقد كنت طفلا خجولا»[127] وقد أومأنا سابقا أن في حالة حضور وعي الغير يتعطّل الوعي

---

[125] سارتر، جون بول. المرجع السابق. ص 381.

[126] المرجع نفسه. ص 380.

[127] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص 29.

بالطفولة المتعالية لدى الطفل لحماية هذه الطفولة المتعالية، لكننا لم نشر إلى أن ما يعوّض هذا الفراغ هو الوعي بالطفولة الخجولة، وحينها يكون وعي الطفل بأنه خجول، ولا أدل على ذلك من أنه وهو رجل تحتفظ ذاكرته بهذا الوعي: «أعترف الآن أنني كنت طفلا خجولا»[128] والذاكرة لا تحتفظ إلا بما كانت قد وعته في الطفولة عن طريق تحولات الوعي بالطفولة.

إن حضور الوعي بالطفولة الخجولة يستلزم تغييب الوعي بالطفولة المتعالية، ويستلزم حضور وعي الغير (صورة المرآة الغيرية الثانية) أما حضور الوعي بالطفولة المتعالية فيستلزم غياب الوعي بالطفولة الخجولة، ويستلزم غياب وعي الغير (صورة المرآة الغيرية الثانية)، وهي المعادلة التي تحقّق الأمان والراحة، ولذلك عشق الطفل وحدته الإنية، ولهذا نعتقد أن الخجل كان إيجابيا – نوعا ما – بالنسبة للطفل "محمد" لأنه نبع من تحولات الوعي بالطفولة المتعالية، وبالوحدة المتعالية، ونبع من حرية الاختيار والتمكن من حماية هذه الطفولة المتعالية، وتحقيق استقلاليتها ومركزيتها إلى حد ما.

في النهاية يمكن توضيح أهم مراحل تحولات الوعي بالطفولة من خلال الجدول التالي:

خمود بدئي	– غياب الوعي بتاريخ الحياة الجنينية. – غياب الوعي بالجسد. – غياب الوعي بالطفولة. – غياب المرآة الغيرية. – إستراتيجيات التعويض تكمن في (التخيل). – فشل الوعي في إدراك الطفولة. – العجز عن إصدار أحكام معيارية إزاء الشخصية. – تماهي الوعي مع أفعاله. – تقمص دور الشاهد.

[128] المصدر نفسه. ص 197.

	- الخضوع لسلطة الإقصاء التي يمارسها الغير. - عدم وجود علاقة بيذاتية واعية.
تحول أول	- الأم هي سبب الاتصال البدئي مع الأنا وهي جذوة تحولات الوعي بالطفولة. - معرفة الموقع الجسدي. - اهتزاز فكرة تماهي الوعي مع أفعاله. - التحول من استبطان الغير والأسيقة المحيطة إلى استبطان الطفولة. - حضور الوعي بالطفولة للمرة الأولى (الاتصال البدئي الأول). - استبطان فكرة الوحدة. - الأب يعزّز حضور الوحدة في وعي الطفل بطفولته الوحيدة. - ظهور فكرة الوحدة الإيجابية (فكرة التعالي – تضخيم الأنا). - مصدر أول خطاب مرآوي للغير يحيل إلى تيمة الوحدة الإيجابية هو (الأم – الأب). - استقرار العلاقة البيذاتية. - ظهور المرآة الغيرية الأولى. - ظهور الوعي الأول بالطفولة (وعي صورة المرآة الغيرية الأولى). - إصدار حكم معياري.
التحول الثاني	- مصدر أول خطاب مرآوي للغير يحيل إلى فكرة الوحدة السلبية (الوحدة المنحوسة) هو (الجدة – الأب). - مصادرة الغير لفكرة الوحدة الإيجابية. - ظهور المرآة الغيرية الثانية. - ظهور الصدمة الأولى. - ظهور تيمة الرفض. - توتر العلاقة البيذاتية.

	- مقاومة وعي الغير. - الدفاع عن هوية الطفولة المتعالية. - صورة المرآة الغيرية الثانية سلبية. - بداية التأسيس لماهية الطفولة. - الشعور بفكرة السلب. - تشويه المرآة الغيرية الثانية لصورة الطفولة. - ظهور تيمة الانطواء. - الفشل في مواجهة المرآة الغيرية الثانية. - التوقف عن رؤية الطفولة من خلال المرآة الغيرية الثانية. - إهمال الطفولة والعودة إلى تقمص دور الشاهد. - التعطيل الإرادي لصيرورة الوعي بالطفولة. - الوعي الثاني بالطفولة. - وعي صورة المرآة الغيرية الثانية ورفضها. - إصدار حكم معياري.
التحول الثالث	- استرجاع الوعي الأول بالطفولة. - التحول النكوصي (تبني مركزية الوحدة المتعالية – تبني صورة المرآة الغيرية الأولى) - شعور التلذذ بالوحدة. - تضخيم الأنا. - التحرر من رباق الاستعباد الغيري الواعي. - إقصاء صورة المرآة الغيرية الثانية. - الدفاع عن مركزية الطفولة المتعالية. - تحول وعي الغير إلى ناهب للطفولة. - حماية الطفولة المتعالية عن طريق الوحدة. - إصدار حكم معياري.

	– ظهور الوعي الثالث بالطفولة.
التحول الرابع	– حضور وعي الغير يعطل الوعي بالطفولة المتعالية فينتج فراغا. – تعويض هذا الفراغ بالوعي بالطفولة الخجولة. – حضور الوعي بالطفولة الخجولة يستلزم غياب الوعي بالطفولة المتعالية وحضور وعي الغير (صورة المرآة الغيرية الثانية). – حضور الوعي بالطفولة المتعالية يستلزم غياب الوعي بالطفولة الخجولة وغياب وعي الغير (صورة المرآة الغيرية الثانية). – إصدار حكم معياري. – ظهور الوعي الرابع بالطفولة.

التفسيرات النهائية:

– الوعي الأول بالطفولة هو الذي شكّل محور نمو الحياة الشعورية، ومحور تحولات الوعي بالطفولة.

– صورة المرآة الغيرية هي التي حرّضت الوعي بالطفولة على الظهور والتحول.

– مصدر المرآة الغيرية التي لعبت دورا أساسيا وهاما في تحولات الوعي بالطفولة هو الأسرة، وتحديدا (الأم – الأب – الجدة).

– الوعي الثاني والوعي الثالث والوعي الرابع تكوّنوا عن طريق علاقات بيذاتية مضطربة.

– اعتمد الوعي بالطفولة على استبطان المرآة الغيرية، وكان اعتماده على الوعي الذاتي ضعيفا.

– الوعي الأول تكوّن عن طريق علاقات بيذاتية مستقرة.

– بداية تاريخ تيمة الخجل يعود إلى التحول السلبي من الوعي الأول إلى الوعي الثاني حيث وقعت تجربة الصدمة الإنية الأولى.

- مرحلة خمود الوعي بالطفولة عطلت عمل الذاكرة.

- أهم ما يتذكّره المؤلف عن صفات حياته الإنية في مرحلة الطفولة هو أهم مراحل تحولات الوعي بالطفولة حينها.

- أفضل ما يترجم تحولات الوعي بالطفولة هو الأحكام المعيارية عن الطفولة.

- التجارب الشعورية الأولى للوعي بالطفولة هي التي تحدد – غالبا – نوعية الحياة بالنسبة للطفل "محمد" في رواية "حنة".

- صورة المرآة الغيرية السلبية هي أكثر الأسباب تحريضا لفكرة التحرر، فيمكننا أن نوجز بأن الوعي بالطفولة قد احتفظ بطفولته المتعالية، ونمّاها وضخّمها، واحتفى بها، وحقّق استقلاليتها وقوتها حين وعى الصور المرآوية الغيرية الثانية (السلبية)، وهذا ما جعل الخجل – في الحقيقة – اعتزازا بالطفولة عند الطفل، ومكّنه فيما بعد من التفوق في الدراسة، ومكّنه من أن يصبح أستاذا جامعيا، وروائيا يتقن لغة السيرة الذاتية، وهذا ما يحيلنا إلى أن الخجل قد يكون سببا وجيها للنبوغ، ونمو ملكة الخيال، وتطور موهبة الذكاء.

خاتمة الفصل الثاني:

- تيمات الطفولة الإيجابية تتكون من التيمات التالية: (تيمة الطفل الجميل – تيمة الطفل المسؤول – تيمة الطفل الخجول). وكل تيمة من هذه التيمات تتكون بدورها من تيمات فرعية، مما يجعل التيمة الأساسية نظاما تهندسه تيمات فرعية، وتكوّنه وفق علاقات قصدية وإحالية على مستوى الوعي؛ بمعنى أن التيمة الأساسية هي نظام أساسي تنتجه أنظمة فرعية وفق علاقات قصدية وإحالية على مستوى الوعي.

- نظام إنتاج الطفل الجميل فكرة ملحة على مستوى الوعي يتكون من خمسة أنظمة إنتاجية أساسية هي: (تيمة الجميل – تيمة الراشد – تيمة الجسد – تيمة الثقة – تيمة الانفصال).

- نظام إنتاج الطفل المسؤول فكرة ملحة على مستوى الوعي يتكون من ثلاثة أنظمة أساسية هي: (تيمة مسؤولية الأسرة – تيمة مسؤولية المجاهدين – تيمة مسؤولية الدراسة) وكل تيمة من هذه التيمات الأساسية تتكون من تيمات تتفرع بدورها إلى تيمات أخرى.

- نظام إنتاج الطفل الخجول فكرة ملحة على مستوى الوعي تحكّمت فيه الرؤية الغيرية والعلاقات البذاتية، وقد كان الخجل على مستوى وعي الطفل فكرة ملحة إيجابية مكّنت لحماية الوعي بالطفولة المتعالية.

الفصل الثالث

بويطيقا التيمة وغواية التأويل

ضبط المفاهيم:

– في هذا الفصل نحاول رصد الإمكانيات الجمالية التي يمكن أن ينتجها نظام إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، باعتباره نظاما معقدا يتيح على مستوى التلقي كثيرا من إمكانيات التأويل والتنقيب والقراءة.

– المستهدفة بالدراسة في هذا الفصل هي الأدبية التي يمكن أن تنتج عن علاقات التواصل بين المتلقي والتيمة في علاقاتها مع التيمات الأخرى.

– الأدبية المتوخاة بالدراسة هي تلك الأدبية التي تنتج عن العلاقة بين التيمة الأساسية (تيمة الطفولة) والتيمات التالية: (تيمة الصور الملحة – تيمة العنونة – تيمة المكان – تيمة الفوضى)، وقد انتقينا التيمات السابقة انطلاقا من اعتقادنا بأنها من أهم التيمات التي ترتبط بالتيمة الأساسية ارتباطا جماليا باذخا، وقد تغني دراستها عن كثير من التيمات الأخرى.

– ارتبطت الدراسة في هذا الفصل بروايات محددة من المدونة، هي تلك الروايات التي تجلّت فيها العلاقات التيماتية السابقة تجليا واضحا، يتيح الفرصة لرصد الإمكانيات الجمالية والأدبية.

– رصد أهم تجليات الأدبية باعتبارها نظاما قبل كل شيء، يمتلك إمكانيات جمالية لا يتحقق ظهورها إلا عن طريق إمكانيات القراءة والتأويل، ولذلك تكون "بويطيقا التيمة وغواية التأويل" هي النظام الجمالي الذي ينتجه نظام إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، وهذا النظام الجمالي هو نظام مشفّر لا يمكن فك شفراته إلا بواسطة التأويل، الذي لا يمكنه إلا إعادة إنتاج النظام الجمالي، ولعل إعادة الإنتاج هي في حد ذاتها جمالية وغواية وفتنة في الآن نفسه.

أولا: الصور الملحة:

أ – الصورة السيرية:

ما يلاحظ على رواية "حنة" هو تعدّد الصور الملحة التي يتعذّر اختزالها أو التغاضي عن بعضها، لأننا بصدد رصد الصور الملحة التي ارتبطت بتيمة الطفولة ارتباطا وثيقا والدراسة الجادة هي التي تتوخى رصد أهم الصور الملحة التي تبناها وعي الطفل وألح في استحضارها، لذلك تبقى الطفولة هي مركز الصور الملحة، والتغاضي عن بعض هذه الصور في الدراسة يقلّل من مركزية التيمة، وليس بالضرورة أن تكون هناك صورة ملحة واحدة، لاسيما إذا كانت الرواية عبارة عن سيرة استرجاعية، تحاول رصد الطفولة بعلاقاتها المعقدة والمتشبعة، وبأنماطها الاسترجاعية والاستباقية المتداخلة، لكن من باب العبث والإطناب السمج استحضار كل الصور التي ارتبطت بالطفولة، لأن ذلك إعادة للرواية إعادة تكاد تكون حرفية، والأجدى هو حدس الصور الملحة، حيث تكون كل صورة ملحة تتضمن عدة صور فرعية، وهذه الصور الملحة هي – في الحقيقة – تيمات فرعية ارتبطت بتيمة الطفولة المركزية ارتباطا قصديا، وألحت بحضورها على الوعي، فكان من القمين تبني عتبات عنوانية حتى تكون الدراسة أكثر منهجية ووضوحا، وفي ما يلي رصد لأهم الصور الملحة في رواية "حنة":

1 – الموت: لقد كان الموت من الصور الملحة التي استرعت اهتمام الطفولة، ذلك أن الطفل "محمد" في رواية "حنة" عاش تجربة طويلة مع الموت، إذ في كل مرة تحبل الأم ويتفطن الطفل لحملها، وهو يتلهف لرؤية المولود الجديد لينتشله من وحدته الأسرية، وما إن يتجاوز المولود الجديد بضعة أسابيع حتى يضبثه المرض، وتتخطّفه المنية، وتعيش الأسرة في كل مرة كابوسا من الشقاء والحزن، وهي تضطر لتوديع فلذات كبدها مرغمة، واستمرت حالات الموت زمنا طويلا، إلى درجة أن كل حمل تحمله الأم علامة بائنة تحيل مباشرة إلى توقعات الموت الحتمي، أما الطفل فكان من أكبر المتضررين بالمناسبات الجنائزية، لاسيما أن وجوده ارتبط بالموت، وأنتج ذلك رؤية أسرية سلبية إزاءه، تعتقد أنه منحوس يتسبب بنوع من الشؤم في إهدار حياة كل جنين مرتقب، وكانت هذه الرؤية السلبية تهور معتقداته النامية

إزاء ذاته، وتجعله في كل حمل ومرض وجنازة يتحمّل عبئا ثقيلا، لاسيما أنه في كل مرة تقحمه الأسيقة في معايشة طقوس الموت معايشة كاملة، حتى إنه في الرواية يحدّث عن كل تفاصيل الفاجعة، ويرصد جل الحركات الجنائزية قائلا: «كنت أصحب والدي إلى المقبرة ويتكرر هذا المشهد مرات عديدة، وفي كل مرة ينتهي المشهد بالصورة ذاتها»[1] وهذا التكرار وهذه المعايشة وهذه الصور الجنائزية نفسها، وتلك الرؤية الأسرية السلبية، كلها مؤشرات حفّزت الوعي على تبني رؤية استبطانية للموت، حوّلته إلى ظاهرة وإلى صورة ملحة بكل ما تتضمنه هذه الصورة الملحة من صور فرعية ألحّت على الذاكرة، كتلك التي توميء إلى المرض والكفن، ورؤية الأطفال الموتى، والقبر والمقبرة، وجل طقوس التعزية، والقرآن والأدعية، وغيرها من الصور التي تجعل من تيمة الموت تيمة مهيمنة.

2 - **البادية:** تحظى تيمة البادية بحضور مكثف، وكأن الطفل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من تفاصيل صورة البادية إلا وأحصاها بنمط يبعث على الدهشة، والمتلقي يعايش صورة البادية بدقة متناهية، فهذه الأسرة بيومياتها وجلساتها وسمرها، وبمناسباتها وضيوفها في الكوخ، وهذا الأب يمارس أعماله المختلفة ويفلح أرضه، وهذه تفاصيل الفلح والزرع والسقي والعناية بالحيوانات، وتفاصيل الحيوانات ونوعها وعلفها وزريبتها، وهذه الواحة بأراضيها وجداولها وسواقيها وأشجارها ونخيلها وفلاحيها وكلابها، ولا يمكن أن نحصي صور البادية إلا في صفحات وصفحات، ونحن في جل المناسبات السردية نلفي تصويرا للبادية بمظاهرها وأحداثها وطقوسها وعاداتها، فلا يمكن بذلك أن تكون البادية إلا صورة من الصور الملحة التي تواصل معها وعي الطفل وأسهب في التواصل معها، حتى إننا في دراستنا للتيمات المكانية وغواية الأفضية ألفينا أن الطفولة في أحد جوانبها لا يمكن إلا أن تكون هي المكان نفسه، وتضاريس المكان هي تضاريس الطفولة ذاتها، وهذا ما يجعل استحضار صورة البادية شرطا ضروريا لاستحضار الطفولة؛ هذه الأخيرة التي أبدت احتفاء بمكان البادية وبصورها المتهافتة، وكوّنتها نمطا تيماتيا يدبق بتيمة الطفولة ويتماهى معها.

[1] الباردي، محمد.المصدر السابق. ص 14.

3 - **الحارة:** وهي الفكرة الملحة التي يكاد اهتمام الوعي بها يتساوى مع الاهتمام بفكرة البادية، حيث يسهب الوعي في استحضار ترسانة كاملة من صور الحارة؛ بدءا من المنزل العائلي إلى الشوارع والجيران والفوانيس والدكاكين، وكل تفاصيل الحياة والأمكنة والعلاقات والمناسبات والأفراح والأتراح، وحتى التجارة والحوارات والملاسنات والتجمعات وما لا يمكن إحصاؤه في هذه السياق، لكن من باب التعليل والتبرير رصد بعض المؤشرات مثل الحديث عن الشارع «هذا الشارع الذي يضيئه فانوسان، أشبه بشمعتين تحترقان... في هذا الشارع تقطن أسر قليلة يمتهن أربابها مهنا كثيرة ...»[2] ويقول في سياق آخر: «بيوت من خشب وأبواب ثقيلة، وشوارع مظلمة والتواءات وحفر وأعمدة كهربائية وفوانيس تنوس كالشموع الذابلة ...»[3] وإلى غير ذلك من صور الحارة التي لم يترك الطفل شاردة ولا واردة إلا وأحصاها، وكل الأسيقة ترتبط بالمكان، فكان من الضروري والطفل يعايش طفولته في الحارة أن يحضر المكان في الوعي، ويقبع في عمق الذاكرة، ولكن الوعي بالغ في رصد صور الحارة وتفاصيلها الصغيرة والكبيرة، ولعل ذلك يحيلنا إلى مدى تعلق الطفل بالمكان بصفة عامة، وبهذا المكان بصفة خاصة، والمكان هو الصورة الأكثر إلحاحا على الوعي والأوفر حضورا في السرد، فقد ارتبطت الصورة المكانية الملحة بمكانين مركزيين هما البادية والحارة، وربما يوعز ذلك إلى مركزية التواجد الأسري في هذين المكانين اللذين كانت الأسرة تتردد عليهما باستمرار وانتظام، مما أتاح للطفل فرصة التشوق والتجدد، وهو في كل مرة يتلهف لزيارة المكان، ولا يتسنى له الوقت للشعور بالملل والرتابة، فكان النمط السردي كذلك في كل مرة يزور مكانا وينتقل بين المكانين، ويحاول في كل مرة رصد أكبر عدد ممكن من الصور، وكأنه يخشى الرحيل وانقضاء الفصول وعفاء الذاكرة، لهذا كانت اللهفة إلى المكان بادية للعيان، يلتمسها المتلقي في جل الأسيقة السردية، ويحدسها بوضوح كاف، وكانت هذه اللهفة سببا كافيا لقوة الصورة المكانية وإلحاحها الكبير على مستوى الوعي وعلى مستوى السرد في الآن نفسه.

[2] المصدر نفسه. ص 55.

[3] المصدر نفسه. ص 65.

4 – **المرأة:** لا يعني هذا أن الرجل لم يكن حاضرا على مستوى وعي الطفل، بل يعني أن تيمة المرأة استطاعت أن تهيمن بحضورها وتفرض وجودها، ذلك أن النساء اللواتي تواصل معهن الوعي كثيرات كثرة تثير انتباه القارئ، ويمكن الإشارة إلى أهم النساء اللواتي ارتبط بهن الطفل ارتباطا مباشرا، لاسيما على مستوى الأسرة، حيث نلفي تصويرا مكثّفا للأم وللعمات والجدات وزوجات الأجداد، وللجارات وبنات الجارات، ولليهوديات وبنات اليهوديات ومن النسوة من كانت علاقة الطفل بهن علاقة قرابة، ولعل أهمهن الأم والعمة والجدة، ومن كانت علاقته معهن علاقة صداقة كالبنت اليهودية، أو علاقة افتتان ومغامرة عاطفية كبنت الجدة والجارة "زنوبة" والمرأة "جنات"، أو علاقة مناسبات وحكايات كتلك التي ارتبطت بالفضائح والأعراس والإشاعات، أو علاقة اكتشاف كتلك التي ارتبطت بمومس الحي وقصة العلامة والوشم، وغيرها من العلاقات الوفيرة والكثيرة، إلى درجة أن الطفل يرصد أتفه تفاصيل الأنوثة بأعمالها وزينتها وحنّائها، وبطقوسها وخطابها ولغتها، وأسرار الخطبة والزفاف، وليلة الزفاف وغيرها، وهذا يحيلنا إلى كون الطفل كان منغمسا حد الثمالة في المجتمع الأنثوي الذي يبدو أنه لا يمارس أي تحفظات إزاء الطفولة، ويتركها تتشرد بفضولها وحريتها، وقد يبدو ذلك نوعا من الإهمال، لكنه أتاح للطفل أن لا يهمل تفاصيل الصور الأنثوية، وأبى إلا أن يخلدها على مستوى الوعي تيمة كاملة واضحة، تحظى بالدلالات الكافية وبالانتشار الفسيح.

5 – **التيمة الإثنوغرافية:** تملّكت الطفل موهبة غريبة في رصد الانتماء وصلات القرابة والأسماء، وتلك العلاقات الإثنوغرافية المعقدة، في مجتمع بنيته أكثر تعقّدا وتداخلا لذلك كان اهتمام الوعي بتصوير الصلات الإثنوغرافية تصويرا بارعا يصل إلى حد الاهتمام بالسير الكاملة في بعض الأحيان، وكمثال على ذلك قوله: «تزوج جدي وأنجب ولدين وبنتا من زوجته الجديدة...وكانت حانقة على عمتها الثانية...»[4] وفي سياق آخر: «زوجة العم ...مات زوجها تعيش مع ولديها وحفيدة لها من ابنتها الوحيدة التي طلقت زوجها وتزوجت

[4] المصدر نفسه. ص 56.

من رجل آخر»[5] ويقول: «وكان قد تزوج ابنة عمه وهي جدتك التي تذهب لزيارتها في بيت زوجها الثاني»[6] وأغلب هذه الصلات ارتبطت بالنساء، وارتبطت بحالات الطلاق والتداخل وثراء العلاقات الإثنوغرافية التي تشبّعت بها مستويات السرد ومستويات الرؤية الواعية، التي تحاول من خلال رصد هذه العلاقات المتواشجة تحديد موقع الطفولة في سياق بنية اجتماعية وسيعة ومتشعبة.

6 – الدراسة: رغم أن تيمة الدراسة ارتبطت بثلاثة أمكنة أساسية هي كتّاب البادية وكتّاب المدينة والمدرسة، إلا أن هذه الأماكن لم تحظ بعناية تصويرية كافية، بل إننا في بعض الأحيان نلفي إغفالا تاما لوصف أحد تلك الأماكن، ويكتفي الطفل – عادة – برصد المسافة التي تفصله عن هذه الأماكن، بيد أن التصوير اقترن – خاصة – بالمؤدب في المرحلة المسجدية، وبالمعلم في المرحلة المدرسية، حتى إن المفاضلة ارتبطت بالشخوص التعليمية، ولم ترتبط أساسا بتفاصيل الدرس، ورغم ذلك كانت الدراسة فكرة ملحة بيّنة لا يخطيء المتلقي في حدس مستويات هيمنتها وحضورها، لاسيما أنها ارتبطت بحالات الألم والامتعاض من جهة، وبحالات الأمل والجذل من جهة ثانية: «فرحت لأني سأترك هذا المؤدب القاسي وصبيه الفظيع وسأعود إلى مؤدبي في شاطيء السلام الذي يجلس على كرسي في ركن من أركان الجامع وتخرج من جبته رائحة طيبة ولا يسأل عن خموسياته من حبات البيض»[7] وفي نفس السياق يقول عن مؤدب شاطيء السلام: «كان ينظر إلى تعليم الأطفال كما لو أنه كان واجبا أكثر من كونه مهنة يرتزق منها»[8] وفي سياق آخر يقول عن معلمه في المدرسة: «سأظل أعترف لمعلمي سي صالح بأنه هو الذي جعلني أدرك عبقرية هذه اللغة»[9] وقد ارتبطت المدرسة بالتفوق والرغبة، وبذكريات الشعر والحرف، فكان التعليم في عمومه بالنسبة للطفل تيمة تزخر بالامتنان والشغف، رغم ما تخللها من بعض الرعب

[5] المصدر نفسه. ص 35.
[6] المصدر نفسه. ص 29.
[7] المصدر نفسه. ص 53.
[8] المصدر نفسه. ص ن.
[9] المصدر نفسه. ص 160.

والسوط، لاسيما في أحد أمكنة الدراسة المسجدية، ومن البديهي جدا أن تحظى تيمة التعليم باهتمام الوعي، كون الطفل لم يحرم من التعليم، وكانت أسرته تبدي اهتماما بالغا بالعملية التعليمية رغم فقرها وترحالها، وفوضى العلاقات والأسيقة المبعثرة.

7 – **الأسرة:** في سياق رصد الصور الملحة السابقة لا تخلو صورة ملحة واحدة من صور الأسرة، حيث تحضر الأسرة على مستوى كل الصور الملحة، مما يجعلها في حد ذاتها صورة ملحة، فتيمة الموت يحضر فيها الأب يكفن ويقبر ويتلقى التعزية، والأم تتشح وتبكي وتحزن، والعمة العمياء تولول وتنوح، وفي تيمة البادية نجد الأب يفلح ويبذر ويسقي ويرعى، والأم تطهو وترتب، وفي الحارة يتكثف حضور الأم بنشاطاتها المختلفة، والأب يمير الأسرة، والعمة بنزالها وشراسة لسانها، أما تيمة المرأة فهي الأخرى لم تخل من حضور الأم والعمة، ولا شك أن البعد الإثنوغرافي ارتبط أساسا بالأسرة في صلاتها الدموية وانتمائها وعلاقات القربى، والأمر سيان بالنسبة لتيمة التعليم التي هي الأخرى تظهر فيها الأسرة جذعة، سواء في تدخلات الأب أو تدخلات الأم خاصة، لذلك لا تحضر تيمة من تيمات الصور الملحة المدروسة آنفا إلا وتضمّنت صورة من صور الأسرة التي احتفى بها الوعي وكانت مناط اهتمامه دائما، ولم يستطع الاستغناء عنها فينة سردية واحدة حتى في سياق استحضار الصور الهامشية، فحق أن تكون صورة الأسرة أوار الصور الملحة ومركز اهتمام الوعي.

لعل ما سبق هو أهم الصور الملحة التي فرضت حضورها على مستوى وعي الطفل وقد سبق أن أومأنا إلى أن هذه الصور عديدة نوعا ما، وتبدو متباينة على مستوى البنية السردية السطحية، إلا أنها متداخلة ومتواصلة على مستوى البنية التيماتية، لأنها تشترك جميعا في الرؤية القصدية الواعية إزاءها، وفي اهتمام الطفل بها، وفي خلق وتكوين مستويات عالم الطفل وعالم تيمة الطفولة، وإلى هنا يبدو النمط التيماتي وتلك الصور الملحة قيمة فنية وسردية وسيرية عادية لا تتأهّل إلى مستويات الشعرية المؤثرة، لكن حين تحيلنا تلك الصور الملحة إلى سيرة كاملة من أسيقة الحياة، وإلى كيفيات الوعي بهذه السيرة، نتفطّن إلى شعرية الصورة الملحة في علاقاتها بتيمة الطفل، من حيث هي شعرية أنتجها البعد

السيري الواضح، ليس للطفولة في حد ذاتها، بقدر ما هي سيرة تحيل إلى البنية الاجتماعية والمكانية والأسرية والتعليمية، وإلى كثير من العادات والأبعاد الإثنوغرافية والطقوس والمناسبات وغيرها، مما يضفي على التلقي نشوة المعايشة السيرية بحيثياتها التخييلية الخلاقة لـ«يصبح دور الخيال الخلاق هو ابتكار الأحداث والشخوص والحوارات التي تكشف منطق النتائج التاريخية المعروفة وتجلو أسبابها العميقة بما لم يكن واضحا في المدارك في حينها»[10].

ب – الصورة التاريخية:

إن الصور الملحة في رواية "البزاة" هي نفسها الموضوعات التي ألحت بحضورها على مستوى وعي الطفل "مراد" الذي يبدو أنه تواصل مع عدة صور ملحة لعل أهمها صور الأب والمكان والتعليم والثورة والصديق والآخر، وتتصنف هذه الصور إلى صنفين حسب معايير الرؤية التي يتبناها الوعي إزاء هذه الصور، حيث توجد رؤية إيجابية ارتبطت بصور الأب والمكان والتعليم والثورة، ورؤية سلبية ارتبطت بصورة الآخر.

رغم الأسيقة الموبوءة إلا أن الطفل كان يحتفي بالتعليم كصورة تحيل إلى العطاء والرضا، حيث يكنّ الطفل احتراما جليا للمدرسة، وقد ارتبط – خاصة – بدروس التاريخ التي منحته وعيا كافيا بالوطنية، وجعلته يفتخر بانتمائه، ويتقمّص الشخصيات التاريخية «وقد تمنّى أن لو تقتصر الدروس كلها على التاريخ»[11] ولعل التاريخ بصوره المشوقة كان سببا وجيها ليستوعب الطفل هويته الوطنية، ويعي حقيقة الوجود الاستعماري وحقيقة الثورة «إنها حرب بيننا وبينهم»[12] وقد كانت الثورة من الصور التي فرضت شرعيتها على مستوى الوعي باعتبارها فكرة ملحة تحيل إلى الخلاص، فنلفي الطفل دائم التحمس للثورة وللمجاهدين وللعمليات الفدائية، ومصرا على «الانفجار وليس إلا الانفجار إنه مقتنع بهذه الفكرة

[10] فضل، صلاح. لذة التجريب الروائي. الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، د ت. ص 183.

[11] بقطاش، مرزاق. المصدر السابق. ص 99.

[12] المصدر نفسه. ص ن.

الجهنمية»[13] أما الصورة المكانية فهي أيضا من الصور الملحة، حيث أبدى الوعي ارتباطا بالمكان، واستوعب ماهية الفضاء المكاني الذي يتعرض للسلب والتشويه، ورغم ذلك يكافح الطفل من أجل اكتشاف دروب وأفضية مكانية جديدة، ولطالما كان يغامر في الأمكنة وهو دائم التوق إليها، وتيمة المكان هي التيمة التي تتحقق على مستواها كل العلاقات، لاسيما علاقات الصداقة التي ألحّت بحضورها في الرواية، بوصفها صورة مهيمنة على الوعي وتبدو جلية في علاقة الطفل "مراد" بالطفل "محمد الصغير" خاصة، وكيف كانت تلك الصداقة صورة مفعمة بالآمال والآلام والأحلام والأحداث المتداخلة والكثيرة، في حين أن صورة الأبوة استبطنها الوعي صورة ملحة لا تحيل إلا إلى الإشادة بالأب وتفاصيل عمله وتلك الوعود المرتبطة برغبة الأب في حماية طفله ومواصلته لدراسته، وكل الصور الملحة السابقة تبنّاها الوعي تبنيا إيجابيا، حيث كانت كل الصور تحيل إلى تواصل إيجابي إزاء موضوعات الصورة، أما الصورة الملحة السلبية فقد ارتبطت بالرؤية للاستعمار بمختلف تجلياته، حيث كان الطفل يكنّ عداء شديدا للأوربيين و«يتمنى في نفس الوقت حدوث انفجار هائل يطيح بالمدينة كلها وبالأوربيين الذين يقطنونها»[14] ويشمئز من المعمر "لوجندر" وقد اكتشف بشاعة الاستغلال الذي يمارسه، ولعل الكره الأكبر ارتبط بالجنود الفرنسيين المزروعين في كل مكان.

إن الصور السابقة لا تحتاج إلى عناء قراءة واستنتاج، لأن المتلقي يلفيها واضحة في الرواية التي هيمن فيها الطفل بحضوره، لذلك لا يمكن الإسهاب في رصد محتويات الصور الملحة، ذلك أن رصد محتوياتها لا يمكن أن يكون إلا تكرارا لما هو واضح في الرواية ولا يحتاج إلى تكرار عبثي، لهذا تهتم الدراسة بموقع الصور الملحة في رواية "البزاة" على مستوى الوعي، حيث يتضح مما سبق أن الصور الملحة الإيجابية أكثر حضورا وعددا من الصور السلبية على مستوى البنية السردية السطحية، لكن حين التولّج في أعماق الدلالات الباطنية يبدو أن الصور الملحة الإيجابية ذاتها لا تستمد وجودها وإلحاحها إلا من صميم

[13] المصدر نفسه. ص 59.

[14] المصدر نفسه. ص 58.

الصورة الملحة السلبية، ذلك أن الرؤية للأب وللتعليم وللصديق وللثورة وللمكان تستلهم معانيها وعلاقاتها القصدية من محتوى الرؤية للاستعمار، ولهذا تتغير مواقع الهيمنة، لتكون صورة الاستعمار هي الصورة المهيمنة والأكثر إلحاحا وحضورا، وتكون الصور الملحة الإيجابية – رغم تفوقها العددي الظاهري – مجرد صور تحيل دائما إلى مدى سلبية الرؤية إزاء الآخر، بوصفه استعمارا هيمن وجوده على كل الأسيقة، واستقطب اهتمام الوعي وكانت الصور بمختلف أنواعها لا تخرج عن حدود السياق الاستعماري العام، وكانت كل صورة إيجابية تحيل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى السياق الاستعماري، وكل الصور تتواشج وتتداخل، لتومىء إلى مدى وعي الطفل بالحقيقة التاريخية.

إن شعرية الصور الملحة في رواية "البزاة" تتأسس وفق علاقات التناص مع المرجعيات التاريخية، فقد «كانت خيوط الشعرية تتشكل لا من صيغة الخطاب بوصفه تجليا لفظيا، ولا من شكل المحكي وآليات بنائه، وإنما من نسيج موضوعاتي ثر، يستمد جماليته من تجميع تيمات مؤتلفة ومختلفة مشدودة إلى نقطة ارتكاز هي التاريخ»[15] لاسيما أن الصور الملحة لا تؤرخ للواقع، بقدر ما تؤرخ للوعي المرتبط بالطفولة، ويبدو أن كل الأمور المرتبطة بالطفولة وبوعيها شائقة، لاسيما إذا كانت الإحالة إليها بمنهجية فنية تتوخى التواصل مع المتلقي تواصلا شعوريا تخييليا قبل كل شيء، إذ المعرفة التاريخية اليقينية بمرجعياتها الواقعية وبأدلتها العلمية مستبعدة، أما الصور الملحة بوصفها نتاجا فنيا فهي أكثر إثارة للعواطف والأخيلة، وأغزر إنتاجا لمستويات المعايشة النصية، كما أن قيمة الصور الملحة ترتبط بقدرتها الدلالية على الإحالة إلى الوعي؛ هذا الأخير الذي يبدو متواريا ضمنيا لا يمكن اكتشافه إلا من خلال أهم الموضوعات التي ارتبط بها وقصدها، وهي الموضوعات ذاتها التي تؤثّث الصورة الملحة وتهبها حدودها، ولا شك أن حدود الصورة الفنية على مستوى السرد ما هي إلا حدود لغوية تمتح من اللغة وجودها؛ تلك اللغة التي يعيد الوعي المبدع إنتاجها إنتاجا فنيا «يخرجها من المستوى المعجمي الميكانيكي الدلالة، إلى المستوى الانزياحي الذي يتيح له أن يسخر لغته لمعان جديدة كثيرة تحيي مواتها، وتوسع

[15] لوكام، سليمة. متون وهوامش. د ط. تونس: دار سحر للنشر، 2012 (م). ص 83.

دلالتها»[16] ولعل مستوى إنتاجية اللغة الإبداعية يحيل إلى أهم تجليات الشعرية، بغض النظر عن قوة هذه الشعرية أو ضعفها، لكن يبدو أن الوضوح المفرط والتصوير المباشر من أهم أسباب ضعف المستويات التأويلية التي توميء إلى فتور مستويات الشعرية وعقم الصورة الجاهزة.

ت – صورة الأمومة:

تكاد لا تخلو صورة سردية في رواية "حب وبرتقال" من صورة الأم، لذلك يحدسها المتلقي صورة ملحة تواصلت معها تيمة الطفولة تواصلا ملحا، على اعتبار أن انتقاء الصور الملحة ورصدها يخضع لمعيار قوة الارتباط والقصدية، ولتلك العلاقات الإحالية التي تتأسس بين تيمة الطفولة والصورة الملحة، ولا شك أن الأمومة من أكثر الصور التي ارتبط بها وعي الطفل وتوخّى تأهيل مستوياتها الدلالية وصلاتها التيماتية، وحتى يتسنى لنا التقاط الصورة الملحة وعلاقاتها التيماتية، ومعايشة التجليات الشعرية لا مناص من رصد هذه الصورة رصدا تيماتيا تتحول فيه الأم من موضوع إلى ظاهرة يتواصل معها وعي الطفل ويعيد إنتاج مستويات الماهية، فكان من الضروري على مستوى الدراسة تصنيف الأم تصنيفا تيماتيا، حتى ييسر رصد العلاقات التيماتية وما تنتجه من مستويات دلالية وجمالية، وأما تيمات تلك الصور الملحة المتوخاة بالدراسة في هذا السياق فهي تيمات (الأم العاملة– الأم المعلمة – الأم المسؤولة – الأم المحبة – الأم الطفلة)، وهي التيمات التي لا تستهدف بالدراسة لذاتها، وإنما في سياق استبطان وعي الطفولة لها، وفي سياق مستويات الرؤية والعلاقات الإحالية، ومستويات التأهيل الفينومينولوجي التي يتبناها الوعي إزاءها.

1 – الأم العاملة: تحظى الأم العاملة بحضور باذخ على مستوى الوعي، حيث يشرع الطفل منذ البداية يعدّد صفاتها العملية، ويرصد تفاصيل المهنة التي تمتهنها، وهي الأم التي تعمل في مصنع لتلفيف البرتقال، ولا يغفل الطفل التدقيق في هذا العمل، وفي كل ما يرتبط به من ساعات العمل وفترات الاستراحة والعطل و«العاملات اللواتي يشتغلن مع

[16] مرتاض، عبد الملك. في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد. د ط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998 (م). ص 123.

أمي في نفس المعمل»[17] وطواقمهن البرتقالية الزاهية، واحتفالات عيد العمال وبطاقة العمل التي كتب في أعلاها «اسم أمي ولقبها بالحروف اللاتينية، ثم أيام الأسبوع باللغة الفرنسية»[18] وكان الطفل يعرف كم «تتقاضى أمي مقابل ساعة واحدة في العمل»[19] وتحصل على أجرتها في نهاية كل أسبوع، ولم يكن العمل وحده ليسترعي انتباه الطفل، ذلك أن الأب أيضا كان عاملا، وكانت له أجرة، وتفاصيل غيّبها الطفل تماما ولم يحفل بتصويرها، ولم يكن ذلك من باب التقصير أو السلوان، ولكن صورة الأم العاملة حظيت باهتمام الوعي، لأن الأم في حد ذاتها تعمّدت إشراك الطفل في خبايا وخفايا العمل، فكانت في كل مرة تلتزم بإحضار البرتقال، وتشارك طفلها في الاحتفال بمناسبات العمل و«تشركني في عد نقودها»[20] وتمنحه فرصا للتعرف على رفيقاتها في العمل، ناهيك عن أن الأم العاملة كان عملها مدعاة للاهتمام والاحتفاء ورعاية الطفل، ولم تكن الأم لتقصّر في علاقتها بطفلها أو تضطر لإهمال منزلها، وهي التي تتمتع بطاقات حيوية هائلة سبت الطفل، فأغرته بذلك صورة الأم العاملة.

2 - الأم المعلمة: رغم أن الأم لا تحظى بأية مستويات تعليمية أكاديمية، واكتفت فقط بحفظ سورة قرآنية واحدة، إلا أن الطفل في طفولته لم يفتأ مذهولا بقدرة الأم على تعليمه ومساعدته في التجاوب مع الدروس والحروف والقراءة، وهي التي لا تزوده بمعرفة معينة، ولا تمارس معه تلقينا معرفيا بعينه، وإنما تكتفي بتوجيهه وتصويب زلاته، كأن تصوّب بعض أخطاء القراءة، معتمدة على قراءة السورة القرآنية الوحيدة التي لا تحفظ غيرها «وتقرؤها بشكل سليم، أبهت، تزعزع ثقتي بكونها أمية، فأشمر على ساعد الجد كي لا أخطيء ثانية»[21] وهكذا حرصت الأم على تعليم ابنها، وكانت في كل مرة تطلب منه إحضار المحفظة، وتجلسه إلى جانبها، وتمارس الطريقة ذاتها، ولقد بدا جليا أن الأم ليست معلمة

[17] لغتيري، مصطفى. حب وبرتقال. 12.

[18] المصدر نفسه. ص 19.

[19] المصدر نفسه. ص ن.

[20] المصدر نفسه. ص ن.

[21] المصدر نفسه. ص 15.

ولا يمكن أن تكون كذلك، لكنها بالنسبة للطفل معلمة من النوع الرفيع، وحسبها أنها أبهرت طفلها وحفّزت رغباته التعليمية، ودائما «كان ذكاؤها ولا يزال يبهرني»[22].

3 – **الأم المسؤولة:** إن الأم تضطلع بكثير من المسؤوليات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الطفل، فهي لا تهمل منزلها، وما إن تعود من العمل حتى «تشرع مباشرة في أشغال البيت تنظف، تطبخ، ترتب الغرف البسيطة الواهنة، يعبق في البيت عبير وجودها الآسر»[23] كما أنها تحرص على تعليم ابنها، وتكلّفه ببعض مهمات الشراء، وتحرص على أن تكون معاملاته منضبطة ومواعيده مضبوطة، وتبدي عناية فائقة بملابسه وبتجواله ووسامته، ولا تغفل مشاعره، وهي دائما تصفه بالجميل، وتزرع الثقة في داخله، وتتفطّن لعلل علاقاته مع الأنثى، ولا تتردّد في التدخل لرأب الصدوع العاطفية، فهي هكذا مسؤولة، وتتفانى في مسؤولياتها إزاء طفلها، وهو – هكذا – استوعب هذه المسؤولية، واستبطن الأم باعتبارها مسؤولة تحيل إلى رعاية باذخة، حظت بها الطفولة في كنف أمومة رائقة، ومستويات علائقية متلازمة.

4 – **الأم المحبة:** «إنها شلال دافق من الأحاسيس الجميلة»[24] نظرا لعطائها العاطفي الباذخ الذي تولّج أعماق الطفل ومنحه فرصة لمعايشة شلال الأحاسيس الدافق الذي لا يمكن أن يكون إلا رؤية ذهنية خالصة ينتجها التواصل الشعوري، وبغض النظر عن الرخاء المادي الذي يحظى به الطفل، كان هناك رخاء عاطفي ينهل فيه الطفل من مناهل الأمومة العذبة التي لا تكدرها الدلاء والأسيقة، ولا تشوبها شوائب الشك والاضطراب، إذ لطالما ولع الطفل بأمه، وأذهلته مناقبها، وسرّه وجودها، يستمد طفولته من عبق أنوثتها، وهي التي لا تدّخر جهدا في إعالته وتسليته وتدبّر شؤونه، وتسعى دائما جاهدة لتلبية رغباته وتحقيق أحلامه حتى المتوارية منها، لذلك شغف الطفل بحبها، ولازمه هذا الشغف، إلى درجة تماهى فيها الطفل مع الأم وتقمّص هويتها العاطفية، إذ بات يعي حالات الفرح والحزن

---

[22] المصدر نفسه. ص 14.

[23] المصدر نفسه. ص 13.

[24] المصدر نفسه. ص 23.

التي تعتريها، ويحس بنبض مشاعرها، ولأنه أحبها، اعتقد جازما أنها محبة، وشلال دافق من الأحاسيس الجميلة، يتجاوب مع كل همسها وحكيها ونبرها، ويستلهم منها فكرة الحب في أسمى معانيه، وكيف «أحب بلا حدود ودون أن أنتظر مقابلا لهذا الحب»[25] وكيف «أن جائزة الحب الكبرى تكمن في ذلك الإحساس الجميل الذي يخترقنا بغتة ودون سابق إنذار»[26].

5 – **الأم المبدعة:** يعتقد الطفل أن من بين الصفات التي اتصفت بها الأم صفة الإبداع، لأنها في نظره تبتكر الحياة دائما وتجدد أسيقة الوجود، فلطالما أذهله ذكاؤها المتقد وحيويتها الدافقة، وهي التي تتمتع بنوع من السحر الأنثوي الخاص، وتمتلك القدرة الكافية لإنتاج الجمال، بلمسة واحدة تحوّل الغرف الواهنة إلى حياة متألقة، وبعملها البسيط استطاعت أن تهب طفلها المرح والحبور والاكتفاء، وبحكاياتها فتنته بتفاصيل الأخيلة والمغامرة وغواية السرد و«وجبات الطعام كذلك كانت تبدع فيها، تفاجئنا دوما بوجبات لم أسمع بها من قبل، أسماؤها تغرفها من قاموس حائل»[27] كما تخترع الصدريات والجوارب والقبعات والزرابي، فهي حقا «بارعة ومبدعة»[28] والإبداع قيمة مثالية مغرية تؤهّل معتقدات إيجابية إزاء الأم، وتنتجها أمومة مبدعة على مستوى الوعي، وهو ينحت ماهيتها بإزميل الغواية والتنويه، ويؤثرها دائما نمطا ساميا متعاليا، لا يهتم بما هو مرجعي واقعي بقدر ما يهتم بالصورة التي تبناها الوعي وأولاها اهتماما وحماية، والطفل لا يكل ولا يمل يصور الأم صورة مقدسة، ورمزا غنيا بدلالات الحب والجمال والإبداع.

6 – **الأم الطفلة:** نلفي الطفل في رواية "حب وبرتقال" يتواصل مع طفولة الأم تواصلا جادا، ويستحضر كثيرا من تفاصيل هذه الطفولة، وهو يبدي نوعا من التعاطف والنشوة في الآن نفسه، ذلك أن انبهاره بالأمومة جعله يغرق في رصد تفاصيل هذه الأمومة حتى عندما يتعلق الأمر بالتواريخ التي سبقت وجوده بكثير، ولم يكن الطفل ليماري في أي

[25] المصدر نفسه. ص ن.
[26] المصدر نفسه. ص 23.
[27] المصدر نفسه. ص 43.
[28] المصدر نفسه. ص 45.

من الحكايات التي تحدّث فيها الأم عن نفسها، ونلفيه يتلقى الحكي باستسلام كامل وبمعايشة تامة، وكأنه في غيبوبة تنقله من عالم طفولته إلى عالم طفولة الأم، إلى درجة يسلى فيها طفولته ويتقمّص طفولة الأم، فنجده يبكي لبكائها، ويفرح لفرحها، ويتفاعل مع كل حالاتها العاطفية، ومع كل الأحداث التي رافقت طفولتها «وبطبيعة الحال لم أكن قادرا على مجرد التفكير بأن حديث أمي قد يخالف الحقيقة من قريب أو من بعيد»[29] وهذا التقمص شبه الكامل لطفولة الأم يحيلنا إلى أن صورة الأم التي ألحت على الوعي تتمادى، ويسهب الوعي دائما في رصد تفاصيل الأمومة، وإن لم تكن لبعض التفاصيل علاقة مباشرة بطفولة الطفل فإنه يحاول التواصل معها، وكأنه يتوخى رسم صورة كاملة شاملة لهذا الكائن الأنثوي الذي أغواه وأغراه كثيرا وفتنه، وتأسّس صورة ملحة واضحة على مستوى وعيه.

نأيا عن الإسقاطات المقحمة يكفي أن نوميء إلى أن الأمومة تجلّت صورة ملحة واضحة على مستوى وعي الطفولة، وبذلك تعددت مستويات العلاقة بين تيمة الأمومة وتيمة الطفولة، وهي علاقات – في مجملها – تحيل إلى استبطان الأمومة استبطانا عاطفيا إيجابيا، وإلى مدى تأثير الأمومة بعبقها على الوعي، وهو لا يرصد تفاصيل صورة الأم في حد ذاتها بقدر ما يرصد تفاصيل صورة الطفولة في علاقتها مع الأمومة، وذلك لا يكون إلا نمطا من أنماط تأهيل تيمة الطفولة تأهيلا جماليا باذخا، من خلال تأهيل تيمة الأمومة بغض النظر عن الوجود المرجعي والواقعي للأم، حيث إن كل ما تبناه الوعي عن صورة الأم لا يعدو نطاق الوعي، ولا يزيغ قيد أنملة عن محتويات التواصل مع الأمومة وعلاقات القصدية، والإحالة المتبادلة بين تيمة الأمومة وتيمة الطفولة، وما أنتجته هذه العلاقات من مستويات جمالية على مستوى وعي الطفل، وكذا على مستوى التلقي، وما أنتجته من صور ملحة هي ذاتها أنتجت مستويات من الوعي «ذلك أن الصورة نفسها هي أصل للوعي»[30] لأنها تمنح الوعي إمكانيات لاستيعاب القيم الجمالية، وإمكانيات للتواصل مع الأمومة

---

[29] المصدر نفسه. ص 49.

[30] الإمام، غادة. جاستون باشلار. جماليات الصورة. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر، 2010 (م). ص 169.

تواصلا شعوريا باذخا، باعتبارها صورة جمالية ملحة، تعدّ منبعا ثرّا لكل التصورات الجمالية الأخرى.

ث – الصورة السوداوية:

تستمد الصور الملحة على مستوى وعي الطفل "محمد" في رواية "هموم الزمن الفلاقي" شرعيتها ومستويات حضورها الملح من أوار تجربة الألم وصيخد الأسيقة الكاوية والطفل يوشك أن يأفل ويذوي، لاسيما حين بلغ والده من الكبر والفقر عتيا، وضبثه الموت بأضباث قاسية، في ظروف استعمارية قاهرة، والطفل تستعبده المسغبة، ويفترسه الطوى قابعا في كوخ قديم حقير، ويتعرّض في قسم المدرسة للركل والصفع والإهانة، ويعود خاسئا موبوءا يمارس وحدته أمام كوخه المهزوم «وهو يحك جسده الذي لم يلامسه الماء منذ وقت طويل»[31] والماء يعني الحياة، وانعدامه يحيل إلى المعنى المجازي الذي يوميء إلى مدى تحجّر الحياة في وعي الطفل، وقد تحول الوجود إلى أرض مقفرة مجدبة، ليست صالحة للإخصاب والعطاء، ولا يمكن أن تكون إلا دلالة من دلالات القهر والفناء، والطفل يجدب ويتحول إلى قاع صفصف بـ «شعره المجعد وأظفاره القذرة»[32] ليحول غياب الماء الجسد إلى نكبة حقيقية تتشوه فيها كل تضاريس الحياة البريئة، والطفل يعايش هذا التشوه، وقد تمكّن منه الألم واستباحه الظمأ الشديد، وبما أن فرضية انعدام الماء الحقيقي تبدو منعدمة، فإن انعدام الماء هو انعدام مجازي لا يحيل في هذا السياق السردي إلا إلى الإهمال الذي يعانيه الطفل، وهو يوشك أن يصبح حرضا، سواء أكان هذا الإهمال ناجما عن أسيقة وضع الأسرة المزري أم ناجما عن الرؤية السلبية إزاء الطفولة؛ هذه الرؤية التي تعتقد بعدم جدوى الطفولة، لاسيما حين رأى الطفل «والده تحت الفراش القديم»[33] سقيما يوشك على الموت وقد تبادرت في ذهن الطفل أسئلة الضياع، ومصيره الذي بين المطرقة والسندان «وظل محمد يفكر في مستقبله»[34] والمآسي تتضخّم على مستوى وعيه، ففي البداية كان الفقر

[31] مفلاح، محمد. المصدر السابق. ص 244.

[32] المصدر نفسه. ص 245.

[33] المصدر نفسه. ص 242.

[34] المصدر نفسه. ص 243.

يربض في مخدعه، ثم تشوهّت صورته الجسدية، ثم كانت ثالثة الأثافي حين ذوى الأب وهو المعيل الوحيد الذي يمير الأسرة، وكان يحمي الطفل من كيد الانتهاز والظلم والاستغلال، وبعدها «رفع رجال الدوار النعش واتجهوا به نحو مقبرة سيدي عبد القادر»[35] حيث قبرت الآمال الأخيرة حين قبر الأب، وصاح الطفل بأعلى صوته معلنا: «أنا حزين...حزين»[36] وهكذا تستمر الأسيقة المجحفة تشوه حياة الطفل، وهو لا يتواصل مع الحياة ومع طفولته إلا تواصلا مهزوما منكوبا، قد تمكنت منه السنون العجاف وأذوت طفولته، فكان دائم الشرود والشتات «يبكي بحرقة ما جرى لعائلته الفقيرة»[37] التي تشتّت شملها، ولعلها منذ البداية كانت تحمل بذور الفناء في عمقها، إذ لم يتفاجأ الطفل بحالات الفجيعة، لأنه منذ البداية كان يعايشها، والظروف الناهبة تتأزم شيئا فشيئا، وكل ما حوله ينذر دائما بالمصيبة، حيث لم تكن على مستوى السرد وعلى مستوى الحياة التي ساورت الطفل لحظة واحدة تحيل إلى الغبطة إلا من باب الإحالة الهامشية جدا.

بما أن الوعي المبدع في الرواية قد سيطر على مستويات السرد سيطرة تامة واضطلع بهيمنة زاوية الرؤية – حيث يحرك الشخصيات والأحداث والعلاقات كما يحرك بيادق الشطرنج – فإننا لا ننفي الصورة الملحة هكذا مجسدة بوضوح صارخ على مستوى وعي الطفولة، لكن المؤشرات السردية، وتلك الأسيقة الدلالية إحالات واضحة وجلية إلى تلك الصورة السوداوية الكالحة التي ترسّخت في عمق وعي الطفل، وهي صورة ذهنية ملحة تشبّعت بمستويات القهر وحالات الهم المفرط التي ترجمها الإهمال، والتشوه الجسدي والشرود والوحدة، ورفض الطفولة، والفقر وموت الأب، وقسوة التعليم، والواقع الموبوء بمختلف تجلياته الاستغلالية والاستعمارية والكيدية، لذلك فقد الطفل القدرة على التجاوب مع محيطه ومع طفولته، كما كسد نشاطه وتعطلت مشاعره، وهي السمات الأبرز لحالات الاكتئاب والسوداوية «والسمات السوداوية هي غم مصحوب بألم عميق، نبذ الاهتمام بالعالم

[35] المصدر نفسه. ص 280.
[36] المصدر نفسه. ص 281.
[37] المصدر نفسه. ص 286.

الخارجي فقد القدرة على الحب، كف كل نشاط، وانخفاض لمشاعر اعتبار الذات»[38] وبذلك يكون الطفل قد تخلى عن مستويات التواصل الإيجابي مع العالم ومع الطفولة، وقد استبطن الوعي كل المواضيع التي قصدها وارتبط بها استبطانا سلبيا يحيل دائما إلى السوداوية، وهي الحزن المدقع الذي تبنّاه الوعي صورة ملحة، لعلها الصورة الوحيدة التي ألحّت بحضورها على مستوى وعي طفل الرواية، ولم تبرحه إلى أن أصبح جثة هامدة.

إن صورة السوداوية مارست حضورها بقوة، وعطّلت مستويات التجاوب مع العالم ومع الطفولة التي راح الطفل يسعى جادا للتملص من رباقها، وتجاوز تلك المرحلة التي ارتبطت بالنسبة له بالضعف والعوز والانهيار، لذلك كانت آماله منوطة دائما بالجبال وبالثورة التي يعتقدها السبيل الوحيد للخلاص، إلا أنه لم يحظ أبدا بفرصة لتحقيق هذا الخلاص المزعوم، ولهذا مارست الصورة السوداوية الملحة قوتها الدلالية، وعربدت بكل حرية، عابثة بالرؤية إزاء الطفولة وإزاء العالم، ومعطلة كل المشاعر وإمكانيات الخلاص والتجاوب والأمل، وتمادت الأسيقة السوداوية وتفاقمت في كل مرة وفي كل مرحلة تغذّي الصورة السوداوية الملحة، وتزيد من طاقاتها الانتشارية، ومن دلالاتها المتوالدة والمتأزمة.

ج – صورة اللقاطة:

الصورة الأدبية «فعل دلالي لساني»[39] وفضاء لغوي خصب يستعير خصوبته من التحولات الدلالية الجمالية، ومن الترابط الإحالي الباذخ، ومن قوة الاقتدار الحضوري، حيث يكون السرد الفني – عادة – باذخا بمستويات التصوير وحضور الصور المتشعبة، لذلك من المفيد في هذا المستوى البحثي أن يكون هناك ضبط نقدي لحدود الصورة المرغوبة والمتوخاة بالدراسة، وهي في هذا السياق البحثي الصورة الملحة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بتيمة الطفل وتلح بحضورها على مستوى الوعي المبدع، وعلى مستوى كل الأنماط السردية التي تحيل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى الطفولة وإلى مركزية الطفل "هلال الأحد" في رواية

---

[38] فرويد، سيغموند. أفكار لأزمنة الحرب والموت. ترجمة: سمير كرم. الطبعة الثانية. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة، 1981 (م). ص 68.

[39] تودوروف، تزفيطان. المرجع السابق. ص 86.

"أطفال بورقيبة"، وكيف يمكن أن تكون هذه الصورة الملحة جذوة من جذاء الإثارة الجمالية وأحد أهم مستويات إنتاج شعرية التلقي.

يمكّن الحدس الفينومينوجي من رصد الصورة العنوانية "أطفال بورقيبة" متناسخة في الفضاء السردي بنمط من الإلحاح والهيمنة، وتكون بداية التناسخ الدلالي في الصفحة السادسة عشر «صار هلال الأحد من أطفال بورقيبة»[40] وهي الصورة الإحالية الأولى بنمط لغوي مباشر للعتبة العنوانية، لكن فعل الصيرورة والتحول يكثّف دلالة الانتماء، ويثري الرصيد البورقيبي بعدد جديد، مما يجعل هذه الصورة تتأسس على صيغة عددية تميّز الطفل "هلال" عددا معتبرا في سياق تركيب دلالي متناقض، يناقض أفق توقعات المتلقي وأرصدته المعرفية وخلفياته الثقافية، إذ مازال "بورقيبة" في القاموس التاريخي لا يحظى إلا بطفل واحد ينتمي إليه انتماء دمويا جينيا، لكن الصورة الملحة تتمادى في التضليل الدلالي وخلق صدمة التلقي، وما تلك المستويات التحولية العددية في الصورة إلا تمويها جديدا يزيد الصورة الملحة انزياحا ومجازا، وكأن "بورقيبة" (الصورة السردية) في كل مرة يصير له طفل، وهي الصورة الأكثر خصوبة، باعتبارها إنتاجا غزيرا للطفولة، وهو إنتاج غامض لا يمكن أن يستمد مشروعيته الدلالية من العلاقات الدموية والجينية، ذلك أن فعل الصيرورة ينفي منذ البداية تلك العلاقات، ويحيل إلى كون العلاقة بين الصورة البورقيبية والصورة الطفلية هي نوع من علاقات الاستيلاء، لأن فعل الصيرورة يحيلنا – ضمنيا – إلى وجود نقطة البداية، إذ التحول لا يمكن أن يكون إلا بين موقعين، وما دام الموقع الثاني هو الأبوة البورقيبية، فالموقع الأول هو بالضرورة موقع الأبوة الأولى، وهي الأبوة الدموية، أما الثانية فهي الأبوة الاستيلائية التي مكّن لها فعل الصيرورة أن تلغي موقع الأبوة الأولى، فلا يمكن إلا أن يكون فعل الصيرورة إرادة بورقيبية، حين نعي أن "بورقيبة" هو من «جعل من نفسه أبا شخصيا لجميع اللقطاء»[41] وهنا يرتبط فعل الصيرورة السابق بإرادة الفعل "جعل" الذي يحيل إلى سبق الإصرار والترصد، وتكون الصورة الملحة في تجليها الجديد أكثر تحديدا للطفولة البورقيبية، التي يبدو

[40] بن عثمان، حسن. المصدر السابق. ص 16.

[41] المصدر نفسه. ص ن.

أنها لم تستول على كل الأطفال، ولكنها استهدفت فئة معينة هي فئة اللقطاء الذين مهدت للقاطتهم، فهي صورة بورقيبية لا تستولي فقط، بل إنها تنتج نمطا معينا من الطفولة اللقيطة التي ييسر الاستيلاء عليها وتبنيها، وهي منذ البداية مؤهلة للتجرد من أبوتها الدموية، لذلك كان فعل الصيرورة يمتلك تاريخا عميقا يسبق الطفولة في حد ذاتها، ويستهدف تحولات انتمائية شعورية، وليست تحولات انتمائية دموية، لذلك كان "هلال" «يشعر باستمرار أنه طفل طفل لبورقيبية»[42] وهذا الشعور يفرض ذاته رغم أنه يتعارض مع اليقين المعرفي ويتعارض تعارضا عاطفيا صارخا، إذ هو شعور تسلطي فوقي يستمد قوته من الصور البورقيبية، ومن علاقات الصيرورة والاستيلاء، لذلك كانت هذه الأبوة مرفوضة على مستوى المنطق والعقل، لأنها أبوة استيلائية، ولأنها ليست دموية؛ بمعنى أنها ليست محددة، و"هلال" لطالما أمعضه انتماؤه «لأب غير محدد لأنه أبو الجميع الذين لا آباء لهم والذين لهم آباء»[43] فكانت الأبوة المطلقة علة وجيهة لرفض هذه الأبوة من طرف الطفل، ولكنها بالنسبة لـ "بورقيبة" الأبوة المطلقة الناجعة التي تحقق الأبوة السياسية، وترسّخ النظرية البورقيبية بنوع من الامتداد الزمني المطلق والرمزية المتوارية «فبورقيبة في منأى عن الموت مادام له أطفال كثر ينتمون إليه»[44] وهكذا يكون "بورقيبة" الذي ينتمي إليه الأطفال، وينتمي إليه "هلال" ليس هو "بورقيبة" الشخصية التاريخية في حد ذاتها، بقدر ما هو "بورقيبة" الرمز السياسي والأيديولوجيا، والمجتمع المدني الجديد، لذلك تلح صورة "أطفال بورقيبة" بحضورها دائما لتؤكد هذا الانتماء الرمزي: «أنت من أطفال بورقيبة هل تسمعني؟ من أطفال بورقيبة...أي نعم، أطفال بورقيبة»[45] بمعنى أطفال العقيدة السياسية، وفكرة أنجبها النظام، وبهذا تتضمن الصورة الملحة نمطا من الوعي السياسي، وفضحا ذكيا لعلاقات الصيرورة والاستيلاء لاسيما حين يكون الاستيلاء تخطيطا منهجيا ماكرا ينتج اللقاطة ويشرّع لها، وبعد ذلك يدّعي حمايتها ورعايتها، وهو – دائما – يضع الأبوة الدموية موضع اتهام، حتى يتوهم الطفل أنه

[42] المصدر نفسه. ص 64.
[43] المصدر نفسه. ص ن.
[44] المصدر نفسه. ص ن.
[45] المصدر نفسه. ص 60.

ضحية خيانة دموية، ولكنه – في الحقيقة – ضحية خيانة سياسية، وتتضح محاولات فضح هذا التمويه من خلال تحولات الصورة الملحة، لاسيما حين يرتبط طفل "بورقيبة" بصفة اللقيط «أليس هو من أطفال بورقيبة، لقيط أعني»[46] ولهذا تكون الأبوة البورقيبية في الحقيقة أبوة ترادف الخيانة واللامشروع، لأنها ترتبط دائما باللقاطة والزنا والخطيئة: «أنا ابن زنا أنا من أطفال بورقيبة»[47] وكل الصفات المرتبطة بالطفل اللقيط على مستوى الصورة الملحة تحاول دائما إماطة اللثام عن حقيقة الأبوة الاستيلائية الجديدة، التي لا يمكن أن تكون إلا أبوة رمزية سياسية، تتسم بالمداهنة والدهاء، ذلك أن اللقاطة التي تبنتها الأبوة السياسية لتحقيق سلطتها، ولإقصاء الأبوة الدموية، وتحقيق الولاء للنموذج السياسي الرمزي، هي نفسها التي قد تكون سببا وجيها للتنّكر لهذه السلطة، لأن الصورة الملحة – بعد أن حاولت توضيح العلاقة الرمزية بين الطفولة و"بورقيبة" ونمط الصيرورة والاستيلاء – تحاول دائما أن تنبّه لضرورة البحث في كنه العلاقة بين اللقاطة والأبوة السياسية، لذلك نجد "هلال" بعد مرحلة الطفولة قد «أضمر الانتقام من بورقيبة نفسه، من أبيه الذي سمح له بالوجود»[48] وهنا تبدو جليا الإحالة إلى العلاقة بين اللقاطة والأبوة السياسية، حيث إن هذه الأخيرة هي التي شرّعت للقاطة، ووفّرت ظروف ظهورها، فكانت الصورة الملحة دائما تتكرر بأنماط توالدية معينة تستدرج لالتقاط دلالات جديدة، لكنها في كل التحولات تحيل إلى مركزية التناقض في العلاقات، حيث إن الأبوة السياسية تصنع اللقاطة وتبرّر لها، وبعدها تدّعي حماية اللقاطة من اللقاطة ذاتها التي صنعتها، وهي لقاطة منهجية التحايل السياسي، لزيادة رصيد الأتباع والانتماء، وبالمقابل تضطر الطفولة لتقبّل هذا الانتماء شعوريا، لكنها عقليا – في مستويات تأهيل الطفولة – ترفض هذا الانتماء وترفض لقاطتها، وترفض الأبوة السياسية التي ابتكرت نمط اللقاطة ويسّرت له، لكن في النهاية لا حيلة للتملص من رباق هذه الأبوة، فهي مرفوضة ومفروضة في الآن نفسه، ولعل هذا التناقض وهذه الرمزية، وتعقّد العلاقات الدلالية وتشعّب الإحالات والتأويلات على مستوى الصورة السردية الملحة من أهم مؤشرات الجمالية وشعرية

[46] المصدر نفسه. ص 67.

[47] المصدر نفسه. ص 99.

[48] المصدر نفسه. ص 89.

الصورة الملحة التي لم تفرض حضورها بنمط تكراري، بقدر ما فرضت هيمنتها بكل ما تزخر به من مستويات وعلاقات، وإحالات دلالية ورمزية وتأويلية، ثرية ومتنوعة، تهب التيمة الأساسية حضورا جادا، وتزيد من مركزيتها وامتدادها.

ح – صورة العبودية:

الصور الملحة المتوخاة بالدراسة في رواية "الأسماء المتغيرة" هي تلك الصور التي ألحّ وعي الطفل في التواصل معها، وارتبطت ارتباطا وثيقا بتيمة الطفولة، وهي صور إحالية بدورها تستمد حضورها من الرؤية الانزياحية، ومن إعادة إنتاج مستويات الواقع السردي التخييلي «بوصفها صورا متخيلة يقصدها الوعي على مستوى التخيل»[49]، لذلك تتأثّث الصورة الملحة بتلك الدلالات والعلاقات الإحالية التي يخلعها الوعي عليها، باعتبارها أنموذجا قصديا فعّالا، ينبع من صميم الرؤية الفينومينولوجية، وبهذا تكتسي الصور الملحة أهمية بالغة للإحالة إلى الوعي وإلى علاقات الارتباط بالتيمة، كما أنها من أهم العناصر السردية التي تحيل إلى مستوى الفنية والأدبية، ولرصد الصور الملحة المرتبطة بتيمة الطفولة في رواية "الأسماء المتغيرة" وبعد قراءات تيماتية، يحدس المتلقي حضور عدة صور ملحة لعل أقمنها بالدراسة والتأويل الصور الآتية: (صورة الماء) – (صورة الصحراء) – (صورة الأنثى).

1– صورة الماء: تحضر صورة الماء من خلال ثلاثة مؤشرات سردية أساسية أولها: «تذكر كيف كان يسبح في بركة قريبة من قرية أبيه، وكيف داهمه على حدة فارس من قرية أخرى معادية لقريته، واختطفه»[50] وثانيها: «وقد ذهب إلى الغدير ثلاث مرات يتأمله مليا قبل أن يعود إلى شجرة أسياده، ربما فكر في السباحة، ربما نهته القروح الملتهبة في جسمه عن

---

[49] الإمام، غادة. المرجع السابق. ص ص 187، 188.

[50] ولد عبد القادر، أحمد. المصدر السابق. ص 12.

الاقتراب من الماء»[51]، وثالثها: «نزل الحي الظاعن حول أضاة خلفتها أمطار الخريف المتأخرة»[52].

من خلال المؤشرات السردية السابقة يبدو جليا حضور صورة الماء، التي تواصل معها وعي الطفل تواصلا غامضا مبهما، لا يترك لنا مجالا للتأويل إلا بالعودة لصورة الماء في حد ذاتها، واستنطاق دلالاتها وأسيقتها، حيث إن الماء الموجود في الصورة يحيل إلى الماء الراكد؛ ماء البرك والأضى، وهو عادة ماء المطر الذي يجتمع في تلك الغدران، وهو يحيل إلى هطول الأمطار أحيانا، ويحيل إلى أهمية هذه الحفر المائية التي تعني الكثير بالنسبة لسكان البادية ولحياة البدو الرحل، لذلك كان الماء في المؤشر السردي الأول علامة بائنة من علامات الحبور والتسلية وممارسة السباحة، وكانت البركة فضاء مكانيا تعود ملكيته لقرية الطفل، إذ استهدف الفارس المعادي احتلال هذا المكان واقتحامه، ومارس السلب والخطف، حينها حدثت قطيعة صارمة في حياة الطفل الذي فقد انتماءه المكاني والمائي معا، على اعتبار أن الماء رمز من رموز السيادة والانتماء، ولما فقد الطفل انتماءه المائي ورمزية الماء فقد سيادته وانتماءه وحريته، وماء القرية هو حياتها عندما فقده الطفل فقد حياته أيضا، لذلك في سياق الاستعباد أغرى ماء الغدير الطفل، وذهب إليه ثلاث مرات وصورة الماء مازالت تدهشه وتغويه، لكن بما أن دلالة الماء قد تغيرت إلى النقيض لم يقو الطفل على الانغماس في الماء والسباحة كما كان من قبل في قريته الأصلية، ولهذا ارتباط وثيق بالدلالات التي ينسبها الوعي للماء، حيث كان ماء القرية إحالة واضحة إلى السيادة والحرية والانتماء، أما ماء الغدير الثاني فكان إحالة إلى العبودية والنخاسة، في سياق سبي فيه الطفل وانتهكت حقوقه وحريته، وصكوك النخاسة تتقاذفه بين الأسياد والأمكنة، أما المؤشر السردي الثالث فيرتبط بالغدير الذي استقر بجانبه أسياد الطفل، حين تغيّر اسمه إلى "مبروك" وهي المرحلة الأخيرة من مراحل الطفولة، وما يلاحظ في هذه المرحلة – من خلال الأسيقة السردية – أن الطفل "مبروك" رغم وجود الغدير، وتاريخ الصورة المائية الجاثمة في

[51] المصدر نفسه. ص ص 15، 16.
[52] المصدر نفسه. ص 62.

وعيه، إلا أنه لم يول الأضاة أهمية، ولم يحفل بوجودها، ولعل الماء – في مرحلة الاستعباد حين أحال دائما إلى دلالات النخاسة والسوط والسخرة – أضحى بالنسبة لوعي الطفولة هاجسا من هواجس الارتباك، وارتأى الطفل أن يفقد كل علاقة مع الماء، ويغيّب حضوره وحضور الأضاة، لذلك لم يكن الارتباط، ولم تكن العلاقات العاطفية إلا مع الماء الأول، في أسيقة الجذل والأبوة، ونعيم الحرية والانتماء، ولما صودرت كل تلك الأسيقة وتشوّهت صودرت العلاقة المائية، وأصبح ركوده علامة إحالية بائنة إلى التسنّه والفساد والقيود الصفيقة، حيث إن الماء الراكد هو الآخر استعبدته الجدران الترابية، بعد أن كان ينزل من السماء حرا طليقا نقيا، ولعل الدلالة السلبية للركود لم ينتجها الطفل إلا بعد أن استبدت به أسيقة النخاسة، أما في البداية – حين كان الماء يحيل إلى الحبور والانتماء – لم يكن الركود إلا علامة للاستقرار والتواصل الإيجابي مع المكان، وركود الماء في حد ذاته نعمة طبيعية مكّنت للطفل وللقرية من امتلاك فضاء مائي هام جدا، ومكنت لمستويات الوجود في معانيه الإيجابية.

2- صورة الصحراء: الفضاء المكاني الذي كان يعيش فيه الطفل في قريته الأصلية لم يكن صحراء، والدليل على ذلك هو المؤشر السردي الآتي: «في قرية أبي لا توجد جمال الحمير فقط والخيول والأغنام»[53] وهذا المؤشر السردي يحيل إحالة واضحة إلى كون الجمل كان مفقودا على مستوى فضاء القرية، وقد يعني ذلك أن الفضاء القروي لم يكن صحراء لأن وجود الصحراء يعني وجود الجمال، وبما أن الجمال مفقودة فالصحراء كذلك، ولهذا نفترض أن صورة الصحراء كانت غائبة على مستوى وعي الطفل أو على الأقل لم تكن ملحة، وقد تحولت إلى صورة ملحة بعد أن سبي الطفل، واضطر إلى برح مكانه الأصلي وتحوّل من سياق الحرية والانتماء إلى سياق العبودية والتلاشي، حينئذ اطّلع على الصحراء وتواصل مع صورتها تواصلا يكتنفه الضياع والألم، لاسيما أن الصحراء بالنسبة إليه تحيل إلى الاسترقاق، ومساحتها الشاسعة في حد ذاتها قيود وأصفاد، بقدر توغلّه فيها بقدر ما تتبدد احتمالات العودة وتضمحل جل الآمال وتأفل، لذلك كانت مستويات التواصل مع صورة

[53] المصدر نفسه. ص 39.

الصحراء مرتبطة بحجم الألم الذي ارتبط بهذه الصحراء، ورغم أن الصحراء صورة ملحة على مستوى الوعي، إلا أن تلك الصورة ذاتها كانت ذاوية جدا، لأن الطفل لم يبد شغفا بالمكان، ولم يتحمّس له، ولم يكن تواصله معه إلا تواصلا قهريا يبعث على الخيبة الصفيقة فارتبطت صورة الصحراء في الوعي بالرعي – خاصة – الذي يعد علامة إحالية للعبودية والاستغلال، يقول الطفل محدّثا الراعية العبدة "ريحانة" «قطعت في إثر الإبل خمسة كثبان إلى الشرق، والتحقت بها لأعود بها إلى هنا»[54] والمؤشر السردي السابق تتأسس دلالته الباطنية على قيمة المسافة؛ تلك المسافة الصحراوية الشاسعة التي زادت شساعتها الإبل حيث تكون الإبل في حد ذاتها مؤهّلة لقطع مسافات طويلة، وهي لا تستقر أبدا، وكأنها بذلك تزيد مسافات الوجع طولا، والطفل يعاني بسبب تقفي أثرها، وهو مضطر طول اليوم لقطع مسافات هائلة، فزادت بذلك مستويات الاستعباد، وبان أن الرعي في حد ذاته في الصحراء ممارسة استعبادية تحيل إلى تلك الأوجاع التي تنتجها الإبل والمسافات، ورغم حرية التنقل التي توهم المتلقي بأن الطفل يمكنه أن يستغل هذه الحرية التي ترتبط برعي الإبل، ويفر عائدا لأهله وانتمائه، إلا أن المسافات الصحراوية، وتفاقم الشساعة، وتداخل الحدود واستعجام الدروب الصحراوية يقهر كل إمكانيات الفرار والتحرر، فتتناقض صورة الصحراء مع نفسها، باعتبارها شاسعة لكنها ضيقة جدا في الآن نفسه، لأن المسافات الشاسعة نفسها تسجن الطفل، لذلك لم يهتم الطفل بالصحراء إلا لكونها مسافات طويلة تقاس بالكثبان الممتدة، وفيها جمال كثيرة السير والحركة، وهو مضطر لملازمتها واللحاق بها، ثم العودة بها أيضا، ولا أدل على هذه الرؤية لصورة الصحراء من كون العبدة "ريحانة" عندما خاطبت الطفل العبد قائلة: «أرأيت ما أجمل الخريف»[55] لم يجارها في مدح المكان، ورد منزعجا: «ولكن الإبل لا تشبع، بل تجنح إلى السير في كل مكان»[56] لتتحول الجمال إلى عبء ويتحول المكان الصحراوي بجماله وشساعته إلى هم ونكد، لاسيما أنه المكان الذي ارتبط بالإهانة، وبالعبودية، وبالسوط، وبعادات لم يحتف بها الطفل يوما، ومقابل هذه الصورة

[54] المصدر نفسه. ص 38.

[55] المصدر نفسه. ص 39.

[56] المصدر نفسه. ص ن.

السوداوية على مستوى وعي الطفل، يحيل الوعي المبدع إلى صورة صحراوية مناقضة تقريبا حين يبدي في كثير من المرات احتفاء بهذه الصورة، ويتوغل في وصفها وصفا إيجابيا لاسيما حين يقول السارد: «وسطعت شمس الظهيرة تزيد بياض الرمال إشراقا ولون الأعشاب اخضرارا»[57] في حين لا يلفي المتلقي أي وصف إيجابي يرصده الطفل إزاء صورة الصحراء إذ هي دائما على مستوى وعيه رعي وجمال ومسافات وكثبان، ورغم مستويات الصورة الفاترة السطحية إلا أنها صورة صحراوية ملحة، كيف لا وهي المكان الذي أضاع فيه الطفل هويته الحقيقية إضاعة كاملة، وحتى اسمه فقده، وخضع لعدة أسماء متغيرة.

3 – صورة الأنثى: تحمل الأنثى غايات القلب الموجوع الذي لم يلف في ضنك الصحراء وعتمة الأسيقة غير نور شفيف وشفيق، تجسّد في شخص العبدة "ريحانة" التي جمعتها بالطفل ظروف العبودية، وكان كلاهما يرعى في الأراضي الشاسعة، وقليل من الفرص هي تلك التي يحظى بها العبدان لتبادل أطراف الحديث، لكن رغم ذلك كان اللقاء حافلا ببعض الود والتجاوب، ولقد زاد الفراق الأول من مستويات الإعجاب المتبادل، لاسيما والوحشة تعيث في القلوب فسادا، أما الفراق الثاني فقد خلّف على مستوى وعي الطفل لوعة كبيرة، تفطّن من خلالها الطفل إلى مدى قيمة حضور الأنثى، التي تجسّدت صورة نورانية تعبق بكل مشاعر الود والرغبة، لكن فراق الأنثى خلّف انطباعا موبوءا، وزاد من مستويات الوحدة المدقعة، فقد «كانت ريحانة تسكن قلبه»[58] ولما فارقها «ازدادت حالة المسكين سوءا»[59] ورغم أن صورة الأنثى كانت مفعمة بالأمل والحب والغبطة، إلا أنها في النهاية تحولت إلى علامة دلالية تحيل إلى السوء والوحدة والفقدان، فارتبطت صورة الأنثى – رغم رخائها العاطفي – بالأحلام الواهمة وبالآمال الضائعة، والطفل للمرة الثانية يفقد أعزّ ما كان يملك من أسرة وأبوة وانتماء، ويفقد أعزّ ما كان يمكن أن يملكه من أنثى تقاسمت معه بعض ذكريات السنون العجاف.

[57] المصدر نفسه. ص 41.

[58] المصدر نفسه. ص 63.

[59] المصدر نفسه. ص ن.

لقد ارتبط وعي الطفولة بصورتين ملحتين إيجابيتين هما الماء بدلالته التي تحيل إلى الانتماء والحرية والاستقرار، والأنثى وما تحبل به من دلالات الرخاء العاطفي، لكن كلتا الصورتين أذوتهما أسيقة الخطف والاستعباد، ونهبتهما الأوجاع والخيبة والمسافات، كما ارتبط وعي الطفولة بصورتين ملحتين سلبيتين هما الصحراء وما تحيل إليه من قسوة وضياع وأصفاد مسافية وعبودية، والماء بدلالاته التي تومىء إلى الركود النفسي والأسياد وأعمال السخرة والاستغلال، والصورتان الملحتان السلبيتان لازمتا الطفل في حياته، وحاول دائما أن لا يستبطنهما إلا وهما صورتان سحماوان، لم يهمه من الصحراء إلا مسافاتها القاسية وكثبانها المرهقة وجمالها الممعضة، وحاول أن يتجنب الماء ويغيّب حضوره، على عكس الصورتين الملحتين الإيجابيتين اللتين اختفتا من حياة الطفل، لكن حضورهما الطافح بالجمال والرغبة بقي يلازم وعي الطفل، وهو يحاول جاهدا أن يتواصل معهما، ويلحّ في استحضارهما على مستوى الخيال.

ثانيا: الإحالة العنوانية :

أ – حنة:

في رواية "حنة" ثلاثة مؤشرات سردية تحيل إلى العنوان، ويحيل هذا الأخير بدوره إليها ولاستيعاب هذه العلاقات الإحالية المتبادلة، وجب رصد تلك المؤشرات السردية، واكتناه مستويات الإنتاجية الجمالية وعلاقات التواصل التيماتي، ومن الضروري أن تكون تيمة الطفولة مركز التواصل التيماتي، حتى تكون الدراسة أكثر تحديدا ومنهجية، وقبل الخوض في غمار المؤشرات السردية ورصدها نتحدث عن مستوى التوقع وما يحيل إليه من جمالية.

1 – مستوى التوقع: عنوان الرواية هو "حنة" دون إضافات لغوية، مما يضفي على "حنة" نوعا من الغموض، والمتلقي يعي جيدا أن العودة لبطون المعاجم لن تسعفه بالدلالة المنشودة، وكل القرائن اللغوية التوضيحية غائبة ومفقودة على مستوى العتبة العنوانية الكبرى، فيكون من باب الاضطرار والضرورة أن يتشجّم المتلقي عمق المستويات السردية عسى ولعل أن يلفي تفسيرا واضحا للإحالات العنوانية، ورغم هذه الحالة الاضطرارية، لا

يمكن للمتلقي أن يتجرّد من توقعاته الدلالية، فهو هكذا يفترض نمطا معينا من احتمالات التفسير، ويبقى اليقين مرهونا بما تثبته المستويات السردية من تناقض أو تطابق، وفي كل الحالات يتسم التوقع الدلالي بنسبية ما، وهذه التوقعات النسبية ومستويات الاضطرار نمط جمالي يجعل من التشفير العنواني علامة استفزازية باقتدار، ذلك أن "حنة" عتبة عنوانية مستعجمة، لا تتأهّل مستوياتها الدلالية إلا بعد القراءة وانتقاء التوقعات أو ربما تبديد كل الخلفيات التوقعية، حيث لا يمكن أن يجزم المتلقي بنجاعة توقعاته التي تتسم عنده دائما بالنسبية، ويمكن أن يكون أحد هذه التوقعات سليما نوعا ما، أو يمكن أن تخفق كل التوقعات ويواجه المتلقي توقعات جديدة، وفي كل الأحوال والحالات تكون مستويات التوقع ضرورية وتكون القراءة أكثر ضرورة، ويكون الالتباس البدئي وتحولاته ضرورة فنية، وإحدى تقنيات التلاعب السردي التي من شأنها أن تنتج بعض إمكانيات اللذة والجمال، وغواية التوقع والاحتمال.

لم يكن مستوى التوقع ليرتبط بمعنى "حنة" فقط، وهل هو مسحوق الحناء أو رسوم الحناء أو شجرة الحناء أو غيرها، بقدر ما يرتبط مستوى التوقع بالأسيقة التي تضفي على "حنة" دلالاتها المنشودة، وهنا يعتاص التأويل ويتعقّد، لأن فكرة توقع كل الأسيقة تبدو شاقة وعسيرة من جهة، ومستحيلة من جهة ثانية، ذلك أنها تضخّ ما لا يحصى ولا يعد من الاحتمالات وحتى إن أحصي بعضها أو ما يعتقد أنه الأهم تبقى مستويات الانتقاء أكثر لبسا والتباسا حيث لا يمكن للمتلقي أن يستنجد بمعايير موضوعية تتيح له فرصة ممارسة الانتقاء بنجاح ونجاعة، وحينئذ ينجح العنوان في تحدي المتلقي وإحباطه منذ البداية، وهذا الإحباط هو السبب الوجيه الذي يجر المتلقي للقراءة وعدم الاكتفاء بالعتبة العنوانية، التي تلح على اقتحام النص السردي، وهي متمسّكة بغموضها، ومحافظة على عذريتها الدلالية، ورغم ما يعانيه المتلقي ويتلذذ به في الوقت نفسه، تبقى مستويات التوقّع هي الأخرى تفرض سطوتها، إذ أن فكرة التلقي الخاوي الوفاض تبدو معدومة نهائيا، والعنوان بغموضه وإحالاته الدلالية الكثيفة لا يجرد المتلقي من أفق توقعاته، لكنه يبذر الفوضى على مستوى أفق توقعات التلقي فينبري المتلقي يفتش بدافع الفضول المضني عن تفسير وجيه يعيد تنظيم الفوضى التي

ألمّت بكل خبراته المعرفية السابقة، وهو يعترف – ضمنيا – بالقدرة العنوانية على استدراج طاقاته وإثارة فضوله، وإيقاعه في شرك الفتنة السردية، وفي جماليات التلقي منذ البداية وقبل الولوج إلى متن الرواية.

بعد أن حاولنا إماطة اللثام عن ما يمكن أن ينتجه الاتصال البدئي بالنص الروائي من خلال العتبة العنوانية الكبرى، وما تفرضه من مستويات توقعية وجمالية متنوعة، من الضروري رصد العلاقات الإحالية بين العنونة والمؤشرات السردية، وتفسير العلاقات الجمالية بين الإحالة العنوانية وتيمة الطفولة المستهدفة بالدراسة، من خلال ثلاث مؤشرات سردية محورية.

2 – المؤشر السردي الأول: «تلك الشجيرة الصغيرة المزروعة في السقيفة أمام الكوخ تسقيها كل صباح، وتسكب تحتها آنية الماء الذي تجيء به من الساقية التي تجري وتظل تنظر إلى وريقات الحناء الصغيرة الخضراء، وهي تغطي الأغصان الرقيقة»[60] ويتضح من خلال المؤشر السردي السابق أن الطفل يعطي دلالة واضحة للعنوان "حنة" وهي تلك الشجيرة الصغيرة الموجودة أمام الكوخ في البادية، والتي ترعاها الأم بالسقي كل صباح والطفل يراقب وريقات الحناء الصغيرة الخضراء وتلك الأغصان الرقيقة، فتكون الشجيرة والكوخ، والأم، والسقي، والصباح، والوريقات الخضراء، والأغصان الرقيقة، موضوعات استرعت اهتمام الوعي، وتواصل معها تواصلا قصديا يتيح إمكانيات الاستبطان، لتتحول هذه الموضوعات إلى ظواهر على مستوى الوعي، ومعنى ذلك أن المتلقي بصدد تحويل دلالي تفقد فيه المرجعيات الواقعية وجودها، ومن الضروري أن يكون الوعي هو الصلة الوحيدة بتلك الموضوعات التي فقدت وجودها الفعلي في العالم، واكتنفها الوجود في الوعي وما قد يصاحب هذا الوجود في الوعي من ملابسات جديدة من الجدير محاولة تشذيبها والظفر بماهياتها كما يتبناها الوعي، ولعل أهم ملاحظة تيماتية تسترعي اهتمام الحدس الفينومينولوجي هي تلك الصفات التي خلعها الوعي على الحناء، والتي يبدو أنها حظيت باهتمام الوعي، وما رصد صفاتها، واستحضار بعض تفاصيلها إلا دليلا كافيا على ذلك

[60] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص 09.

كما أن أهم ما لفت الانتباه إلى هذه الحناء يبدو مرتبطا بالتصغير، حيث إن كل الصفات التي وصف بها الوعي الحناء مصغرة (الشجيرة – الصغيرة – وريقات صغيرة – الأغصان الرقيقة) لذلك ارتبطت ماهية الحناء في ظل استبطان الوعي بقيمة التصغير، وهي القيمة المهيمنة التي تبناها وعي الطفل، فبدا جليا أن الصغر هو محور الإثارة ومحور التحريض القصدي، وقيمة الصغر تواصل معها الوعي واستبطنها كماهية للحناء بواسطة التواصل البصري، مع إقصاء كامل للحواس الأخرى، وفي هذا احتفاء ضمني بالرؤية البصرية التي يعتمدها الطفل في التواصل مع مواضيع العالم المحيط به، وهي رؤية بصرية واعية تؤسس لعلاقات الإعجاب، وتنتقي أفضل الموضوعات التي أثّرت في الوعي، ونالت حظوة استبطانية كافية، ولعلها الموضوعات الأكثر تأثيرا، والأرسخ في الذاكرة، والأجدر اهتماما بماهيتها، وهذا ما يؤهّل الرؤية للحناء أن تكون رؤية ماهوية، وهي الرؤية الأكثر تميزا وتعقيدا واهتماما ورسوخا، على اعتبار أن الوعي قد يستبطن موضوعات معينة، لكن يكون هذا الاستبطان عرضيا وهامشيا، وسرعان ما يغيب عن الذاكرة، أما الموضوعات الأكثر إلحاحا على الذاكرة وحضورا هي الموضوعات التي نالت قسطا وافرا من الاهتمام الاستبطاني والتأهيل الماهوي، لذلك فحضور الحناء على مستوى الذاكرة لم يكن جزافا ومصادفة، بل كان ناجما عن تأهيلات ماهوية معقدة، رسخّت في الذاكرة ارتباطا وثيقا بالحناء في ماهيتها التصغيرية وفي التواصل العاطفي الواعي مع هذا الكائن الصغير المذهل، فكان المؤشر السردي السابق دليلا كافيا على مدى ترسّخ الدلالات العنوانية في الوعي وفي الذاكرة معا، ولعل العتبة العنوانية تحيلنا إلى أهم التيمات المؤثرة في الوعي والتي ارتبطت ارتباطا وثيقا بماهية الحناء التصغيرية وبصفاتها المغرية، والجدير بالملاحظة أن المعنى التيماتي والماهوي للحناء يفرض وتيرة تكرارية ملحة على مستوى السرد، ففي كل مرة تطغى شجيرة الحناء بحضورها، ويكون التواصل معها دائما بصريا، وفي كل مرة تحتفظ الحناء بالصفات التصغيرية نفسها على مستوى الوعي، وقد لا يكون هناك أجدى من تفسير هذا الارتباط والتلازم بين الوعي وموضوعة الحناء تفسيرا عاطفيا يحيل إلى مدى إعجاب الطفل بشجيرة الحناء، وبتلك الأسيقة والأفضية والأحداث التي أحاطت بها، ذلك أن تيمة الحناء (الشجيرة) في كل مرة ترد في سياقها، كأن يلازمها السقي أو الصباح أو الأم أو غير

ذلك من الأسيقة التي لا تقل أهمية عن شجيرة الحناء ذاتها، وهذا يحيل إلى أن القيمة التبجيلية التي تحظى بها الحناء، لا تكمن في الحناء في حد ذاتها، بقدر ما تكمن في العلاقات التيماتية التي تؤسسها تيمة الحناء المركزية وتحيل إليها.

3 – المؤشر السردي الثاني: «تضع مهراسا كبيرا، ترمي فيه بين الفينة والفينة قبضة من ورق الحناء اليابس، ترفع العصا الثقيلة، وتهرس الورقات الخضراء الجافة تخرج رائحة زكية مع غبار خفيف خفة النسائم التي تتحرك وسط الفناء»[61].

إن المؤشر السردي السابق يشير إشارة لغوية واضحة إلى الحناء التي يبدو أنها مازالت تحافظ على الحياة بنمط بعثي جديد، رغم تحولها من كائن حي يمارس وظائفه الحيوية النباتية إلى أوراق جافة يابسة، والحياة الجديدة لم ترتبط بالوظائف الحيوية النباتية، بل ارتبطت بالوظيفة، وبالاستعمال البشري، وباستبطان الوعي لموضوعة الحناء ظاهرة تحظى بالاهتمام، وعادة اجتماعية تحتفي الطفولة بوجودها وتتعلق بتفاصيلها المغرية، فغابت الشجيرة والوريقات وكل أنماط التصغير، واستعيض عنها بورق الحناء اليابس الذي لم يفقد خضرته رغم جفافه، ليظل اللون الأخضر لونا ماهويا يرتبط بالحناء ارتباطا وثيقا، وليس عشوائيا أن يهتم الوعي بهذا اللون لولا اعتقاده الجازم بضرورة ملازمة هذا اللون للحناء، وهو اللون الذي لم يفقد وجوده في غضون تاريخ الرؤية القصدية للحناء التي كانت عن طريق الرؤية البصرية، وكانت هذه الرؤية البصرية الحاسة الوحيدة التي يتواصل بها الطفل مع الحناء ويعتمد عليها للتوجه القصدي إزاء الحناء، بيد أنه يبدو جليا من خلال المؤشر السردي الثاني أن الرؤية البصرية إزاء الحناء لم تعد وحيدة تحتكر قصديات الوعي التي تطورت مستوياتها التواصلية مع موضوعة الحناء، حيث تبنّى الوعي إستراتيجية جديدة حرّضت حواس جديدة للتجاوب مع اهتمامات الوعي، وذلك حين تهرس الوريقات الخضراء الجافة، ويحيلنا الهرس مباشرة إلى حاسة السمع التي يبدو أنها هي الأخرى لم تقاوم إغراء الأصوات التي تنبعث من عالم الحناء، فكانت الحناء وهي تهرس سببا وجيها لاستقطاب حاسة السمع وإقحامها في المعايشة الوجدانية الواعية، وما تستلزمه هذه المعايشة الواعية من

[61] المصدر نفسه. ص ص 169، 170.

علاقات تكوينية تتوخى إنتاج بعد ماهوي معين للحناء، فتطورت الحناء من شجيرة ووريقات خضراء، إلى ورقات جافة خضراء تصدر أصواتا، وتخرج منها رائحة زكية وغبار خفيف والملاحظ أن الرائحة الزكية ترتبط ارتباطا مباشرا بحاسة الشم التي هي الأخرى حاسة جديدة وقناة من قنوات التواصل القصدي التي تنضاف إلى حاسة السمع، والسمع والشم حاستان ارتبطتا دائما بحاسة البصر، ذلك أن التوجه القصدي للحناء، وتوظيف الحاستين (السمع والشم) نلفيه مرتبطا بمؤشرات لغوية تحيل إلى الرؤية البصرية دائما، حيث ارتبط الصوت برؤية (المهراس) وبالعصا الثقيلة وبعملية الهرس، كما ارتبط الشم بمشاهدة الغبار الخفيف وبهذا مازالت الرؤية البصرية إزاء الحناء تمارس سلطتها على حاستي السمع والشم، رغم أن الحواس الثلاثة تتحالف لممارسة توجه قصدي إزاء الحناء، بغية اكتناه ماهيتها كظاهرة لديها صفاتها الماهوية العميقة، لذلك تتراكم صفات الحناء شيئا فشيئا على مستوى الوعي بها وتتحول الحناء إلى مشروع للاكتشاف، لا لشيء إلا لأن الحناء كظاهرة استطاعت أن تفرض وجودها وتستقطب اهتمام الحواس الثلاثة، وكلما زاد رصيد هذا الاهتمام من الحواس كلما حقّقت تيمة الحناء موقعا أولويا على مستوى الوعي، وهذا يحيلنا إلى أن تواصل الوعي القصدي إزاء الموضوعات لا يكون بوتيرة واحدة وبمستويات متكافئة، إذ هناك الموضوعات الملحة، والموضوعات غير الملحة، والموضوعات الأكثر إلحاحا، ولطالما كان الغموض يكتنف المعايير التي يتبناها الوعي في تصنيف الموضوعات الملحة، والموضوعات غير الملحة، والموضوعات الأكثر إلحاحا، ولعل من أهم هذه المعايير – لاسيما عند وعي الطفل – هي رصيد الحواس التي ترتبط بالموضوع، فكلما زاد رصيد تلك الحواس زادت أهمية الموضوع على مستوى الوعي، وكلما نقص هذا الرصيد ضعفت اهتمامات الوعي بهذا الموضوع، كما أن هذا لا يعني أن الوعي يوجّه الحواس من تلقاء نفسه، وبنمط ذاتي مطلق بقدر ما تفرض الموضوعات نفسها رصيدا معينا من الحواس، وهكذا يكون التواصل بين الوعي والموضوع تواصلا معقدا وقصديا متبادلا؛ يقصد الوعي الموضوع كما أن الموضوع أيضا يقصد الوعي، ويكون مستوى رصيد الحواس خاضعا لهذه العلاقة القصدية المتبادلة وتكون قيمة الظاهرة على مستوى الوعي مرتبطة برصيد الحواس الذي تنتجه تلك العلاقات القصدية المتبادلة.

4 - المؤشر السردي الثالث: «وضعت إصبعي في إناء الحناء، قدمها الآن فوق ركبتي، وأنا أسحب الحناء على بطن القدم، أصابعي تلاعب القدم، أسحب القدم الثاني أضعه فوق ركبتي، أعود إلى الحركة ذاتها، أغمس إصبعي في إناء الحناء، بحركة بطيئة أطلي القدم»[62].

بعد أن استوعب الطفل ماهية الحناء عن طريق رصيد حواس البصر والسمع والشم كان لابد أن تثير هذه الحواس الرغبة لتدخل حاسة اللمس التي تبدو أكثر إثارة على مستوى التواصل القصدي، لأن الحواس السابقة تبقي دائما مسافة معينة مع الموضوع، أما حاسة اللمس فلا تبقي ولا تذر أي نوع من المسافة المكانية، وتنعدم فيها الحواجز المادية، لذلك يكون الطفل أكثر التصاقا بالموضوع، وتكون الحنّاء تجربة حسية مثيرة، لاسيما أن هذه التجربة ارتبطت بالأنثى، وما تعنيه الأنثى من هوس إيروسي نتيجة التواصل اللمسي والجسدي، وقد أغوت الأنثى الطفل عن طريق الحناء، هذه الحناء التي تشبّع وعيه بالعلاقات القصدية إزاءها، وكانت سببا وجيها لإثارة الحواس، وتبوّأت موقعا ملحا على مستوى الذاكرة، يدر الألوان والأصوات والروائح العبقة، لهذا تحولت الحناء إلى شرك جمالي كاف لإغواء الطفل واستدراج فضوله، وهو في البداية لا تعنيه الأنثى بقدر ما تعنيه الحناء في حد ذاتها، ويصبو لاختزال المسافات، ويود أن تكون له تجربة حسية مباشرة مع الحناء يلمسها ويعيد لمسها، وينخرط في غواية الطلاء واللون والرائحة والجمال، لكن جمال الحناء في حد ذاته وفتنة اللمس جعلا الحناء تتماهى مع جمال الجسد، لاسيما أن هذا الجسد هو جسد الأنثى، وما جمال الحناء إلا امتداد لجماله وفتنته، فتوارت الحدود بين الجمالين؛ جمال الحناء وجمال الجسد، وانهارت الفروق «وفي لحظة نسيت الحناء، أصابعي تمتد إلى الساق»[63] لتغيب الحناء وجمال الحناء في حضرة الأنثى وجمال الأنثى، ولن تكون حينئذ الحناء إلا إحالة جمالية صارخة لجمال الأنثى، وغواية من غوايات الجسد الأنثوي الذي تضفي عليه الحناء نوعا أسطوريا من الفتنة، لذلك ارتبطت حاسة اللمس في البداية بالحناء

---

[62] المصدر نفسه. ص 208.

[63] المصدر نفسه. ص ن.

في حد ذاتها، ثم تجاوزت الحناء لتنعم بالجسد الأنثوي، وما يثيره من تهيج إيروسي واضح لم تنتجه الحناء وحدها، ولا الجسد الأنثوي وحده، بقدر ما أنتجه الجسد الأنثوي موشوما بالحناء، والجمال الموشوم بالجمال، والطفل في حضرة الجمال قد توارت عنده الحدود لا يدري أيهما الحناء وأيهما الأنثى.

ومهما يكن من تداخل يمكننا الجزم بأن الحناء في سياق التجربة اللمسية، وفي سياق ارتباطها بالأنثى استبطنها الطفل قيمة جمالية في أقصى تجليات الفتنة والجمال، لذلك كان التواصل مع الحناء تواصلا لمسيا أقوى أنماط التواصل الحسي، وأكثرها تأثيرا في الوعي ولعله التواصل الذي حوّل الحناء من وريقات وأوراق وأصوات وروائح إلى أنثى، ولا يمكن أن تكون الحناء إلا الأنثى في حد ذاتها، بكل ما تحيل إليه هذه الأنثى من فتنة وجمال باذخ على مستوى وعي الطفل الذي كانت الحناء بالنسبة له سببا كافيا للتواصل مع الجسد ومهّدت له للولوج في عوالم الفتنة والجمال والشبق، لذلك نكتشف سرا من أسرار جمالية الإحالة العنوانية وأسباب حضور "حنة" عنوانا لرواية كاملة بأحداثها وحيواتها المتواشجة المتشعبة، وكيف أن "حنة" هي الحناء (الظاهرة) التي استبطنها الوعي وقصدها وتواصل معها تواصلا ثريا بالإثارة والتجارب الحسية وبأرصدة الحواس، واعتنقها الوعي وألح في اعتناقها، لاسيما حين أحالته لعوالم الجمال، وكانت في حد ذاتها جمالا أنثويا خالصا متماديا في غواياته وفتنه، ولعل الجمال الأنثوي الخالص من الموضوعات الأكثر إلحاحا على الوعي وعلى ذاكرة الطفل، نظرا لثرائه برصيد الحواس، لاسيما حين تمكّن الطفل من ملامسة الحناء في تماهيها مع الجسد الأنثوي، ولعل الجمال الأنثوي الخالص هو المعنى الأكثر ارتباطا بالتيمة العنوانية في علاقتها مع تيمة الطفولة، لذلك لم يكن العنوان مجرد اعتباط بل كان نتاجا لتلك العلاقة السابقة التي تعبق تحولا وجمالا وفتنة وثراء.

ب – حب ويرتقال:

يتعمّد الوعي المبدع – غالبا – المخاتلة العنوانية، وكثيرا من المراوغة الدلالية التي قد تكون تعلة توقع المتلقي في كيد الغموض العنواني، رغم فصاحة اللغة وبلاغة العبارة ومرجعيات المعنى المعجمي، حيث لا يلفي المتلقي من الوهلة الأولى عسرا في استيعاب

"حب وبرتقال" استيعابا قاموسيا، وقد يكتفي برصيده المعرفي اللغوي دون أن تضطره الكلمتان للعودة إلى بطون المعاجم والقواميس، لكن الوضوح التام في حد ذاته يثير نوعا من الفضول، إذ ترد الكلمتان ضمن علاقة دلالية، وضوحها الافتراضي المطلق يتسبب في غموضها، لأن الوضوح المطلق يولج العبارة في عماء تام، يحتاج إلى تأهيل دلالي، يرصد حدود هذا الوضوح الذي إن بقي على إطلاقه يستدرج المتلقي ويمنحه كثيرا من الثقة، لكن سرعان ما يخيب المتلقي وهو يكتشف أن الوضوح المطلق يحيل إلى إمكانيات دلالية لا حصر لها، ومن المعتاص – إن لم يكن من المستحيل – ضبط إمكانيات دلالية محددة للعتبة العنوانية الواضحة وضوحا مطلقا، ورغم إمكانيات التوقع والاحتمال التي يتسلح بها القاريء يضطره الوضوح المطلق نفسه لإعادة النظر في يقين الثقة التي تبناها في البداية وتكون العتبة العنوانية "حب وبرتقال" ضرورة من ضرورات الإحالة الدلالية التي تضطر المتلقي لولوج المتن الروائي بغية اكتناه الإحالات الدلالية العنوانية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بتيمة الطفولة، حيث تستهدف الدراسة في هذا السياق رصد العلاقات التيماتية والجمالية بين العتبة العنوانية وتيمة الطفولة.

من خلال رصد الصور الملحة ألفينا أن الحب قيمة شعورية ارتبطت بتيمة الأم المحبة؛ هذه الأم التي أغدقت على طفلها كل ألوان الرعاية والحرص والغنج، إلى درجة تماهى فيها الطفل مع صورة الأم المحبة، وراح يتقمص مشاعرها، ويتبنى رؤيتها العاطفية وهو الذي يستلهم كل قيم الحب في معانيه السامية، ويلح في استبطان الأم صورة مفعمة بكل ألوان الجمال والحب الباذخ، فكان أن تزوّد الطفل بما يكفي من مشاعر الحب التي أهّلته لأن يكون محبا كبيرا، ولعلها المشاعر التي تلخص الرؤية إزاء الأم وإزاء الطفولة وهي رؤية مزدوجة تحيل إلى علاقة الطفل بطفولته من جهة، وإلى علاقة الطفل بأمه من جهة أخرى، والعلاقة بالأم هي التي أذكت العلاقة بالطفولة، حيث يدرك الطفل طفولته المحبة من خلال إدراكه للأم المحبة، حينئذ يتفطن المتلقي إلى أن كلمة "حب" الواردة في مستهل العتبة العنوانية ما هي إلا إحالة دلالية مشفرة لتلك العلاقات القصدية التي أسسها وعي الطفل إزاء الطفولة وإزاء الأمومة، وفق نمط استنتاجي واستلهامي يجعل الحب قدرة

عاطفية خلاقة تهيمن على مشهد الطفولة في علاقتها مع الأمومة، وهي قدرة عاطفية مركزية تحيل إلى موقع الوجود في العالم، وتنتج عنها الرؤية الأساسية للطفولة، فكان الحب مكونا محوريا من مكونات تيمة الطفولة التي أبى الوعي المبدع على مستوى العنوان إلا أن يترجمها بالحب دون تحديد لماهية هذا الحب، حتى يكون الحب المطلق نوعا من إثارة التلقي وتحفيز المعايشة السردية، والمتلقي يفتش عن تفسير وجيه وأكثر تحديدا للحب الذي يبدو أنه يختصر طفولة كاملة بوعيها وبعلاقاتها القصدية، تلك العلاقات القصدية التي يبدو أنها استرت الأمومة معادلا موضوعيا لما يعتريها من رخاء عاطفي وانذهال طاغ بالأمومة وبصفات الأمومة وبصورها الساحرة، فكان الحب المطلق هو العلامة الدلالية الأكثر تجاوبا مع معتقدات الطفولة التي كان الحب المطلق التفسير الوجيه للعلاقات القصدية إزاء الأمومة، ولهذا انتقى الوعي المبدع كلمة "حب" دون غيرها من إمكانيات الانتقاء العنواني نظرا لما تزخر به هذه الكلمة من دلالات كافية تحيل إلى علاقات موغلة في التماهي والإعجاب والانذهال، وقد تأسست تلك العلاقات بين تيمة الطفولة وتيمة الأمومة تأسسا عاطفيا باذخا، يجعل المتلقي في النهاية – وبعد أن يغريه الوضوح المطلق، ويجتهد في التنقيب التيماتي – يكتشف أن الحب المطلق في العتبة العنوانية هو الحب المطلق المرتبط بالأمومة أولا، والمرتبط بالرؤية للطفولة ثانيا، وهو رغم هويته المطلقة حب تحدده مركزية الرؤية للأم، وتلك العلاقات القصدية الواعية بين تيمة الطفولة وتيمة الأمومة.

أما الكلمة الثانية من العنوان "برتقال" فرغم أن المتلقي يعثر على إحالاتها ببساطة في بداية الرواية، حين يرتبط البرتقال بما كانت تمتهنه الأم في مصنع لتلفيف البرتقال، وكيف أنها تحرص في كل مرة تعود فيها للبيت على إحضار سلة من البرتقال تجذل الطفل وترسّخ في وعيه كل صفات البرتقال وجمال البرتقال، ورغم استيعاب إحالات البرتقال التي تومىء بوضوح إلى عبق الأمومة وما ينتج عنه من جمال وأحاسيس جياشة، إلا أن كلمة البرتقال في العتبة العنوانية – بعد استحضار إحالاتها الدلالية بسهولة – تبدو مقحمة لا ضرورة لها إلا من باب التمويه الفني، لاسيما حين تتم المغالطة على مستوى الاكتفاء بقراءة دلالات العنوان، ويضل المتلقي في التفتيش عن روابط دلالية مقنعة بين الحب والبرتقال

وفي الحقيقة السردية أن البرتقال مجرّد لحظة هامشية، مقارنة باللحظات المتشعبة التي وسمت حياة الطفولة، ولعل البرتقال رمز من رموز الأمومة في عطائها وتوهجها العاطفي ودليل من أدلة مشاعر الحب الطافحة، لكن لم يكن البرتقال وهدايا البرتقال الدليل الوحيد، بل إن هناك أدلة أكثر إثارة ودلالة على استبطان الأم تيمة في أوج دلالات السخاء العاطفي ولعل جل ذلك لا يمنح كلمة البرتقال مبررا دلاليا كافيا لانتقائها وإدراجها في العنوان، إلا إذا كان توظيفها وانتخابها أنيط بإنتاج مستويات دلالية جمالية بالدرجة الأولى، حيث إن حضور كلمة "البرتقال" على مستوى البنية العنوانية يزيد العنونة غموضا والتباسا، ويؤهل مستويات التلقي الجمالي، الذي يغويه التورط في التشفير والتلغيز أكثر بكثير مما يغويه الوضوح والإفصاح، لذلك «لا بد للعنوان من إنتاجية دلالية قادرة على توريط المتلقي»[64].

مما سلف نستشف أن العتبة العنوانية بألغامها الدلالية وأشراك وضوحها المطلق وبكلماتها الحافلة بالتمويه والإغراء والإثارة ترتبط ارتباطا وثيقا بتيمة الطفولة، التي ترتبط بدورها ارتباطا وثيقا بتيمة الأمومة، فينتج عن ذلك ثلاثة مستويات دلالية متداخلة ومترابطة هي مستوى دلالة العتبة العنوانية، ومستوى تيمة الطفولة، ومستوى تيمة الأمومة، ولا مناص أن يخوض المتلقي في فتنة هذه المستويات، وهو يرصد التداخل الدلالي، وعلاقات الإحالة دون أن يهتم بالدلالة في حد ذاتها، بقدر ما يتمتع بالتداخل ونمط العلاقات في حد ذاتها فتكون شعرية الإحالة العنوانية ليست الإحالة الدلالية في حد ذاتها، بقدر ما هي العلاقات الذهنية التي تخلّف انطباعا جماليا ضمنيا، ولعل الشعرية ذاتها ما هي إلا انطباعات جمالية ضمنية ليست مبررة تبريرا موضوعيا، مثلها مثل الإحالات العنوانية التي لا تبرّر في ذاتها ومن أجل ذاتها، بقدر ما تبرّر في سياق علاقات استبطانية معقدة ومستويات وتأهيلات دلالية لا تكتفي أبدا بقراءة واحدة، ورغم أن المؤشرات اللغوية توهم دائما بإمكانيات محاصرة الدلالات وتحديد التوقعات، إلا أن اللغة في حد ذاتها تأبى المحاصرة والتحديد، وفكرة اليقين الدلالي والنهائي تبدو منعدمة تماما «حيث ينبغي مواجهتها – في النص – حرة تحفل

[64] الجزار، محمد. العنوان وسميوطيقا الاتصال البدئي. د ط. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998 (م). ص 26.

بإمكانياتها اللامحدودة»[65] لاسيما حين ترتبط اللغة بمستويات مكثفة من الوعي كما في رواية "حب وبرتقال" التي يحضر فيها وعي الطفل، ووعي المبدع، ووعي التلقي، وما لا يحصى من العلاقات والإحالات وأفق التوقعات، مما يضفي على كل إمكانيات القراءة صفة النسبية دائما، ولعل هذه النسبية هي جذاء الغواية والشعرية، وهي سر من أسرار الفتنة السردية والعلاقات التيماتية.

ت – أطفال بورقيبة:

"أطفال بورقيبة" هو عنوان الرواية، ولسنا بصدد تفكيك الدلالات العنوانية في حد ذاتها، بقدر ما نحن بصدد رصد العلاقات الإحالية بين العنوان وتيمة الطفولة، وكيف كانت هذه العلاقات الإحالية سببا من أسباب الشعرية التيماتية، لاسيما أن الطفولة صيغة لسانية بارزة في العتبة العنوانية الكبرى، وهي الصيغة الأكثر إحالة إلى التفاصيل السردية، والمتلقي دائما يستهدف العنوان بقدر ما يستهدفه العنوان، فتكون العلاقة بين المتلقي والعنوان علاقة قصدية وإحالية متبادلة، تصنف في خانة أبجديات القراءة، إذ لطالما كانت العناوين بدايات ضرورية لاستنفار الطاقات الواعية، وهذه الطاقات الواعية – مهما توخت الموضوعية – لا يمكن أن تتخلص من أفق التوقعات، وما يزخر به هذا الأفق من رصيد ثقافي ومن خلفيات معرفية وفكرية مختلفة، ولهذا فكلمة "أطفال" يستبطنها الوعي مباشرة فكرة تحيل إلى واقع معين للطفولة، التي تبدو لغة معهودة في عرف الثقافة البشرية، فتخلو العنونة من فرضيات الالتباس المعجمي، وتبدو أكثر وضوحا وصرامة دلالية، لكن لمجرد أن تقترن بلفظة "أطفال" لفظة "بورقيبة" تستهلك مستويات التلقي جل إمكانيات اليقين، حيث يعتري كلمة "أطفال" نوع من الالتباس المفاهيمي الذي يتناقض مع أفق التوقعات وترسانة الأرصدة الثقافية، لأن كلمة "بورقيبة" في حد ذاتها لا تثير التباسا حين يتعلق الأمر بشخصية سياسية وتاريخية معروفة ولكنها تثير التباسا معرفيا حين ترتبط بكلمة "أطفال" وقد بدا التناقض يخيم على مستويات التلقي، لاسيما حين يكتشف المتلقي أن "بورقيبة" لم يحظ في حياته إلا بطفل واحد، وهو

[65] ناظم، حسن. مفاهيم الشعرية. دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1994 (م). ص 134.

الرجل الذي كانت خطاباته تدعو لتحديد النسل، وكان يفخر بكونه أنجب طفلا واحدا، وما كثرة الإنجاب بالنسبة له إلا تبديد لإمكانيات التمدن والتحضر، وشكل من أشكال البدائية فلا يمكن في النهاية أن يكون لبورقيبة أطفال إلا من باب المجاز الفني أو من باب التهكم الدلالي والسخرية اللاذعة، فتكون العتبة العنوانية في حد ذاتها أزمة دلالية تتنافى مع الوضوح ومع البراءة المعجمية كل التنافي، ليعي المتلقي منذ البداية أنه بصدد نمط من التحايل والتلغيم الدلاليين، وهو مقبل على مغامرة محفوفة بالجنون اللغوي.

لعل الإثارة العنوانية بتناقضها مع أفق توقعات التلقي تلح بحضورها الجازم على وعي القراءة، وينبري المتلقي وهو يقرأ الرواية يفتش عن سر التشفير العنواني، و"أطفال بورقيبة" غاية دلالية قصوى، لابد من الظفر بالإحالات التي تتناسب معها، ولمجرد أن يعثر المتلقي على طفولة "هلال الأحد" وكيف أنه كان ينتمي لميتم من المياتم التي سخّرها "بورقيبة" للقطاء، حتى يخال المتلقي أنه ألفى ضالته وانطفأت جذاء فضوله، وتمكّن من تجاوز التناقض الدلالي، إلا أنه سرعان ما يتفطن لمستويات أخرى من التناقض والتحايل الفني حين يكتشف أن طفلا واحدا قد اختصر كل أطفال الميتم، ولم يكن هناك إلا "هلال الأحد" وما ذكر من طفولات أخرى في الرواية لا يمت بأية صلة للميتم، وهو تزكية واضحة من الوعي المبدع لمحورية تيمة طفولة "هلال الأحد" في الرواية، وكل الطفولات الأخرى ما هي إلا أفكار ثانوية تدور في فلك التيمة المركزية؛ تيمة طفولة "هلال الأحد" وما تيمة الطفولة المركزية إلا نوع من الرمز الباذخ، حيث استعار الوعي المبدع الطفل "هلال الأحد" ليرمز به إلى كل اللقطاء الذين احتضنهم الميتم.

النبرة التهكمية نفسها التي ألفيناها سلفا في التركيب الدلالي العنواني بين كلمتي "أطفال" و"بورقيبة" يلفيها المتلقي متجلية في علاقة "هلال الأحد" ببورقيبة الذي يمثل الأبوة القانونية المتناقضة، فمن جهة يدعو الأب السياسي لتقنين الإنجاب، ومن جهة أخرى يشرّع للخيانة ويشجّع الخطيئة، وكأنه بذلك يستحوذ على فكرة الأبوة والانتماء، فيجعل من كل اللقطاء الذين مهّد ويسّر لمجيئهم أطفالا له، ولعله في ذلك يطمح لتأسيس دولة مؤثثة بجيل جديد لا يأبه إلا للقانون، ولا يقدم ولاءه إلا للسلطة القانونية، وفي ذلك تناقض صارخ أنتجه

التحايل السياسي الذي يحاول الوعي المبدع أن يميط اللثام عنه ويفضحه بلغة إحالية تهكمية غير مباشرة، تنأى عن الاعتراف المباشر، ولا يمكن أن تخضع لأية رقابة قانونية.

لكن وحدها النبرة التهكمية تجسّد مستوى العلاقات الإحالية بين العنونة والتيمة تجسيدا مركزيا، وتلك المستويات الإحالية المشبعة بإحالات التهكم وفضح التحايل السياسي هي التي نخالها سببا وجيها لإنتاج الجمالية، لما مارسته هذه المستويات الإحالية على المتلقي من تأثيرات مغرية، جعلت الحقيقة ضمنية بنمط من الذكاء الإبداعي الخلاق الذي لا يقدّم الحقيقة جاهزة وبنمط تاريخي جاف وصارم، ولكنه يقدّمها بنمط من الغواية الفنية والمتلقي تغريه العلاقات الإحالية بين العنوان والتيمة المركزية، وما يميزها من نبرة تهكمية حتى إن الرواية رغم أحداثها المتشعبة تفرض تلك العلاقات الإحالية سطوتها، وتحافظ على الطفل "هلال" محورا للتيمة المركزية، وتحافظ على النبرة التهكمية صيغة دلالية وإحالية مشتركة بين العنوان والتيمة المركزية، وفي ذلك ذكاء إبداعي، ونوع من أنواع الشعرية السردية.

ث – هموم الزمن الفلاقي:

في سياق دراسة الصور الملحة المرتبطة بتيمة الطفولة في رواية "هموم الزمن الفلاقي" بدا جليا أن الصورة السوداوية التي تحيل إلى الحزن المزمن هي الصورة المهيمنة التي ألحت بحضورها على مستوى وعي الطفل "محمد"، نظرا لأسيقة وظروف الفاقة والمرض، واليتم وعسر التعلم التي أحاقت بالطفل وسيّجت طفولته، وأجاءته لاستيعاب ضرورة التخلي عن الطفولة، وضرورة مناصبتها عداء كبيرا، باعتبارها المرحلة الدلالية التي قزّمت وجوده، وكرّست حزنه.

في سياق دراسة العلاقة بين فحوى التيمة المكانية ومحتويات تيمة الطفولة تم رصد الفضاء المكاني مسموما يتسم بالكدر والأسى، وكان المكان قاعا صفصفا لا يحيل إلا إلى الهزيمة والنكد وافتراس الطفولة، وحتى المكان الجبلي الإيجابي لم يكن سوى مجرد حلم واه أجدبته الخيبة والفشل.

لما يعيد المتلقي تولّج أعماق الغواية السردية والبنيات السردية، السطحية منها والعميقة لا يلفي إلا شواظا وزمهريرا، في سياق التأريخ للثورة الجزائرية، ولمستوى الهم الذي فتك بالبنيات الاجتماعية والعاطفية، وكيف أن التجربة الثورية لم تستثن شريحة اجتماعية دون أخرى، بقدر ما كانت كل الشرائح الاجتماعية مقحمة في عمق تلك التجربة التاريخية الفذة التي شارك فيها الأطفال، والتي يعيد السرد الروائي إنتاجها إنتاجا فنيا، رغم أنه يوهم بالواقعية إلا أنه يمنح المتلقي فرصة ثرية لإعادة معايشة الزمن الثوري معايشة عميقة «وفي هذه المعايشة يثير فينا النص الأدبي – عن طريق العرض التخيلي الحي للتجربة – أحاسيس وأفكارا ومواقف واتجاهات، متضمنة في تجربتنا الذاتية»[66] قد لا تحققها الكتابة التاريخية الموضوعية مهما توخّت الدقة العلمية والتحقيق المبرر.

إن كل المعطيات السابقة تبرّر ارتباط البنية العنوانية الكبرى للرواية بتيمة الطفولة ارتباطا وثيقا، يجعل من "هموم الزمن الفلاقي" إحالة واضحة إلى تلك المآسي والهموم التي نخرت الطفولة وعذبتها وأوهمتها بالخلاص، وهي هموم متعددة ومتداخلة لم تكن هما واحد بقدر ما كانت هموما تمتلك إمكانيات انتشارية كبيرة، لاسيما أن كل أسيقة الوجود التيماتي ضبطتها البنية الدلالية السوداوية، وتحكّم فيها الموت في النهاية تحكّما مطلقا لا تشوبه شائبة، وارتبطت الهموم بالزمن الثوري "الفلاقي" الذي وإن كان زمنا حافلا بالتضحيات والبطولات، وكان زمنا مباركا وضروريا جدا للحرية وتحقيق الوطنية والسيادة والكرامة إلا أنه أيضا كان زمنا عذّب الطفولة كثيرا وأرهقها وأرغمها، وهذا الزمن الثوري لم يكن سببا في حد ذاته لافتراس الطفولة وتعقيم دلالاتها، لأن الاستعمار بكيده ومروقه استهدف الطفولة لتضييق الخناق وإبادة البطولة وهي مازالت غضة في مهدها، حتى يقضي على احتمالات الاستمرار النضالي، لذلك يلفي المتلقي أن كيد الاستعمار تجلى بصفة مباشرة وصريحة في غضون المشاهد السردية التي تصور المعلم اليهودي – الذي يمثل الحضور الامبريالي الاستعبادي – وهو لا يتوانى في ركل الطفل، وقمعه، وإمحال طفولته، وإخماد رغباته

66 حامد أبو زيد، نصر. إشكاليات القراءة وآليات التأويل. الطبعة السابعة. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2005 (م). ص 27.

وميوله، ولعل الوعي المبدع توخى إماطة اللثام عن الطفولة كفكرة مركزية في الرواية لينقل مدى معاناة المجتمع الجزائري في سياق الوجود الاستعماري، من خلال رصد مدى معاناة الطفولة التي يعتقد كل واحد بأهميتها، ويعتقد أن الاستعباد إن طال الطفولة فذلك لا يحيل إلا إلى مستويات هائلة من الدمار والعقم، ذلك أن إبادة الطفولة تعني إبادة المستقبل وإبادة الحياة إبادة كاملة، وأن الذي تجرّأ على إبادة الطفولة لا يتوانى لحظة واحدة في إبادة كل شيء.

رغم أن العتبة العنوانية لا تحيل إلى هموم الطفولة فقط – حيث إن الهم يضرب بأطنابه في كل المستويات ويشوّه كل التيمات – إلا أن دلالة الهم في حد ذاتها لا تكون في أوج استذئابها وشراستها إلا إذا ارتبطت باضطهاد الطفولة اضطهادا يحيل إلى الإبادة والتعقيم والتشويه، فكانت الهموم أكثر ارتباطا بالطفولة وبنكباتها وبأحلامها المنحورة، لاسيما حين لم يرتبط الهم بالمستويات المادية فقط، بل تعداها إلى المستويات الشعورية، وإلى مستوى الوعي، فعطّل المشاعر الإيجابية وأخمدها، وعزّز الرؤية السلبية للطفولة، إلى درجة لم يرغب فيها الطفل بطفولته وأزمع صرمها وتجاوزها، ومعنى أن يهجر الطفل طفولته ولا يولي اهتماما باللهو والجري والدراسة والنزق هو معنى تشوه الحياة نفسها، وانهيار كل الآمال المنوطة ببناء مجتمع إنساني يحتفى فيه بالإنسانية، ويحظى فيه الفرد بكرامته مهما كان سنه.

رغم أن الزمن "الفلاقي" كان زمنا خصبا جدا ورمزا للعطاء والحرية والاستقلال، إلا أنه في سياق ارتباطه بالطفولة في رواية "هموم الزمن الفلاقي" أحال إلى الجدب والقهر والموت، لتكون الطفولة على ضوء هذه الهموم وهذا الزمن طفولة ذاوية منذ البداية، وخامدة تماما في النهاية، حيث عانى الطفل "محمد" شظف العيش والطوى، وكوابيس مرض الأب وتربص المتربصين، ونكبة موت الأب، وتسلّط المعلم، ثم في النهاية قرّت رصاصة في رأسه وهو تائه بين الدروب يتوخى الصعود إلى الجبل الأخضر، الذي يحيل إلى المجاهدين وإلى الجهاد والكفاح، وكيف تمكنت هموم الزمن "الفلاقي" من الطفل قبل أن يحقق رجولته ويصير واحدا من المجاهدين، ولعل دلالة الهم – في بعده الزمني، وإنتاج تلك الدلالة – هي علاقة

مركزية بين العتبة العنوانية وتيمة الطفولة، وهي جوهر الشعرية المضمونية، على اعتبار أن دلالة الهم وحدها لها بعدها السوداوي الذي يؤثر في مستويات التلقي والمعايشة، وينتج تجاوبا تطهيريا فعالا، كما أن إنتاج الفكرة التاريخية إنتاجا فنيا هو في حد ذاته مستوى من مستويات الشعرية، لما للفن من سطوة على النفوس تفوق سطوة التاريخ الموضوعي نفسه لاسيما حين تتاح للمتلقي قراءة التاريخ قراءة شعورية، قد تكون أقوى من القراءة المعرفية.

ج – رجال وكلاب:

في رواية "رجال وكلاب" نتبنّى في دراسة بويطيقا التيمة وغواية التأويل المنهجية نفسها تقريبا، حيث نفكّك العتبة العنوانية، ثم نعيد بناءها في علاقاتها القصدية والإحالية مع تيمة الطفولة، مع وضع فرضية وجود علاقة إحالية وطيدة بين البنية العنوانية والبنية التيماتية، وهذه الفرضية مرجعية ضرورية لا تتأتى من العدم، ولكنها تنشأ من إمكانيات الحدس الفينومينولوجي، وتؤسس لها الدراسة السابقة، في سياق محاولات رصد تحولات الوعي بالطفولة، حين بدا جليا أن هناك إحالة دلالية معينة بين العنونة الكبرى والتيمة المركزية.

من حيث الوضوح لا مجال يدعو للشك بأن العتبة العنوانية "رجال وكلاب" تتكون من كلمتين لا يكتنفهما أي غموض معجمي، إلا من باب ارتباطهما بالتنكير الذي يحيل إلى الإطلاق والعموم دون تحديد رجل بعينه أو كلب بعينه، وقد أومأنا سلفا إلى أن الوضوح المطلق بقدر ما يغري بالبساطة بقدر ما يحيل إلى الغموض، ذلك أن المتلقي يلفي إمكانيات القراءة غارقة في زئبقية الدلالة اللامنتهية التي تحتّم على المتلقي التفتيش عن دلالات معينة تقلل من مستوى الانتشار الدلالي اللامحدود الذي يشفّر العنونة، ويجعل الوضوح المطلق في حد ذاته نمطا من المداهنة السردية والغموض المدلهم.

في سياق هذه الدراسة، وانطلاقا من الفرضية الفينومينولوجية لا تهم الدلالة العنوانية في حد ذاتها بقدر ما يجب توخي البحث عن علاقة ممكنة بين التيمة المحورية في السرد والعتبة العنوانية؛ بمعنى رصد كيفيات تجلي الدلالات العنوانية على مستوى وعي الطفولة

وهذا ما يجعل العنوان غير قابل للقراءة المعجمية، بقدر ما هو قابل للقراءة الموضوعاتية حيث تتحول كلمة "رجال" إلى دلالة تيماتية، والأمر سيان بالنسبة للكلمة العنوانية الثانية "كلاب"، ولا تهم القراءة النحوية أو اللسانية، لأن العتبة العنوانية قد تحوّلت إلى صورة تيماتية أو بنية تيماتية مثقلة بالدلالات والإحالات والعلاقات القصدية، التي تغني عن التنكير والتعريف، ودراسة الروابط النحوية والمعاني المعجمية، حيث يفقد الغموض الناجم عن التنكير مشروعيته لمجرد تحويل العتبة العنوانية إلى عتبة تيماتية، قيمتها الدراسية تكمن في العلاقات التيماتية التي تتفرع عنها، وفي مستويات الإحالة إلى التيمة السردية المركزية، لذلك يضبط الحدس الفينومينولوجي حدود الدلالات التيماتية العنوانية من البداية، ويقضي على إمكانيات المداهنة السردية، ويتخلص من وهم الدلالة المعجمية، واحتمالات القراءة اللسانية ليركّز فقط على ماهية "الرجل" الذي تبناه وعي الطفولة، وكذا ماهية "الكلب" الذي استبطنه الوعي، وكيف كانت مستويات الإحالة التيماتية ومحتوى دلالات الإحالة، ويبقى لا مناص من الولوج إلى عمق المؤشرات السردية، فرغم وجود الفرضيات الحدسية الفينومينولوجية وضبط احتمالات إنتاج المستوى العنواني يبقى من الضروري تأهيل البنية التيماتية العنوانية على مستوى البنية التيماتية السردية من خلال دراسة التيمتين التاليتين:

1 – تيمة الرجل: لقد عانى الطفل "علال" من علل مرضية وصلت به إلى الاختلال النفسي والصرع، وهو – دائما – يفتش عن تفسير وجيه وموضوعي لحالات المرض التي ضبثت به وأنهكته، وفي سياق الرحلة البحثية المعتاصة استحضر كل الحكايات المرتبطة بالجد "علال" الذي يشترك مع الطفل في صفتين أساسيتين؛ أما الأولى فهي أنهما يحملان الاسم ذاته، وأما الثانية فهي أن مرضا متشابها قد فتك بهما، ولم يكن الطفل ليعتقد بإمكانيات المصادفة التي أقحمته مع الجد في خانة واحدة، لذلك كان مدمنا على رصد تفاصيل حياة الجد، لاسيما تلك التي ارتبطت بحالاته المرضية الكلبية، كأن «يقعى بما يشبه الكلب والحبل في عنقه»[67] حتى توفى وهو يتقمّص كل صفات الحياة الكلبية، وقد خلّفت هذه الحكايات التي سمعها الطفل عن الجد وقعا ثقيلا، إذ لطالما اعتقد أن الوراثة نهبت طفولته

[67] لغتيري، مصطفى. رجال وكلاب. ص 21.

وهي سبب المأزق النفسي الذي يرزح تحت وطأته، وسبب للخيبة التي يعانيها، لاسيما عندما ينظر إليه الغير على أنه امتداد صارخ للجد، وبذلك استحوذ الجد (الرجل) بحالاته المرضية على وعي الطفل الذي راح في كل مرة يسهب في التواصل مع هذا الرجل، فمرة يستسلم لحتميات الوراثة، ومرة يفنّدها، ويحاول الاستعاضة عنها باحتمالات وأسباب أخرى، لكن الثابت أن صورة الرجل الجد قد لقيت ما يكفي من اهتمام الوعي، كفاية مكّنت لرسوخها فكرة ملحة بارزة على مستوى الذاكرة، ولعل الجد هو الرجل الأول الأكثر حضورا على مستوى وعي الطفولة، أما الرجل الثاني الأكثر حضورا على مستوى وعي الطفل فهو الأب الذي توضح الرواية أنه عانى من الرؤية الغيرية، وتكبّد كثيرا من الأضرار النفسية وكثيرا من الأسفار والوحدة والانزواء، جراء الإشاعات التي تفاقمت والفضائح المرتبطة بحالات الجد الكلبية، ولما حاول الطفل لأول مرة في حياته أن يمتلك جروا – ونجح في استعطاف الأم – فاجأه الأب برفضه المطلق، بل إنه استشاط غيظا وغضبا، وكأن تاريخ المصائب والفضائح والأمراض يعيد نفسه مرتين، ولم يكن من بد إلا أن التجّ الأب وهاج، وهو يقذف الجرو الصغير خارج البيت، في وضعية تألّم لها الطفل وتأسّف، إلى درجة تملّكه فيها اليأس المدقع وانتابته مشاعر الكره والسخط إزاء الرجل الأب.

لقد كان هذان الرجلان (الجد والأب) هما الرجلان الأكثر حضورا على مستوى وعي الطفولة، حيث ارتبط الرجل الجد بالحالات المرضية الكلبية والهوس بالوراثة، وارتبط الرجل الأب بمستويات القمع والكره والرغبة في الموت، وهما رجلان قد تحولا من واقعهما البيوغرافي ووجودهما التاريخي إلى ظاهرتين على مستوى الوعي، تحيلان إلى كثير من الدلالات التي كانت – غالبا – دلالات سلبية ومشوهة، ومثيرة للأسى والشجن، لذلك تحيلنا تيمة الرجل إلى الرجل بمعناه السلبي المرضي والقمعي معا، رغم التناقض الصارخ مع علاقات القرابة التي يفترض أن تكون معانيها تحيل – غالبا – إلى الافتخار والود والإرضاء.

2 – تيمة الكلب: الكلب الأول الذي ألحّ بحضوره على مستوى وعي الطفولة هو الكلب الذي تحكي عنه الحكايات، وقد امتلكه الجد وأحبه، وهام به، إلى درجة أن هذا الكلب

لمّا مرض وانقرض تملّكت الجد حالة مفرطة من الهم والغم، أودت بعقله، وأولجته في حالاته المرضية والكلبية، لذلك ارتبط الكلب الأول بالرجل الأول، وكان الجد يحيل مباشرة إلى الكلب، والكلب بدوره يحيل إلى الجد، حينذاك كانت الصورة الأولى التي تبناها وعي الطفولة لا تفرق بين الرجل والكلب، باعتبارهما شيئين متلازمين يحيلان إلى تيمة ملحة واحدة هي تيمة الرجل والكلب، أو هي تيمة "الرجل الكلب"، ذلك أن الرجل الجد في نهاية المطاف لم يكن بالنسبة للطفل على مستوى استبطان وعيه إلا نوعا هجينا، ليس رجلا وليس كلبا، ولكنه رجل كلب.

أما الكلب الثاني فهو الجرو الذي حاول الطفل بكل توسّلاته أن يمتلكه، لكن الرجل الأب قهر أحلامه وقوّض رغبة الامتلاك على مستوى الواقع، فكان أن استعاض وعي الطفل بامتلاك كلب جرو على مستوى الخيال، حيث عاش في أحلام اليقظة وأحلام الليل حياة متخمة باللهو والحبور مع جروه المنشود، حتى إنه كان قادرا على الطيران: «إنني أحلق في الأجواء والكلب في حضني بعيدا عن كل من تسول له نفسه سلبي هذا الرفيق الحميم»[68] أما الرجل الأب فقد مات على مستوى الخيال، لأن الجرو في الأحلام تحول إلى كلب عظيم انقضّ على الأب وانتقم منه شر انتقام، لذلك تخلّص الطفل في حياته الجديدة البعيدة عن الواقع من كل العوائق والمثبطات، وأجذله كثيرا أن تخلّص من الأب ومن تيمات القمع، وقد استمر امتلاك الطفل للجرو على مستوى الخيال إلى مرحلة ما بعد الطفولة، حتى إن الجرو يكبر وينمو، والأحداث تتهافت، إلى أن صار الجرو كلبا ضخما.

بذلك تومىء تيمة الكلب إلى كلبين؛ الأول ارتبط بالجد، والثاني ارتبط – أصلا – برغبة الامتلاك والخيال، والأول حوّل الجد إلى كلب، والثاني فتك بالأب وقضى نهائيا على الأبوة وبذلك تكون الصورة العنوانية – في الحقيقة – إحالة إلى هيمنة الصورة الكلبية على مستويات الوعي والاستبطان، لأن تيمة الكلب أقوى تأثيرا وحضورا من تيمة الرجل، لاسيما أن الكلب الأول قضى على الرجل الأول وحوّله إلى كلب، والكلب الثاني أباد الرجل الثاني وتخلّص منه تماما، بغض النظر عن العلاقة الأصلية والبدئية بين التيمتين، إذ كانت العلاقة

[68] المصدر نفسه. ص 63.

بين الرجل الأول والكلب الأول – في الأصل – علاقة صداقة ورفقة ووفاء، والعلاقة بين الرجل الثاني والكلب الثاني – في أصلها – كانت علاقة عداء وتنافر، ولا تهم هذه العلاقة إلا بقدر أن ما يهم هو أن تيمة الكلب سيطرت على تيمة الرجال، كما أنها في النهاية استحوذت أيضا على الوعي، بعد أن أقصيت تيمة الرجال نهائيا وأبيدت، وهكذا تحيل العتبة التيماتية العنوانية إلى علاقات الصراع الضمني بين تيمتين أساسيتين، وكيف أن تيمة الكلب استطاعت فرض مستوياتها الدلالية والقصدية على مستوى العلاقة بين الرجال والكلاب واستطاع الوعي أن يستبطن الصورة الكلبية صورة ملحة تحيل إلى الرغبة والإشباع، وأن يستبطن الصورة الرجالية صورة ملحة أيضا، لكنها تحيل إلى الإقصاء والإعدام، فكانت الإحالات القصدية السابقة في تعقّدها وتواشجها، وصورها الملحة، ومستويات الإشباع والإقصاء، هي هوية العلاقات بين العتبة العنوانية وتيمة الطفولة، ولاشك أنها علاقات لقراءتها ورصد تفاصيلها ومضامينها يتوجب إنتاج نصوص أخرى، هي نفسها النصوص المفترضة والغائبة، التي تضخّم النص الروائي الأصلي، وهي النصوص التي تحيل إلى الشعرية السردية وشعرية الارتباط التيماتي في مستوياتها التأويلية «لأن الشعرية ذات دلالة تأويلية أكثر من مجرد جمالية»[69].

ثالثا: المكان:

أ – المكان الطفل:

ارتبط المكان بتيمة الطفولة في رواية "حنة" ارتباطا وثيقا يغري بتولّج أعماقه وبمحاولات اكتناه خبايا الأثر الجمالي، وتلك العلاقات القصدية المتألقة في عالم الفن، وما يمكنه من تحقيق اشتهاء التلقي وغواية إعادة ابتكار الرؤية المكانية، من منظور استبطان الوعي، سواء أنيط الأمر بوعي المبدع أو بوعي الطفولة أو بوعي التلقي، ولا يهم الفيض الدلالي إلا بقدر ما ينتجه هذا الفيض الدلالي من مستويات جمالية خلاقة، كان المكان هو

[69] بحراوي، حسن. بنية الشكل الروائي. الفضاء – الزمن – الشخصية. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1990 (م). ص 43.

أوار تلك المستويات الجمالية، وهذا المكان في رواية "حنة" لا يمكن أن يكون في النهاية إلا مكانا يقبع في عمق الذاكرة، ويضفي عليه الوعي دلالات متميزة.

لعل هذا الموقع المكاني منذ البداية يهيّيء لإمكانيات جمالية معتبرة، على اعتبار أن المكان لا يحظى بنزاهة الصدق المطلق الغائب دائما على مستوى الإبداع، مهما أوهمت فكرة السيرة الذاتية بذلك «فليست هناك سيرة ذاتية تمثل الصدق الخالص»[70]، كما أن المكان قد لا يرتبط بالمرجعيات الواقعية إلا من باب المجاز والتحايل التخييلي، فكانت السيرة نمطا استرجاعيا يتسم بالخيانة دائما، وكان الوعي يستبطن المكان دائما استبطانا له دلالاته النسبية، وكانت معطيات الاسترجاع السيري، والاستبطان والتخيل، ما هي إلا نمط من إعادة هندسة المكان وإعادة بناء الأفضية السيرية بناء فنيا يحيل إلى كثير من مستويات الأدبية والمستهدف في هذا السياق هو رصد تقنيات إعادة البناء، ورصد البناء المكاني ومميزاته الخاصة من منظور استبطان وعي الطفولة للمكان، وفق العتبات المكانية التالية:

1 - المكان الباذخ: جل الأفضية المكانية التي ارتبطت بها تيمة الطفولة في رواية "حنة" كانت زاخرة بالنعوت، فلا يكاد يبدو مكان معين إلا موهوبا بترسانة كاملة من التركيبات اللغوية الوصفية: «أجري الآن في الممر الضيق يحاذيه الجدول الصغير»[71] - «يرسلني أبي لأشتري رغيفين من الدكان البعيد»[72] - «وأضل أمشي وراءه، وهو يغوص في الشارع المظلم»[73] ولعل صفات "الضيق والصغير والبعيد والمظلم" التي ارتبطت بالفضاء المكاني مباشرة أمثلة واضحة على البذخ المكاني باللغة الواصفة، وهي لغة واصفة تستمد دلالاتها من محتوى الرؤية الواعية وغير الواعية التي يتبناها الطفل إزاء المكان، بغض النظر عن وجود المكان في حد ذاته، والذي قد تكون الصفات التي نسبت إليه صادقة أو كاذبة، لأن المكان لا وجود له في حد ذاته، بقدر ما يكون وجوده «كيانا مبنيا في

[70] عباس، إحسان. فن السيرة. الطبعة الأولى. عمان، الأردن: دار الشروق، 1996 (م). ص ص 105، 106.

[71] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص 09.

[72] المصدر نفسه. ص 19.

[73] المصدر نفسه. ص 26.

المخيلة»[74] متحققا داخل الوعي عندما يقصد الوعي المكان ويحوله إلى ظاهرة، فنلتزم في هذا السياق البحثي برصد المكان كظاهرة، ولا تعنينا الحقيقة الخارجية إلا من جانب عدم نفيها، ومن جانب وضعها موضع التعليق والتأجيل، وهو السبب الوجيه الذي يجعل من الصفات المكانية ترتبط بوعي الطفولة أكثر من ارتباطها بالمكان في حد ذاته، وهي محاولة من الوعي لإعادة تأثيث المكان تأثيثا شعوريا قبل كل شيء، إذ ترتبط – مثلا – صفات "الضيق والصغير والبعيد والمظلم" وغيرها بالقراءة الشعورية للمكان، لتكون العلاقة بين الطفل والأفضية المكانية في هذا المقام هي علاقة شعورية بالدرجة الأولى، تكون فيها المقاييس المكانية عاطفية نفسية، بعيدة نوعا ما عن الضبط التجريبي وعن المقاييس الموضوعية، لهذا يزخر المكان بالبذخ الوصفي، لا لشيء إلا لأن التواصل مع المكان كان شعوريا نفسيا، بكل ما يحيل إليه التواصل الشعوري والنفسي من بذخ عاطفي متمكن، ومن جماليات «لأن الجماليات هي تحويل المكان من مدرك حسي إلى مدرك نفسي»[75]، ولو كانت الرؤية للمكان أكثر عقلانية وموضوعية لكانت اللغة المكانية أكثر تجردا من النعوت وهي رؤية تناقض الرؤية المعهودة، حيث يكون الوصف دائما مرادفا لتوخي الصدق والموضوعية وليس العكس، لكن هذه الرؤية المعهودة لا تنطبق على وعي الطفل الذي لا يرتبط بالمكان من أجل غايات موضوعية وعلمية، إنما يرتبط الطفل بالمكان – عادة – ارتباطا عاطفيا، وكلما زاد هذا الارتباط العاطفي زاد الثراء الوصفي على مستوى اللغة، وكلما غاض معين هذا الارتباط كانت المستويات اللغوية أكثر تجردا من النعوت، وأقل شحنا دلاليا فكانت بذلك النعوت المكانية علامة إحالية واضحة إلى مدى ارتباط وعي الطفل بالأفضية المكانية ارتباطا عاطفيا قويا، وما البذخ المكاني بالنعوت إلا علامة إحالية واضحة إلى مستوى الوعي بالمكان، وما تزخر به الذات من قوة عاطفية كافية وكفيلة لتحقيق طفولة تتميز بالرخاء العاطفي المتميز، فكانت شعرية المكان لا تكمن في كون الشعور إحالة إلى

[74] النصير، ياسين. إشكالية المكان في النص الأدبي. الطبعة الأولى. بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986 (م). ص 05.

[75] المحادين، عبد الحميد. جدلية المكان والزمان في الرواية الخليجية. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة العامة للدراسات والنشر، 2001 (م). ص 32.

المكان، بقدر ما كان المكان ببذخه اللغوي والوصفي إحالة وجيهة للشعور، تمكّن المتلقي من تلقي الأفضية السردية تلقيا عاطفيا بالدرجة الأولى، ولعل القراءة العاطفية أكثر لذة من القراءة المعرفية والموضوعية.

2 – الإيهام بالواقعية المكانية: لقد أومأنا سلفا إلى أن الحضور المكاني في رواية "حنة" وفي ارتباطه بتيمة الطفولة كان حضورا شعوريا، لكن الحضور المكاني يبدو للوهلة الأولى حضورا واقعيا موغلا في واقعيته، حيث لا يلفي المتلقي شكا معرفيا يساور "الممر أو الجدول أو الدكان" مثلا، لأنها أفضية مكانية تحيل مباشرة إلى الواقعية، ليخال المتلقي أنه بصدد نقل حرفي للواقع وللمكان كما هو موجود في ذاته، وهذا الوهم لا يتفطّن لكيده المتلقي إلا بعد إعادة النظر في البذخ الوصفي الذي يحيل إلى نوع من اليقين المشوب بالشك، ذلك أن المكان في بعده الوصفي يتخلى شيئا فشيئا عن واقعيته، ويكتنفه التلغيز والتلغيم الإبداعي حينها يستوعب المتلقي الحصيف – ضمنيا – أن المكان في السياق السردي قد لا يمت بأية علاقة تطابق للمكان الواقعي، وأن الوعي ينتج مكانا خاصا به، مثلما تكون رؤيته للمكان الواقعي خاصة به أيضا لا يمكن أن تتسم بالموضوعية المطلقة، لكن وهم الواقعية – رغم تفطن المتلقي لاحتمالات التمويه السردي – يبقى احتمالا لا يمكن التملص من رباقه، لأن فرضية الممكن وغير الممكن لا يمكن التخلص من مستويات حضورها، والواقعية ذاتها تبقى احتمالا ممكنا في بعض وجودها، رغم أن الاحتمال الوهمي يلازمها، لذلك يحتار المتلقي دائما بين الوهم والواقعية، ويفلح الوعي المبدع في تحقيق فكرة الإيهام بالواقعية، لأن فكرة اليقين والشك تلازم المتلقي، وهو في شقاء الحيرة بين ما يمكن وما لا يمكن أن يكون واقعيا أو وهميا، ولعل الحيرة في حد ذاتها قيمة قرائية جمالية أنتجتها مستويات العلاقات الشعورية الغامضة بين الأفضية المكانية وتيمة الطفولة من جهة، وبين الأفضية المكانية الطفولية وإمكانيات القراءة والتأويل من جهة ثانية، ذلك أن القراءة في حد ذاتها ليست محاولة بريئة ولا يمكن أن تكون إلا استبطانا جديدا للمكان، وإعادة لبنائه وفق خلفيات يعسر تحديدها بدقة فيزداد المكان وهما رغم أنه دائما له خلفيات واقعية، ليبقى الوهم والواقع ثنائية لا مفر منها ولكن القراءة التيماتية قراءة نصانية لا تهتم بالمرجعيات الخارج نصية، وإذا كان الواقع يعني

المرجعية الخارج نصية فقد وقع الناقد التيماتي في مغالطة تيماتية واضحة «لأن الاعتقاد الساذج بوجود صلة مباشرة بين الكلمات والمراجع وهم»[76]، إلا إذا كان الواقع لا يرادف المرجعية الخارج نصية، فهو في الحقيقة واقع لغوي لا غير، والوهم كذلك وهم لغوي، والعوالم الواقعية والوهمية في الرواية هي في النهاية عوالم لغوية، وفكرة الواقع والوهم لا تثبت أو تنتفي بالعودة للمرجعيات الخارج نصية، ولكنها تتحقق أو تتبدّد انطلاقا من مستويات الوعي وإمكانيات الرؤية اللغوية، حيث تكون اللغة نوعا من الواقع، لكنها في استعمالاتها الفنية والسردية تنأى عن واقعيتها الدلالية لتوهم – عادة – بالواقعية، فكان الواقع – إذن – أكثر ارتباطا باللغة في دلالاتها المعجمية الأكثر شيوعا واتفاقا، وكان الوهم أكثر ارتباطا باللغة في استعمالاتها الأدبية والانزياحية.

3- **الإمكانيات المكانية:** تكمن الإمكانيات المكانية في تلك القدرة السردية على استحضار عدد معتبر من الأمكنة التي ارتبطت بالطفولة، حتى إن الطفولة تفقد وجودها لو تعرّت من تلك الأفضية المكانية التي تلح ذاكرة الطفل على استحضارها استحضارا يصل إلى درجات التماهي، ليتحول المكان في حد ذاته إلى طفولة زاخرة بالرؤية وبالوعي وبالمشاعر والحياة، وكأن المكان كبعد هندسي لا وجود له إلا على سبيل المجاز والأنسنة لذلك نحاول رصد أهم الأفضية المكانية في رواية "حنة" والتي تمثل امتدادا ضروريا لتيمة الطفولة، وشرطا ضروريا من شروط بذخها الدلالي وعلاقاتها الكثيفة، حيث لا يمكن أن ننسى أن التيمة لا يمكن أن تكون تيمة في عرف النقد التيماتي إلا إذا تميزت بالكثافة الانتشارية وبالأرصدة الدلالية الوفيرة، ولعل المكان من أهم تلك الأرصدة التي لا غنى عن رصد تجلياتها الجمالية وعلاقاتها الشعرية، وسنكتفي في هذا السياق برصد الإمكانيات المكانية التي يزخر بها الكوخ، كمثال يختصر فلسفة الرؤية للمكان.

- **الكوخ:** وهو المكان الذي تستقر فيه عائلة الطفل عندما يقبل فصل الربيع، ويتواجد هذا الكوخ في الواحات بين عدة أكواخ أخرى متناثرة هنا وهناك في الحقول، وهو «مفتوح من

[76] بارت، رولان. الأدب والواقع. ترجمة: عبد الجليل الأزدي. محمد معتصم. الطبعة الثانية. الجزائر: منشورات الاختلاف. ص 46.

كل جانب، فلا أبواب تحميه، وهو عرضة لكل المارة»[77] ويبدو جليا أن الكوخ كوخ بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من بساطة وترهّل وضعف وهشاشة، ذلك أن الكوخ لا يمكن أن يكون في النهاية بيتا فاخرا، لكن على مستوى وعي الطفولة تخضع دلالات الكوخ لتغيّرات وتحولات مناقضة لإمكانيات التوقع، حيث يكون الكوخ – رغم حقارته – فضاء مكانيا فاخرا تمنحه الذات الواعية سحرا مميزا، حتى إنه قد يتحول إلى منزل فاخر، وذلك عندما تعيد الذات الواعية شحنه بكثير من دلالات الأبهة والجمال، فيستفيق القاريء وكأنه في كوخ من نوع آخر من تلك الأكواخ النبيلة الباذخة الجمال التي قد لا تكون إلا في الأحلام.

رغم أن كوخ الرواية مازال وضيعا، لكن المتلقي تفشل معتقداته لا لشيء إلا لأن رؤية الطفل للكوخ هي التي تتحكم في بناء الكوخ، وتحاول جاهدة أن تتحكم في رؤية المتلقي لهذا الكوخ، فيغيب في وعي القراءة الكوخ الوضيع شيئا فشيئا، ويظهر الكوخ الجميل، ذلك أن الكوخ لم يوجد في حد ذاته، ولكن وعي الطفل هو الذي أوجده بواسطة شحنات عاطفية تنضح إعجابا بهذا الكوخ، حيث يقول في بعض الأسيقة: «في كوخنا الجديد الموضب»[78] ولعل التمويه الذي طرأ على مستوى تحول دلالة الكوخ من النقيض السلبي إلى النقيض الإيجابي لم يرتبط بالكوخ في حد ذاته، بقدر ما ارتبط بيوميات المسرح المكاني، حيث كان الطفل دائما مأخوذا بالأحداث وبالعلاقات والمشاعر التي كان الكوخ فضاء مكانيا لها، لذلك لم يكن الكوخ خاويا ليحظى بالاحتفاء إلا حين يكون مسكونا بتفاصيل العائلة وبأحداثها وبعلاقاتها، وبأفراحها وأتراحها، حينئذ يتحول الكوخ إلى مرادف للعائلة، ويفشل الرصيد الدلالي المعجمي في تعريف الكوخ على أنه مجرد بناء متداع هش، لأنه في ارتباطه بتيمة الطفل ليس كذلك، بقدر ما هو عائلة كاملة تنضح حيوية وحركة وحياة، حتى إن الكوخ يتحول إلى فضاء زاخر بالحياة وبالعواطف النامية التي تكون الأبعاد الهندسية والمادية بالنسبة لها مجرد اهتمام هامشي جدا، وهكذا يكون كوخ الطفل عالما فنيا بامتياز، تنتجه مستويات الوعي والخيال، ولا علاقة ضرورية لهذا الإنتاج بمستويات الواقع الخارجي أو

[77] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص 10.
[78] المصدر نفسه. ص 11.

بمستويات اللغة المعجمية إلا من باب الإحالات المجازية التي تؤسس غالبا لمستويات جمالية متعددة، لاسيما حين يكون القاريء إزاء نوع من الإثارة الدلالية، وإزاء فضاء مكاني جديد ينأى عن خلفيات أفق التوقعات التقليدية، وتتجاوز حدوده الأبعاد الهندسية الجافة وصرامة التحديد المادي، إلى فضاء تخييلي لا محدود من العلاقات والأحداث والذكريات والمشاعر المتشعبة لأن «المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب»[79].

لا يكتفي الكوخ بالإحالة إلى البنية الأسرية وما يميزها من علاقات وأحداث كثيرة – لعل أقمنها بالذكر هي علاقة الأبوين بالطفل، وما يميز هذه العلاقة من احتفاء بالطفولة واهتمام بها، لاسيما أن الطفل "محمد" كان في بدايات عمره الطفل الوحيد في الأسرة – بل إن الكوخ تمتد دلالاته إلى أفضية مكانية أخرى توسّع معنى الكوخ، وتجعله حيزا مكانيا وسيعا في الوعي، وهو ما يجعل المتلقي يعزف تماما عن معتقداته القبلية المرتبطة بضيق الكوخ وبصغر مساحته، حيث يحيل الكوخ مباشرة إلى الواحة والأراضي الزراعية، وإلى السواقي والجداول المائية، وإلى زريبة الحيوانات والدروب الملتوية، وغيرها من الأفضية البدوية التي تمنح الكوخ مدلولا جديدا ينضاف إلى مدلوله الأسري، ولا يكون هذا المدلول الجديد إلا مرادفا للبداوة ولتفاصيل الأفضية البدوية التي تمنح الطفل كثيرا من إمكانيات اللهو والتحرر والمغامرة، والولع بالطبيعة التي «فيها لعبت وضحكت وتعبت»[80].

والمتتبع لمسارات السرد في رواية "حنة" ولدلالات التجلي التيماتي يلاحظ أن الطفل لا يحفل كثيرا بتفاصيل وجوده في الفضاء المكاني البدوي، بقدر ما يعير اهتماما لرصد الأحداث والتفاصيل والعلاقات التي يعج بها المكان البدوي، فلا تكون الذات في أغلب الأحايين محور الوجود المكاني، حيث يسهب الطفل في وصف المكان البدوي، ولا يهتم إلا قليلا بوصف وجوده في هذا المكان، وهذا يثبت هيمنة الوعي بالمكان على الوعي بالطفولة

[79] باشلار، غاستون. جماليات المكان. ترجمة: غالب هلسا. الطبعة الثانية. بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1984 (م). ص 31.

[80] الباردي، محمد. المصدر السابق. ص 09.

منعزلة، حيث تتحول الطفولة في حد ذاتها إلى امتداد مكاني، وتكون الطفولة ذاتها هي الحدود المكانية نفسها، لهذا يعتقد المتلقي في النهاية أن الطفولة لا وجود لها إلا بالمكان وهذا الكوخ وأفضية الواحة والبادية واهتمام الوعي بها هي – في الحقيقة – الطفولة في مفهومها المكاني، ليكون المتلقي بصدد طفولة مكانية، كل تضاريسها مأهولة بوعي الطفل الذي يحاول أن يتعرف على طفولته المكانية المتميزة عن المكان في حد ذاته تميزا فريدا وقد يكون مناقضا للحقيقة الواقعية، وبذلك تكون دلالات الكوخ ليست أسرية أو بدوية فقط بقدر ما هي دلالات تحيل إلى تيمة الطفولة، وتحيل بنمط من الغموض إلى ما يمكن تسميته بـ "المكان الطفل"، إذ المكان في النهاية هو الطفل بوعيه المكاني، ولا وجود لمكان آخر إلا تلك الأوهام السردية التي توهم بالواقعية، لذلك قد ينهار المكان الهندسي، لكن المكان في الوعي أكثر خلودا وشبابا، قد لا يطاله العفاء والفناء حتى ولو كان الإنسان في عمر الشيخوخة.

لقد تعمّدنا إغفال الأماكن الأخرى التي ارتبطت بطفولة الطفل "محمد" ليس من باب التقصير، ولكننا ندرك أن استحضارها يخيّب الدراسة النقدية بنوع من التكرار الذي لا يجدي ذلك أن الأماكن الأخرى – كالمدينة والمدرسة والحارة والبيت وتفاصيل هذه الأمكنة – لاتهم كثيرا، لأن فلسفة استبطان المكان هي نفسها التي اكتنهناها في سياق رصدنا لمكان الكوخ حيث إن ما ينطبق على الرؤية للكوخ بأبعاده الدلالية المختلفة ينطبق على الرؤية للأماكن الأخرى، بغض النظر عن الاختلافات المكانية واختلاف التفاصيل المرتبطة بكل مكان، إذ تستهدف الدراسة في هذا السياق رصد الفلسفة الجمالية، عن طريق رصد العلاقات العامة بين الأفضية المكانية وتيمة الطفولة، والتي تبيّن أنها علاقات تماه، يكون فيها الطفل في النهاية هو المكان، والمكان هو الطفل، مهما أوهمتنا التفاصيل بالواقعية، ومن عمق هذه العلاقة المعقدة، ومن مستويات التماهي الغامضة تنتج الجمالية، وتنتج الفتنة المكانية وغواية التداخل التيماتي المعقد، لاسيما حين تفقد الأفضية المكانية وجودها الموضوعي ومبررات الوجود القبلي، وتجبر المتلقي على معايشة بناء مكاني جديد، ويبقى كل جديد مرغوبا

بالاكتشاف، ومصحوبا بنوع من اللذة الفكرية «ذلك لأن الجديد وحده هو الذي يهز الوعي»[81]، لذلك تثيرنا الأماكن في الروايات أكثر مما تثيرنا الأماكن في الواقع عادة.

ب – المكان الوطن:

تهيمن تيمة الطفولة في رواية "البزاة" هيمنة لا مراء فيها، إذ يستوعب المتلقي بيسر أن الطفولة تسيطر على كل المستويات السردية، وهذه السيطرة تستمد مفعولها من عدة مؤشرات تيماتية أخرى لعل أقمنها بالذكر تيمة المكان الذي يحضر هو الآخر حضورا مكثفا لا كمكان هندسي مستقل، بل كمكان هو الآخر يستمد مشروعية حضوره انطلاقا من العلاقات الإحالية والقصدية التي يؤسسها الطفل إزاء المكان، فيتحول هذا المكان من موضوع إلى ظاهرة يتبناها الوعي ويضفي عليها الدلالات، ويعيد إنتاجها إنتاجا فيه نوع من الخصوصية والابتكار، لذلك لا يهم المكان في حد ذاته بقدر ما تهم تلك العلاقات الإحالية التي تتأسس بين تيمة المكان وتيمة الطفولة.

يحضر المكان على مستوى وعي الطفل ضمن المشاهد السردية الأولى في مستهل الرواية، وذلك من خلال ما يلاحظه الطفل "مراد" في الميناء – وهو ينتظر وصول والده – عن الأعداد الهائلة من العساكر الفرنسيين الذين توافدوا بكثافة، فتبادر إلى ذهنه مباشرة أن هذا العدد الهائل يعني «أن الحركة في الحي الذي يقطنه سوف تكون محدودة أكثر مما سبق»[82] ويعني ذلك أن الفضاء المكاني المركزي على مستوى الوعي هو فضاء الحي الذي يرتبط به الطفل ارتباطا وثيقا، ويبدو أن هذا المكان قد انتهكت حدوده سابقا، وهو في كل مرة يفقد مساحات معتبرة يصادرها الوجود الاستعماري، لاسيما حين ترتبط المصادرة بالاستيلاء على أماكن اللعب التي لطالما تقدسها الطفولة وتحتفي بها، ولذلك يعني المزيد من العساكر المزيد من المصادرة المكانية، حيث يبدو جليا أن الصراع بين الاستعمار والطفولة في بعض معانيه صراع حول المكان الذي يبدو مهمّا بالنسبة للطرفين، وإن كانت الطفولة تضفي على المكان حيوية وحرية وجمالا فإن الاستعمار يشوه المكان ويبيد إمكانيات

[81] بارت، رولان. لذة النص. ترجمة: منذر عياشي. الطبعة الأولى. حلب، سورية: مركز الإنماء الحضاري، 1992 (م). ص 75.
[82] بقطاش، مرزاق. المصدر السابق. ص ص 12، 13.

الحرية، والسيطرة على المكان إحالة مباشرة إلى السيطرة على كل أنماط الحياة، لاسيما حين يتوخى الاستعمار قمع الطفولة وإجهاض فكرة اللعب، ويتوافد العساكر في كل مرة بأعداد هائلة يزيد معها احتمال مصادرة المزيد من الأمكنة، لذلك هجست في خلد الطفل فكرة التقليص المكاني، وربطها ربطا مباشرا بالأعداد الهائلة، وهو يتوجّس خيفة من هذا الخطر الذي يداهم مكانه المفضل.

لقد حاصر الاستعمار مكان الطفولة وسيّج حدودها المكانية، وجل الدروب موصدة وما بقي منها موبوء بالمراكز وبالجنود الفرنسيين الذين حوّلوا الأماكن التي استحوذوا عليها إلى أفضية مكانية مرعبة، لا تحيل إلا إلى السب والركل والشنق، وتحولت المسافات المتاخمة للمراكز العسكرية – والتي يضطر الطفل إلى قطعها للوصول إلى المدرسة – إلى مسافات طويلة يستغرق فيها الوعي سنوات ضوئية، لا لشيء إلا لأن الطفل «يعيش في خطر حقيقي»[83] ولأن المسافة المكانية فقدت وجودها الهندسي الحقيقي، واكتنفتها دلالات جديدة تحيل إلى دلالات الألم التي تبناها الوعي ملازمة للمسافات القاهرة بعذابها ورعبها فقد تبدّلت هوية المسافة، واستبطنها الوعي ماهية مقترنة بالاستعباد المكاني الاستعماري وارتبطت هذه الماهية المسافية – أيضا – بتبدلات زمنية، لأن الفضاء المكاني ارتبط بالفضاء الزمني؛ هذا الأخير هو الآخر صادره الوجود الاستعماري، وتغيرت دلالاته على مستوى الشعور تغيّرا سلبيا «فالشعور بالزمن هو دائما في نظرنا شعور باستعمال اللحظات»[84] وقد استبطنه الوعي استبطانا شعوريا لا يحيل إلا إلى الافتراس والوجع والفضاء الزماني يضخّم المسافة ويمدّدها، ليكون الخطر الحقيقي الذي يواجهه الطفل هو ذلك الخطر الذي ارتبط بتضخيم الأفضية المكانية والزمانية، وجعل الوعي يسجن في مسافات طويلة جدا، وفي أزمنة مطلقة، رغم أن المكان بمفهومه الواقعي لم يتغير، والزمن كذلك، لكنهما على مستوى الوعي قد تغيرا كثيرا، نظرا للدلالات السلبية التي أعادت إنتاجهما

[83] المصدر نفسه. ص 51.

[84] باشلار، غاستون. حدس اللحظة. ترجمة: رضا عزوز. عبد العزيز زمزم. د ط. بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، د ت. ص 82.

فكرتين تحيلان إلى مدى التدنيس الذي طال الطفولة لمّا تحوّلت أفضيتها المرغوبة إلى أفضية مفجعة مفزعة.

هذه الدلالات السلبية لم تكن حكرا على أماكن اللعب وأفضية المسافات، بل تجاوزتها إلى الارتباط بالبيت وبالمدرسة أيضا، حيث تعرّض البيت للمداهمات المفاجأة، وتعرّض مكان المدرسة أيضا للتفتيش وللمراقبة الاستعمارية، فكانت بذلك كل أماكن الطفولة مستهدفة من طرف الاستعمار الذي يحتل الشوارع، ويزرع المراكز، ويوصد الغابات، ويقتحم المدارس والبيوت، وكل الأفضية التي يجتاحها يستحوذ عليها، ويشوّه دلالاتها المكانية والزمانية على حد سواء، لذلك ارتبط المكان عند الطفل "مراد" ارتباطا وثيقا بالأسيقة الاستعمارية، وما تحيل إليه هذه الأسيقة من عذاب وألم وخوف، وبقدر ما كان الفضاء المكاني منهوبا بقدر ما يحاول الوعي أن يتلاءم مع التغيرات المكانية، حيث تحيلنا المؤشرات السردية إلى أن الطفل "مراد" في سياق محنته المكانية لم يستسلم، بل راح يبتكر دروبا مكانية جديدة، وأمكنة متوارية قد تقيه الجنود وكيد الجنود.

إن تيمة المكان بدت ضرورية في إحالاتها إلى تيمة الطفولة، ولعل العلاقة المحورية بين التيمتين تستمد دلالاتها من تواصل الوعي مع الفضاء المكاني تواصلا يحيل إلى الوجود الاستعماري؛ هذا الوجود الناهب المشوه للأفضية المكانية والزمانية، وفي الآن نفسه هذا الوجود الذي حفّز تواصل الوعي مع المكان، وجعل الطفل يستوعب القيمة المكانية، وهو في كل مرة يسترد بعض الأمكنة والمسافات المتوارية ويكتشفها، لذلك ازداد الوعي تمسكا بالبعد المكاني، وازداد عداء للوجود الاستعماري، لأنه اعتقد جازما أن هذا الوجود هو علة تشوّه المكان، أما الوجود المكاني في حد ذاته فقد كان حافلا بالعطاء وبالبذخ الطفولي قبل أن يدنّسه الجنود الفرنسيون ويتكالبوا عليه، لهذا لا نلفي على مستوى وعي الطفل إلا حبا عميقا للمكان، وكرها شديدا للاستعمار، وكل أحلام الطفولة تتوخى إبادة هذا الوجود الذي جثم على

المكان ونهبه، وتتوخى دائما تحرير المكان: «إن المستقبل في رأيه يتمثل في الحرية»[85] ولا يمكن أن تكون هناك حرية ما لم يكن المكان حرا.

لقد استطاع وعي الطفل أن يتواصل مع الفضاء المكاني تواصلا إيجابيا وطنيا دائما رغم ما اعترى المكان من تقليص ومن تشويه، ومن حصار ومن مداهمات، ومن بناء للمراكز والمحتشدات، ومن نثر للجنود في الشوارع والطرقات، وهذا يحيل إلى استيعاب الوعي للحقيقة الاستعمارية، وإلى مدى أهمية المكان، وضرورة تحرّر المكان الذي يحيل في النهاية إلى الوطن، وضرورة تحرّر هذا الوطن.

ت – المكان بين الحضور والغياب:

أما في رواية "حب وبرتقال" فللمكان حضوره المتميز أيضا، وسنتوخى رصد العلاقات الفينومينولوجية بين وعي الطفولة والتيمات المكانية في هذه الرواية، ذلك أن تيمة الطفولة المركزية تبتكر دائما امتدادا تيماتيا معينا، يكون المكان أحد مستويات هذا الامتداد، وهذا يعني أن المكان لا يحظى بوجود مستقل، بل هو إحدى التجليات التيماتية التي تتفرع عن تيمة الطفولة المركزية وتحيل إليها، ومعنى ذلك أن التيمات المكانية – التي لا تدخل في نطاق إنتاج الطفولة، وفي نطاق رؤية الطفل – تصنّف تصنيفا هامشيا، رغم أن المكان الهامشي في رواية "حب وبرتقال" يبدو غائبا نهائيا، ذلك أن كل الأفضية المكانية ترتبط ارتباطا وثيقا بتيمة الطفولة، حيث يتواصل معها وعي الطفل تواصلا ممكنا يستهدف تأثيث عالم الطفولة بمجموعة من الأفضية المكانية، وليس بالضرورة أن يكون الاهتمام المكاني متكافئا، لأن الوعي بالأمكنة يتبنّى دائما رؤية تكاملية، تؤسس لتيمة مكانية كبرى لها علاقاتها الوطيدة بتيمة الطفولة، ولها مركزيتها وما يميزها من الصفات، وفي ما يلي رصد لأهم الأفضية المكانية التي تواصل معها وعي الطفل وتبناها:

1 – المعمل: وهو المكان الذي تشتغل فيه الأم، وقد وصفه الطفل بـ «البناية الضخمة»[86] ولم يكن الطفل ليهتم بهذا المكان لولا أن الأم وهبته إمكانية الحضور على

[85] بقطاش، مرزاق. المصدر السابق. ص 163.

مستوى الوعي، لذلك تتأتّى قيمة هذا المكان من قيمة الارتباط بالأمومة، ومن قيمته الإحالية عليها، فلم يكن هناك اهتمام بمكان المعمل في ذاته، ولم ينبهر الطفل بهندسته، بقدر ما كان الاهتمام منصبا على المعمل بوصفه إمكانية تيماتية تبارك علاقة الطفولة بالأمومة وتضفي عليها نوعا من المشروعية، لاسيما «أن المعمل كان يوجد بالقرب من بيتنا»[87] فكانت الرؤية إلى المعمل هي رؤية مسافية تتعلق بقيمة قياس المسافة الشعورية، ليس بين العمل والبيت بقدر ما هي تلك المسافة الشعورية بين الطفل والأم، وهي نفسها مسافة الشوق واللهفة، إذ «غالبا ما كنت أقف خارج البيت لأنتظر قدومها في المساء، من مكاني كنت أسمع رنين جرس الخروج، يخفق قلبي، وأنا أترقب ظهور النساء العاملات اللواتي مع أمي في نفس المعمل»[88] ولذلك ارتبط مكان المعمل بمسافات الشوق واللهفة التي يهبها المكان وموقع المكان، والطفل في كل مرة تسكنه عادة الانتظار والحنين، وتتجدد مستويات الشوق لديه، وهو في نهاية كل مسافة يحظى بحضور الأم الباذخ، وبما تغدقه عليه من هدايا البرتقال وألوان الرعاية والحنان، فكان مكان العمل رمزا إيجابيا، ومسافة تجدّد المشاعر الطافحة وتحميها من الاندثار والعفاء والرتابة، حيث إن الحنين يحتاج دائما إلى تلك المسافة التي إن انعدمت نتجت تخمة مفاجئة، قد تحول الدلالات من النقيض إلى النقيض، ولعل سر تمسّك الطفل بالمعمل قيمة مكانية ضرورية يبرره تمسّكه بلحظات الرخاء العاطفي الذي تنتجه المسافات ونشوة الانتظار.

2 – البيت: لا يهتم الطفل – أيضا – بالبيت في ذاته، بقدر ما يهتم بالبيت وما تضفيه عليه الأمومة من معان، تلك الأم التي حين «تلج البيت فيصبح للعالم طعم آخر تملأ المكان بحضورها الباذخ»[89] وهذا يحيل إلى أن البيت يفقد وجوده في حالات غياب الأم، وهو بيت تتوس دلالاته بين الحضور والغياب، إذ يبدو البيت الغائب واهنا جدا، لا يحفل به الطفل إلا بقدر الشرود الذي تفرضه جدران الوحدة الصفيقة وحالات الانتظار

[86] لغتيري، مصطفى. حب وبرتقال. ص 13.

[87] المصدر نفسه. ص 32.

[88] المصدر نفسه. ص 12.

[89] المصدر نفسه. ص 13.

المتواصل، والبيت هامد بسكونه وبذاك الخواء المدلهم، فيفقد المكان حضوره إلا بوصفه علامة للغياب الذي لا يكتنفه إلا الشرود، وهذا الشرود لا يكون معناه إلا عزوفا عن تفاصيل المكان، الذي يلح الوعي في إقصائه، وكأنه مكان مهجور وضع فيه الطفل على سبيل الإقحام، حينئذ لا يبدي الوعي إلا تجاوبا فاترا مع المكان، أما البيت الحاضر فيبدو مفعما بالحيوية والغبطة، لا لشيء إلا لأنه تملّص من رباق الغياب، وملأته الأم بحضورها الباذخ حينئذ يستمد البيت طاقات الحضور من طاقات حضور الأم، وينتشل الطفل من شروده ليبدي الطفل اهتماما جادا واعيا إزاء المكان، وهو يلاحظ أن هذا المكان يتحول على مستوى وعيه من حالات الغياب إلى حالات الحضور و«يصبح البيت أقوى..أصلب..أمتن..»[90] وكأنه في لحظة سحرية تحوّل من ركام وحطام إلى بيت قوي صلب ومتين، لذلك على طول المسافات السردية لم نلف وصفا ماديا للبيت، ولا نعرف عن تفاصيله الهندسية وعن ديكوره شيئا، لأن استبطان الوعي للمكان كان استبطانا تحوليا شعوريا، بوصف البيت مكانا يتغير دائما من مستويات الغياب إلى الحضور، وبوصف الشعور لم يرتبط بالبيت كبعد هندسي بقدر ما ارتبط ارتباطا وثيقا بمستويات الغياب والحضور، فلم يكن – في هذا السياق – مكان واحد، بقدر ما كان هناك مكانان أساسيان؛ اللابيت الذي يحيل إلى الشرود والوحدة والخواء وهو مكان يرفضه الوعي ويتعمّد إقصاءه، والبيت الذي يحيل إلى السعادة والحيوية والحياة وهو البيت الذي يتوق الوعي إليه ويسعى لاحتضانه «وبهذا المعنى يمثل البيت الحياة وما يرافقها من قيم إيجابية واللابيت يعني الموت وما يرافقه من قيم سلبية»[91]، كما أن البيتين (الغائب والحاضر) تحكمت في مستويات إنتاجهما مستويات غياب الأم وحضورها، فكان البيت يغيب بغياب الأم، ويحضر بحضورها، وهو بيت متنقل على مستوى الوعي، وبيت من مشاعر يبنى ويهدم، ويهدم ويبنى، ويتحول دائما، ولا علاقة له باستقرار الأبواب والجدران والأثاث، لذلك فقدت التجليات الهندسية مشروعية حضورها على مستوى رؤية الوعي للبيت وحتى حينما كان الطفل في البيت يحظى بفرص المغامرة العاطفية كان ذلك بمساعدة الأم أولا، والتي تستدرج الفتيات ليحظى طفلها برفقة ممتعة، وثانيا مازال البيت بأبعاده الهندسية

---

[90] المصدر نفسه. ص ن.

[91] باشلار، غاستون. جماليات المكان. ص ص 35، 36.

غائبا حتى ولو حضرت فيه بعض الألعاب، لأن استبطان البيت مازال استبطانا ينوس بين الغياب والحضور، ومازال الحضور مرتبطا كل الارتباط بقيمة المشاعر التي في كل مرة تعيد ترميم البيت وتنتجه من جديد، وتملصه من فجوة الغياب، كما مازالت الأم هي التي تؤهّل هذا البيت للحضور، ومن دونها يبقى البيت شاردا في غيابه.

يرتبط حضور الأمكنة الأخرى بمقدار حضور البيت، ذلك أن المعمل موجود على مستوى الوعي بوجود البيت، والبحر كذلك والمدرسة والشوارع، حيث ارتبط موقع هذه الأماكن بموقع البيت، وكل التجارب المكانية تستلهم البيت بؤرة دلالية مكانية مركزية، لأن كل مكان من الأمكنة السابقة الذكر يستمد وجوده عن طريق العلاقات القصدية والإحالية التي يؤسسها الوعي إزاء البيت بنوعيه الغائب والحاضر، سواء أحالت تلك الأماكن إلى البيت الغائب أو الحاضر أو أحال هو إليها، كالمعمل – مثلا – الذي يحيل حضوره إلى البيت الغائب وغيابه يحيل إلى البيت الحاضر، أو البحر الذي يحيل حضوره إلى حضور البيت الحاضر وغيابه يحيل إلى حضور البيت الغائب، وهذه العلاقات الإحالية المتباينة مرهونة بموقع الأم حيث إن الأم هي التي تتحكم في حضور المكان أو غيابه، ففي كل الحالات نلاحظ أن حضورها في المنزل ينتج أكبر عدد ممكن من الأمكنة ويحيل إليها، فيحضر – مثلا – المنزل والبحر والشارع، وأما غيابها عن المنزل فلا ينتج – عادة – إلا مكانا واحدا وهو المكان الذي تتواجد فيه الأم بعيدة عن الطفل، ولعل هذا المكان الوحيد هو المعمل، ولهذا كان وجودها في مكان المعمل أقل إنتاجا للأمكنة، في حين أن وجودها في مكان البيت هو أكثر إنتاجا للأمكنة وللعلاقات مع المكان.

لقد كان استبطان وعي الطفل للمكان استبطانا شعوريا لا يمتّ بأية صلة للأبعاد المكانية المادية إلا من باب الإشارات العرضية، لذلك تأسست العلاقة المحورية بين تيمة الطفل وتيمة المكان تأسسا خياليا ينأى كثيرا عن الأبعاد الواقعية، حيث إن كل الأمكنة التي ارتبطت بها الطفولة هي أماكن تحولية تغيب وتحضر، وتحضر وتغيب، رغم أننا نفترض أنها ثابتة على مستوى الواقع، إلا أنها على مستوى الوعي ليست ثابتة؛ تغيب فجأة وتحضر فجأة، ولا توجد إلا تواجدا تحوليا، ولعل هذا التواجد التحولي لا يمكن أن يتحقق إلا على

مستوى الخيال بإمكانياته الخلاقة، فكان أن دأب الطفل على التواصل مع الأمكنة تواصلا شعوريا خياليا، تكون فيه الأمكنة مهندسة هندسة عاطفية، حتى إن هذه العادة الشعورية مكّنته من التواصل مع أماكن لم يزرها، ومنحته فرصة للتعايش مع تلك الأمكنة، وهو الذي أكسبته التجربة المكانية طاقات تحويل المكان من مستويات الغياب إلى مستويات الحضور عن طريق تبني الخيال إمكانية باذخة لاستبطان الأمكنة، بل إن عادة التواصل مع الأمكنة ومستويات التحول، والحضور والغياب، ومركزية موقع الأم، أهّلت الوعي لإقصاء الأماكن في بعدها الواقعي: «في طريقي إلى مكان أقصده أبدو شاردا أعيش عالمي الخيالي بكل تفاصيله»[92] ورغم أن هذا الإقصاء نسبي إلا أنه إحالة واضحة إلى إدمان الوعي للرؤية التخييلية والشعورية إزاء الأمكنة مهما بدت واقعية، إذ أن فكرة الواقعية في حد ذاتها لم يكترث بها الوعي يوما، ومازال متواطئا في لعبة الخيال، يزور «تاج محل...وفجأة أجدني انتقلت إلى بلاد الصين...ثم أنتقل إلى اليابان...ثم ما ألبث أن أجد نفسي على مشارف الاسكندرية...»[93]، وهكذا تحولت فكرة الغياب والحضور – التي تحكمت في نمط استبطان الأمكنة، لاسيما مكان البيت والعلاقات التحولية – إلى تغييب لواقع الأمكنة، وإلى استحضار لإمكانيات معايشة المكان معايشة تخييلية، فكان أن تعمّد الوعي في مرحلة متقدمة تغييب الوجود المادي، واستحضار الوجود الخيالي، ليضفي على الأمكنة كثيرا من السحر، وينعم بلذة الأخيلة، ويتجاوب المتلقي مع مستويات الابتكار المكاني، ومع تلك التحولات الذهنية والمكانية، ومع فوضى الحضور والغياب وتغيير المواقع، ومع كل مستويات إعادة إنتاج الأفضية، وما تحيل إليه تلك المستويات من شعرية وفتن سردية أنتجتها تلك العلاقات المعقدة بين تيمات الأمكنة وتيمة الطفولة.

ث – المكان السلبي والمكان الإيجابي:

إن المكان في علاقته مع الطفولة في رواية "هموم الزمن الفلاقي" لا يعدو أن يكون مكانا مخيّبا للطفولة نفسها، ومشوّها لوجودها، على اعتبار أن أهم أمكنة ارتبطت بالطفولة

[92] المصدر نفسه. ص 55.

[93] المصدر نفسه. ص 56.

هي فضاء الكوخ، وفضاء التعليم، وفضاء الجبل، «وإذا كان البيت في الواقع ملجأ للراحة والأمن والاطمئنان»[94] فإنه بالنسبة للطفل "محمد" مجرد مكان أهجعته المآسي في سبات من الألم والفاقة، ومن الموت واليتم، والطفل في كوخه الحقير يقتات على بقايا الطوى، وعلى الأعشاب، ولا يعايش إلا الخوف والنشيج، وصورة الجنازة الأبوية تهور مكان الكوخ نهائيا وتبيده، إذ يحيل غياب الأب مباشرة إلى الخواء المدقع، والطفل من شدة امتعاضه من وحشة المكان وقسوته وإحالاته للبؤس والمرض والجوع والموت يتعمّد دائما أن يتجاهل الكوخ، وهو يهيم في وحدته فوق «صخرة ملساء كانت وراء الكوخ فجلس عليها وهو يتساءل عن سبب هذا البكاء...لماذا هذا الحزن»[95] وقد ارتبط مكان الكوخ دائما بالبكاء والحزن، لاسيما حين مرض الوالد والتهمه الموت، فأحال الكوخ مباشرة إلى الجنازة وطقوس الجنازة، وإلى ألم الفراق والطفولة تغرق في كوابيسها، وتوقعاتها كلها لا تحيد قيد أنملة عن الهاوية.

أما مكان التعليم فلعله أكثر الأمكنة إثارة للشقاء، لاسيما أنه أكبر وأكثف مشهد سردي يصف الطفولة، ويصور عذابها ومدى الإذلال الذي طالها، والمعلم اليهودي يصوره الوعي المبدع شخصا خسيسا ساديا، يتلذذ بالتهكم وبإغماط الطفولة، لدرجة أنه لا يتوانى في تدنيس المستويات الجسدية «وركل الطفل قائلا بقرف: انهض...انهض وإلا حطمت رأسك»[96] ويقول المعلم في سياق آخر «إنني أضيع وقتي في تعليم الحمير»[97] وهكذا كان المعلم يتبنى رؤية إذلالية نحو الطفل، ويعتقده حمارا بكل ما تحيل إليه هذه الكلمة من ازدراء وتشويه وبلادة، فيتحول مكان القسم – الذي كان يفترض به أن يكون مكانا يرتبط بالنزاهة والقداسة والاحترام – إلى مكان مثله مثل المحتشدات وسجون الاستعمار، ولم تكن هذه المدرسة إلا مدرسة خادمة للإدارة الفرنسية ولتطلعات الإبادة الامبريالية التي تتوخى دائما تبديد الهوية وإبادة الشخصية منذ الطفولة، والمعلم يجتهد في قمع الذات وتخضيع الوعي

[94] حبيلة، الشريف. الرواية والعنف. دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة. الطبعة الأولى. عالم الكتب الحديث، 2010 (م). ص 27.

[95] مفلاح، محمد. المصدر السابق. ص 242.

[96] المصدر نفسه. ص 264.

[97] المصدر نفسه. ص 265.

تخضيعا كاملا يمكّن من تحويل الطفل إلى حمار لا يصلح إلا للأعمال الشاقة وللتفاني في خدمة الأسياد، ولهذا كان مكان التعليم مرادفا للسجن والتعذيب، وأصبحت حدود المكان وسيلة قمعية، لا يصبو الطفل للقسم ولا يتوق للأصحاب والخلان، ولا يهمه الحرف والرقم والمستقبل التعليمي، ولا يريد إلا هجر المكان هجرا دائما بكل ما ملك من إمكانيات، ولما أتيحت له أول فرصة اغتنمها و«جرى نحو الباب دون أن يلتفت خلفه»[98] ولم يعد للمكان أبدا.

لقد عايش الطفل مكاني الكوخ والتعليم على مستوى حياته الواقعية، وكان هذان المكانان دائما يلحان بحضورهما على مستوى الوعي، وهما يحيلان إلى كثير من دلالات القمع المكاني والضياع والتعذيب، وقد تمكّن الطفل من هجر المكانين حين هجر مكان التعليم أولا، وتجشم الانفصال عن الدراسة، وتحدى إرادة الأم، ولم يحفل بوصايا الأب، ثم هجر مكان الكوخ ثانيا، حيث استغفل الأم الوحيدة، شاقّا طريقه إلى تحقيق حلم الثورة، وهذه جل الدلالات التيماتية المنوطة بالمكانين السابقين، في حين أن مكان الجبل هو مكان خيالي، حيث لم يحظ الطفل بفرصة لاعتلاء صهوة الجبال، ولكنه رغم ذلك كانت صورة مكان الجبل حاضرة على مستوى وعيه، وهو يتوسم الجبل مكانا للخلاص الذي يمكّنه من الحرية، ويمكّنه من تقويض السلطة المكانية السلبية، لاسيما أنه أزمع الانتقام من المعلم اليهودي، ومن كل من يتربصون بأمه الوحيدة، لهذا هجر الطفل المدرسة، ثم هجر الكوخ واتجه مباشرة صوب المكان الجبلي الذي كان دائما يتلهّف له، لكن الرصاصة استغفلت ضياعه والمنية استبقته.

لقد ارتبط الفضاء المكاني ارتباطا وثيقا بتيمة الطفولة في رواية "هموم الزمن الفلاقي" لاسيما على صعيد ثلاثة أمكنة مركزية، تداخلت فيما بينها العلاقات الدلالية وتناقضت حيث كان المكانان السلبيان (الكوخ والمدرسة) يتنافيان مع المكان الجبلي الإيجابي، ومعنى السلبية والإيجابية الملازمة للعلاقات التيماتية والمكانية يستمد تصنيفه الدلالي من مستويات الرؤية التي يتبناها وعي الطفل الذي استبطن مكان الكوخ علامة دلالية تحيل إلى الفاقة

---

[98] المصدر نفسه. ص 266.

والمرض والموت والضياع، وكانت المدرسة بالنسبة له مكانا للتسلط والسجن والإذلال، في حين أن القيمة المكانية الإيجابية الوحيدة ارتبطت بالجبل الذي يرمز للثورة وللقوة والحرية والذي هو السبيل الوحيد للخلاص، وبما أن المكانين السلبيين قد ساهما مساهمة كبرى في تبني الطفل لرؤية سلبية إزاء الطفولة – من حيث هي طفولة مضطهدة – فإن المكان الإيجابي كان سببا وجيها لاعتقاد الطفل بضرورة تجاوز مرحلة الطفولة، ذلك أن الطفولة ترتبط بسلبية المكان الذي حولها – هي الأخرى – إلى قيمة سلبية على مستوى الوعي، ولا يمكن إلا أن تتناقض الطفولة السلبية مع إيجابية المكان الجبلي، فارتبط المكان الجبلي بالوعي بضرورة التخلي عن الطفولة وتحقيق فكرة الرجولة، لأنها الأكثر إيجابية، وهي الشرط الضروري الذي يؤهّل الطفل لصعود المكان الجبلي، فكانت المسافة المكانية بين الكوخ والجبل هي المسافة التي تتغير فيها فكرة الطفولة على مستوى الوعي، وتتحول إلى فكرة الرجولة، وهذا يعني – في النهاية – قيمة العلاقات والإحالات المكانية في إنتاج الوعي وفي إنتاج المستوى التيماتي، وإنتاج أهم مراحل التحول التيماتي، كما يعني مدى أهمية الوعي في إعادة إنتاج الدلالات المكانية وهندسة المكان.

ج – المكان بين الواقعية والخيال:

المكان الأول الذي تواصل معه وعي الطفل "علال" في رواية "رجال وكلاب" مكان استرجاعي، لم يعش فيه الطفل، ولكنه تواصل معه عن طريق الحكايات التي كانت تروى له وكان يهتم بها اهتماما بالغا، وهو مكان الحكي، وتلك القصة الغريبة التي ارتبطت بالجد الذي كان رجلا بدويا أفرط في تعلّقه بكلبه الوفي، وبغض النظر عن مكان البادية وبعض تفاصيل الحرث والصيد البسيطة والقليلة كان المكان الأكثر إلحاحا وحضورا في وعي الطفولة هو المكان الذي كان مخصصا في البداية لإيواء الكلب، لكنه بعد ذلك أصبح مكانا يقبع فيه الجد، الذي يعيش فيه حياته الكلبية بتقمص كامل وبسلوكات كلبية كاملة، حتى إن العائلة – لما فجعت بمرض الجد، وبعد محاولات الاستشفاء، وجهود إقناع الجد – باءت كل محاولاتها بالفشل، وخضعت لإرادة الجد بأن يبقى على حالته الكلبية، في مكان تعمّدت

الأسرة أن تواريه «بحزام من القصب ليستروا ما يمكن ستره»[99]، ولم يمض كثير من الوقت «حتى أصبح الجميع ينادون أبناء جدي وبناته بلقب خبيث "بنو كلبون"»[100] فاضطرت الأسرة لتغيير المكان إلى مدينة الدار البيضاء واستقرت في ضواحيها، والطفل مازال يتواصل مع هذين المكانين (القرية والمدينة) انطلاقا من الحكايات التي تروى له؛ بمعنى أن استبطان المكان في هذه المرحلة ارتبط بالزمن الذي يسبق الطفولة، وفيما بعد يستحضر الطفل الأماكن التي عايشها مباشرة، ولعل أهمها مكان الموقع الأسري الذي يحدده الطفل تحديدا ضعيفا، يكتفي فيه بالإشارة إلى مصنع الزجاج الذي كان قريبا من المنزل، وإلى الموقع العام الذي كان في ضواحي مدينة الدار البيضاء، وإلى بيت الجد من الأم الذي كان هو أيضا قريبا، يفصله عن بيت الأسرة شارع أو شارعان فقط، و«بالقرب منا كان يسكن رجل غريب الأطوار»[101] وقد غيّبت صورة البيت في حد ذاته، حيث لم يحفل الطفل بهندسته أو بغرفه وأثاثه، بقدر ما كان منغمسا في رصد بعض تفاصيل المأساة التي ميزت البيت، كالأمراض المتهافتة، وسخرية الإخوة، وعنف الأب ضد الأم وطردها، وكالحريق الذي شب في المنزل وغيرها من المآسي، كما أشار الطفل إلى مكان المدرسة وما عاناه في البداية من خيبة الابتعاد عن الأم، وما لاقاه من إخفاق وفشل، لاسيما في علاقاته مع الأنثى، ناهيك عن مكان المسجد وما ارتبط به من علاقات مع بعض الشبان المتحمسين للدين، والذين سرعان ما قاطعهم الطفل ونأى عنهم.

يبدو جليا أن الأماكن السابقة لم يهتم الطفل بتفاصيلها الهندسية، كما أنه لم يحفل كثيرا بالأحداث التي ارتبطت بها، بقدر ما اهتم بالمكان اهتماما هامشيا، وكان المكان لا يحيل إلا إلى هواجس المرض والعلل والمآسي والفشل، وسواء أنيط الأمر بأماكن الحكاية وبتاريخ الجد والبادية، أو بالمدينة وضواحيها وبموقع البيت وبعض الأمكنة الأخرى كالمدرسة والمسجد، فقد كانت كل الأمكنة باهتة لا يبدي الطفل أي تعلّق واضح بها، بل إن التواصل معها يبدو من باب الاضطرار، حيث تحيلنا المآسي المرتبطة بالمكان إلى ما كان يكنّه

[99] لغتيري، مصطفى. رجال وكلاب. ص 19.

[100] المصدر نفسه. ص 25.

[101] المصدر نفسه. ص 43.

الطفل من رفض للمكان الذي استبطنه استبطانا سلبيا خاويا من مظاهر اللهو واللعب والتسلية، وكأنه مكان مرتبط فقط بعالم الكبار، وقد جردته المآسي من كل احتمالات الجمال والمتعة، لذلك كان الطفل لا يشعر بأي انتماء للمكان إلا من باب الانتماء التعسفي والاضطراري، فهو هكذا يضطر للتواصل مع مكان الجد للتفتيش عن علة واضحة للأمراض التي تفترسه، ويضطر لاستبطان الأمكنة الأخرى كالبيت وموقع البيت والمدرسة لأنها إحالات مباشرة للمآسي التي فتكت به، فكان حضور المكان دائما طارئا ومستعجلا لا يبدي الوعي اهتماما جادا به، رغم أن العلاقة بين تيمة المكان وتيمة الطفولة تبدو واضحة، وهي العلاقة التي تحيل إلى محاولات رفض الأفضية المكانية وإلى تهميشها، وتحيل إلى استبطان المكان إحالة جلية لكل المآسي التي نهبت الطفولة وأرهقت وعيها.

إن تشوّه الصورة المكانية على مستوى الوعي جعل الطفل يلح في رفض المكان بمفهومه الواقعي، ويستعيض عنه بالمكان بمفهومه الخيالي، وإذا كان المكان الأول مشوها ممعضا ومفعما بالرزايا والحرمان والنكد، فإن المكان الخيالي تتاح فيه كل إمكانيات الحبور والحرية والامتلاك، وتعويض الحرمان الذي طرأ على مستوى الواقع، باعتبار «الخيال يعطي ما يرفضه الواقع»[102]، لاسيما عندما ابتكر الطفل في أحلامه وأخيلته وفي عوالم الفن والرسم أمكنة آمنة تنأى عن الأمكنة الواقعية الموبوءة، ويمكن للأمكنة الآمنة أن تحضر فيها الأنثى «وأنا في أحضان الحلم بابتهاج كبير، أخاطب نفسي قائلا ها أنا ذا تحررت من خوفي إنني أحضن أنثى كما أشاء»[103]ويمتلك الطفل – في الأمكنة الخيالية – جروه المنشود، ويجري ويحلّق في السماء، لكن الأمر سيان، فحتى الأمكنة الخيالية المجذلة لم يحفل الطفل بهندستها، وبأبعادها، وبتفاصيل محتواها، بقدر ما اهتم بالأحداث وبالمشاعر التي ترتبط بالمكان الذي تبقى هندسته وحدوده غامضة، ولعلها أكثر غموضا من الأمكنة الأولى المرفوضة، ورغم ذلك تبقى الأماكن الخيالية هي المرغوبة والمنشودة، وهي الأمكنة التي تواصل معها وعي الطفل تواصلا إيجابيا وأبى أن يبرحها، إلى درجة قاطع فيها الأمكنة

[102] مورون، شارل. ملارميه. ترجمة: حسين نمر .الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979 (م). ص 98.

[103] لغتيري، مصطفى. رجال وكلاب. ص 59.

الواقعية مقاطعة تكاد تكون شاملة، وقد كان في كل مرة يمتعض من الرجوع إلى أمكنة الواقع، ولمجرد رحلته في عوالم الحلم وفي أمكنة الخيال يعود الاحتفاء بالمكان عودة ضمنية من خلال الاحتفاء بالأحداث وبالمشاعر، وبأسيقة اللهو والتسلية ومسافات اللذة والمتعة.

لقد ارتبطت تيمة الطفولة في رواية "رجال وكلاب" بالمكان ارتباطا ضمنيا لا يحيل إلى رصد المكان رصدا هندسيا، وقد كان المكان الأول هو المكان الذي هندس أبعاد تيمة الطفولة هندسة مشوهة، جعلت وعي الطفل يتواصل مع المكان تواصلا اضطراريا يحيل إلى رفض المكان، ليس في حد ذاته بقدر ما هو رفض لأسيقة المآسي والحرمان التي ارتبط بها المكان، أما المكان الثاني (الخيالي) فهو الآخر لم يحضر حضورا ماديا، ولم يحفل به الوعي لذاته ومن أجل ذاته، بقدر ما ارتبط الوعي بأسيقة الغبطة والتحرر التي يبدو أنها ابتكرت المكان نفسه، فكان أن هندس المكان الواقعي تيمة الطفولة هندسة مشوهة، وألزمها بكثير من المعطيات ومن الظروف السلبية، وكان أن هندس وعي الطفولة المكان الخيالي وتحكّم في مستويات إنتاجه، ليكون المكان الأول سلطويا، والمكان الثاني خاضعا، وتيمة الطفولة تتحول في علاقاتها المكانية من المكان الأول إلى المكان الثاني، حتى أوشكت أن تقاطع المكان الأول مقاطعة كاملة، وتحتفي بالمكان الثاني احتفاء شاملا.

ح – المكان المتغير والأنساق الرحلية:

من البديهي أن تكون على مستوى السرد مرجعيات مكانية، مهما تباينت أنواعها وأشكالها ومستويات حضورها وغيابها، والمكان يتحول على مستوى السرد إلى قيمة مكانية لها فلسفتها الفنية الخاصة بها، ولها علاقات من التداخل التيماتي، كما في رواية "الأسماء المتغيرة" التي يحدس المتلقي فيها علاقة ما بين تيمة المكان وتيمة الطفولة.

لقد كان الطفل في قريته الأصلية ينعم بالحرية والانتماء: «يسبح في بركة قريبة من قرية أبيه» [104] حين باغته فارس من قرية معادية واختطفه أسيرا، وقد كانت حرية الطفل مرتبطة بالمكان الأصلي الذي يضفي على وجود الانتماء وعلى الأبوة مشروعية، ولما

[104] ولد عبد القادر، أحمد. المصدر السابق. ص 12.

انتهكت تخوم المكان الأصلي فقدت الطفولة انتماءها وأبوتها، لأن الاختطاف فعل قصدي يتوخى اقتحام الحدود ونهب الحدود المكانية، بوصفها مؤشرا قويا يحيل إلى قيمة الامتلاك والهوية، حيث تؤسس القرية هويتها انطلاقا من تقديس الفضاء المكاني، لذلك كان العداء بين القرى عداء مكانيا بالدرجة الأولى، وكانت معايير النصر والهزيمة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمكان، لذا فإن فعل الاختطاف يعد تدنيسا للقيمة المكانية، وفعلا انتقاميا شديد اللهجة لاسيما حينما يرتبط انتهاك المكان بسلب الهوية المكانية التي كان الطفل يتمتع بها، وفقدها لمجرد مصادرة الحدود المكانية وتدنيسها، وبالفعل لما صودرت حقوق الطفل المكانية صودرت حريته واستباحته العبودية.

تتهشم القيمة المكانية نهائيا عندما يباع الطفل للشيخ "أحمد سلوم" ويفرض السيد الجديد تضاريس مكانية جديدة؛ تمثّلت في رحلة طويلة من السودان إلى موريتانيا، وكان الطفل – للمرة الأولى – يعايش صورا مكانية مختلفة، لا يحفل بها إلا بقدر اهتمامه بالمسافات التي كلما تفاقمت وزادت تفاقمت عبوديته وزادت، والتحولات المكانية تنهب طفولته، وتشوّه تيمة الطفولة التي يبدو أن المكان تحكّم في إمكانياتها الدلالية، حيث إن طفولة المكان الأصلي تزخر بصلات الانتماء وبالأبوة وبمظاهر الحرية، أما طفولة الرحلة بأماكنها المتجددة والمتنوعة فكانت تصفدها القيود وأغلال العبودية، رغم أن الطفل في الرحلة الطويلة لم يقيّد بالحبال وبالقيود، ولكن المسافات المكانية أذوت طاقته الشعورية والنأي الكبير عن المكان الأصلي يأّسه من إمكانيات العودة والفرار، لاسيما أن الأمكنة الجديدة هي أمكنة صحراوية بكل ما تحيل إليه الصحراء من شساعة وضياع، ومن مسغبة وظمأ، واحتمالات النجاة فيها تبدو واهمة جدا.

لقد تميّز المكان الأصلي بالثبات وبالاستقرار، في حين أن النسق الرحلي أنتج توالدا مكانيا مستمرا، لا يحقق إمكانيات التجاوب مع المكان تجاوبا جادا، فإن كانت الأنساق الرحلية مغرية أحيانا، فأنها على مستوى وعي الطفولة مملة جدا، وكلما تماردت الأمكنة والمسافات كلما ضاعت الهوية في شتات الصحراء، وانتاب الطفل شعور ممض بالضياع

و«مشاعر الخوف والتوجس الحائر»[105] وهو يستوعب ضمنيا أن التوالد المكاني ليس إلا مرادفا لإقصاء المكان الأصلي، الذي يزيد غيابه احتمالات سلب الهوية وتبديدها نهائيا، فلم يكن هذا التوالد المكاني إلا تناقضا صارخا مع الثبات المكاني، لأن المكان الأول احتفاء بالطفولة، أما المكان الثاني فهو استعباد لها.

إن التوالد المكاني بإحالاته السلبية تحكّم في مستويات تيمة الطفولة، لاسيما أن الطفل لم تعد له أية صلة بالمكان الأصلي، وقد تفاقمت وتشعبت الأنساق الرحلية حين مات السيد الأول "أحمد سلوم"، واستحوذ "الشريف عبد الصمد" على أملاكه عائدا إلى قبيلته ومعه الطفل العبد، الذي سيعايش للمرة الأولى مكانا ثابتا جديدا يختلف تماما عن المكان الأصلي وإذا كان المكان الأصلي مصدرا للرخاء الأبوي ولإمكانيات الحرية والانتماء، فإن المكان الثابت الجديد مصدر من مصادر الاستعباد والسخرة، حيث ارتبط هذا المكان الجديد ارتباطا وثيقا بالعبودية، وبرعي الإبل، وبالكثبان الرملية، وبالجري «وخصمه ملازم لكتفيه يكيل له الضربات بقيد جمل مفتول من جلد غير مدبوغ وكلما ضاعف الجري للإفلات من حرقة الضرب شعر أن السوط ملتصق بجسمه»[106] فتحولت المسافات الصحراوية إلى رهاب حقيقي، رغم شساعة الصحراء إلا أن تلك الشساعة في حد ذاتها قيود مسافية قاهرة، لذلك يتحول المكان الصحراوي الجديد إلى مكان استعبادي، هو ذاته سوط من سياط الأسياد والجلادين.

لم يمكث الطفل إلا قليلا في المكان الجديد وهو يعاني استعباد الأمكنة والمسافات الصحراوية، حتى عادت الأنساق الرحلية جذعة، واستبيح المكان من جديد عن طريق الإغارة والسلب، فكان الطفل من بين الغنائم وهو يعيش مسافات جديدة وأنساقا رحلية أخرى يتوارى فيها المكان على مستوى السرد نهائيا، إلى أن يعثر المتلقي على الطفل في مكان ثابت جديد تستبيحه العبودية والرعي من جديد، ولا يختلف مكان العبودية الثاني عن مكان العبودية الأول إلا في بعض التفاصيل البسيطة، حيث إن المكان الثابت الجديد هو أيضا

---

[105] المصدر نفسه. ص 13.

[106] المصدر نفسه. ص 41.

مكان صحراوي، وفيه الإبل والخيم والأسياد وكثبان الرمل، وفي هذه المرة أيضا لا يستقر الطفل في المكان الجديد كثيرا، إذ يرحل الأسياد إلى مكان جديد، ويستقر الطفل معهم من جديد، وبما أن مرحلة الطفولة تنتهي في هذا السياق وجب أن نوميء إلى أن الأنساق الرحلية وتوالد الأمكنة وتغيّرها مستويات رهنت الطفل إلى ما بعد مرحلة الطفولة بكثير، وبما أننا بصدد رصد العلاقات بين تيمة المكان وتيمة الطفولة كان من الضروري مراعاة حدود مرحلة الطفولة، وحدود التغيرات المكانية التي طرأت عليها وارتبطت بها.

لقد غيّب الوعي المبدع الأماكن النخاسية، وترك إمكانية الإحالة إليها من خلال الأسيقة السردية التي توميء إلى استعباد الطفل، ذلك أن الطفل منذ اختطافه وسلب الهوية المكانية تعرض للبيع أكثر من مرة، ولا بد أن يتم البيع في سوق النخاسة، ويبدو أن هذه السوق مكان واراه الوعي المبدع، ليترك المتلقي يسبح في أخيلته، كما أن الأماكن الأساسية كالبيت – مثلا – قد غيّبت هي الأخرى نهائيا، سواء البيت الأصلي أو بيوت العبودية التي يعي المتلقي أنها موجودة لكن أوصافها متوارية نهائيا، وحتى الأماكن الثابتة رغم تباينها لم تحظ باستحضار وصفي كاف، حيث قد يشير إليها الوعي المبدع مرة واحدة، ولا يرصد غالبا إلا صحراء مترامية الأطراف، ورمالا ورعيا وجمالا، وكل ما سلف يحيلنا إلى أن التيمة المكانية في علاقتها بتيمة الطفولة قد هيمنت عليها الأنساق الرحلية والتوالدات المكانية، إذ في كل مرة يرحل الطفل من مكان إلى مكان، وهو منذ فقد مكانه الأصلي وتدنّست أفضية الأبوة والانتماء والحرية تتداول عليه الأمكنة وتستبيحه المسافات النزقة، وأمكنة جديدة تحيل إلى أفعال النخاسة والتسخير، وإلى تغيير الأسماء، كما تحيل إلى الطفولة المستعبدة، فكانت تيمة الطفولة المستعبدة – في أبعادها ودلالاتها المكانية – أنساقا رحلية، وتوالدا مكانيا يلح على تجريد الطفولة من هويتها الانتمائية الأصلية، ويتمادى في تسخيرها واستعبادها.

لقد كانت الأفضية المكانية الصحرواية تتناقض مع شساعتها، حيث كانت مكانا ملائما لاستعباد وتشويه الهوية، كما ارتبطت الأسيقة الاستعبادية ارتباطا وثيقا بالأمكنة والمسافات والأنساق الرحلية، وكان انتهاك الحدود المكانية علامة إحالية قوية إلى انتهاك الهوية بمختلف مستوياتها المكانية والأبوية والانتمائية، ولم يكن تدنيس المكان الأصلي

بواسطة فعل الخطف إلا مؤشرا لتدنيس الطفولة، التي لما تحولت الأمكنة تحولا سلبيا تحولت هي أيضا تحولا سلبيا، لاسيما أن الأماكن المتغيرة والأنساق الرحلية تتناقض في دلالاتها وأسيقتها تناقضا صارخا مع المكان الأصلي، وهذه المعطيات تحيل إلى العلاقة الوثيقة بين هوية الطفل والأفضية المكانية، حيث «أكدت جل الدراسات التي تعنى بالبحث في الفضاء الروائي، العلاقة التلازمية بين المكان والشخصية التي توجد فيه»[107]، فكان أن تحكّمت مستويات إنتاج الأمكنة في مستويات إنتاج تيمة الطفولة، ولم تكن الأمكنة في حد ذاتها لتتحكم في مستويات الإنتاج إلا عن طريق الأسيقة الدلالية والإحالية والرمزية، التي ارتبطت بالأمكنة وأعادت إنتاجها بتقنية سردية تؤرخ لفلسفة الاستعباد المكاني، وكيف كان المكان بمفهومه الفكري والفلسفي وبتغيراته مسافة كافية لتشويه الطفولة وتحويلها من تيمة تحيل إلى الانتماء والحرية والإشباع، إلى تيمة تحيل إلى الإغماط والعبودية والاستغلال، ولو لم تكن هناك أمكنة متوالدة ومتغيرة وأنساق رحلية ومسافات مواربة لكان من الممكن أن لا يظل الطفل عبدا، ونتوقّع أن جهود البحث المتواصل من طرف أسرته وقبيلته قد تكلّل بالنجاح والفلاح، لكن هيهات في أسيقة قد استبدت فيها المسافات المكانية، وتوالدت فيها الأمكنة وفي كل مسافة نائية تفقد الطفولة هويتها الأصلية، لاسيما أن الصحراء وحدها كفيلة بإهدار هذه الهوية.

رابعا: الفوضى:

أ – المعادلة السردية:

يفقد السرد – عادة – منطق الصرامة والترتيب، لاسيما حين يتعلق الأمر بالتداخل التيماتي وبتغيير الموقع وفوضى الاستباق والاسترجاع، والتواجد التيماتي ذاته يحتاج إلى نوع من الإثبات، على اعتبار أن التيمة لا تحقق هويتها إلا إذا توفرت فيها شروط الإلحاح والانتشار والهيمنة، وبما أننا في سياق دراستنا لتحول الوعي بالطفولة في رواية "حب وبرتقال" تجلت محورية تيمة الطفل بوصفها تيمة مركزية على مستوى السرد، فقد بقي – في

[107] لنقر، حورية. الطفل في حنة لمحمد الباردي. الطبعة الأولى.تونس: ضحى للنشر والتوزيع، 2013 (م). ص 139.

هذا السياق – أن نرصد موقع هذه التيمة المركزية ومستويات التداخل وتغيير المواقع التيماتية، وما ينتجه كل ذلك من إمكانيات جمالية.

لقد بدا جليا أن صورة الأم من الصور الملحة التي تبناها وعي الطفولة واحتفى بحضورها، لينشأ عن طريق ذلك تواصل علائقي وثيق بين تيمة الأمومة وتيمة الطفولة حيث تكثّف حضور تيمة الأمومة بواسطة إحالاتها إلى تيمات فرعية لعل أقمنها بالذكر تيمات "الأم العاملة" و"الأم المعلمة" و"الأم المسؤولة" و"الأم المحبة" و"الأم المبدعة" و"الأم الطفلة" وهذه التفرعات التيماتية الكثيرة تدل على مدى قوة التواصل الواعي الذي مارسه الطفل إزاء الأم، وهو الذي راح يرصد كل تفاصيل الأمومة، ويلح في استحضار صورها الملحة، كما تدل هذه التفرعات التيماتية التي أسست تيمة الأمومة المركزية على مدى قوة حضور تيمة الأمومة على مستوى السرد، وهذا الحضور القوي الذي تزخر به تيمة الأمومة على مستوى وعي الطفل، وعلى مستوى السرد يهدّد تيمة الطفولة بالتواري والغياب، فكان من الضروري على الراصد لتجليات مستويات تيمة الطفولة أن يهتم برصد مستويات تيمة الأمومة، التي يتأهّل حضورها على مستوى السرد بوضوح وهيمنة، حتى يخيّل للقاريء أن الرواية أكثر ارتباطا بالأمومة، في حين أن تيمة الأمومة ليست إلا إحالة ضرورية لتيمة الطفولة، لذلك فعلى مستوى البنية التيماتية العميقة تكون الرواية أكثر ارتباطا بتيمة الطفولة وفي الوقت نفسه لا يعثر الراصد التيماتي على تيمة الطفولة إلا عن طريق رصد تيمة الأمومة، وذلك أن الوعي المبدع لم يستحضر الطفولة إلا عن طريق استحضار الأمومة ولم تكن هناك أمومة في حد ذاتها ومن أجل ذاتها، كما لم تكن هناك طفولة في ذاتها ومن أجل ذاتها، وما هو باد وموجود هو أمومة في علاقتها مع الطفولة، وطفولة في علاقتها مع الأمومة، وما يجعلنا نعتقد أن تيمة الطفولة على مستوى البنية التيماتية العميقة أكثر حضورا هو أن مؤشرات استبطان الطفل للأمومة ومستوى إنتاج صورها الملحة أكثر بكثير وأوضح من مؤشرات استبطان الأم للطفولة ومستويات إنتاجها للصور الملحة، لكن على مستوى البنية التيماتية السطحية بدا جليا أن تيمة الأمومة أكثر حضورا ومركزية، ولهذا نتج اختلاف واضح في مستويات الإلحاح والحضور التيماتي بين البنية التيماتية السطحية والبنية التيماتية

العميقة، كما نتج كثير من الغموض والارتباك على مستوى التلقي، نظرا للتداخل الشائك والوثيق بين البنيتين التيماتيتين (السطحية والعميقة) من جهة، وبين التيمتين (الأمومة والطفولة) من جهة ثانية.

التداخل السابق، وإشكاليات المركزية التيماتية، وما نتج عنها من ضرورات تأويلية والتباس بين البنيتين التيماتيتين السطحية والعميقة هو التفسير الممكن لموقع تيمة الطفولة وهو كما اتضح سابقا موقع تكتنفه الفوضى، وهذه الفوضى هي نفسها الفوضى التيماتية التي نجمت عن علاقات التداخل الغامض بين تيمة الطفولة وتيمة الأمومة، حيث إن وجود كل تيمة من التيمتين السابقتين شرط ضروري لوجود الأخرى، ولا وجود لتيمة في ذاتها ومن أجل ذاتها، ولا وجود لفكرة الاستقلال التيماتي والاكتفاء الذاتي، ولا يمكن لتيمة أن تحيل إلى ذاتها بذاتها.

ورغم مستويات فوضى التيمة، والتداخل التيماتي، والارتباط الوثيق، وعلاقات الإحالة القصدية المتبادلة، تحيل فوضى التيمة دائما إلى نوع من النظام الذي ينتج من عمق الخصوصية السردية والتفرّد الإبداعي، لأن هذه الفوضى التيماتية في حد ذاتها هي التي مكّنت لتيمة الطفولة من الحضور المكثف، وأثرت علاقاتها القصدية ومستويات الانتشار والإحالة، وهي القانون السردي الذي أنتج الطفولة فكرة مهيمنة، وما تيمة الأمومة إلا معادلة سردية لإضفاء المشروعية الكاملة على الطفولة والتبرير لوجودها ولمستوياتها التيماتية، لذلك وقع الالتباس والغموض بين تيمتي الأمومة والطفولة بنمط من الفوضى السردية الظاهرة لتبقى تيمة الطفولة تحظى بأولوية الهيمنة والمركزية، وما حضور تيمة الأمومة حضورا مكثفا على مستوى البنية السردية السطحية إلا إحالة قوية وثرية لحضور تيمة الطفولة على مستوى البنية السردية العميقة حضورا مهيمنا ومركزيا، وتبقى أولوية الهيمنة ومستويات الإلحاح التيماتي، ومركزية الموقع مرتبطة ارتباطا وثيقا بمستويات البنية التيماتية العميقة أكثر من ارتباطها بالبنية التيماتية السطحية.

هكذا يكون التداخل التيماتي، وفوضى علاقات البنيات التيماتية – وما ينتج عنها من غموض ومحاولات تأويلية – جذوة من جذاء تكوّن المستويات الجمالية، لأن شعرية السرد لا

يؤسسها منطق الصرامة والوضوح والترتيب، وإنما يؤسسها التمرد على المنطق والصرامة المنهجية، وتؤسسها الفوضى، والتداخل التيماتي، ومستويات الغموض والانزياح، وقوة ابتكار قوانين تيماتية جديدة، في كل مرة تتنكّر للقوانين السابقة، ولا تؤمن إلا بالخصوصية الفنية وبفكرة التفرد، والتملّص من رباق القراءة النهائية، لأن «اللذة – كل اللذة – هي أن لا يتوقف النص عن الإحالات وألا ينتهي عند دلالة بعينها»[108].

ب – صدمة التلقي وإعادة التأهيل:

في رواية "الأسماء المتغيرة" يضطلع الراوي بالسرد، ويهيمن على مستويات الحكي وتحضر على مستوى السرد قصص مختلفة، لعل أهمها قصة القافلة وموت الشيخ "أحمد سلوم" وكيف استغل "الشريف عبد الصمد" – الذي كان يدّعي الشرف – فرصة موت الشيخ واستحوذ على الجمل وما حمل، وعاد إلى دياره غانما يود استنكاح "زينب بنت حمود بن المرابط"، ولم يطل المكوث حتى ظعن إلى مكان ناء ليحضر لوازم الزفاف ويتأهب للفرح وفي غيابه كلّف "عبداتي" ابن عمه بأموره، وكان أبناء الشيخ "سلوم" قد أزمعوا الانتقام لأبيهم، وتسنّت لهم الفرصة حين أغاروا على قبيلة "عبد الصمد" ونكّلوا بـ "عبداتي"، وقد ساقوا الإبل واستولوا على العبدة "ريحانة"، كما نلفي في الرواية تفاصيل عن حياة "محمود بن المرابط" وعن ابنته "زينب" وزوجته "مريم" وابنه "محمد" الذي سافر يطلب العلم، وكيف أن ناقة "محمود بن المرابط" قد سرقت، وتجشّم السفر للبحث عنها، مستعينا ببعض القبائل المسلحة، بالإضافة إلى كثير من الأحداث المتداخلة في الرواية، لاسيما تلك التي ترتبط بأخبار القبائل وبصراعها، وبتفاصيل المقاومة ضد الصليبيين، وبالتحالفات والخيانات وبالمعارك والإمارات، وبالجهاد، وبغيرها من تواريخ الحروب والنزاعات والملاحم.

هذا غيض من فيض، ورغم أن الطفل في بدايات الرواية، وفي غضون الأحداث المنصرمة يحظى ببعض الحضور والومضات السردية – التي نختصرها في كون الطفل كان اسمه "موسى" اختطفه فارس من قرية معادية، وسلّمه للشيخ "أحمد سلوم" الذي مات في

[108] إيكو، أمبرتو. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. ترجمة: سعيد بن كراد. الطبعة الثانية. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2004 (م). ص 12.

أضاة الأسد ليستحوذ "عبد الصمد" على الطفل، ولا يمكث طويلا حتى تستولي غارة من غارات الشمال على الطفل العبد، ويلفي نفسه عند أسياد جدد، وهو في كل مرة تتغير أسماؤه وتتغير الأمكنة والمسافات – إلا أن حضور الطفل في غضون الأسيقة السردية التي أومأنا لها سلفا كان ضعيفا، لم يحظ إلا باهتمام بسيط من طرف الوعي المبدع الذي اكتفى برصد ومضات سردية خاطفة وخافتة عن حياة الطفولة، وبدا جليا على مستوى البنية التيماتية أن اهتمام السارد كان مرتبطا بالأحداث وبالتيمات الأخرى، لاسيما أن المؤشرات والصور السردية التي تحيل إلى الطفل قليلة جدا مقارنة مع الأحداث والمواضيع والعلاقات السردية الأخرى أولا، وثانيا بدا أن تيمة الطفولة تيمة هامشية مقارنة بإلحاح السارد على تيمات أخرى وحيوات، وأحداث تاريخية وغير تاريخية، وعادات ومناسبات أخرى، وحتى عن طريق عملية إحصائية تكون النتيجة نفسها تحيل إلى ضعف مستويات حضور تيمة الطفولة مقارنة بالتيمات الأخرى، بمعنى أن كل الأدلة والتأويلات والإحالات والمؤشرات السردية تؤكد أن تيمة الطفولة لم تكن أولوية سردية، ولا يبدي الوعي المبدع إزاءها إلا النزر القليل من الاهتمام، وهي تكاد تكون هامشية جدا في سياق ترسانة كاملة من التيمات المهيمنة بأحداثها المتشعبة، وبدلالاتها المتوالدة، وبإحالاتها المتواشجة على مستوى بدايات السرد.

رغم أن التيمات السابقة والأحداث السردية المهيمنة السابقة مازالت تحظى بالحضور إلا أن مستويات الحضور نفسها تنقلب، ويؤرخ لبدايات هذا الانقلاب على مستويات الحضور التيماتي حين انتهت مرحلة الطفولة؛ لما أصبح اسم الطفل "مبروك" الذي نمت عنده مستويات الوعي بالحرية، واستطاع أن يهرب من قبضة الأسياد، ومن قبضة الموت والاستعباد، فارًّا إلى قرية على شاطئ البحر، وقد تغيّر اسمه إلى "بوجناح" وهكذا تستمر الأحداث وتتوالد الأسيقة السردية والتيماتية، لكن توالد الأسيقة السردية التيماتية الجديدة يتمحور حول شخصية أساسية ومحورية هي نفسها الرجل الذي كان طفلا، إلى درجة تهيمن هذه الشخصية المحورية هيمنة كاملة واضحة على السرد، حتى إن التيمات السابقة فقدت موقعها وأولويتها على مستوى اهتمام الوعي المبدع، وتراجعت مستويات حضورها، فاسحة المجال للشخصية المحورية بحضورها السردي والتيماتي المكثّف، وهي الشخصية التي

تفرض حضورها دائما إلى نهاية الرواية، وتؤرخ تاريخا كاملا للمجتمع الموريتاني، ولتحولاته الاجتماعية والتاريخية والسياسية، ولتغيراته من القبيلة والنزاع والإمارات والصحراء والعبيد والعادات، إلى الاستعمار وكيد الاستنزاف، ومن الاستغلال إلى المقاومات والاستقلال، وإلى مرحلة ما بعد الاستقلال، وتداخل الصراع الوطني والطبقي والنضال السياسي، ولاشك أن الشخصية المحورية عاصرت أجيالا وأجيالا، ولاشك أن جل الأسيقة السردية والتيماتية ترتبط بها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فتحوّل الطفل الذي كان مطموسا وهامشيا نوعا ما في البدايات السردية إلى شخصية أسطورية تهيمن على السرد هيمنة تكاد تكون مطلقة، لذلك يتفطّن المتلقي إلى قيمة تيمة الطفولة التي حاول الوعي المبدع أن يخفّف من حضورها في البدايات السردية ويوهم بهامشيتها، وهو في الحقيقة يمهّد لإثارة البركان التيماتي الخامد، ولا تكون – حقيقة – تيمة الطفولة في بدايات الرواية إلا تيمة مهيمنة، وتخيب كل القراءات السابقة، وتنجزر مستويات الحضور الأخرى، لا لشيء إلا لأن الشخصية المحورية التي تمتد عن الطفولة تؤهل مستويات حضور تيمة الطفولة، وتعيد لها مكانتها السردية، وتنتشلها من غياهب الإهمال والهامشية، فيضطر القارئ للعودة بمستويات وعيه ليعيد النظر في تصنيفاته السردية والتيماتية، ويعيد ترتيب الأولويات الدلالية، وتصنيف تيمة الطفولة باعتبارها التيمة الأكثر حضورا ومركزية على مستوى السرد، وعلى مستوى التلقي، وعلى مستوى اهتمام الوعي المبدع، وما الوهم الذي أوقعت في شركه مستويات الحضور التيماتي في بدايات السرد، وتلك المعتقدات التي تحيل إلى ضعف حضور تيمة الطفل وهامشيتها إلا ناجم عن فوضى الحضور التيماتي الذي كانت فيه توقعات البدايات السردية تتناقض مع نتائج النهايات، إذ لا يتفطّن المتلقي لقيمة تيمة الطفولة إلا تفطّنا متأخرا، حين يدرك مركزية الشخصية المحورية وهيمنتها، وأهمية تاريخ تيمة الطفولة على مستوى السرد، ويعود المتلقي للبدايات، وإلى تلك «الفضاءات البيضاء والفجوات التي يجب ملؤها»[109] بكل ما يرتبط بالطفولة، ليؤهّل مستويات حضورها، ويفسّر الفجوات والغياب والأحداث المتوارية، فتتحول الطفولة إلى قصة كاملة على مستوى وعي التلقي.

[109] إيكو، أمبرتو. القاريء النموذجي. في طرائق تحليل السرد الأدبي. ترجمة: أحمد بو حسن. الطبعة الأولى. الرباط، المغرب: منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1992 (م). ص 158.

لقد ارتبطت شعرية فوضى الحضور التيماتي - أصلا - بالصدمة التي تعتري وتقوض مستويات توقعات التلقي، وبضرورة تأهيل حضور تيمة الطفولة تأهيلا يحيل إلى الهيمنة والمركزية، وإلى الإيهام السردي الذي أفلح في استدراج المتلقي وتنويمه في البدايات السردية، كما ترتبط شعرية فوضى الحضور التيماتي وضرورة التأهيل الدلالي بالأخيلة التي تجتاح المتلقي في سياق مسافات العودة للوراء، وفي سياق محاولات إعادة تأهيل حضور تيمة الطفولة، وما يرتبط بهذا التأهيل من ضرورة إعادة إنتاج مستويات الغياب، ورصد العلاقات والصلات المتوارية، وابتكار رؤية سردية متكاملة، ولعل هذا ما نصطلح عليه بتأهيل بدايات الحضور التيماتي، عن طريق نهايات الحضور التيماتي، ويكفي أن يضطر المتلقي للعودة – ضمنيا – إلى تيمة الطفولة، ويصحح رؤيته إزاءها، ويعيد تأهيل مستويات حضورها، ليدل ذلك على مدى أهميتها وقيمة انتشارها وكثافة حضورها، ولعل فوضى الحضور التيماتي هي التي أوهمت في البداية بهامشية تيمة الطفولة، وهي التي أنتجت مستويات تأهيل التيمة، وأعادت لها اعتبارها السردي، بغض النظر عن مستويات الشعرية التي أنتجها التلاعب الفني، ذلك أن «الفن هو ضرب رفيع من "اللعب" يتحرر بواسطته ما يجيش في النفس من الخواطر والإلهامات ويجسمها في أعمال إبداعية رائعة تحقق المتعة والإحساس بالجمال بالنسبة للمبدع والمتلقي»[110].

ت – أزمة المعايشة:

يبدو جليا أن العلاقة التي أنتجت الطفل "هلال الأحد" لا تخضع لمقدمات وجيهة وتبريرات التخطيط المسبق تبدو مفقودة تماما، على اعتبار أن العلاقة بين الأبوين كانت علاقة عاطفية تتوخى التملّص من رباق الأعراف الدينية والاجتماعية والقانونية، والحمل في حد ذاته «لم يكن متوقعا»[111] واللامتوقع المحفوف بالسرية وبالعلاقات المحظورة يحيلنا إلى عمق الصدفة، وإلى مستويات علائقية موغلة في الفوضى والتعقيد، حيث أسفرت مجموعة

[110] حسب حسين، مسلم، جماليات النص الأدبي. دراسات في البنية والدلالة.الطبعة الأولى. لندن: دار السياب، 2007 (م). ص 33.

[111] بن عثمان، حسن. المصدر السابق. ص 17.

من الأسباب المتباينة والظروف المتناقضة عن التعاطي مع الخطيئة بنمط يخلو من النوايا المقصودة ومن التخطيط الشرعي، فالعلاقة بين الأبوين تفتقر للشرعية العرفية والدينية والقانونية من جهة، وتفتقر لنيّة الإنجاب من جهة ثانية، وهذا ما نجم عنه حمل غير متوقع في خضم علاقات من الممارسات العاطفية الفوضوية التي تصنّف الجنين مرادفا للخطيئة وما الخطيئة إلا نمط من الصدفة التي تتنافر مع فكرة المشروعية، وتحيل إلى أزمة من الاحتمالات الهجينة، وإلى وجود لا يحظى باعتراف العرف البشري إلا من باب استحضار الخطيئة مبررا وجيها لهذا الوجود الفوضوي، الذي تتحكم الصدفة في مستوياته الإنتاجية فكانت الصدفة نمطا تبريريا لمسارات الفوضى التي أنتجت الطفل "هلال" ولمستويات اللاتوقع التي أحاطت به، ذلك أن العلاقة بين الأبوين في حد ذاتها أنتجتها مستويات الصدفة، حيث إن العلاقة العاطفية في حد ذاتها تفتقر لمقدمات تبريرية وجيهة، وهي العاطفة التي تنهار أمامها كل المبررات المنطقية، لاسيما أنها علاقة محظورة تستمد مشروعيتها من العماء نفسه، ولا تحفل بالمنطق أو قيود العرف البشري، ويكفيها عماء أنها تتنافى مع الفكرة القانونية، وهي هكذا فوضى شعورية عارمة تبرر لنفسها، ولا تقدس إلا مستوياتها التبريرية الخاصة بها، وفي غضون ذلك تكون كل الاحتمالات ممكنة، واللامتوقع يتحول إلى مستويات وجودية متحققة، فكان وجود "هلال" احتمالا، رغم أنه يفتقد للنوايا المسبقة، ويتناقض مع المرجعيات الدينية والعرفية والقانونية، إلا أن مستويات العماء العاطفي تبرره تبريرا ذاتيا، هو نفسه اللهفة العاطفية التي لا تكون إلا نتاجا لمستويات فوضوية غير مبررة إلا بتلك الفوضى نفسها.

تتجاوب الأم مع مستويات الوجود الفوضوي، وتحتفي بفكرة الصدفة واللاتوقع بين أحشائها، مبتكرة نوايا جديدة ترتبط بضرورة التمسك بهذا الجنين، وهي نوايا جديدة تتناقض مع نوايا اللامتوقع القديمة، وهي محاولة واعية لتحويل اللامتوقع من مستوياته العدمية إلى المتوقع بمستوياته الوجودية، وهي محاولة لتبرير الخواء القصدي في خضم العماء العاطفي الأول، لكن يبدو أن تلك المحاولات التبريرية مازالت رهينة العماء العاطفي نفسه، وذلك أن نوايا التوقع وضرورة التمسك بالجنين ما هي في النهاية إلا تبرير للعماء العاطفي في حد

ذاته، حيث تصرّ الأم على الاحتفاظ بجنينها، لتلبي حاجات الإشباع العاطفي وحاجات الولع بخليلها، وكأنها تود بكل انجرافها العاطفي الملتهب أن تتمادى في ترجمة وحام التجربة العاطفية المتوهجة، ولم يكن الاحتفاظ بالجنين في حد ذاته غاية التطلعات الأنثوية، بقدر ما كان ضرورة ملحة تفرضها شروط العماء العاطفي المتدفق بفوضوية عارمة، فكان قرار الاحتفاظ بالجنين في حد ذاته نمطا من الفوضى في أوج مستويات العماء العاطفي، الذي لا يمكن إلا أن يكون فوضى تخلو من المستويات المنطقية الموضوعية.

لعل ما يبرر هذا التخمين هو أن الأم لمجرد الإنجاب استغنت عن الطفل بكل برودة واستعداد، وكأن مستويات التضحية العاطفية قد أدّت دورها، حيث عاشت الأم أثناء حملها ذروة العماء العاطفي، وأثبتت لعشيقها مدى هوسها به، وتلك التطلعات الأنثوية الباذخة حين تمارسها المرأة العاشقة بجنون هي الجنون نفسه الذي يحيل إلى نمط من الفوضى العاتية التي تتمرد على كل القيود السلطوية، ولهذا مازال الطفل مجرد صدفة في ظروف زوبعة العماء العاطفي وفوضى العلاقة العشقية، وهكذا ما يبدو تناقضا – في نوايا الأم التي أزمعت الاحتفاظ بالجنين ثم تخلّصت منه بعد الإنجاب – هو في الحقيقة تبرير لمستويات العماء العاطفي الذي تعيشه الأم، فكان هذا العماء هو التفسير الأرجح لفوضى التناقض والنوايا المتنافرة، وهو وحده المستوى الذي يحيلنا إلى القانون الضمني الذي يبرر الفوضى في مسارات الصدفة، وتناقض النوايا، وانهيار المبررات الوجيهة، ويجعل من الكايوس (الفوضى) في حد ذاته قانونا معينا، حيث لا يمكن أن تكون الفوضى إلا نمطا قانونيا يتميز بنوع من الغموض والتحايل.

لقد حاولت الأم تبرير اللامتوقع، وأزمعت الاحتفاظ بالجنين في غمره الهذيان العاطفي، وهي للمرة الثانية تقع في شرك اللامتوقع، حيث تسلّم طفلها بمحض إرادتها للميتم فكانت في كل مرة تكفّر عن خطيئة اللامتوقع باللامتوقع ذاته، وهي تخال أنها انتهجت مسارا تصحيحيا لعمائها العاطفي، ولكنها في الحقيقة تصعّد من مستويات المسارات الفوضوية، متجرّدة من كل الأسباب المنطقية، لا لشيء إلا لأن العماء العاطفي هو وحده من يخول له أن يكون قانونا يضبط مستويات الفوضى، التي يبدو أنها وسمت الوجود البدئي

للطفل، وتحكّمت فيه علاقات الصدفة والتناقض والتنافر، منذ أن كانت العلاقة العاطفية بين الأبوين صدفة تتناقض مع الأسيقة والظروف، وكان الحمل غير متوقع، والنوايا منعدمة والاحتفاظ بالجنين مجرد هذيان عاطفي، والتخلص من المولود مسار تصحيحي متناقض وكل النوايا الجديدة متنافرة، والشيء الوحيد الذي يبرر كل هذا هو حمى العماء العاطفي لذلك انتفت الأسباب المنطقية والنوايا في البداية، وتناقضت كل الأسباب والنوايا في النهاية وتنافرت، فكانت كل علاقات إنتاج الطفولة لا تفسّر إلا على ضوء العماء، وعلى ضوء مستويات الفوضى.

الميتم في حد ذاته خانة احتمالية وسيعة، تحوّله خصائصه إلى بؤرة فوضوية جديدة بعيدا عن كنف العلاقات الأبوية، وما اعتراها من التباس ومن صدف، ومن تناقض على مستوى الأسباب والنتائج، فتحوّل – بذلك – الميتم إلى مركز فوضوي جديد كل الجدة يخضع هو الآخر لاحتمالات منظمة ببعثرة مدهشة، على اعتبار أن مركزية الطفل بين الأبوين الحقيقيين تتلاشى في الميتم، الذي يكون فيه الطفل هامشيا في حالات وجود كثير من الأطفال الآخرين، كل واحد منهم قد فقد هو الآخر موقعه المركزي، وبات مصيره مرتبطا بكثير من الصدف والاحتمالات، ولعل الطفل "هلال" لم يتبوأ مركزيته في الميتم في غضون التلاشي والهامشية التي يفرضها العدد الهائل من الأطفال إلا بعد تدخل احتمال التبني الذي انتشل الطفل من موقع التلاشي وفوضى العدد إلى موقع المركزية والتحديد الانتقائي، بعد أن اختارته عائلة "سي صالح" ليكون طفلها المنشود، لكن يبقى الانتقاء في حد ذاته نمطا يخضع للاحتمال، ذلك أن اختيار الطفل "هلال" مهما بدا موضوعيا – بسبب ما يميز الطفل من صفات جسدية جيدة – فهو اختيار انتقائي فيه كثير من فوضى الاحتمالات والصدف على اعتبار أن فكرة الموضوعية الانتقائية المطلقة لا يمكن أن تتحقق أبدا، ولهذا كان الانتقاء في حد ذاته يحيل إلى نمط من الفوضى، وإلى انتفاء أسباب منطقية وجيهة، ولعل ما يزيد المركزية الجديدة من احتمالات الوقوع في شرك الصدف والفوضى هو التناقض الصارخ بين الطفل والعائلة التي تبنّته من حيث الملامح الجسدية، حتى إن من يرى الطفل

"هلال" يتملّكه الشك «فيشكون في نسبته إلى سي صالح»[112] ولهذا تأّثث وجود الطفل في الميتم بفوضى الهامش والتلاشي العددي، والانتقاء الاحتمالي النسبي، ثم كان موقع التبني الذي اعتراه التناقض، وتحكّمت فيه اختيارات متنافرة، وتحولات لا تخضع لأسباب منطقية وكل ذلك يحيلنا إلى عودة العماء العاطفي جذعا وتفسيرا لفوضى المركزية الجديدة، في أسرة تحكّم العماء العاطفي في مسارات انتقائها، وهي مسارات بلغت حد التناقض وإثارة الريبة والشكوك، على اعتبار أن "سي صالح" لم يكن اختياره للطفل "هلال" بريئا، بقدر ما كان هذا الاختيار محاولات لتعويض النقص، وتلبية لتلك الحالات العاطفية المتعطشة لامتلاك طفل وسيم يسد فجوة العقم الرهيبة، ويواري عصور الجليد والخواء والقهر النفسي، فكانت الوسامة في حد ذاتها تناقضا صارخا، يعيد الطفل إلى هامشية الميتم، ويجعله متميزا تميزا بارزا لا يمكّنه من الاندماج في الأسرة الجديدة إلا وقتا محدودا، ولعل شذوذ الوسامة التي ميزته ألّب عليه الرؤية الغيرية، وكان السبب المباشر الذي اقتنع من خلاله "هلال" – فيما بعد – إلى أنه لا ينتمي انتماء دمويا لهذه الأسرة، وكل الادعاءات بكونه لقيطا كانت في محلها، وقد تحقق صدقها، وهي النتيجة اللامتوقعة التي أنتجتها مسارات الانتقاء الفوضوي، ومستويات التناقض بين المركز والهامش، بوتيرة متنافرة لا يبررها إلا العماء العاطفي الذي تخلّى عن كل الأسباب المنطقية، وأغفل الاختلاف الوجيه، فكانت – دائما – تيمة الطفولة تخضع لعلاقات إنتاجية من التناقض والتنافر، ولاحتمالات الصدفة المستشرية التي تحيل إلى كثير من الالتباس.

لعل الالتباس هو المعنى المركزي الذي تبنّاه "هلال" فيما بعد، عندما حاول العودة لطفولته، وإعادة تأهيل مستويات الوعي بها، فكانت كل معطياته عن الطفولة ملتبسة غامضة، وغير منطقية في سياق الصدف المتشعّبة التي رهنت وجوده، وفي سياق فوضى الانتماء وغياب الأسباب المشروعة والخلفيات المنطقية، وما الفوضى إلا مرادف للالتباس وانتفاء اليقين وتسلّط المجهول، و"هلال" دائما يسعى جاهدا لتبرير هذه الفوضى، والتفتيش عن القوانين التي تحكمها وتضبطها، بغية التخفيف من حدة الشعور بالتشرّد والالتباس.

[112] بن عثمان، حسن. المصدر السابق. ص 78.

في أسيقة فوضى الوجود التيماتي تتأسس هذه الفوضى احتمالا جماليا وجيها، ينتج عن إثارة فضول المتلقي وولعه الفطري، وهو الآخر يتعاطف مع "هلال" ويسعى جادا لإعادة صياغة منطقية، تمكّن من رصد القوانين الغائبة التي صنعت تلك الفوضى، ولعلها التفسيرات الأكثر فتنة على مستوى السرد، لاسيما حين يتعلق البحث بمحاولات تبرير الصدف والتناقض والالتباس، وانهيار أكثر الأسباب المنطقية المعروفة، وفي محاولات القراءة تلك، وإعادة القراءة، لا مناص من الوقوع في أزمة المعايشة النصية، وتلك الأزمة في حد ذاتها – رغم اعتياصها – معايشة جمالية، تنتجها فتنة الاحتمالات الكثيفة وفوضى التأويل وتعدّد القراءات، وتلك الأخيلة الثرية وما يصاحبها من أزمة غموض دائم، يجعل كل شيء ممكنا وغير ممكن في الآن نفسه، وهي ذاتها مستويات الفوضى وبويطيقا الفوضى ولذة الاحتمال والغموض، ومحاولات التفسير والتبرير، وما يصاحبها من دهشة وغواية.

ث – فتنة العوالم الافتراضية:

إن مستويات الحضور لتيمة الطفولة في رواية "رجال وكلاب" تتميز بنوع من الفوضى، إذ الفوضى في بعض معانيها هي اختلاف وتعدد مستويات التجلي التيماتي، حيث لا يكون حضور تيمة الطفولة منظّما على مستوى سردي واحد، والمستويات السردية هي مستويات تيماتية فنية، يقصد بها الطريقة السردية التي انتهجها الوعي المبدع لتكوين تيمة الطفولة، وكيفيات تقديمها، ورسم تفاصيلها وصورها وعلاقاتها؛ بمعنى أن المستويات السردية التيماتية هي عوالم وتقنيات فنية تضبط حضور تيمة الطفولة، ومعنى أن تيمة الطفولة في رواية "رجال وكلاب" لا تحضر على مستوى سردي واحد هو أن تيمة الطفولة تضبط حضورها السردي عدة عوالم وتقنيات فنية، وكلما تعددت هذه العوالم والتقنيات السردية وتداخلت، كلما زادت مستويات الفوضى التيماتية، وهذه الفوضى دائما تحيل إلى نظام ما حتى وإن كان موغلا في التعقيد والتداخل؛ هذا النظام هو نفسه الطريقة التي قدّم بها الوعي المبدع تيمة الطفولة، عن طريق مستويات سردية معينة، ولرصد خصوصية هذا النظام السردي وأهم خصائصه المرتبطة بمستويات حضور تيمة الطفولة حضورا فوضويا يحيل إلى النظام ذاته، وجب رصد وتوضيح عوالم وتقنيات الصياغة التيماتية، تلك التي يمكن وسمها

بالخريطة السردية التيماتية، ولتحديد محتويات هذه الخريطة السردية التيماتية، وفك رموزها ومفاتيحها، نصنّف أهم عوالم وتقنيات حضور تيمة الطفولة إلى مستويين أساسيين هما المستويان الأكثر حضورا وتجليا، ولعلهما: مستوى الواقع السردي – ومستوى الخيال.

1 – **مستوى الواقع السردي:** يرتبط هذا المستوى بالأسيقة المباشرة التي أنتجت الطفولة، حيث إن الطفل اسمه "علال"، وأمه كانت تعمل في أحد المصانع منظفة، أما والده فقد هجر قريته الأصلية، هروبا من وصمة العار التي لحقت به، بسبب جد الطفل الذي مات وهو في حالاته المرضية الكلبية، وما أنتجته هذه الحالة من إشاعات وألقاب قادحة (أبناء كلبون) فاضطر الأب للرحيل، واستقر بأحد ضواحي مدينة الدار البيضاء، حيث وجد عملا في أحد مصانع صنع القنينات الزجاجية، وقد شاءت الظروف أن يتزوج الأب من الأم التي تعمل في المصنع نفسه، وكان زواجا مدبّرا من طرف صاحب المصنع، حتى يزيد من ولاء الأب له؛ هذا الأب الذي كان لا يختلط بالناس، ويفني كامل وقته وطاقته في الشغل ويبين الوعي المبدع كيف كانت الأم تهتم بالعمة السقيمة في البداية، لكنها حين أنجبت الطفل "علال" سقيما هزيلا خافت من عدوى المرض، فاضطرت الأسرة للتخلص من العمة وكيف كان الطفل في أسرة – تتكون من بعض الأخوة – يلازم أمه دائما، وينعته إخوته ووالده بابن أمه، وهو المريض الذي عانت الأم في سبيل شفائه، وكان يعاني حين يضرب والده الأم، ويبكي لبكائها، هذا الوالد الذي لم يكن يحفل كثيرا بطفله، حتى إنه حرمه من امتلاك جرو، وهجر في النهاية الأسرة كاملة، وفي الرواية أحداث كثيرة ترتبط بالطفولة كالمدرسة وقسوة المعلم، وكالرجل الغريب الذي يسكن بالقرب من منزل الطفل، ويمارس طقوس السحر والدجل والرقية، وكالحريق الذي شب في المنزل، وكزيارات البادية، وكمرحلة البلوغ، وبعض المغامرات العاطفية الفاشلة، وكالحكايات عن الأعمام والأجداد وغيرهم، وغير ذلك من الأحداث والأسيقة التي تعج بها الرواية، ولها ارتباط وثيق بالطفولة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهي أسيقة تنتج التيمة إنتاجا يوهم بالواقعية، ويوهم بعوالم الطفولة الحقيقية ولاشك أن واقع الطفولة هو واقع سردي لا علاقة له بالمرجعيات الخارج نصية، لأنه لا يتجاوز حدود اللغة السردية، وحدود العوالم الورقية، لكن ما يهمنا في هذا السياق هو أن تيمة

الطفولة قدمها الوعي المبدع من خلال تقديم مستويات واقعها السردي الذي يوهم بالواقعية الخارج نصية، وهو واقع سردي لا يخص الطفولة وحدها، ويستمد واقعيته من كون الطفل يعتقد أنه عالم الحقيقة الذي يحيا فيه، والذي يحيل إلى سيرته إحالة موضوعية، وهو الواقع الذي يوهم الوعي المبدع بواقعيته، حين يحاول أن يرصد تفاصيل الطفولة رصدا يوهم المتلقي بالموضوعية والحقيقة الخارج نصية.

2 – مستوى الخيال: وهو عالم من عوالم إنتاج تيمة الطفولة، ويختلف كل الاختلاف عن مستوى الواقع السردي، ذلك أن الخيال ينتشل الطفولة من واقعها وينفرد بها ويتحكّم في كثير من تفاصيل إنتاجها، وهو – عادة – قطيعة صارمة مع الواقع، ويؤرّخ لمستوى الخيال بالأحلام الليلية التي وجدت طريقها إلى الطفل، وتسللت إليه بعد صدمة الامتلاك، وحالات الإحباط التي واجهها الطفل على مستوى ما اعتقده واقعا موضوعيا: «سرعان ما انقذفت في نوم عميق، احتضنني دفؤه اللذيذ، فجأة تنساب المشاهد في ذهني متسارعة، وبلا نظام...إلى أن أضحت جلية وكأنها تعرض على شاشة كبرى جمهورها الوحيد أنا»[113] وهو الحلم الذي يتجسّد فيه حضور الطفولة وحيدة للمرة الأولى نائية عن أسيقتها وعن أحداثها المعتادة، في عالمها الخيالي الجديد الذي تؤثّثه معطيات جديدة وعالم يبدو أكثر إشباعا لرغبات الطفولة، حيث يوفر الحلم للطفل إمكانية التحرر وإقصاء السلطة الأبوية، والقدرة على امتلاك الجرو الذي حرم من امتلاكه على مستوى الواقع، والملاحظ على الحلم أنه يتكرر بالصورة والأحداث ذاتها تقريبا، مما يجعله عالما خياليا ملحا جدا، إلى درجة أن الطفل يصرّح بأن جروه يكبر في الأحلام، وإلى درجة امتلك فيها الطفل القدرة على استحضار عالمه الخيالي، وبعد أن كانت الأحلام تفرض حضورها بنمط سلطوي وحتمي استطاع الطفل بعد ذلك أن يتحكّم في استحضار عوالم الخيال، ثم أدمن على استحضارها ومعايشتها، وهو يعيش فيها حياة تختلف عن حياته الواقعية، بل إنه أوشك على مقاطعة الواقع مقاطعة نهائية، حيث أصبح يمارس حياة اللهو والحبور والمتعة في عالمه الجديد ويجري مع جروه، ويسافر ويطير، ومن جهة أخرى انغمس الطفل في عالم الفن، وهو عالم

[113] لغتيري، مصطفى. المصدر السابق. ص 61.

خيالي أيضا، وأدمن التلاعب بالريشة وبالألوان يتماهى مع عالم الرسم، وفي كل مرة يعيش تجربة الخيال، ويلغي حضوره الواقعي.

لقد كانت الطفولة على مستوى الواقع السردي مثقلة بهمومها وبأمراضها وعللها، أما على مستوى الخيال فكانت تيمة الطفولة تحيل إلى الرضا والحبور والإشباع، وكان الطفل – فيما يعتقده واقعا – مصفودا بالانتماء وبالظروف الأسرية وغير الأسرية، أما على مستوى الأحلام والأخيلة والفن فكان حرا من كل القيود، لذلك تختلف تيمة الطفولة على مستوى الواقع السردي عن تيمة الطفولة على مستوى الخيال، رغم أن الطفل نفسه "علال"، وهذا التباين يوعز إلى اختلاف العوالم، ومستويات حضور التيمة، حيث كان العالم الأول واقعيا يوهم بالواقعية، والعالم الثاني موغلا في الخيال، والعالمان منهجية تبنّاها الوعي المبدع ليقدّم من خلالها الطفولة، وهما عالمان مستويات الواقعية فيهما والخيال تستمد مشروعيتها من وعي الطفل بالدرجة الأولى، حيث يبدو أن الوعي المبدع أوكل مهمة تحديد ماهية العوالم للطفل الذي يستبطن العالم الأول عالما واقعيا، ويستبطن العالم الثاني عالما خياليا، والمتلقي يمكنه أن يميّز بين طفولة العالم الأول، وطفولة العالم الثاني، بأنهما طفولتان متداخلتان لكنهما مختلفتان كثيرا، لاسيما على مستوى الرؤية للطفولة، حيث إن طفل العالم الواقعي يتبنّى رؤية سلبية إزاء الطفولة، باعتبارها طفولة عليلة مقيّدة محرومة، أما طفل العالم الخيالي فيتبنّى رؤية إيجابية إزاء الطفولة، من حيث هي طفولة حرة مالكة سعيدة، ولاشك أن الطفولة هي العلاقة السرية بين العالمين الذين أنتجهما الوعي، سواء الوعي المبدع أو وعي الطفولة، لاسيما الوعي المبدع الذي يحتال دائما على المتلقي، ويريد أن يوهم المتلقي بالواقعية، عن طريق فوضى الحضور التيماتي الذي ينوس بين عالمين افتراضيين، وفي ذلك نوع من الشعرية والبراعة السردية، مهما كان الناقد يعي جيدا أن كلا العالمين هما عالمان افتراضيان يحيلان دوما إلى الواقع السردي الذي هو في حقيقته واقعية خيالية فنية، بعيدة كل البعد عن حقيقة المرجعيات الخارج نصية.

إن حضور تيمتين مختلفتين ترتبطان بتيمة الطفولة نفسها، وبالطفل نفسه، حقيقة سردية لا مراء فيها ولا ريب، وهذه الحقيقة السردية، ومستويات تداخل العوالم، وكيفيات تقديم

تيمة الطفولة هي نفسها جماليات فوضى الحضور التيماتي، وما تزخر به هذه الفوضى من إمكانيات تأويلية ثرّة، وما تتضمّنه من قوانين سردية ضمنية وخاصة، ذلك أن الشعرية لا ترتبط بالتيمة في حد ذاتها، بقدر ما ترتبط بكيفيات إنتاج التيمة بمستوياتها وعلاقاتها وبكيفيات تداخل الأنماط والإحالات القصدية، وتداخل مستويات القراءة مع مستويات الدلالات الممكنة، فتنتج عوالم عديدة في رواية "رجال وكلاب" لإنتاج الطفولة وإعادة إنتاجها لعل أقمنها بالذكر العالم الذي يبنيه المتلقي بأفق توقعاته، وبرؤيته الخاصة، وإمكانياته التأويلية، والعالم الذي يشيّده الوعي المبدع، ويوهم بواقعيته، وأخيرا عالم الطفولة كما يتبنّاه وعي الطفل ويعتقده، فتكون مستويات حضور تيمة الطفولة ليست واحدة مهما كان الحضور مرتبطا بطفل واحد.

خاتمة الفصل الثالث:

أهم أقانيم بويطيقا التيمة وغواية التأويل:

- الصور الملحة بتجلياتها الأدبية المتعددة: (أدبية السيرة– أدبية التناص مع المرجعيات التاريخية – أدبية الصورة الجمالية – أدبية الصورة السوداوية – أدبية التناقض والرمزية).
- الشفرة العنوانية برموزها وإحالاتها الثرية.
- المكان بتجلياته المختلفة: (التخييلية والشعورية والتحولية والإحالية والرمزية وغيرها).
- الفوضى، وتغيّر المواقع، وتداخل التيمات، وفتنة الأنظمة السردية.
- التأويل بتجلياته المتشعبة: (المعايشة – إعادة الإنتاج – توسيع القراءة – غواية التفسير وإعادة التفسير – رصد العلاقات والإحالات – فك الشفرات والألغاز – ملأ الفضاءات البيضاء والفجوات، وغيرها من إمكانيات التأويل الباذخة).

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث أرصد أهم الاستنتاجات التي ترتبط بالنقد التيماتي من جهة وبالطفل في الروايات المدروسة من جهة أخرى.

أما أهم الاستنتاجات المرتبطة بالنقد التيماتي فيمكن إيجازها في المعطيات التالية:

– لقد لاحظت من خلال المستوى التطبيقي أنه لا يمكن أن يكون هناك نقد تيماتي دون فلسفة فينومينولوجية، ذلك أن مباديء الفلسفة الفينومينولوجية هي نفسها مبادئ النقد التيماتي، رغم افتقار الفلسفة الفينومينولوجية لمرجعيات تطبيقية، ولا يمكننا أن نزعم التطابق الكامل بين نظرية فلسفية ونظرية نقدية أدبية، بيد أننا نومئ إلى أن أهم مبادئ الفلسفة الفينومينولوجية يتبنّاها النقد التيماتي، لاسيما فيما يخص إعادة الاعتبار للذات الواعية وإعادة تأهيل مركزية الوعي البشري، حيث لا يمكن دراسة الموضوع إلا وقد تحول إلى ظاهرة لمّا استبطنه الوعي، وتواصل معه، وقصده، وأحال إليه، والنقد التيماتي يتبنّى الرؤية الفلسفية نفسها، إذ لا يمكن دراسة المواضيع إلا وهي ظواهر يحيل إليها الوعي المبدع، لذلك يرصد النقد التيماتي نظام علاقات القصدية والإحالة بين الوعي والموضوع، بغية استنتاج وتبرير حضور الأفكار الملحة على مستوى النص الأدبي، وبذلك يكون النقد التيماتي هو النقد الذي يهتم برصد أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، باعتبار اللغة النصية الإحالة الوحيدة إلى محتويات الوعي، وهذا يجعل من النقد التيماتي نقدا نصانيا وليس سياقيا.

– تبقى الإشكالية في النقد التيماتي كامنة في غياب مرجعية إجرائية واضحة تمكّن من رصد أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، لكن من خلال البحث يمكنني أن أومئ إلى أهم خطوات ومعايير رصد أنظمة الإنتاج كما يلي:

– رصد أهم الأفكار الملحة في النص، عن طريق الاعتماد على إحالات المؤشرات السردية إلى فكرة معينة تحظى بحضور مكثف في النص، وتتميز بكثير من العلاقات والإحالات المتشعبة، ونلفيها مهيمنة في كثير من الأسيقة السردية، ويحدس المتلقي أن هذه الفكرة أكثر حضورا وإلحاحا، وأن كثيرا من المعطيات الدلالية تخدمها وتحيل إليها، وتنمّي حضورها، والفكرة الملحة هي الفكرة الجوهرية الأكثر تميّزا وحضورا في النص الذي يحيل

مباشرة إلى الوعي؛ أي أن الفكرة الملحة هي الفكرة الجوهرية الأكثر تميّزا وحضورا على مستوى الوعي، ولكي يرصد الناقد التيماتي هذه الأفكار الملحة عليه أن يجتهد في قراءة النص وتولّج أعماقه، وتأويل الفراغات والفجوات تأويلا ممكنا، ذلك أن تحديد الفكرة الملحة يتوقف على قوة التبرير لسبب الاعتقاد بأن فكرة ما هي فكرة ملحة، ولا يكون التبرير إلا قراءة عميقة وتأويلا، واستنتاجا، وتفسيرا، وتمثيلا، وغيرها من مبررات إثبات وجاهة تحديد الأفكار الملحة.

- بعد تحديد الأفكار الملحة وتبرير وجاهة هذا التحديد على الناقد التيماتي رصد العلاقات والإحالات بين الأفكار الملحة، بغية إعادة ترتيب الأفكار الملحة ورصد الفكرة الأكثر هيمنة على الأفكار الملحة الأخرى.

وبذلك يكون هناك نظام ما لإنتاج كل فكرة ملحة، وهذه الأنظمة مجتمعة تنتج النظام العام والفكرة الملحة العامة، والناقد التيماتي يكمن دوره في رصد هذه الأنظمة بمختلف إحالاتها وعلاماتها، وقصدياتها وعلاقاتها، ومؤشراتها السردية وصورها وحضورها وغيابها وبنياتها العميقة والسطحية، وفجواتها، وكل ما يمكن أن يحيل إلى النظام، ويبرر حضوره باعتباره نظاما كاملا، قد لا يكون كاملا على مستوى البنية السطحية، لكن من واجب الناقد أن يتولّج عمق النص، ومن واجبه أن يكمّل النظام، ويحيل إلى أهم مكوناته، والناقد ليس حرا كل الحرية في تكميل النظام، والإحالة إلى صورته العامة، ولكنه مقيّد بحدود معطيات النص دائما، وحتى إن كان هناك تأويل فهو الآخر مقيّد بحدود المعطيات النصية، ومقيّد بوجاهة التبرير، ومنطقية الاستنتاج، وبراعة التفسير.

- إن نظام إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي يختصره مصطلح "التيمة" فإذا قلنا مثلا: "تيمة الحرية" فالمقصود بها: "نظام إنتاج الحرية فكرة ملحة على مستوى الوعي".

- بما أن نظام إنتاج الفكرة الملحة العامة على مستوى الوعي يتكون من أنظمة إنتاج فرعية، فذلك يعني أن التيمة تتكون من تيمات فرعية، وربما هذه التيمات الفرعية تتكون بدورها من تيمات فرعية أخرى، وهكذا حسب خصوصية كل نص وخصوصية أنظمته الإنتاجية.

إذن النقد التيماتي يهتم برصد التيمات بعلاقاتها المتشعبة، ويهتم بتصنيفها للوصول إلى التيمة الأساسية.

– النقد التيماتي تبنّى الرؤية الفينومينولوجية كما أسلفت الذكر، حيث يرصد ما يحتويه الوعي من أفكار ملحة، انطلاقا من العلاقة بين الذات (الوعي) والموضوع، وقد قلت إن الموضوع المحايث لا تهتم به الدراسة، بل تهتم بالموضوع وقد تحول إلى ظاهرة لمّا تواصل الوعي مع الموضوع وأحال إليه؛ بمعنى أن موضوع الدراسة التيماتية هو الظاهرة ويبقى الإشكال كامنا في الفرق بين الظاهرة والفكرة الملحة، فأجيب بأن الفكرة الملحة هي التجلي الواضح للظاهرة؛ بمعنى أن الفكرة الملحة تترجم الظاهرة الموجودة على مستوى الوعي، والفكرة الملحة بدورها تترجمها اللغة، وهذه اللغة بما أنها ليست دلالة ثابتة وكاملة ونهائية، فإن الناقد التيماتي يضطر لتكميلها وإعادة إنتاجها بنوع من القراءة المنطقية المبررة وبذلك يكون إنتاج الأفكار الملحة (التي تعتبر تجليا للظاهرة) نظاما تشترك في إنتاجه ثلاثة عناصر أساسية فاعلة هي: "الوعي المبدع" و"اللغة" و"وعي المتلقي".

مما سبق يكون النقد التيماتي متميزا في اهتماماته وخطواته الإجرائية عن المناهج النقدية الأخرى، لكنه يبقى منهجا نقديا عسير التطبيق.

على مستوى الدراسة التطبيقية حاولت الالتزام بالخطوات السابقة، فكانت الدراسة تهتم بالعلاقة الإحالية والقصدية بين الذات (الوعي) والظاهرة؛ أي بين الطفل كذات واعية والطفولة كظاهرة، وقد اهتممت بمحتويات وعي الطفل، لأنه يحيل إلى الوعي المبدع، ويحيل إلى كيفيات استبطان الوعي المبدع للطفولة، وكيفيات التواصل معها والإحالة إليها، وقد كان رصد محتويات وعي الطفل كافيا للإحالة إلى كل ما يحيط بالطفولة، وكافيا للإحالة إلى العلاقات إزاء الطفولة، وإلى مواقعها، ففي سياق ذلك سعيت كي أميط اللثام عن وعي الغير بالطفولة، وعن كل ما يمتّ للطفولة بصلة، ويرتبط بها من قريب أو بعيد، وقد أسعفتني الخطوات والاهتمامات والمعايير السابقة لتحقيق النتائج التالية:

– رصد تيمة الطفولة التي تبيّن أنها تيمة مركزية على مستوى النصوص الروائية المدروسة، وعلى مستوى وعي الطفل الذي يحيل إلى وعي المبدع بالطفولة، ويحيل إلى

مركزية الطفولة على مستوى هذا الوعي المبدع؛ بمعنى: رصد أهم تيمات الطفولة على مستوى الوعي المبدع من خلال رصد أهم تيمات الطفولة على مستوى وعي الطفل.

– رصد أهم تيمات الطفولة على مستوى الوعي المبدع، من خلال رصد أهم تيمات الطفولة على مستوى وعي الطفل؛ بمعنى: رصد أهم أنظمة إنتاج الطفولة فكرة ملحة على مستوى الوعي المبدع، من خلال رصد أهم أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى وعي الطفل.

– رصد الجماليات التي أنتجها التواصل بين التيمات (أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي) عن طريق البويطيقا، باعتبارها هي الأخرى نظاما لإنتاج الإمكانيات الجمالية، ولعل أهم وسيلة إجرائية لخوض غمار رصد البويطيقا كنظام لإنتاج الإمكانيات الجمالية هي التأويل.

أما أهم الاستنتاجات والملاحظات المرتبطة بالطفل في الروايات المدروسة فيمكن إيجازها فيما يلي:

– الوعي بالطفولة السلبية ارتبط بالدرجة الأولى بفقدان أحد الوالدين أو كليهما، حيث فقد الطفل العبد كلا والديه، والطفل اللقيط أيضا، وقد فقد الطفل المجاهد الأب، أما الطفل الخجول فقد كانت علاقته بوالده مشوهة، وفي النهاية فقد هو الآخر والده.

– الوعي بالطفولة الإيجابية ارتبط بالدرجة الأولى بحضور الوالدين، فكان الطفل المسؤول ينعم بحضور الوالدين، والطفل الخجول خجلا إيجابيا أيضا، أما الطفل الجميل فرغم برودة علاقته مع والده إلا أنها علاقة لم تكن سلبية مؤثرة، وقد كان هذا الطفل أيضا ينعم بحضور والديه.

– حضور جسد الطفل على مستوى الوعي كان ضعيفا جدا، وهذا ما يحيلنا إلى أن الوعي المبدع قد أهمل الملامح الجسدية للطفل، يصل هذا الإهمال أحيانا إلى حد الإقصاء التام، مما يجعلنا نستنتج أن الوعي المبدع استهدف استحضار محتويات أفكار الطفولة وأغفل استحضار ملامحها الجسدية.

– أسر كل الأطفال المدروسين أسر صغيرة، فالطفل العبد والطفل اللقيط والطفل المجاهد والطفل المسؤول والطفل الجميل، كان كل منهم الطفل الوحيد في الأسرة، في حين أن الطفل الخجول خجلا سلبيا كان له أخ وأخت، أما طفل رواية "حنة" فكان له أخت فقط ورغم أن الطفل في رواية "رجال وكلاب" وفي رواية "حنة" له إخوة أو أخوات إلا أن الوعي المبدع لم يبد اهتماما إلا بالطفل المدروس، واكتفى بالإشارة إلى أن لطفل رواية "رجال وكلاب" أخ وأخت، ولطفل رواية "حنة" أخت.

– كل طفل من الأطفال المدروسين هو الشخصية المركزية في الرواية.

– الوعي بالطفولة ليس معطى جاهزا، وهو نتاج معطيات كثيرة تتحكّم فيها الثقافة بمختلف تنوعاتها، أكثر مما تتحكّم فيها الاستعدادات الفطرية.

– الوعي بالطفولة عند الطفل ليس ثابتا، وإنما هو متحول دائما، ولعل أهم مؤشرات التحول على مستوى النص تكمن في الأحكام المعيارية.

– الرؤية الغيرية للطفولة عنصر فاعل ومحوري في تكوين الرؤية الإيجابية أو السلبية إزاء الطفولة على مستوى وعي الطفل.

– الطفولة السلبية تعني تشوّه العلاقة بين الذات (الوعي) والطفولة، أما الطفولة الإيجابية فتعني العلاقة الجيدة بين الوعي والطفولة.

– أهم نتيجة للوعي بالطفولة باعتبارها طفولة سلبية هي رفض الطفولة وعدم التجاوب معها ومحاولة تجاوزها، أما أهم نتيجة للوعي بالطفولة باعتبارها طفولة إيجابية فهي التجاوب مع الطفولة، وإبداء نوع من الارتياح والرضا إزاءها.

– أهم الأفكار الملحة على مستوى وعي الأطفال المدروسين هي: "العبودية" – "اللقاطة" – "الخجل" – "الجهاد" – "الجمال" – "المسؤولية".

لعل هذه هي أهم النتائج العامة التي تتضاف إلى ما رصدته من نتائج مرتبطة بكل طفل في الدراسة التطبيقية.

ولا يسعدني في نهاية هذه الخاتمة إلا أن أتوجّه بأخلص عبارات العرفان والامتنان لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور "رشيد قريبع" الذي كان لي خير معين، وأفضل ناصح ومرشد.

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

أولا: قائمة المصادر

1- أحمد ولد عبد القادر. **الأسماء المتغيرة.** الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الباحث، 1981(م).

2- الباردي، محمد. **حنة.** الطبعة الأولى. قابس، تونس: مركز الرواية العربية للنشر والتوزيع، 2010 (م).

3- بقطاش، مرزاق. **البزاة.** الطبعة الأولى. رغاية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983 (م).

4- بن عثمان، حسن. **أطفال بورقيبة.** د ط. بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2011 (م).

5- لغتيري، مصطفى. **حب وبرتقال.** الطبعة الأولى. دمشق، سورية: دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، 2014(م).

6- لغتيري، مصطفى. **رجال وكلاب.** د ط. الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق 2007 (م).

7- مفلاح، محمد. **روايات محمد مفلاح الأعمال غير الكاملة.** دط. الجزائر: دار الحكمة، 2007 (م).

ثانيا : قائمة المراجع

8- أبو العلا، محمد. **علم النفس.** د ط. القاهرة، مصر: مكتبة عين شمس، 1989 (م).

9- أحمد النبال، مايسة. **الخجل وبعض أبعاد الشخصية.** د ط. الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1999 (م).

10- الإمام، غادة. **جاستون باشلار. جماليات الصورة.** الطبعة الأولى. بيروت لبنان: التنوير للطباعة والنشر، 2010 (م).

11- إيجلتون، تيري. **مقدمة في نظرية الأدب**. ترجمة: أحمد إحسان. د ط. القاهرة، مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1991 (م).

12- إيكو، أمبرتو. **التأويل بين السيميائيات والتفكيكية**. ترجمة: سعيد بن كراد. الطبعة الثانية. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2004 (م).

13- إيكو، أمبرتو. **القارئ النموذجي. في طرائق تحليل السرد الأدبي**. ترجمة: أحمد بو حسن. الطبعة الأولى. الرباط، المغرب: منشورات اتحاد كتاب المغرب 1992 (م).

14- إيكو، أومبيرتو. **حاشية على اسم الوردة**. ترجمة: سعيد بن كراد. د ط. القبة الجزائر: دار كرم الله للنشر والتوزيع. د ت.

15- بارت، رولان. **لذة النص**. ترجمة: منذر عياشي. الطبعة الأولى. حلب سورية: مركز الإنماء الحضاري، 1992 (م).

16- باشلار، غاستون. **جماليات المكان**. ترجمة: غالب هلسا. الطبعة الثانية. بيروت، لبنلن: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1984 (م).

17- باشلار، غاستون. **حدس اللحظة**. ترجمة: رضا عزوز. عبد العزيز زمزم. د ط. بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، د ت.

18- باشلار، غاستون. **شاعرية أحلام اليقظة**. ترجمة: جورج سعد. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991 (م).

19- بحراوي، حسن. **بنية الشكل الروائي. الفضاء – الزمن – الشخصية**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1990 (م).

20- بلخوجه، الطاهر. **الحبيب بورقيبة. سيرة زعيم**. الطبعة الأولى. القاهرة مصر: الدار الثقافية للنشر، 1999(م).

21- بن كراد، سعيد. **السرد الروائي وتجربة المعنى**. الطبعة الأولى. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2008 (م).

22- تودوروف، تزفيطان. **مفاهيم سردية**. ترجمة: عبد الرحمن مزيان. الطبعة الأولى. منشورات الاختلاف، 2005(م).

23- الجزار، محمد. **العنوان وسميوطيقا الاتصال البدئي**. د ط. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998 (م).

24- حافظ بطرس، **حافظ. تعديل وبناء سلوك الأطفال**. الطبعة الأولى. عمان الأردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2010 (م).

25- حامد أبو زيد، نصر. **إشكاليات القراءة وآليات التأويل**. الطبعة السابعة. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2005 (م).

26- حبيلة، الشريف. **الرواية والعنف. دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة**. الطبعة الأولى. عالم الكتب الحديث، 2010 (م).

27- حسب حسين، مسلم، **جماليات النص الأدبي**. دراسات في البنية والدلالة.الطبعة الأولى. لندن: دار السياب، 2007 (م).

28- حسن، عبد الكريم. **المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق**. الطبعة الثالثة. بيروت، لبنان: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2006 (م).

29- راغب، نبيل. **موسوعة النظريات الأدبية**. الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: دار نوبار للطباعة، 2003(م).

30- رافع محمد، سامح. **المذاهب الفلسفية المعاصرة**. الطبعة الأولى. مصر: مكتبة مدبولي، 1973 (م).

31- الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. **دليل الناقد الأدبي**. الطبعة الثالثة. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2002 (م).

32- زهران، حامد عبد السلام. **علم النفس الطفولة والمراهقة**. الطبعة الخامسة. القاهرة، مصر: عالم الكتب، 1995 (م).

33- سارتر، جان بول. **الوجود والعدم. بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية**. ترجمة: عبد الرحمن بدوي. د ط. بيروت، لبنان: منشورات دار الآداب، د ت.

34- سليمان، نبيلة. **فتنة السرد والنقد**. الطبعة الأولى. اللاذقية، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1994 (م).

35- شاكر مجيد، سوسن. **علم نفس النمو للطفل**. الطبعة الأولى. عمان الأردن: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2009 (م).

36- عباس، إحسان. **فن السيرة**. الطبعة الأولى. عمان، الأردن: دار الشروق 1996 (م).

37- عبد الفتاح شاكر، تهاني. **السيرة الذاتية في الأدب العربي**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002 (م).

38- عبيد، مهدي. **أطفالنا والحياة المعاصرة**. بيروت، لبنان: دار القلم.

39- علوش، سعيد. **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني، 1985 (م).

40- الغذامي، عبد الله محمد. **الخطيئة والتكفير. من البنيوية إلى التشريحية**. الطبعة الأولى. جدة، المملكة العربية السعودية: النادي الأدبي الثقافي، 1985 (م).

41- فرويد، سيغموند. **أفكار لأزمنة الحرب والموت**. ترجمة: سمير كرم. الطبعة الثانية. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة، 1981 (م).

42- فضل، صلاح. **لذة التجريب الروائي**. الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، د ت.

43- قنطار، فايز. **الأمومة**. نمو العلاقة بين الطفل والأم. د ط. الكويت: عالم المعرفة، 192 (م).

44- كامل، فؤاد. **أعلام الفكر الفلسفي المعاصر**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الجيل، 1993 (م).

45- كرم، يوسف. **تاريخ الفلسفة الحديثة**. الطبعة الخامسة. القاهرة، مصر: دار المعارف، د ت.

46- كلاتسكي، روبرتا. **ذاكرة الإنسان. بنى وعمليات على ضوء منهجية علم النفس المعرفي**. د ط. دمشق، سورية: منشورات وزارة الثقافة، 1995 (م).

47- لابين، ولاس. **مفهوم الذات. أسسه النظرية والتطبيقية**. ترجمة: فوزي بهلول. د ط. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية، 1981 (م).

48- لحميداني، حميد. **القراءة وتوليد الدلالة. تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي**. الطبعة الأولى. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2003 (م).

49- لحميداني، حميد. **سحر الموضوع**. د ط. الدار البيضاء، المغرب: منشورات دراسات سال، 1990 (م).

50- لنقر، حورية. **الطفل في حنة لمحمد الباردي**. الطبعة الأولى.تونس: ضحى للنشر والتوزيع، 2013 (م).

51- لوكام، سليمة. **متون وهوامش**. د ط. تونس: دار سحر للنشر، 2012 (م).

52- مجموعة من الكتاب. **مدخل إلى مناهج النقد الأدبي**. ترجمة: رضوان ظاظا. عالم المعرفة. العدد 221. مايو 1997 (م).

53- المحادين، عبد الحميد. **جدلية المكان والزمان في الرواية الخليجية**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة العامة للدراسات والنشر، 2001 (م).

54- محمد سالم، سعد الله. **ما وراء النص. دراسات في النقد المعرفي المعاصر**. الطبعة الأولى. عمان، الأردن: عالم الكتب الحديث، 2008 (م).

55- مرتاض، عبد الملك. **في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد**. د ط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998 (م).

56- مورون، شارل. **ملارميه**. ترجمة: حسين نمر.الطبعة الأولى. بيروت لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979 (م).

57- ميكشيللي،أليكس. **الهوية**. ترجمة: علي وطفة. الطبعة الأولى. دمشق سورية: دار الوسيم للخدمات الطباعية. 1993 (م).

58- ميلر، سوزان. **سيكولوجية اللعب**. ترجمة: حسن عيسى. د ط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، د ت.

59- ناصف، مصطفى. **الوراثة والإنسان. أساسيات الوراثة البشرية والطبية**. د ط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1986 (م).

60- ناظم، حسن. **مفاهيم الشعرية. دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1994 (م).

61- النصير، ياسين. **إشكالية المكان في النص الأدبي**. الطبعة الأولى. بغداد العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986 (م).

62- هوسرل، إدموند. **تأملات ديكارتية**. ترجمة: تيسير شيخ الأرض. د ط. بيروت، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر،1958 (م).

63- هوسرل، إدموند. **فكرة الفينومينولوجيا**. ترجمة: فتحي انقرو. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة، 2007 (م).

64- الهيتي، هادي نعمان. **ثقافة الأطفال**. د ط. الكويت: عالم المعرفة، 1988 (م).

65- واط، **أيان.الأدب والواقع**. ترجمة: عبد الجليل الأزدي. محمد معتصم. الطبعة الثانية. الجزائر: منشورات الاختلاف.

66- ولد محمد المصطفى. محمد الحسن. **الرواية العربية الموريتانية**. د ط. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. د ت.

67- يوسف، أحمد. **القراءة النسقية. سلطة البنية ووهم المحايثة**. الطبعة الأولى. الجزائر: الدار العربية للعلوم، 2007 (م).

المواقع الإلكترونية

1-حمداوي، جميل. **المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي**. موقع:
http://www.arabicnadwah.com/articles/muqaraba-hamadaoui.htm

2-علوش، سعيد. **النقد الموضوعاتي**. موقع: سعيد علوش: تاريخ الإنشاء: يناير 2008 (م).

http://www.saidallouch.net/oeu/c_the/c_the2.htm

الفهرس

الفهرس

	مقدمة	أ-ج
	مدخل	07
أولا	تقديم المنهج	07
ثانيا	تقديم المدونة	19

الفصل الأول:

تيمة الطفولة السلبية

	ضبط المفاهيم	43
أ	تيمة الطفل العبد	44
1-	فينومينولوجيا الاسم الأول	49
2-	فينومينولوجيا التغيير الاسمي	52
3-	فينومينولوجيا الدلالات الاسمية	57
ب	تيمة الطفل اللقيط	66
1-	علاقات البداية	67
2-	علاقات النهاية	76
ت	تيمة الطفل الخجول	83
1-	تيمة هاجس الجد	85
2-	تيمة الهاجس الاسمي	87
3-	تيمة هاجس الذنب	89
4-	تيمة هاجس الأمومة	92
5-	تيمة هاجس الأبوة	99
6-	تيمة هاجس الأنثى	101

ث تيمة الطفل المجاهد 106

1- المرحلة الأولى 107

2- المرحلة الثانية 112

3- المرحلة الثالثة 117

خاتمة الفصل الأول 124

الفصـــــــل الثانـــــــي: تيمة الطفولة الإيجابية

ضبط المفاهيم 126

أ تيمة الطفل الجميل 127

1- تيمة الأم 128

2- تيمة الجميل 131

3- تيمة الراشد 138

4- تيمة الجسد 143

5- تيمة الثقة 146

6- تيمة الانفصال 147

ب تيمة الطفل المسؤول 151

1- أهم التيمات في مرحلة ما قبل التحول 153

1-1- تيمة اللعب 153

2- أهم التيمات في مرحلة التحول 157

2-1- تيمة مسؤولية الأسرة 159

2-2- تيمة مسؤولية المجاهدين 172

2-3- تيمة مسؤولية الدراسة 184

ت تيمة الطفل الخجول 189

1- مرحلة خمود الوعي 190

2- مرحلة نشاط تحولات الوعي بالطفولة 198

خاتمة الفصل الثاني 209

الفصل الثالث: بويطيقا التيمة وغواية التأويل

ضبط المفاهيم 211

أولا الصور الملحة 212

أ الصورة السيرية 212

1- الموت 212

2- البادية 213

3- الحارة 214

4- المرأة 215

5- التيمة الإثنوغرافية 215

6- الدراسة 216

7- الأسرة 217

ب الصورة التاريخية 218

ت صورة الأمومة 221

1- الأم العاملة 221

2- الأم المعلمة 222

3- الأم المسؤولة 223

4- الأم المحبة 223

5- الأم المبدعة 224
6- الأم الطفلة 224
ث الصورة السوداوية 226
ج صورة اللقاطة 228
ح صورة العبودية 232
1- صورة الماء 232
2- صورة الصحراء 234
3- صورة الأنثى 236
ثانيا الإحالة العنوانية 237
أ حنة: 237
1- مستوى التوقع 237
2- المؤشر السردي الأول 239
3- المؤشر السردي الثاني 241
4- المؤشر السردي الثالث 243
ب حب وبرتقال 244
ت أطفال بورقيبة 248
ث هموم الزمن الفلاقي 250
ج رجال وكلاب 253
1- تيمة الرجل 254
2- تيمة الكلب 255
ثالثا المكان: 257
أ المكان الطفل 257
1- المكان الباذخ 258
2- الإيهام بالواقعية المكانية 260

3-	الإمكانيات المكانية	261
ب	المكان الوطن	265
ت	المكان بين الحضور والغياب	268
1-	المعمل	268
2-	البيت	269
ث	المكان السلبي والمكان الإيجابي	272
ج	المكان بين الواقعية والخيال	275
ح	المكان المتغير والأنساق الرحلية	278
رابعا	الفوضى	282
أ	المعادلة السردية	282
ب	صدمة التلقي وإعادة التأهيل	285
ت	أزمة المعايشة	288
ث	فتنة العوالم الافتراضية	293
1-	مستوى الواقع السردي	294
2-	مستوى الخيال	295
	خاتمة الفصل الثالث	298
	الخاتمة	300
	قائمة المصادر والمراجع	307
	فهرس	314

ملخص

ملخص

تستقطب مرحلة الطفولة اهتمام كثير من الحقول المعرفية، باعتبارها مرحلة بشرية متميزة، تترك بصمتها على كل المراحل العمرية، ولعلها المرحلة الأكثر تأثيرا في تكوين الهوية، ولذلك يبقى موضوع الطفولة زاخرا بكثير من المعطيات، لاسيما حين تهتم به الذاكرة الإبداعية، ويستحضره كثير من الروائيين تيمة مركزية على مستوى نصوصهم السردية، بكل ما تتضمنه هذه التيمة المركزية من إمكانيات دلالية وأسلوبية وجمالية، تجعل من تيمة الطفولة على مستوى الرواية موضوعا أكثر إغراء للمقاربة النقدية، خاصة إذا كانت هذه المقاربة النقدية مقاربة تيماتية، تستمد خلفياتها من الفلسفة الفينومينولوجية، وتهتم برصد الطفولة، لا كموضوع خارج الوعي، وإنما كظاهرة قصدها الوعي واستبطنها.

في هذا البحث سعيت جاهدا لدراسة الطفل في الرواية المغاربية دراسة تيماتية، بغية اكتناه محتويات الرؤية التي يتبناها الوعي المبدع إزاء الطفولة، وبغية رصد جل الدلالات التيماتية التي تتضمنها تيمة الطفل، وتحيل إليها، سواء ارتبطت هذه الدلالات بمحتويات وعي الطفل، أو بتلك الأفكار الملحة التي تحيل إلى هذا الوعي، أو بتلك الإمكانيات الجمالية والأدبية التي تنتجها التيمة، باعتبارها نظاما يتواصل مع عدة أنظمة سردية أخرى ويتداخل معها.

اعتمدت في بحثي هذا سبع روايات مغاربية، يحضر فيها الطفل حضورا كثيفا يؤهل للدراسة النقدية التيماتية، التي تهتم برصد أنظمة إنتاج الظواهر والأفكار الملحة على مستوى الوعي، منطلقا من تحديد أهم التيمات المرتبطة بالطفولة، وقد بدأت بحثي بمدخل خصّصته لتقديم الخلفية الفلسفية للنقد التيماتي، وتقديم مفهوم للنقد التيماتي، ثم قدّمت المدونة الروائية؛ أما المفهوم الفلسفي فقدّمت من خلاله أهم الجوانب الفلسفية الفينومينولوجية الأكثر حضورا في النقد التيماتي والأكثر تأثيرا فيه، حيث سلطت الضوء على أهم المبادئ

الفلسفية التي جاء بها "إدموند هوسرل" في إطار فلسفته الفينومينولوجية، لاسيما تلك المبادىء التي تحدّد العلاقة بين الوعي والموضوع، وتحدّد الماهية كموضوع للدراسة، على اعتبار أن الفلسفة الفينومينولوجية لا تهتم بالمواضيع خارج الوعي، وإنما تهتم بالمواضيع داخل الوعي وقد تحولت إلى ظواهر، عن طريق علاقات إحالية وقصدية، ولعل "القصدية" و"التعليق الفينومينولوجي" و"الحدس الفينومينولوجي" و"الماهية" و"مركزية الوعي" من أهم المبادئ الفلسفية التي كان من الضروري أن أشير إليها، وأشرح أهم المفاهيم المرتبطة بها. أما في المفهوم النقدي، فقد رصدت المفاهيم النقدية التي من شأنها تحديد أهم أسس النقد التيماتي، باعتباره نقدا يتمحور حول مفهوم التيمة التي تعتبر نظاما لأنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، وقد بينت الاهتمامات المحورية للنقد التيماتي، من حيث هو نقد يهتم برصد أنظمة إنتاج الأفكار الملحة على مستوى الوعي، ويبين أهم التيمات المهيمنة على مستوى الإبداع، وهو نقد نصاني يحتفي باللغة النصية، ويرصد دلالات البنية العميقة، ويتيح للناقد فرصة ممارسة التأويل، وإعادة إنتاج النص، واكتشاف القوانين التيماتية، الدلالية منها والجمالية، عن طريق رصد التيمات الأساسية والتيمات الفرعية، بكل ما تتضمنه هذه التيمات من علاقات قصدية وتوالدات إحالية وأفكار ملحة.

ثم قدّمت المدونة الروائية، عن طريق تلخيص لأهم تجليات الطفل على مستوى كل رواية، وتحديد للأطفال المستهدفين بالدراسة.

في الفصل الأول الموسوم بـ " تيمة الطفولة السلبية" توخيت رصد كيفيات إنتاج الطفولة كظاهرة داخل الوعي، في تجلياتها على شكل أفكار ملحة تحيل إلى الرؤية السلبية للطفولة، وتيمة الطفولة السلبية تتكون من التيمات التالية: "تيمة الطفل العبد" – "تيمة الطفل الخجول" – "تيمة الطفل المجاهد" – "تيمة الطفل اللقيط"، وكل تيمة من هذه التيمات تتفرع بدورها إلى تيمات أخرى، فكانت تيمة الطفل العبد تحيل إلى كل أسيقة الاستعباد التي أحاطت بالطفل، وجعلته يفقد هويته الأصلية، ويضيع في تقلبات الأسماء المتغيرة التي

طرأت عليه. في حين أن تيمة الطفل الخجول تمكّنت خلالها من رصد كيفيات تبنّي الطفل لصفة الخجل كصفة سلبية، جعلته يتوارى عن الواقع، وينزوي قابعا في عالم الأخيلة والأحلام، أما تيمة الطفل المجاهد فكانت نظاما أنتج كثيرا من الأفكار الملحة على مستوى وعي الطفل، حيث تتمحور تلك الأفكار حول ضرورة هجر الطفولة بكل أسيقتها التعيسة التي جعلت الطفل يعتقد بسلبية طفولته، ويسعى جاهدا ليكون رجلا مجاهدا، رغم التناقض الصارخ بين فكرة الجهاد وفكرة الطفولة، في حين أن تيمة الطفل اللقيط ارتبطت بإعادة تأهيل ومحاكمة الطفولة، بغية التملص من أزمة هوية خانقة، نجمت عن تاريخ كامل من التشرد في النسب والانتماء.

ثم توخيت في الفصل الثاني الموسوم بـ " تيمة الطفولة الإيجابية" رصد نظام إنتاج الطفولة فكرة ملحة إيجابية على مستوى الوعي، عن طريق تحديد أهم التيمات الفرعية التي تكوّن مجتمعة تيمة الطفولة الإيجابية، وهذه التيمات الفرعية هي: "تيمة الطفل الجميل" – "تيمة الطفل المسؤول" – "تيمة الطفل الخجول"، وقد رصدت تيمة الطفل الجميل كنظام أنتج كثيرا من الأفكار الملحة على مستوى وعي الطفل، خاصة تلك الأفكار التي تحيل إلى الرؤية الجمالية التي تبناها الطفل إزاء طفولته، من خلال الرؤية الجمالية التي تبناها إزاء أمه حيث كانت الأم محور الوعي بالطفولة، باعتبارها طفولة تحتفي بوجودها الجمالي في النهاية، رغم صيرورة من الكبوات والتحولات، أما تيمة الطفل المسؤول فارتبطت أساسا بثلاث تيمات فرعية هي: "تيمة مسؤولية الأسرة" و"تيمة مسؤولية المجاهدين" و"تيمة مسؤولية الدراسة"، وكل تيمة من هذه التيمات تتفرع إلى تيمات عديدة، وكل التيمات أنظمة إنتاجية أنتجت في النهاية الفكرة الأكثر إلحاحا على مستوى الوعي وهي فكرة المسؤولية، وقد دعّمت دراستي ببيان تيماتي يترجم التفرعات التيماتية، ويبين أهم العلاقات التيماتية، ثم قدمت تفسيرات نهائية حول تحولات الوعي بالطفولة. أما تيمة الطفل الخجول فحاولت من خلالها تحديد مرحلتين أساسيتين من مراحل تحول الوعي بالطفولة؛ أما المرحلة الأولى فارتبطت

بمرحلة خمود الوعي، في حين أن المرحلة الثانية ارتبطت بتحول الوعي بالطفولة من مستوى التماهي إلى مستوى إبداء الأحكام المعيارية، وكيف كانت الرؤية الغيرية محور إنتاج الطفولة الخجولة، رغم أن الخجل الذي ارتبط بالطفل في رواية "حنة" كان في النهاية خجلا إيجابيا، مكّن الطفل من حماية طفولته المتعالية، ومكّنه من تجاوز مراحل الإحباط والوحدة السلبية.

أما في الفصل الثالث الموسوم بـ "بويطيقا التيمة وغواية التأويل"، فقد توخيت رصد الإمكانيات الجمالية التي تنتجها التيمة، باعتبارها نظاما معقدا يتيح على مستوى التلقي كثيرا من إمكانيات التأويل والتنقيب والقراءة، وقد استهدفت في هذا الفصل تحديد "الأدبية"، التي تنتج عن العلاقة بين التيمة الأساسية "تيمة الطفولة" والتيمات التالية: "تيمة الصور الملحة" – "تيمة المكان" – " تيمة العنونة" – " تيمة الفوضى".

وفي خاتمة البحث أوجزت أهم النتائج، سواء تلك النتائج التي ارتبطت بالنقد التيماتي، أو تلك النتائج التي ارتبطت بالطفل في الروايات المدروسة.

Abstract

childhood attracts interest in many fields of knowledge, as a special human stage, leaving its prints on all ages, and perhaps the most influential in the identity formation stage, therefore, it still remains full of the data, especially when creative memory care about it, and it's mentioned in many novelists as a central theme of their narrative texts, with all of the Provisions of this central theme of semantic, stylistic and aesthetic possibilities which make the childhood's Them of the novel more enticing monetary approach to the subject, especially if these critic approach is a thematic one, it derived backgrounds of phenomenological philosophy, concerned with the monitoring of childhood not as a subject out of awareness , but as a phenomenon intented and derived by awareness.

In this research, I tried hard to study child in the Maghreb novel as a Thematic study, in order to insight the contents of the vision adopted by the creative awareness of childhood. To get all the Thematic bulks that are contained in the child's Theme and shall transmit it, whether those are associated with the contents of the child's awareness or the ideas of the child's Awareness, or those aesthetic and literary possibilities produced to Themes, as a system communicates with several other narrative systems and interfere with that.

In my research I adopted this seven Maghreb novels, where the child attends a thick crowd, qualifies for critique Thematic study, that is concerned with a production of the phenomena and the thoughts on the awareness level , starting with the identifying of the most important Themes related to childhood. And I began my research with an entrance to the philosophical background and the definition of the critique Theme . Then I presented a novelist code, but for philosophical concept I presented the most significant phenomenological and philosophical aspects where I highlighted the most important philosophical principles that "Edmund Husserl" came out by in the framework of his Phenomenological Philosophy , especially those particularly principles that are defined the relationship between consciousness and the subject, it determines the essence as a subject of study, on the grounds that phenomenological philosophy is not interested with topics outside the consciousness, but it's interested in topics within the awareness which has turned into a phenomena through intentional relationships, and perhaps " The Intentionality", " Phenomenological Comment", "Phenomenological Intuition", "Essence" and "Central

Consciousness" are the most important philosophical principles on which it was necessary to refer to them, and explain the most important related concepts. In the critic concept, I monitored the critic concepts that will identify the most necessary foundations of the critic Theme as a criticism is focused on the theme's concept which is a system for the production of pressing thoughts of awareness side , and shows the most controlled Themes on the creation level, and it is a scriptive criticism that is concerned with the script 's language, and make signs of the deep structure. The critic can also have the opportunity to practice interpretation, reproduction text and the discovery of Theme's laws through the monitoring of key and Sub Themes that are related to the target relationships, proliferations and pertinacitive ideas.

Through the summary of the most important manifestations of the child in the novel, and the determination of children who are related to study, I presented the novelist code.

The first chapter is described as " The Negative Childhood Themes " in which I envisaged the monitoring of childhood production as a phenomenon within consciousness, which seems as an urgent thoughts leads to the negative vision of childhood . " The negative Childhood Themes " has a different Themes: "The Slave child's Theme" , "The Shy child's Theme", "The Foundling child's Theme" and "The combatant child's Theme" and each one has a another varied themes like "The Slave child's Theme" which means the slavery contexts of childhood stage where he lost his original identity and the changeable names. While the Shy child's Theme makes the boy adopting the ideas of being shame as a negative point, and makes him also hiding in the world of imaginations and dreams . But the Combatant child's Theme was a system producing many urgent thoughts for the child's awareness that are concerned the negatives childhood's concepts which make the child to believe in the negativity of his childhood, and he tried hard to be combatant man although the contradiction between the childhood and the combat ideas. On the other hand "The Foundling child's Theme" is related to the rehabilitation and judgment of the childhood stage to evade the severe crisis that is a result of vagrancy in descent and belonging aspects .

The second chapter is described " The Positive childhood Themes " in which I envisaged the monitoring of the production childhood system as an urgent positive idea of awareness, by the determination of the most sub Themes

which are a positive childhood Themes for the modes produce a phenomenon within consciousness,

By the main important sub-Themes that are combined the theme of positive childhood, and these sub-themes are: " Beautiful baby Theme " - " The responsible child Theme "-" The shy child Theme "; The Beautiful Baby Theme had been spotted as a system produced a lot of pressing thoughts on the level of the child's awareness, especially those ideas that are referred to the aesthetic vision espoused by the child in his childhood, through aesthetic vision was espoused by the mother, where she was the awareness pivot of childhood, as a childhood celebrates its aesthetic existence at the end, despite becoming of setbacks and transformations. Unlike The Responsible Child's Theme is mainly associated with three sub-themes which are: "The Family ' s Responsibility Theme " , " The Combatant 's Responsibility Theme " and "The Study 's Responsibility Theme " . Each one is branched into several Themes , all themes are productivity systems produced at the end of the most urgent idea on the awareness 's level . For the idea of Responsibility, my studies was supported by a statement 's Theme which translates the themetical forest , and it shows the most important themetical relations, then I provided a final explanations about awareness transformations at childhood. But for The Shy child 's Theme , I tried to determine the two main phases of the childhood ' s transformation consciousness , the first phase is associated with the phase of awareness depression, while the second phase is associated with the transformation of childhood awareness from the level of identification to the level of express normative judgments, and how the heterosexual vision was the axis of producing the shyness childhood, even though the shyness that was associated with the child in the novel "HINNA" was positive at the end, it enabled the child to protect his condescending childhood, and enabled him also to overcome the stages of frustration and negative unity.

The third chapter is marked by "Poetical Theme and the lure of Interpretation", in which I envisaged to monitor the aesthetic possibilities that produced by the Them as a complex system allows the receiving level a lot of interpretation, exploration and reading capabilities, and I have been targeted in this chapter the selection of "Literary" which produces the relationship between the key theme " Childhood theme " and the following themes: "The Urgent Images Theme " - "The Place's Theme " - " The Tagging Theme " –
" the chaos theme ".

In the conclusion of the research, I summarized the main significant results, whether those which had been associated with The Themetical Criticism, or those which had been associated with the child at the studied novels.

Résumé

Susciter l'intérêt de l'enfant dans de nombreux domaines de la connaissance, aussi distinctes que stade humain, laissant sa marque sur tous les âges, et peut-être le plus influent dans le stade de la formation de l'identité, par conséquent, il demeure le sujet de l'enfance plus complète des données, surtout quand vous vous souciez de la mémoire créative, lui apporta par nombreux romanciers thème centralisé au niveau de leur textes narratifs, avec toutes les dispositions de cette centrale à thèmes de possibilités sémantiques et stylistique et esthétique, en faire le thème de l'enfance au niveau de la nouvelle approche critique plus attrayante pour le sujet, surtout si ceux-ci approche thématique, les milieux issus de la philosophie phénoménologique, concernés par la surveillance de l'enfance, non comme un sujet dehors de la conscience, mais la conscience et l'intention phénomène fait partie.

Dans cette recherche, je me suis efforcé d'étudier enfant dans le roman Maghrébin nouvelle étude thématique, afin d'indications sur le contenu de la vision adoptée par la prise de conscience de la création de l'enfance, en vue de la majeure partie des connotations thématiques de surveillance contenues dans le thème de l'enfant, et le transmet, qu'ils soient associés à ces indications du contenu de la conscience de l'enfant, ou les idées d'urgence reportez-vous à cette prise de conscience, ou les possibilités esthétiques et littéraires produites à thème, comme un système communique avec plusieurs autres systèmes narratifs et interférer avec cela.

Adoptée dans mes recherches ce sept romans Maghrébins, où l'enfant a été suivie par une foule épaisse, se qualifie pour l'étude critique thématique, concernés par le suivi de la production des phénomènes et les pensées d'urgence sur le niveau de sensibilisation des systèmes, le point d'identifier les thèmes les plus importants liés à l'enfance de départ, et la recherche a commencé à l'entrée alloué à fournir le contexte philosophique de la critique thématique, et introduire le concept de la critique thématique, et a ensuite fait une caractéristique du blog romancier, le concept philosophique introduit dans laquelle les aspects philosophiques les plus importants phénoménologiques plus présente en critique thématique et la plus influente en elle, où a souligné principes les plus importants philosophiques qui sont sortis, "Edmund Husserl" dans le cadre de sa philosophie phénoménologique, ceux qui sont particulièrement principes qui définissent la relation entre la conscience et de la matière, et déterminent l'essence comme un sujet pour l'étude, au motif que la philosophie

phénoménologique ne se soucient pas des sujets en dehors de la conscience, Il a été transformé en phénomènes, à travers des relations renvoi et intentionnalité, et peut-être L'«intentionnalité» et «Le commentaire phénoménologique» et «L'intuition phénoménologique» et «L'essence» et «conscience centrale" des principes les plus importants philosophiques sur lesquels il était nécessaire de se référer à eux, et expliquer des concepts connexes les plus importants out. Dans le concept critique, a suivi les concepts de critiques qui permettront d'identifier les fondements les plus importants de la critique thématique, que la critique est centrée autour de la notion de thèmes, que le malheur système pour la production de appuyant pensées sur le niveau de sensibilisation, nous avons montré les pivots préoccupations de la critique thématique, en termes de critique est intéressé par le suivi de la production des pensées urgentes au niveau de la sensibilisation, et montre les thèmes les plus dominants au niveau de la créativité, une critique textuelle célèbre scripts de langue, et surveille les implications de la structure profonde, et permet la possibilité d'exercer l'exégèse critique, et re-production du texte, et découverte les lois thématiques, sémantique et esthétique, à travers le suivi des principaux thèmes et sous-thèmes, avec toutes les dispositions de la thèmes de relations et délibérées idées création d'état et urgente.

Alors faites une caractéristique du blog romancier, par un résumé des plus importantes manifestations de l'enfant au niveau de chaque roman, et identifier des cibles pour les enfants à étudier.

Dans le premier chapitre est marqué par "Thème d'enfance négative" modalités envisagées pour suivre la production de l'enfance comme un phénomène dans la conscience, manifestations dans la forme d'idées est une charge urgente sur le négatif Vision pour enfants, Le thème de l'enfance défavorable comprend les thèmes suivants: "le thème de l'enfant esclave" - "thème enfant timide" - "le thème de l'enfant en difficulté" - "thème enfant bâtard", Chaque thème de ces thèmes à leur tour subdivisés en d'autres thèmes, était le thème de l'enfant esclave transmettre à chacun contextes d'esclavage qui a pris l'enfant, l'origine, il lui a fait perdre son identité, et a perdu dans les aléas de l'évolution des noms qui ont eu lieu en elle. Alors que le thème de l'enfant timide au cours de laquelle en mesure de surveiller les modalités de l'adoption de la recette de l'enfant honte adjectif négatif, fait de lui cacher de la réalité, et relégué se trouve dans le monde de l'imagination et des rêves, thème de l'enfant luttait système produit beaucoup de pensées appuyant sur le niveau de

sensibilisation de l'enfant, ces pensées centrées sur la nécessité d'abandonner tout processus appelé l'enfance malheureuse, cela a fait l'enfant croit la négativité de son enfance, et cherche à être un homme de moudjahid, malgré la contradiction flagrante entre l'idée du jihad et de l'idée de l'enfance, alors que l'enfant bâtard nommage lié à la réhabilitation et à la poursuite de l'enfance, afin de se débarrasser d'une crise d'identité grave, déclenchée par toute l'histoire du déplacement en descente et d'appartenance.

Puis dans le deuxième trimestre est marqué par "le thème d'enfance positif", système de production de l'écran de l'enfance est une idée positive d'urgence sur le niveau de sensibilisation, en identifiant la jouissance sous la plus importante à être combiné thème enfance positif, en identifiant la jouissance sous la plus importante à être combiné thème enfance positif, en identifiant les sous-thèmes les plus importants qui sont combinés thème enfance positif, et ces sous-thèmes sont: «thème enfant bel " - "le thème officiel de l'enfant" - "thème enfant timide", le thème enfant bel a été repéré comme un système de production de beaucoup de pensées appuyant sur le niveau de sensibilisation de l'enfant, surtout ces idées qui se réfèrent à la vision esthétique adoptée par l'enfant de son enfance, à travers la vision esthétique adoptée par la mère, lorsque la mère a fait l'objet de prise de conscience de l'enfance, comme une enfance célèbre existence esthétique à la fin, en dépit de devenir des revers et des transformations, et le thème de l'enfant responsable a été associé principalement dans trois sous-thèmes sont: «le thème de la responsabilité de la famille» et «le thème de la responsabilité des moudjahidin" et "thème de la responsabilité de l'étude", chaque orphelin de ces thèmes ramifié en plusieurs thèmes, tous les systèmes thèmes de la productivité produites à la fin de l'idée la plus urgente sur le niveau de sensibilisation, la notion de responsabilité, ont soutenu ma déclaration thématique traduit les forestières thèmes, montre les plus importantes relations thématiques, puis a fourni des explications à distance sur les transformations de sensibilisation de l'enfance. Le thème de l'enfant timide essayé à partir de laquelle pour déterminer les deux principales phases des étapes de la transformation de la conscience de l'enfance, la première phase associé à la phase de prise de conscience de la dépression, tandis que la seconde phase associée à la transformation de la conscience de l'enfance au niveau de l'identification au niveau des jugements normatifs express, et comment la vision axe hétérosexuelle enfance production timides, bien que la honte qui a été associée à l'enfant dans le roman "Hanna" a été positive à la fin dans la honte, il

a permis la protection de l'enfant de son enfance condescendante, et lui a permis de surmonter les étapes de la frustration et de l'unité négative.

Dans le troisième chapitre est marquée par "la poétique du thème et l'attrait de l'interprétation", il a été envisagé de surveiller les possibilités esthétiques produites à des thèmes qui, comme un système complexe permet le niveau de beaucoup d'interprétation, d'exploration et les capacités de lecture de réception, a été ciblé dans ce chapitre sélectionnez le «littéraire», qui produit la relation Une clé pour thèmes "thème de l'enfance» et les thèmes suivants: "les images thématiques urgentes" - "le thème de la place" - "marquage thème" - "le thème du chaos".

En conclusion de ma recherche j’ai résumé les résultats les plus importants, si ces résultats qui ont été associés aux critique thématique, ou que les résultats qui ont été associés à l’enfant dans romans étudiés.